

٢٠١١/٦ ٥٣٨ ١٧٩

٢٠  
١٥

٣٢٢  
٩  
٥  
٦

# فن الرثاء في الشعر

## في العصرين الفاطمي والأيوبي

إعداد

خلود يحيى أحمد جرادة

تعتمد كلية الدراسات العليا  
هذه النسخة من الرسالة

التوقيع: ١٤/٥/٢٠١١ التاريخ: ١٤/٥/٢٠١١

المشرف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

٢٠٠١م

## فهرس المحتويات


<u>رقم الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	الشكر
هـ	فهرس الموضوعات
ز	ملخص باللغة العربية
ط	المقدمة
١	الفصل الأول: رثاء الأقارب
٢	رثاء الأمهات
١٦	رثاء الآباء
٣١	رثاء الأبناء
٤٢	رثاء الأخوة
٥٢	رثاء الزوجات
٦١	الفصل الثاني
٦٢	رثاء آل البيت
٨٢	رثاء القادة والخلفاء في العصر الفاطمي
٩٨	رثاء القادة والسلاطين في العصر الأيوبي
١٢٨	الفصل الثالث: رثاء القضاة والمؤرخين والأدباء
١٤٩	الفصل الرابع: رثاء الدول والمدن
١٥٠	رثاء الدولة الفاطمية
١٥٦	رثاء المدن

<u>رقم الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
١٧٦	الفصل الخامس: أغراض أخرى من الرثاء
١٧٧	رثاء الأصدقاء
١٨٦	رثاء الجوّاري
١٩٢	رثاء المماليك والغلمان
٢٠٠	رثاء أصحاب المهن
٢٠٧	رثاء الحيوان
٢٠٩	الفصل السادس: ظواهر فنية في شعر الرثاء
٢١٠	بناء القصيدة
٢٣٦	الصورة الشعرية
٢٥٧	سمات أسلوبية
٢٨٩	الخاتمة
٢٩٤	قائمة المصادر والمراجع
٣٠٥	ملحق التراجم
٣٢٢	ملخص باللغة الإنجليزية


٥٣٨٨٦٨

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٦ / ٢ / ٢٠٠١م

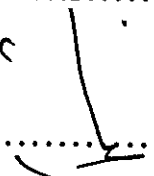
التوقيع

.....  



رئيسا

.....  


عضوا

.....  


عضوا

.....  


عضوا

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي

أستاذ الأدب العربي

الأستاذ الدكتور هاشم ياغي

أستاذ الأدب العربي

الأستاذ الدكتور يوسف بكار

أستاذ الأدب العربي

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

أستاذ الأدب العربي

## الإهداء،،،

إلى أبي الحبيب وهو يخفض لي جناح الرحمة ويظللني به،  
فأعلو بجناح رحمته إلى سماء المحبة فيزهر قلبي زهرا  
وفلا.

إلى روح أمي الحبيبة، في مثواها، وهي تهز إلي بجذع  
الحنين، فيساقط علي حبا جنيا، إليها وأنا أتغيا رضاها،  
فيخضر دربي حبا ورضا.

## شكر وتقدير

أقدم خالص الشكر والتقدير إلى الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، الذي أولى هذا البحث رعايته منذ أن كان فكرة إلى أن استوى بحثاً، فلم يضمن علي بوقته وعلمه وخبرته، فكان مثال المعلم الصبور والأب الحاني.

وإلى أساتذتي الكرام: الأستاذ الدكتور هاشم ياغي والأستاذ الدكتور يوسف بكار والأستاذ الدكتور صلاح جبرار الذين كرموني بقراءة هذا البحث ومناقشته وإغنائه بآرائهم وإرشاداتهم القيمة.

كما أشكر كل الأصدقاء والأخوة الذين ما بُخلوا علي بالعون والدعاء، وأخص منهم شقيقي أحمد الذي كان مثال الأخ الحاني والصديق الصدوق الذي لم يأل جهداً في مساعدتي لإتمام هذا البحث.

جزى الله الجميع عني كل خير.

## ملخص

فن الرثاء في الشعر

في العصرين الفاطمي والأيوبي

إعداد

خلود يحيى أحمد جرادة

المشرف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

تناولت هذه الدراسة شعر الرثاء في العصرين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ) هادفة إلى معرفة أغراض الرثاء في كلا العصرين ومدى التشابه والاختلاف بين هذه الأغراض في كلا العصرين. وقد تم اعتماد النصوص الشعرية قصائد ومقطوعات، من دواوين الشعراء، ومن المصادر الأدبية والتاريخية المختلفة، حيث تناولت الدراسة هذه النصوص بالتحليل، وتحديد الموضوعات التي شملها الرثاء في هذين العصرين، واعتمدت الدراسة في تناول النماذج الشعرية على تحديد الأفكار التي تحدث عنها الشعراء في رثائهم، وعرض كل فكرة على حدة وتأبيدها بما يناسبها.

ومن خلال دراسة تلك النماذج، أمكن التعرف إلى أن قصائد الرثاء في كلا العصرين في معظم الأغراض تكاد تكون متشابهة، فالحزن والبكاء كانا القدر المشترك بين الشعراء، كما

انتفقوا على تعداد المناقب والإشادة بها، ثم الدعاء للميت، وأدى هذا التشابه في تقسيم قصيدة الرثاء إلى هذه الموضوعات، إلى تشابه في المعاني والصور بين الشعراء في هذين العصرين، وامتد هذا التشابه ليشمل الأساليب الفنية لقصيدة الرثاء.

وقد تبين بعض الفوارق في غرضين من أغراض الرثاء في هذين العصرين، ففي رثاء القادة وآل البيت في العصر الفاطمي، ظهر أثر المذهب الفاطمي عند بعض الشعراء الذين يميلون إلى هذا المذهب أو يدينون به مثل تميم بن المعز وطلائع بن رزيق وعمارة اليماني، بينما لا نجد أثرا لهذا المذهب في رثاء القادة في العصر الأيوبي، كما لا نجد أثرا لرثاء آل البيت، وربما يعود السبب في ذلك إلى إزالة الأيوبيين كل أثر للمذهب الفاطمي، وإعادة المذهب السني.

أما الغرض الآخر، فهو رثاء الدول، فقد رثيت الدولة الفاطمية، بينما لم ترث الدولة الأيوبية، وربما يعود السبب في ذلك، إلى أن الدولة الفاطمية زالت مرة واحدة، بينما لم ينته حكم الأيوبيين مرة واحدة، فقد جاء بعدهم المماليك الذين حرصوا على الاستمرار على ما كان عليه الأيوبيون، كما حافظوا على ارتباطهم بالخلافة الإسلامية في بغداد.



## المقدمة

لم يحظ شعر الرثاء باتجاهاته المختلفة في العصرين الفاطمي والأيوبي باهتمام كاف من الدارسين، فقد اقتصرَت الدراسات التي تناولت هذا الغرض في إطار الحديث عن أدب الحروب الصليبية، على إشارات موجزة عن رثاء الأبطال والقادة والعلماء، ثم رثاء المدن والدولة الفاطمية.

ومن الدارسين الذين عرضوا لبعض أنواع الرثاء -على سبيل المثال لا الحصر- د. أحمد أحمد بدوي في كتابه ((الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية)) فقدم إشارات موجزة عن رثاء القادة والعلماء وأصحاب الحرف، ثم رثاء الدولة الفاطمية. أما أحمد فوزي الهيب في كتابه ((الحركة الشعرية زمن الأيوبيين في حلب الشهباء))، فقد خص بالذكر شاعرين هما راجح الحلبي والسهروردي، وعقب بإيجاز على رثاء الحلبي الملك المؤيد نجم الدين بن السلطان صلاح الدين، ورثائه ابن الخليفة الناصر لدين الله.

وفي إشارات موجزة عرض د. شفيق الرقب في كتابه الشعر العربي في بلاد الشام لرثاء القادة والقضاة والعلماء والمؤرخين والأقارب والأصدقاء ثم المدن.

وثمة دراسات أخرى تناولت الرثاء في عصور أدبية سابقة، لكنها لم تول الرثاء في العصر الفاطمي عناية، واكتفى بعضها بإشارة موجزة للرثاء في العصر الأيوبي، كأن تقتصر على ذكر الشعراء وبعض القادة الذين قيل فيهم الرثاء، ومن هذه الدراسات كتاب ((الرثاء)) الذي قدم له د. شوقي ضيف، وقام بإعداده ثلة من الدارسين، فقد ورد في الكتاب إشارات موجزة لرثاء

عمارة اليمنى للدولة الفاطمية ولرثاء الشعراء لبيت المقدس، ورثاء الأصفهاني لصلاح الدين الأيوبي.

وهناك دراسات خصت غرضاً محدداً من الرثاء بالعناية والبحث، منها كتاب ((الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت)) لعبد المعين الملوحي، فذكر فيه عدداً من الشعراء في العصور الأدبية الجاهلي والأموي والعباسي، وأثبت بعض القصائد لعدد من الشعراء. كما أصدر عمر الأسعد ديوان ((رثاء الأزواج في الشعر العربي))، أورد فيه نماذج شعرية لرثاء الأزواج والزوجات في العصور الأدبية الجاهلي والأموي والعباسي والمملوكي.

وفي غرض رثاء الأبناء، قدم مخيمر صالح دراسة هي ((رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري)) تناول فيه تحليلاً لنماذج شعر قيلت في رثاء الأبناء ومنها قصيدة للشاعر التهامي الذي قتل على يد الفاطميين.

إن قلة الدراسات حول الرثاء واتجاهاته في العصرين الفاطمي والأيوبي، دفعتني إلى محاولة التعرف إلى هذا الفن الشعري في هذين العصرين، فوجدت وفرة في المادة الشعرية، وتتوعا في أغراض الرثاء عند الشعراء، مما يشكل مادة كافية حافزة للدراسة والتحليل.

ومن الأسباب الأخرى التي حفزتني لدراسة هذا الغرض الشعري بالتحديد، ارتباط الرثاء بمشاعر الإنسان في مواجهة الموت، مما يجعل الشعر الذي يقال في معظم أغراضه أقرب إلى الصدق، وأكثر اقتراباً من النفس، مما يولد ألفة بين الشاعر والقارئ، فالرثاء لا يحده زمان، ولا تحده حالة خاصة تتعلق بالشاعر فحسب، فتجربة الشاعر مع الموت، تمثل تجربة أي إنسان، فقد يرى القارئ في رثاء الشاعر أمه أو أباه أو صديقه، رثاء لأقاربه هو، وتعبيراً عن تجربته هو

مع الموت. وفي حزن الشعراء لموت علمائهم وقادة الفكر في بلادهم، ما يجعل بيننا وبين شعرهم ارتباطا خفيا، فما هؤلاء العلماء إلا علماء الإسلام الذين خلفوا لنا تراثا فكريا عظيما.

أما القادة والخلفاء الذين فجع الشعراء بموتهم كما فجع الناس، فهم حماة الإسلام والذائدون عن حماه ضد الهجمات الصليبية التي كانت تتعرض لها ديار الإسلام، فلا نستطيع الجزم بأن عواطف الشعراء في رثائهم الرسمي كانت مفتعلة أو غير صادقة، ربما لطبيعة الدور الذي كلن يؤديه هؤلاء القادة في حماية الإسلام، لذا فإن النفس تبكي هؤلاء القادة في بكاء الشعراء إياهم، تبكيهم لأنها تبكي فيهم مجدا غابرا وعزة بائدة.

أما المنهج الذي سارت عليه الدراسة، فيعتمد أولا على استقصاء القصائد والمقطوعات الشعرية التي قيلت في العصرين الفاطمي والأيوبي من سنة (٣٥٨-٦٤٨) من الدواوين الشعرية، والمصادر الأدبية والتاريخية المختلفة، ثم في دراسة هذه النماذج الشعرية وتحديد الموضوعات والأغراض التي شملها الرثاء في هذين العصرين.

واعتمدت في دراسة النماذج الشعرية على تحديد الأفكار التي تحدث عنها الشعراء في رثائهم، وعرض كل فكرة على حدة وتأبيدها أو توضيحها بما يناسبها، ويعبر عنها من شعر الشعراء في هذين العصرين، فقد تم تناول القصائد الشعرية حسب الأفكار فالقصيدة الواحدة مثلا، يتم تناولها أكثر من مرة حسب الفكرة المطروحة، وحسب الحاجة إلى الأبيات الشعرية التي تؤيد تلك الفكرة.

ومن هنا كانت معظم قصائد الرثاء متشابهة في الأفكار التي عرض لها الشعراء، فالحزن والبكاء، كانا القدر المشترك بين الشعراء في كلا العصرين، كما اتفق الشعراء أيضا على تعداد المناقب والإشادة بها، ثم الدعاء للميت، وأدى هذا التشابه في تقسيم قصيدة الرثاء إلى هذه

الموضوعات، إلى تشابه في بعض المعاني والصور بين الشعراء في هذين العصرين، حتى أننا لنكاد نلاحظ هذا التشابه في المعاني عند شعراء الرثاء كافة في مختلف العصور الأدبية.

وقد حاولت الدراسة قدر الاستطاعة، الالتزام بالقصائد الشعرية التي قالها الشعراء الذين عاشوا في مصر وبلاد الشام في تلك الفترة.

وثمة شعراء ارتحلوا إلى مصر وأقاموا فيها سنوات عدة، مثل الحكيم أمية بن عبدالعزيز أبو الصلت، فحاولت الدراسة استقصاء النصوص الشعرية التي قالها الشعراء في مصر، والتي لا تتعارض مع السمات العامة لقصيدة الرثاء في مصر والشام.

وفيما يتعلق بفصول هذه الدراسة، فقد قسمتها حسب أغراض الرثاء، في فصول ستة على النحو التالي:

الفصل الأول: رثاء الأقارب، وقدمت هذا الفصل على سواه من الفصول لقوة ارتباط الشاعر بأقاربه من أم وأب وابن وأخ وزوجة، وكان ترتيب الأقارب في الدراسة حسب قوة ارتباط الشاعر بالمرثي، فابتدأت برثاء الأمهات ثم الآباء فالأبناء فالأخوة ثم الزوجات.

الفصل الثاني: وتناولت فيه جانبين رثاء آل البيت، ثم رثاء القادة والخلفاء، ومفهوم القادة في هذا الفصل يشمل الوزراء والأمراء والملوك والسلطين، فهؤلاء كانوا قادة لشعوبهم، وقادة للمسلمين في معاركهم ضد أعداء الإسلام. وأما الخلفاء فتشمل الأئمة في العصر الفاطمي، وهم في مفهوم السياسة خلفاء، وفي المفهوم الديني العقدي أئمة، وقد حاولت أن أقترب من أثر المذهب الفاطمي في رثاء الأئمة الفاطميين، دون خوض في تفاصيل هذا الأثر إذ ليس من مجال الدراسة الخوض في تفاصيل المذهب الفاطمي، كما أن أثر هذا المذهب لم يظهر في أغراض الرثاء الأخرى، واقتصر أثره في هذا الغرض فحسب، وليس عند كل الشعراء في هذا العصر.

أما رثاء آل البيت. فلم يشكل غرضاً بارزاً عند الشعراء في العصر الفاطمي، إذا اقتصر القول فيه على من كانوا يميلون إلى المذهب الفاطمي ويعتقدون به، مثل عمارة اليماني وطلّاح ابن رزيك، إذ رأى هذان الشاعران في رثاء آل البيت، مجالاً للتعبير عن حزنهم لمقتل الحسين ابن علي، ولتصوير موقفهم من بني أمية، ومن الذين لا يعتقدون بمبادئ المذهب الفاطمي. كما اتخذوا قصائد الرثاء تلك وسيلة لنشر مبادئ المذهب الفاطمي الذي ظهر واضحاً في مصطلحاتهم، وفي المعاني التي طرّقوها، فحاولت أن أتلمس بعض آثار هذا المذهب في رثاء هذين الشاعرين آل البيت.

الفصل الثالث: رثاء القضاة والفقهاء واللغويين والمؤرخين والشعراء، وبدأت بالقضاة لوفرة قصائد الرثاء التي قيلت فيهم.

الفصل الرابع: رثاء الدول والمدن، فمن المدن التي رثيت وعرضت لها شيزر والقدس، كما تحدثت عن رثاء بعض المعالم الحضارية في بعض المدن، كرثاء قلعة شيزر، ورثاء قصر العزيز في القاهرة المعزية، لارتباط هذه المعالم الحضارية بالمدينة.

الفصل الخامس: أغراض أخرى من الرثاء مثل رثاء الأصدقاء ورثاء الجوّاري ورثاء الغلمان والمماليك ورثاء أصحاب المهن ثم رثاء الحيوان.

وفي الفصل السادس: حاولت أن أتلمس ظواهر فنية بارزة في شعر الرثاء في هذين العصرين، فقسمت الدراسة الفنية إلى محاور ثلاثة هي: بناء القصيد، والصورة الشعرية، والأسلوب، وتناولت في بناء القصيدة نماذج مختلفة في اتجاهات عدة هي رثاء الأم والابن والقادة وآل البيت والفقهاء، وحاولت بهذا التنوع أن أشمل بعض أغراض الرثاء بتحليل لبناء القصيدة في نموذج يعبر عنها.

أما الصورة الفنية، فقد حاولت تلمس مصادر الصورة، والمؤثرات التي أفاد منها الشعراء، إضافة إلى تناول الصورة الكلية والمشاهد التصويرية الحركية التي عمد إليها الشعراء لتصوير أجواء الحزن، حيث شكلت بعض الصور مشاهد تتكامل فيها عناصر اللون والصوت والحركة، والانفعالات الشعورية في نفس الشاعر، كما بينت في بعض الصور شيئاً من عناصر التجديد والاعراب.

وتناولت الأسلوب من جانبين؛ الأسلوب المتأثر بالتراث والأسلوب المتأثر بالبديع، وحلوت أن استدل على مظاهر هذين الأسلوبين من النماذج الشعرية المتوافرة، دون تكرار النماذج للنماذج التي وردت في الفصول السابقة ما أمكن.

ولكنني أقر بأن جهدي في هذه الدراسة هو جهد المقل، فلست أدعي أنني تناولت فن الرثاء في هذين العصرين تناوولا وافيا، فما هذه الدراسة سوى خطوة على الطريق ومحاولة، أسأل الله تعالى أن يكون فيها ما ينفع، وأن تتبعتها خطوات تكمل ما اعتراها من نقص، سواء بالإضافة أو التقويم.

وفي الختام أقول: جزى الله أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي عني كل خير، فهو لم يبخل علي بصبره ونصحه وتوجيهاته، فإن كانت هذه الدراسة قد حققت علما نافعا، وكانت بمستوى يرضى عنه أساتذتي الكرام فالفضل في ذلك لله تعالى ثم لأستاذي الفاضل وتوجيهاته الدؤوبة القيمة، وإن لم تحقق هذه الدراسة ما هو مرجو منها فالخلل فيها مردود على الباحثة، وأعزيها على ذلك بقول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه ((كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)). وأسأله تعالى أن يعينني على تدارك ما فيها من ثغرات.

س

وأقدم شكري كذلك لأساتذتي الأفاضل الأستاذ الدكتور هاشم ياغي والأستاذ الدكتور يوسف  
بكار والأستاذ الدكتور صلاح جرار لتفضلهم بقراءة هذه الرسالة، وتشريفي بمناقشتها، والله الحمد

من قبل ومن بعد.

# الفصل الأول

## رثاء الأقارب

رثاء الأمهات

رثاء الآباء

رثاء الأبناء

رثاء الأخوة

رثاء الزوجات



## رثاء الأمهات:

نالَت الأمَ حظًا من شعر الرثاء، لما لها من مكانة في الوجدان، فمعنى الأمومة يفرض على الإنسان مشاعر من الحب والألفة تجاه الأم بشكل عام، سواء أكانت أما للشاعر أم لغيره، لذا رثى الشعراء أمهات غير أمهاتهم، كما رثوا أمهاتهم، وإن كان رثاء الشاعر أمه أكثر توهجا وحرارة وصدقًا، لأنها الأقرب إلى نفسه ووجدانه.

ولم يختلف رثاء الأم في أفكاره ومعانيه، والأحاسيس التي يعبر عنها، عن غيره من أنواع الرثاء الأخرى، وأبرز ما تعبر عنه هذه القصائد مشاعر الحزن والأسى، ويصف أبو العلاء المعري حاله عند سماع نعي أمه، إنه نعي أصمه وأوجعه، ولم يستطع لهوله إلا أن يجزع:

سمعت نعيها صما صمام<sup>(\*)</sup>      وإن قال العواذل لا همام<sup>(\*\*)</sup>(١)

ويستمد أبو العلاء المعري حزنه الدائم على أمه من الحمائم، فيسألها أن تذكره بأحزانه وتزيده حزنا، فهو يرى في حزن تلك الحمائم ما يفوق الوصف، إنه الحزن الذي لن يتوقف حتى تقوم الساعة، وهو في الوقت نفسه حزن أبي العلاء:

ألا نبهنني قينات بث      بضمن غضى فملن إلى بشام  
وحماء العلاط<sup>(\*\*\*)</sup> يضيق فوها      بما في الصدر من صفة الغرام  
تداعى مصعدا في الجيد وجد      فغال الطوق منها بانفصام<sup>(٢)</sup>

(\*) صمام: الداهية الشديدة، ابن منظور، مادة صم.

(\*\*) همام: الشدة المحرقة، ابن منظور، مادة هم.

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق٤، ص١٤١٣.

(\*\*\*). حماء العلاط: الحمامة السوداء التي في صفحة عنقها طوق، ابن منظور، مادة علط.

(٢) المصدر نفسه، ق٤، ص١٤٢٢-١٤٢٤.

والشاعر أبو الحسن الصقلي يرى في موت أمه مصيبة تفوق كل المصائب ورزءا يصغر

أمامه كل رزء، حتى أنه يتمنى لو تغدى أمه بكل النساء على هذه البسيطة:

يا دَهْرُ أَعْظَمَ شَيْءٍ هَدَّنِي أَسْفَا      ظَعِينَةٌ لَكَ لَمْ يُدْرِكْ لَهَا ثَارُ<sup>(١)</sup>  
بكلِّ وَالِدَةٍ تُغْدِي وَمَا وَلَدَتْ      زَهْرَاءُ طَيِّبَةُ الْأَعْرَاقِ مِذْكَارُ<sup>(٢)</sup>

ويعد الملك الأمجد رزءه بأمه خطبا لا طاقة له به، ولا طاقة لأحد باحتمال مثيله، وهو أمام

هذا الخطب كمن يستجير من الرمضاء بالنار، فيلوذ بالبكاء هربا من الأسى:

حتى رماني بما لَوَّ أَنْ أَيْسَرَهُ      يَرْمِي بِهِ الْبَدْرُ مَا وَافَى وَلَا طَلَعَا  
بفادِحٍ مِنْ حُطُوبِ الدَّهْرِ أَوْقَفَنِي      فِي مَوْقِفٍ لُدَّتْ فِيهِ بِالْبُكَاءِ ضُرْعَا<sup>(٣)</sup>

ويودع ابن سناء الملك ثباتا وصبرا كان يتحلى بهما قبل موت أمه، فإذا به يضحى صفر

اليدين، حيث تنهار أمام فقدان الأم وغيابها الأبدي كل قوة وقدرة على الاحتمال:

قَدْ رَمَانِي الزَّمَانُ مِنْهُ بِحُطْبٍ      أَفْحَمَّتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْخُطْبَاءِ  
وَدَهَانِي بِمَا أَعَزَّى فِيهِ      عَنْ ثَبَاتِي لَهُ وَحُسْنِ عَزَائِي<sup>(٤)</sup>

وإذ يعبر الشعراء عن أثر النبا في نفوسهم، تبدأ مرحلة استيعاب الأمر والتعبير عن الحزن

وهي مرحلة البكاء ونرف الدموع، والتعبير عن مشاعر الأسى لفقدائها، وهي مشاعر تتبع من

قلب مشتعل بنار الحزن، فأبو الحسن الصقلي، يرى أمه أكرم أم، لذا فالحزن على موتها لا

ينقضي:

(١) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(٣) الملك الأمجد، الديوان، ص ٩٤.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١.

يا أكرم الأمهاتِ الطاهراتِ لقدَّ أودعتِ قلبي غليلاً دونهُ النارُ<sup>(١)</sup>

وهذا ابن سناء الملك أيضاً، يصور عينه بمنهل للدمع، والأحشاء أتونا من نار:

صادفتُ منهلاً يصبُّ من العينِ وناراً تشبُّ في الأحشاء<sup>(٢)</sup>

وكان هذا الحزن لا يكاد يكفي للتعبير عن الحب الكبير الذي يكنه الشاعر لأمه، فيلجأ إلى تأكيد هذا الحب، بأن يذرف الدم بدلا من الدمع الذي نفذ، ويبالغ في الوصف إذ يصور العين منهلاً يتدفق بالدم، وربما لا يجد الشاعر أسلوباً يعبر فيه عن مزيد حزنه إلا بهذه المبالغة، فيقول أمية بن أبي الصلت في هذا المعنى:

مدامع عيني أستبلي الدمع بالدم  
لحق بأن يبكي دماً جفن مقلتي  
ولا تسأمي أن يستهل وتسجمي  
لأوجب من فارقت حقاً وألزم  
نضحن على جيب القميص بعندم<sup>(٣)</sup>  
كان جفوني يوم أودعتك الثرى

ويهمي دمع الملك الأمجد كالويل، ولكنه دمع لا يشفي غليل الحزن الذي يعتريه:

تجود عيناى فيها بالبكاء أسى  
لويل دمع، غليل الحزن ما نفعاً<sup>(٤)</sup>

وعمد الشعراء إلى تصوير مشاهد ومواقف مختلفة، تثير الحزن والألم، وتبعث هذه المشاعر في قلب القارئ، ومن هذه المشاهد، وصف الطريق إلى القبر، حيث تأخذ الطريق دلالة نفسية عند الشاعر، فيمعن في وصفه، حيث شهد جثمان الأم المحمول، فاكتسب من ذلك قرباً معنوياً في نفس الشاعر، ففيه أثر أخير من الأم الراحلة، قبل أن تستقر في مكانها الأبدي، وبسبب هذا الارتباط الجديد يكثر الشاعر في وصفه، ويظهر أثر هذا الارتباط بين الشاعر والمكان، من

(١) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٧.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٣) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١٤٢-١٤٣.

(٤) الملك الأمجد، الديوان، ص ٩٤.

خلال الألفاظ الموحية التي أسقطها عليه، فالقرافة مضاعة بنور ذلك الجسد، وغمام الرحمة يظلل

المكان، وتلك هي العلامات على باب القبر المفتوح على فردوس حلت به الأم:

قُلْ لِلْجَنُوبِ إِذَا وَافَتْ مُسَلِّمَةً      وَأَسْتَصْحَبْتُهَا عَشِيَّاتٍ وَأَسْحَارُ  
عُوجِي عَلَى مَسْجِدِ الْأَقْدَامِ وَأَعْتَمِدِي      سَمَتِ الشَّمَالِ وَلَا يَأْخُذُكَ تَسْيَارُ  
وَنَكْسِي الْجَوْسُقَ الْعَالِيَّ وَلَا نَقْفِي      مَا لَمْ تُلَاقِكِ أَعْلَامَ وَأَحْجَارُ  
عَنْ بَسْرَةِ الْمَسْجِدِ الْمَشْهُورِ مَعْرِفَةً      بِذِي الْعَمُودَيْنِ عِرْفَانٍ وَإِنْكَارُ  
خَلِي الصِّفَاتِ وَلَكِنْ حَيْثُمَا سَطَعَتْ      مِنَ الْقِرَافَةِ أَضْوَاءً وَأَنْوَارُ  
وَفَاضَ عَرَفَ كَمَا قَدْ فَضَّ فِي مَلَأ      مِنَ النَّجَارِ عِيَابَ الْمِسْكِ عَطَارُ  
فَنَّمَّ حَطَّتْ عَنِ الْأَعْوَادِ سَارِيكَةً      مِنَ الْغَمَامِ، تَنَاهَا الدَّهْرُ مَسْيَارُ  
وَتَمَّ بَابٌ إِلَى الْفِرْدَوْسِ مُخْتَصِرٌ      مِنْهُ الطَّرِيقُ فَنَعَمَ الْبَابُ وَالْدَارُ<sup>(١)</sup>

ولا يكتفي الشاعر بوصف الطريق إلى قبرها، فيأخذ أيضا في تصوير حالته وأهله حول

تلك الأم، فهم يطوفون حولها، ويشهدونها وهي تودع الحياة وليس هناك ما يمكن فعله، إنه ذلك

العجز المطلق أمام الموت، العجز الذي يفجر القلب حسرة وأسى:

قَضَتْ وَنَحْنُ حَوْلَيْهَا نَطِيفُ بِهَا      كَأَنَّهَا بَيْنَنَا عَقْرَى وَأَيْسَارُ<sup>(٢)</sup>

ومن المواقف التي يصور فيها الشاعر أحزانه ويستثير بها حزن القساري، وصفه تلك

السرعة التي فارقت فيها الأم الحياة، ليصحو الشاعر فجأة على واقع مر، يخلو من حلوة عيش

كانت، وألفة جامعة:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ فِي الْقَاطِنِينَ مَعِي      مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنْ الْقَوْمَ زَوَارُ

(١) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٨-٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠.

مَنْ كَانَ يُخْبِرُنِي وَالذَّارُ جَامِعَةٌ  
أَنَّ الْأَحْبَسَةَ بَعْدَ الْعَيْنِ آثَارُ<sup>(١)</sup>

وهذا الملك الأمجد، يصحو فجأة على موت أمه، فإذا به لا يرى في عيشه معها سوى سنة

ولحظة نوم:

كَأَنَّمَا كَانَ هَذَا الْعَيْشُ فِي سِنَةٍ  
رَأَيْتَهُ وَغُرَابُ الْبَيْنِ مَا وَقَعَا<sup>(٢)</sup>

وإذ يأخذ الشوق والحزن من الحكيم أمية أبي الصلت كل مأخذ، يأخذ بالبحث عن أمه هنا

وهناك، يرسل الطرف عله يراها، فلا يجني إلا مزيدا من الألم ومزيدا من اللوعة:

يَهِيحُ لِي الْأَحْزَانُ كُلٌّ فَلَا أَرَى  
سِوَى مَوْجِعِ بَادِكَارِكِ مُؤَلِّمِ  
وَأَرْسِلُ طَرْفًا لَا يِرَاكُ فَاَنْطَوِي  
عَلَى كَيْدِي حَرَّى وَقَلْبِي مُكَلِّمِ<sup>(٣)</sup>

وبصور ابن سناء الملك حبا تولد في قلبه للمقابر، حبا دفعه إلى تكرار الزيارة إليها المرة

تلو المرة، شوقا إلى أم تقيم هناك، فيذهب حاملا شوقه، ويعود حاملا أساه وحنونه:

وَأَجَلِ قَبْرِكَ صِرْتُ مِنْ أَدْبِي  
أُولِي الْمَقَابِرِ جُلٌّ إِجْلَالِي  
وَالْبِهِمُ أَضْحَتْ مَهَاجِرَتِي  
وَالْقُصْدُ قُبْرُكَ إِنْ رُوِيَتْهُ  
أَتِيهِ مِنْ ظَمَأٍ لِسَاكِنِيهِ  
وَأَمْرٌ عَنْهُ كَوَارِدِ الْآلِ<sup>(٤)</sup>

ومن المواقف التي استغلها الشعراء للتعبير عن أساهم وحننهم، ذلك التغير الذي طرأ على

حياتهم وتفكيرهم بعد موت أمهاتهم، بل إنها من المواقف التي تجعل الحزن يتجاوز الشاعر إلى

غيره، وربما هذا ما أراده الشعراء، أرادوا أن يشاركهم الناس أحزانهم. فأبو العلاء المعري،

(١) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٩.

(٢) الملك الأمجد، الديوان، ص ٩٤.

(٣) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١٤٣.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٢٢-٢٥.

ولد موت أمه في نفسه - على الرغم من نضجه وكهولته - مرارة الحرمان والشعور بالضيق،  
حرمان الرضيع حين يفقد عطف أمه:

مُضِتْ وَقَدِرَ اكْتَهَلْتُ فَخَلْتُ أَنْيَّ      رُضِيعَ مَا بُلَعْتُ مَدَى الْفِطَامِ<sup>(١)</sup>

ونتيجة لحزنه، فإن قدرته على نظم الشعر في رثائها قد ضاعت، فبالرغم من براعته في  
النظم أضحى أمام موتها لا حول له ولا قوة في نظم بيت واحد في رثائها، حيث غاضت اللغة  
أمام اشتعال الحزن:

يُقَالُ فِيهِمْ الْأَنْيَابُ قَوْلٌ      يَبَاشِرُهَا بِأَنْبَاءِ عِظَامِ  
كَأَنَّ نَوَاجِذِي رُدَيْتٍ بِصَخْرِ      وَلَمْ يَمُرَّرْ بِهِنَّ سِوَى كَلَامِ<sup>(٢)</sup>

ومن هذه التغيرات، قصر الأمل، فما عاد الشاعر يبني على الحياة وفي الحياة آمالا كثيرة،  
فما رأى الشاعر علي الصقلي في الحياة بعد أمه سوى غرور باطل:

لَا غَرْنِي أَمَلٌ مِّنْ بَعْدِهَا أَبَدًا      هِيَهَاتَ كُلِّ مِّنَ التَّامِيلِ غُرَارُ<sup>(٣)</sup>

وابن سناء الملك يقصر أمله في الحياة، وينطفئ إقباله عليها، ويتمنى الموت إذ أصبحت  
الحياة عبئا ثقيلا:

وَأُرَاكِ مَذَّ قَصَّرْتِ مِنْ أَمَلِي      طَوَّلْتِ مِنْ أَجَالِ أَجَالِي  
يَا مَنْ رَأَيْتَ بَعَيْنِ أَحْوَالِي      لَمَّا نَأَتْ إِدْبَارُ إِقْبَالِي<sup>(٤)</sup>

و يتمنى الموت عسى يهنأ ببقاياها، فالحياة أضحت داء لا دواء له سوى الموت:

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٤، ص ١٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ق ٤، ص ١٤٢٠.

(٣) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٩.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٥.

فَقَرِيبًا لَا شَكَّ بِأَتَيْكَ عَنِّي      بِقُدُومِي عَلَيْكَ وَفَدُّ الْهِنَاءِ  
عَجَلُ اللَّهِ رَاحَتِي مِنْ حَيَاتِي      إِنَّهَا فِي الزَّمَانِ أَعْظَمُ دَائِي<sup>(١)</sup>

وهو في إعراضه عن الدنيا، يعرض عن الناس ومخالطتهم وأحاديثهم، فقد ملهم كما مل الحياة من بعدها:

وَعَدَا خَيَالِكِ وَهُوَ يَمْلَأُهُ      وَوَعَلَى الْحَقِيقَةِ فَهُوَ كَالْخَالِي  
وَكَذَاكَ سَمِعِي لَوْ عَلِمْتَ بِهِ      قَالَ سَمَاعُ الْقَيْلِ وَالْقَالِ<sup>(٢)</sup>

وأصبحت الكآبة رفيقا ملازما لبعض الشعراء، فليس ثمة بهجة لشيء، فالصبح معتم، والليل لا يعني سوى مزيد من الأرق والقلق، وهذا ما حل بأمية بن أبي الصلت بعد موت أمه:

وَمَا أَشْتَكِي فَقَدْ الصَّبَاحُ لَأُنْتَبِي      لِفَقْدِكَ فِي لَيْلٍ مَدَى الدَّهْرِ مُظْلِمٍ  
تَطُولُ لِيَالِي العَاشِقِينَ وَإِنَّمَا      يَطُولُ عَلَيْكَ اللَّيْلُ مَا لَمْ تَهُومِ  
وَمَا لَيْلٌ مَنْ وَارَى التَّرَابُ حَبِيبُهُ      بِأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِ المَحِبِّ المُتِمِّ<sup>(٣)</sup>

وما عاد ابن سناء الملك يستطيع السلو والنسيان، فقد حط الهم رحاله في حياته:

وَالهَمُّ قَدَّ وَقَعَتْ رَكَائِبُهُ      مَذْمُورٌ مِنْ جَسَدِي بِأُطْلَالِ<sup>(٤)</sup>

والغناء أضحى في سمعه نواحا، وكل شيء يؤول في إحساسه إلى الضد:

وَدَهَانِي بِمَا أُعْزَى فِيهِ      عَن تَبَاتِي لَهُ وَحَسَنِ عَزَائِي  
صَارَ مِنْهُ يَرَى الغِنَاءُ نَوَاحًا      مَسْمَعِي وَالنَّوَاخُ مِثْلُ الغِنَاءِ

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج٢، ص٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٥١٥.

(٣) أبو الصلت أمية، الديوان، ص١٤٣.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج٢، ص٥١٦.

وَأَرَانِي حَالِي الْأَنْيَقَةَ قَدْ قَلَّ مِ بَعَيْنِي مَا بَهَا مِنْ بَهَاءِ<sup>(١)</sup>

ومن آثار موت الأم على الشعراء أن جرت الحكمة على أسنتهم، الحكمة عن حقيقة الموت والحياة، حكمة ولدتها تجربة الفقد، إذ يدرك الشاعر أن حزنه لا يجدي في شيء، فيستسلم، ويقر بأن الموت قدر لا بد منه، وكأنه يعزي نفسه بهذا التسليم، فهذا علي الصقلي يقول:

يَلْقَى الْفَتَى وَهُوَ مُضْطَرٌّ مَصَائِبُهُ      كَأَنَّمَا هُوَ لِلتَّلِيمِ مُخْتَارُ  
وَكَمْ لَنَا فِي خِلَالِ الْعَيْشِ مِنْ قَدَمٍ      نُسْرٌ أَنْ تَتَّقَصَى وَهِيَ أَعْمَارُ  
لِلْمَرْءِ فِي الْمَرْءِ تَنْبِيهِ وَمَوْعِظَةٌ      لَوْ كَانَ يَنْفَعُ إِعْذَارٌ وَإِنْذَارُ<sup>(٢)</sup>

وإذ يتساءل أبو العلاء المعري عن موعد لقائه بأمه، يدرك أن عودتها مستحيلة، فيستسلم لقدر الموت، مقرا بأن الإنسان لا يعدو مسافرا في هذه الحياة، وكأس الموت لا بد سيشربه كل إنسان:

سَأَلْتُ: مَتَى اللَّقَاءُ؟ فَقِيلَ حَتَّى      يَقُومَ الْهَامِدُونَ مِنَ الرَّجَامِ<sup>(٣)</sup>  
وَنَحْنُ السَّفَرُ فِي عَمْرٍ كَمَرْتِ<sup>(٤)</sup>      تَصَافُنُ أَهْلُهُ جُرْعَ الْحِمَامِ<sup>(٤)</sup>

ويتلفت الملك الأمجد حوله، فيرى أنه ما من إنسان إلا ورزئ بالموت وتجرع مرارته، فتهدأ نفسه، ولولا هذه الحقيقة التي أدركها، لقتل نفسه حزنا على أمه:

يَا أُمَّتَاهُ وَكَمْ فِي النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ      مِثْلِي يُكَابِدُ مِنْ أَحْزَانِهِ وَجَعَا  
مُرَّزًا ذَاقَ طَعْمَ النَّكْلِ مُنْذَهُلٍ      مِثْلِي تُجْرَعُ مَرَّ الصَّابِ وَالسَّلْعَا

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٢) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٣٠.

(٣) مرت: مفازة لا نبات فيها، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة مرت.

(٤) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٤، ص ١٤٢٨.

(٤) المصدر نفسه، ق ٤، ص ١٤٣٢.



لَوْلَاهُمْ لَقَاتَلْتُ النَّفْسَ مِنْ شَجْنٍ      عَلَيْكَ أَوْ لَذَمَّتْ الْأَزْلَمُ الْجُدْعَا<sup>(١)</sup>

وأشاد الشعراء بمناقب الأم وعبروا عن مزاياها، فأبو العلاء المعري في رثائه أمه، يشير إلى فضلها عليه وأنعمها العظيمة التي لا يستطيع عدها، وينوء القلب عن احتوائها والجسد عن حملها، وقد أغنته أنعمها وكفاه فضلها عن فضل من سواها:

ولو أَنَّ النَّخِيلَ شَكِيرٌ<sup>(٢)</sup> جِسْمِي      تَنَاهَ حَمَلُ أَنْعَمِكَ الْجِسَامِ  
كَفَانِي رَبِّهَا مِنْ كُلِّ رِيٍّ      إِلَى أَنْ كِدَّتْ أَحْسَبُ فِي النَّعَامِ<sup>(٣)</sup>

ومن مناقبها أيضا، أنها من آباء كرام، وفرسان غلبوا الأيام والليالي، وأخضعوها لقوتهم:

وَكَمْ لَكُمْ مِنْ أَبِي وَسَمِّ اللَّيَالِي      عَلَى جِبَاهَتِهَا سِمَةٌ اللَّيَامِ  
مَضَى وَتَعَرَّفَ الْأَعْلَامِ فِيهِ      غَنِيَّ الْوَسْمِ عَنِ الْإِفِّ وَالَامِ<sup>(٤)</sup>

وأشاد ابن سناء الملك بأمه، ومن المناقب التي عبر عنها، سعة العلم وكثرة العطاء، حتى

عد وجوده في الحياة بعض جودها فقال:

وَالَّتِي بَعْضُ جُودِهَا لِي وَجُودِي      وَالَّتِي مِنْ حَبَائِهَا حُبَائِي  
وَلَقَدْ خَلَفَتْ أَحَادِيثُ تُغْنِي الـ      أَنْفَ عَنْ نَشْرِ رَوْضَةِ غِنَاءِ<sup>(٤)</sup>

ثم يجمع عددا من المناقب معا، ومنها: العفة والذكاء، ثم الخفر والحياء، حتى إن خفرها

جعلها تتمنى الموت، احتجاجا عن عيون الناس:

خُفِّرَ مَعَ دِيَانَةٍ وَذِكَاءٍ      فِي زُكَاةٍ وَعِفَّةٍ مَعَ سَخَاءِ

(١) الملك الأمجد، الديوان، ص ٩٥.

(٢) الشكير: ما ينبت في أصل الشجرة من الورق، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة شكر.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٤، ص ١٤٧١-١٤٧٢.

(٤) المصدر نفسه، ق ٤، ص ١٤٧٣.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٢.

كَمْ تَمَنَّتْ قَرَبَ الْمُنْبِيسَةِ دَهْرًا      رَغْبَةً فِي الْخِبَاءِ وَالْإخْتِبَاءِ<sup>(١)</sup>

وهذه المناقب كلها، تتبع من التقوى والتمسك بدين الله، رغبة في الأجر وطمعا في الثواب:

هِيَ مَنْ قَدِمَتْ لَهَا حُسْنَاتٌ      تَقْتَضِي غُرْسَهَا رُجَاءَ الْجِبَاءِ  
تَنْفِقُ الْعُمُرَ فِي أَكْتِسَابِ ثَوَابٍ      لِإِمَابٍ لَا لِأَقْتِبَاءٍ ثَنَاءِ<sup>(٢)</sup>

ورأى الشعراء أن الأم تستحق كل وفاء وإخلاص، فوجد الشاعر أن وفاءه يكمن في دوام حزنه عليها، وفي الدعاء لها، فدعا لها بالسقيا، وبالحياء تغمر قبرها وتملؤه زرعا ونوارا، فأبو العلاء المعري يدعو لأمه بالسقيا الدائمة، حتى وإن كان الغمام جهاما، فإنه إذا مر بقبرها، ناله

فضلها فأمطر، وهو في هذا الدعاء يشيد مرة أخرى بفضل أمه وأنعمها:

سَقَيْتُكَ الْغَادِيَاتُ فَمَا جَهَامٌ      أَطَّلَ عَلَى مُحَلِّكَ بِالْجَهَامِ  
وَقَطَّرَ كَالْبِحَارِ فَلَسْتُ أَرْضَى      يَقْطُرُ صَابٌ مِنْ خَلِّ الْغَمَامِ<sup>(٣)</sup>

ويدعو الشاعر علي الصقلي لأمه قائلا:

سَقَا ثُرَاكَ وَلِلْسَقِيَا خَلَّتْ بِهِ      كَفَافَةٌ دِيمَةٌ وَطَفَاءٌ مِـدْرَارُ  
إِذَا بَكَتْ فَوْقَهُ أُنْدَاوَاهَا ضَحِكَتْ      خِلَالَهُ مِنْ أَنْيَقِ النَّبْتِ أَزْهَارُ  
يَا رَبِّ كُنْ عِنْدَ ظَنِّي فِيكَ لِي وَلِهَا      كَذَاكَ يَفْعَلُ رَحْبُ الطَّوْلِ غَفَارُ<sup>(٤)</sup>

وإذا توقف ماء السماء عن ري القبر، فليرو قبرها دمع العين، هذا هو دعاء الملك الأمجد:

سَقَى ضَرْيُحِكَ مِنْ عَيْنِي مَنْبَجِسٌ      إِنْ أَمْسَكَ الْقَطْرُ عَنْ تُسْكَابِهِ هُمَعَا<sup>(٥)</sup>

(١) ابن سناء الملك، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٤، ص ١٤٧٥.

(٤) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٩.

(٥) الملك الأمجد، الديوان، ص ٩٥.

أَقَمَّ مَاتَمًا قَدْ أَنْكَلَ الْفَضْلُ أَهْلَهُ      وَبِكَ الْمَعَالِي قَدْ أُجِدَّ رَحِيلُهَا  
إِذَا أَنْتِ كَلَّفْتِ الْمَدَامِعَ حَمْلَ مَا      عِنَّاكَ مِنَ الْأَحْزَانِ حُفَّ تَقِيلُهَا<sup>(١)</sup>

وحيث توفيت أم الملك المظفر ملكة خاتون بنت الملك العادل سنة ٦١٦هـ، رثاها جندي تركي هو حسام الدين خشترين بن ثليل، وأظهر الحزن والأسى ببيكائه وألمه منكرا موتها مذهولا، فلم يصدق النبأ، حتى رأى الحزن ظاهرا على النساء اللواتي خرجن من الخدور لهول الخطب:

الطَّرْفُ فِي لَجَّةٍ وَالْقَلْبُ فِي سَعْرِ      لَهُ دَخَانُ زُفَيْرٍ طَارَ بِالشَّرِّ  
ظَلَلْتُ مَا بَيْنَ إِنْكَارٍ وَمَعْرِفَةٍ      أَقْلَبُ الطَّرْفَ بَيْنَ الْخَبْرِ وَالْخُبْرِ  
حَتَّى رَأَيْتُ نَجُومًا أَطْلَعَتْ شَفَقًا      عَلَى شُمُوسٍ وَجُوهٍ فِي دَجَى شَعْرِ  
مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ حَوْدٍ خَلَّتْهَا جَمَدَتْ      مِنْ السَّكِينَةِ أَوْ ذَابَتْ مِنَ الْخَفْرِ  
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْخُطْبَ مُتَّصِلٌ      بِأَفْضَلِ النَّاسِ مِنْ أَنْثَى وَمِنْ ذَكَرٍ<sup>(٢)</sup>

وترك موت هؤلاء الأمهات أثارا على الشعراء تمثل صورة أخرى من صور التعبير عن الحزن والأسى، فحسام الدين خشترين في رثائه أم الملك المظفر، أفقده موتها حذره من هذه الدنيا فما عاد يأبه لشيء فيها، كما أصاب الناس بموتها الهم وشغلتهم الأفكار:

فَلْيَفْعَلِ الدَّهْرُ بِي مَا شَاءَ بَعْدَهُمْ      هَا قَدْ أُمِنْتُ فَلَا أَلْوِي عَلَى حَنْزِرٍ  
لَمْ يَبْقَ لِلْخَلْقِ قَلْبٌ بَعْدَمَا طَعَنْتَ      إِلَّا وَفِيهِ لَهَا بَيْتٌ مِنَ الْفِكْرِ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ١٠١.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٦.

ومن صور التعبير عن الحزن، الإشادة بمناقب الأمهات، فجمع الشعراء بين الحزن والمدح، حتى يصلوا إلى أفضل الرثاء، فابن الخياط في رثائه والدة أبي المغيث يشيد بكرم سجاياها وعفتها:

أَصَابَ الرَّدَى نَفْسًا عَزِيزًا مُصَابُهَا      كَرِيمًا سَجَايَاهَا قَلِيلًا شُكُولُهَا  
أَقْسَمْتُ مَا رَأَيْتُ مَنِيْعَ حَجَابِهَا الْمُنُونُ      وَفِي غَيْرِ الْكِرَامِ دُخُولُهَا<sup>(١)</sup>

ومما أشاد به الشعراء في رثاء الأم، حسن الخاتمة وحسن الجزاء، فجنات الخلد هي المأوى، والسلسبيل هو الشراب:

وَكَيْفَ أَحْيَى سَاكِنَ الْخُلْدِ بِالْحَيَا      وَمَا نَحَرْتُ إِلَّا لَهُ سُلْسُبِيْلُهَا  
سَيْشُرْفُ فِي دَارِ الْحِسَابِ مَقَامُهَا      وَيَبْرُدُ فِي ظِلِّ الْجَنَانِ مَقِيلُهَا<sup>(٢)</sup>



ولم يخل رثاء هؤلاء الأمهات من التعزية، فقد حرص الشعراء على تعزية الملوك بأمهاتهم رغبة منهم في مواساتهم في مصائبهم وأتراحهم تقرباً منهم، إذ نلحظ في هذه التعزية الاهتمام بمدح المعزى والإشادة به وبمناقبه، ففي العصر الأيوبي، حين توفيت أم الملك المظفر سنة ٦١٦هـ، رثاها حسام الدين خشتري بن ثليل<sup>(٣)</sup>، وعزى بها الملك المظفر، وبدأ تعزيته بوصف لبس السلطان الحداد، بأسلوب يبعث الرضا في نفسه:

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ غُرِبَتْ      حَتَّى رَأَيْتُ الدُّجَى مُلْقَى عَلَى الْقَمَرِ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ١٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢-١٠٣.

(٣) وهو جندي تركي، كان شاعراً مجيداً غير أنه كان ألكن لحناء، وإذا نظم أجاد وأحسن، ينظر ابن واصل،

مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٦.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٦.

ويبين هذا الشاعر في خطابه الملك المظفر معزيا، عدم تقصيره في حقها أمام الموت، ولكنها سطوته التي لا يستطيع ردها سيف ولا عزم، وقوة جيش ذلك الموت الذي تستسلم أمامه

الحياة:

قُلْ لِلغَزَالَةِ أَيُّ الرَّوعِ نَفَرُهَا      وَدُونَهَا أُسْدٌ وَقَفَ عَلَى الْحَذْرِ  
مَلِكٌ عَلَى كُلِّ خُطْبٍ جَلَّ أَصْغَرُهُ      عَلَى الْوَرَى قَادِرٌ إِلَّا عَلَى الْقَدْرِ  
لَوْ كَانَ مَنْ مَاتَ يُفْدَى قَبْلَهَا لَفَدَى      أُمَّ الْمُظْفَرِ آفَاتٌ مِنَ الْبُشْرِ  
وَرَاخٌ مِنْ دُونِهَا لِلطَّعْنِ أُسْدٌ شَرِيٌّ      عَلَى خِيُولٍ لَدَيْهَا نَزْوَةٌ النَّمْرِ  
صِيدَ إِذَا شَهَرُوا أَسْيَافَهُمْ كَتَبُوا      بِهَا حُرُوفًا عَلَى الْهَامَاتِ فِي سَطْرِ<sup>(١)</sup>

ولا يقف الشاعر في تعزيبته عند هذا الحد من المديح والثناء على قوة الملك وسطوته، بل نراه يتغنى بملوك بني أيوب وأمجادهم، وعلى رأسهم الملك المظفر، إن من ماتت وخلفت وراءها كل هؤلاء البهاليل وكل ذلك المجد، إنما هي حية لم تمت:

أَيْنَ الْمُظْفَرُ مَنْ كَانَتْ عَزَائِمُهُ      فِي مَازِقِ الْحَرْبِ لَا تَلْوِي عَلَى خُورِ  
فَكَمْ لَهُ ضَرْبَةٌ فِي الْهَامِ هَائِمَةٌ      وَكَمْ لَهُ ثَغْرَةٌ بِالطَّعْنِ فِي الثَّغْرِ  
وَأَيْنَ أَوْلَادُ أَيُوبَ الَّذِينَ لَهُمْ      مَوَاقِفٌ أَوْقَفَتْ عَكَا عَلَى الْغَيْرِ  
وَكَمْ جَرَّتْ دُونَ صُورٍ مِنْ صَوَارِمِهِمْ      جَرَّدُ الْجِيَادِ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الصُّورِ<sup>(٢)</sup>

إن شجاعة هؤلاء وبأسهم لم تدفع عنهم الموت، فليتعز السلطان بموتهم، وبما

خلفوه من مجد:

جَمَالَ ذِي الْأَرْضِ كَانُوا وَفِي الْحَيَاةِ وَهُمْ      بَعْدَ الْمَمَاتِ جَمَالَ الْكُتُبِ وَالسِّيَرِ

(١) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٦٧.

## رثاء الآباء:

رثى الشعراء آباءهم رثاء يفيض ألما وحزنا ومرارة، فعبروا عن قلوبهم المكلومة وآلامهم الدفينة، وأحزانهم المتوقدة، تعبيرا صادقا لا يدخله زيف ولا تكلف في العاطفة، فليس ثمة زيف في تلك العلاقة التي تربط الابن بأبيه.

وعبر الشعراء عن أحزانهم بأساليب متنوعة، وكأنهم أرادوا أن ينشروا أحزانهم في كل مكان وفي كل قلب، ومن مظاهر الحزن التي أظهروها وعبروا عنها، تلك الدموع الغزيرة التي فاضت وعمت كل شيء، وإن تكن الدموع قد عزت لشدة البكاء، فثمة دماء تذرف، ذرفها أبو المجد محمد بن عبدالله حين رثى أباه قائلا:

لِمِثْلِهَا كُنْتُ أَصُونُ الدَّمْعَ      فَلتَذْرِفِ العَيْنُ وَيَنُأُ الهَجْوُ  
وَإِنْ يَغُضُّ مَا فَاضَ مِنْ أَدْمَعِي      مُزَجَّتُهُ مِنْ مُهَجَّتِي بِالنَّجِيعِ<sup>(١)</sup>

وهذا الأمير الفاطمي تميم بن المعز ((في أبيات قليلة العدد، ولكنها وافرة المعاني يعبر تعبيرا صادقا، ويفصح عن ألمه وأساه، فيبكي أباه الإمام المعز لدين الله، ويبدو أن الحزن أمضه، وجعله يتساءل بألم، كيف أن القلوب لم تفارق الأجساد، وكيف أن الوجوه لم يتسرب إليها الشحوب؟ وينقل ليرسل نداءه وصرخته قائلا: وامعزاه، ويكررها حتى أصبح لا يرى الحياة، وحتى يصبح الدمع ممزوجا بالدماء<sup>(٢)</sup>):

كَيْفَ لَا تَعْدُمُ الجُسُومَ القَلْبُوبَا      وَتَرَى نُضْرَةَ الوُجُوهِ شُحُوبَا  
مَنْ يَعْزِي الجِيَادُ أُمَّ مِنْ يَسْلَى      مَجْلِسُ المَلِكِ والسَّرِيرِ الكُنْبِيَا

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٠، وانظر في هذا المعنى ص ٦٦ في رثاء أبي حصين عبدالله أباه.

(٢) عارف تامر، تميم الفاطمي، ص ١٤٤.

فَقَدُوا بَعْدَكَ الْقُلُوبَ اللَّوَاتِي      شَفَّهَا وَاجِبٌ فَشُقُّوا الْجُيُوبَا  
وَأَمْعِرْزَاهُ وَأَمْعِرْزَاهُ حَتَّى      يَغْتَدِي الدَّمْعُ بِالدَّمَاءِ خُضِيبَا<sup>(١)</sup>

ورأى المسبحي في موت أبيه خطبا عظيما جاء به الزمان، خطبا تجود فيه الدموع ويعز

فيه العزاء:

خُطِبَ أَلَمٌ مِنَ الزَّمَانِ عَظِيمٌ      فَالدَّمْعُ سَحٌّ لِلْمَصَابِ سَجُومٌ  
خُطِبَ يُقَلُّ لَهُ الْبِكَاءُ وَيُنْطَوِي      عَنْهُ الْعَزَاءُ وَيُظْهَرُ الْمُكْتَوِمُ<sup>(٢)</sup>

أما ابن الساعاتي فقد كان جامد الدمع لا يذرفه، يدخره لخطب عظيم، فإذا بموت أبيه يخرج

الدمع من مكانه، ويهز ثبات نفسه وتجدها:

لَقَدْ ذَابَ مَاءُ الدَّمْعِ بَعْدَ جَمُودِهِ      وَمَا ذَابَ مَاءٌ فِي أَسَى قَبْلَهُ جَمْرٌ  
وَكَانَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ دَخْرًا لِحَادِثٍ      فَأَنْفَقَ فِي تِلْكَ النَّوَى ذَلِكَ الذَّخْرُ<sup>(٣)</sup>

ومن الأساليب الأخرى التي عبر بها الشعراء عن أساهم بفقد آبائهم، التعبير عن تلك الحالة

النفسية والمشاعر التي سيطرت عليهم وأفقدتهم الكثير من معاني الحياة، فهذا الأمير تميم ابن

المعز لا يرى للحياة معنى ولا جمالا بعد فقد أبيه:

فَلْيَدِّقْ غَيْرِي الْحَيَاةَ فَاِنِّي      لَا أَرَى لِلْحَيَاةِ بَعْدَكَ طَيْبَا<sup>(٤)</sup>

ويعيش أبو العلاء المعري حياة قلقة ومضطربة بعد موت أبيه، إنها حياة لا تستقر على

حال، بين صعود وهبوط، وقلبه لشدة خفقانه كطائر لا يستقر في عش:

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٥٧.

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ١ من القسم الخاص بمصر، ص ٢٦٥.

(٣) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٥.

(٤) تميم بن المعز، الديوان، ص ٥٧.

لَقَدْ مَسَخَتْ قَلْبِي وَفَانَتْ طَائِرًا      فَأَقْسَمُ أَلَا يَسْتَقِرُّ عَلَيَّ وَكُنِ  
يُقْضَى بَقَايَا عَيْشِهِ وَجَنَاحُهُ      حَثِيثُ الدَّوَاعِي فِي الإِقَامَةِ وَالظَّنِّ (١)

وكما القلب حائر والروح قلقة فإن القلب بموت الأب مصدوع، وليس ثمة من يرأب الصدع،

هذا ما أحس به ابن سناء الملك بعد موت أبيه:

وَأَعْشَارُ قَلْبِي لَا أَنْشِعَابُ لِصُدْعِهَا      وَقَدْ تَلَيْتَ مِنْ حَوْلِ قَبْرِكَ أَعْشَارُ (٢)

ويفتقد الشاعر إحساسه بالأمان والسكينة، فليس ثمة من يهديه إلى الصواب بعد أبيه، ولا من

يرشده، وهو قلق ولد كآبة وهما أضعفاه، ونشرا ظلهما على حياته:

غَدَا ابْنُكَ حَيْرَانًا يَرُومُ هِدَايَةَ      فَصَادَفَ أَرْبَابَ الْهَدْيِ فِيكَ قَدْ حَارُوا  
كُنْيَا يُوْفِي بَعْدَكَ الْحَزْنَ حَقَّهُ      فَلَا الدَّمْعُ خَوَانٌ وَلَا الْهَمُّ خَوَارُ (٣)

ويضحى ابن الساعاتي بعد موت أبيه مثل طفل رضيع، فقد حب الأم وعطفها مرة واحدة،

إنه ذلك الإحساس بالوحدة وبأنه مخلوع من كل شيء، فاقد كل شيء، وإحساس بالضيق كبير:

كَأَنِّي وَلَيْدٌ مُرْضِعٌ يَوْمَ فَقْدِهِ      وَقَدْ عَزَّ مِنْ أُلْطَافِهِ الْمَهْدُ وَالدَّرُّ  
كَأَنِّي سَارٍ فِي دِيَاغٍ بِهَيْمَةٍ      وَقَدْ ذَهَبَتْ بِالصَّبْحِ أَيَّامُهُ الْغُرُّ (٤)

وتبلغ الخسارة أقصاها، ويفقد الشاعر تلك القوة المعنوية التي كان يعتز بها، ويمتلك بها

القدرة على الحياة كما يشاء، ومن صور هذه القوة الخفية إحساسه بالعزة بوجود أبيه، وبعلو

على الحياة وقوة، ولكنه أضحى بعد فقدته يعاني ذل الحرمان وذل الوحدة، وهو مع ماله الوفير

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩٣٠-٩٣١.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٣.

(٤) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٤.



يعاني الفقر، فقر الأنيس وفقر الحنان الذي غاب، إنه فقير لا يغني عنه مال، هذا ما أحس به ابن الساعاتي:

ذَلِيلٌ وَعِنْدِي عِزَّةُ النَّفْسِ وَالتَّقَى      فُقِيرٌ وَعِنْدِي جُمَّةُ الْمَالِ وَالْوَفْرُ<sup>(١)</sup>

وعبر ابن سناء الملك عن هذه الحالة بالمقابلة بين ما كان ينعم به في حياة أبيه من خير ورعاية، وبين ما افتقده بموته وعاشه من غربة ووحدة وهم:

وَقَدْ كُنْتُ لَمَّا كُنْتُ لِي فِي فَوَائِدٍ      تَفَادٌ وَخَيْرٌ كَانَ لِي مِنْكَ أَخْبَارُ  
وَفِي نِعْمٍ فِي الْحُسْنِ كَالْبَدْرِ يَجْتَلِي      وَإِنْ شِئْتَ طَعْمًا فَهُوَ كَالشَّهْرِ بِشَتَارُ  
فَأَصْبَحْتُ لَمَّا مِتَّ حَيًّا كَمَيْتٍ      وَإِنْ كُنْتُ أَمْتًا حُ دَمَّوعٌ وَأَمْتَارُ  
وَحِيدًا فَمَا لِي فِي دِيَارِي مُؤْنِسٍ      غَرِيبًا فَمَا لِي فِي هُمُومِي أَنْصَارُ  
وَإِنْ أَعْتَرَا بَعْدَ مَوْتِكَ ذَلَّةً      وَإِنْ يَسَارِي بَعْدَ فُقْرِكَ إِعْسَارُ  
وَبُرُقٌ بِقَائِي بَعْدَ بَيْنِكَ خَلْبٌ<sup>(٢)</sup>      وَنَجْمٌ حَيَاتِي بَعْدَ بَعْرِكَ غُورُ<sup>(٣)</sup>

إن الشاعر بعد موت أبيه ما عاد لديه مطمع في الحياة ولا رغبة أو وطر:

لَزُهُدْنِي فِي هَذِهِ الدَّارِ مَوْتُهُ      فَسَيَانُ إِقْلَالِ لُدِّي وَإِكْنَارُ  
وَكَيْفَ بِقَائِي وَالْأَخْرَاءَ قَدْ تَوَّوَا      وَكَيْفَ مُقَامِي وَالْأَحْبَةَ قَدْ سَارُوا<sup>(٣)</sup>

وإن كان ابن سناء الملك قد تمنى أن يفارق الحياة ويلحق بأبيه، فإن محيي الدين

الشهرزوري تمنى لو يفنى وتبقى الحياة لأبيه:

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَقْصَى أَمَانِي أَنْتِي      أَجْرَعُ كَاسَاتِ الْجِمَامِ وَيُسَلِّمُ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) خلب: الذي لا غيب فيه، كأنه خادع يومض، ابن منظور، لسان العرب، مادة خلب.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٣-٥١٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٤.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٦.

وحرص الشعراء على تجويد رثائهم، فجمعوا بين التفجع والإشادة بمناقب الآباء، أشادوا بها وبكوها إذ فقدوها، وجل هذه المناقب نابعة من القيم العربية الأصيلة وتعاليم الدين الحنيف، الذي لم يخالف جل هذه القيم، ومن أبرز تعاليم الدين التي أشاد بها الشعراء التقوى، فهذا أبو العلاء المعري أول ما يصفه في أبيه الراحل تقواه، فقد مضى طاهرا من كل معصية نهى عنها الله، ومن كل ما يخدش عفة المؤمن، فهو مؤمن يوافق قوله فعله، ويوافق لسانه ما يرضي ربه:

مَضَى طَاهِرُ الْجَنَانِ وَالنَّفْسِ وَالكَرَى      وَسُهِدَ الْمُنَى وَالْحَبِيبِ وَالذَّلِيلِ وَالرَّدْنِ (١)  
 وَيَكْنِي شَهِيدَ الْمَرْءِ غَيْرِكَ هَيْبَةً      وَبُقِيَا وَإِنْ يُسْأَلُ شَهِيدُكَ لَا يَكْنِي (٢)  
 يُصْرِّحُ بِقَوْلِ دُونِهِ الْمِسْكُ نَفْحَةً      وَفِعْلٌ كَأَمْوَاهِ الْجِنَانِ بِلَا أَسْنِ  
 يَدِ يَدِّ الْحُسْنَى وَأَنْفَاسِ رَبِّهَا      تَقَى لِسَانًا لَا يَحْرَكُ بِاللَّسَنِ (٣)

ويشيد ابن سناء الملك في أبيه التقوى والاعتكاف على العبادة والتقرب إلى الله:

مَضَى طَاهِرُ الْأَنْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيْبَةٍ      وَأَنْوَابُ أَطْهَارِ الْبُرِيَّةِ أَطْهَارُ  
 طَرَائِقُهُ بَيْنَ الْأَنْامِ مَرَاشِدٌ      وَأَخْبَارُهُ بَيْنَ الْمَلَائِكِ أَسْمَارُ  
 وَقَدْ شُكِرَتْ مِنْهُ الصِّيَامُ أَصَائِلٌ      وَأُتِنَتْ عَلَيْهِ بِالتَّهَجُّدِ أَسْحَارُ (٤)

بل إن بره وتقواه كانا ظاهرين للبر والفاجر، فشهدوا له بذلك:

وَأَنْتَ هُوَ الْبِرُّ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُ      بِذَلِكَ أَبْرَارٌ لِعُمْرِي وَفَجَّارُ (٥)

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩٣٥.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٢.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٢.

وأخذت التقوى عند الشعراء صوراً مختلفة، تصب كلها في المصّب ذاته، منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذه المكرمة أشاد أبو المجد محمد بن عبدالله بأبيه، مشيراً إلى موت العمل بهذا الخلق بعد أبيه:

لَا يَنْكُرُ الْمُنْكَرُ مِنْ بَعْدِهِ      فِيهِمْ وَلَا يُعْرِفُ مَعْرُوفٌ<sup>(١)</sup>

وبين ابن سناء الملك أن الأمر بالمعروف كان صفة لازمة وخلقاً ثابتاً لأبيه، بل إن عمله به كان بالغاً مداه مبالغاً به:

لَقَدْ كُنْتُ نَهَاءً عَلَى الدَّهْرِ أَمْرًا      فَلِلشَّرِّ نَهَاءً وَلِلْخَيْرِ أَمْسَارًا<sup>(٢)</sup>

ومن صور التقوى كثرة العفو والتجاوز عن زلات الآخرين، وسلامة الصدر من الحقد والضغينة على المسلمين، وقصر الأمل والتحرر من الأمانى الكاذبة، هذا ما رآه ابن سناء الملك في أبيه:

وَقَدْ كُنْتُ تَعْفُو عَنْ ذُنُوبٍ كَثِيرَةٍ      فَلِلْحَقْدِ نِسَاءً وَلِلْعَفْوِ ذَكَارًا  
وَقَدْ كُنْتُ حَرًّا مِنْ أَمَانٍ كَوَازِبٍ      إِذَا اسْتَعِيدَتْ مِنْ جِلَّةِ النَّاسِ أَحْرَارًا  
وَقَدْ كُنْتُ تَعْطِي الْمُقْتَرِينَ وَلَمْ تَبُلْ      إِذَا أَعْقَبَ الْإِكْتَارُ لِلْبُدْلِ إِقْتَارًا<sup>(٣)</sup>

ويعد حفظ حقوق الناس وحمايتهم ورعايتهم، والقضاء بينهم بالعدل، صورة أخرى للتقوى التي دعا إليها الإسلام، وهو خلق افتخرت به العرب قديماً وعدته من المناقب الحسنة، وهذه الصورة ظهرت في رثاء محيي الدين الشهرزوري لأبيه كمال الدين الشهرزوري حيث أشاد به قائلاً:

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١١.

وما زلتُ فيهم مَذَّ وُلَيْتُ عَلَيْهِمْ      تَفْذُ أَيْدِيكَ الْجِسَامَ وَتَنْتَرِمُ  
 وَكَمْ لَيْلَةٌ فِيهَا سَهَرْتَ لِحِفْظِهِمْ      وَهُمْ عَنكَ فِي خُفْضِ مِنَ الْعَيْشِ نَوْمُ  
 نَشَرْتَ لِرِوَاءِ الْعَدْلِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ      فَمَا كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَضَامُ وَيُظَلَمُ<sup>(١)</sup>

وكما افتخرت العرب بالعتاء ومدحت به، إذ يمثل هذا الخلق درجة كبيرة في الإيثار وحب الآخرين. فإنه من المناقب التي وصف بها الشعراء آباءهم، وهو عطاء يتجاوز كل عطاء وبيزه، والأساس الذي ينطلق منه إنما هو الدين والتقرب إلى الله، لذا فإنه لا يكاد ينتهي. فهذا محيي الدين الشهرزوري يصور عطاء أبيه يعم كل فج ويغنيه، يروي قلوب الناس بنده، غنيهم وفقيرهم، فالغني أمام جوده يضحى فقيرا إليه، لذا فقد فجع الناس جميعا بموته، إذ فقدوا بموته عطاء كان مدرارا:

سَقَاكَ مَلِيَّتٌ لَا يَزَالُ أَتَيْتُهُ      كَجُودِكَ يَغْنِي كُلَّ فَجٍّ وَيُفْعِمُ<sup>(٢)</sup>  
 وَكُلَّهُمْ مِثْلِي عَلَيْكَ مُحَرَّقٌ      وَبَاكِ وَمَسْلُوبُ الْعِزَاءِ وَمُغْرَمٌ  
 وَلَا سَيِّمًا إِخْوَانُ صِدْقٍ بِجَلِّقِي      هُمْ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ وَالْجُودِ أَنْجَمٌ  
 وَلَيْسَ عَجِيبًا شُكْرُهُمْ لَكَ بَعْدَمَا      فَضَلَّتْ عَلَيْهِمُ بِالْنَدَى وَهُمْ هُمُ<sup>(٣)</sup>

وإذ عم عطاء كمال الدين الشهرزوري والفقير، فإن ابن الساعاتي قد أذهب عطاء أبيه الفقر وأزاله، وبفيض أنمله عم الغنى والخير:

فَأَيْنُ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ وَالذَّهْرُ مَظْلِمٌ      وَأَيْنُ النَّوَالُ الْحَلَوُّ وَالْأَنْفُ الْمُرٌّ  
 فَتَى رَاحَ مَوْجُودًا بِنَائِلِهِ الْغِنَى      كَمَا طَاحَ مَفْقُودًا بِأَنْمَلِهِ الْفَقْرُ<sup>(٤)</sup>

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٥.

(٣) المصدر نفسه، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

(٤) ابن الساعاتي، الديوان، ص ٢٨٤.

إن ما يثير حزن ابن الساعاتي، أن هذا العطاء كله زال وكأنه حلم، وأضحى كأنه لم يكن،

وهو في حزنه هذا إنما يتوصل إلى مزيد من الإشادة بهذا العطاء:

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ صَلْبًا عَلَى الْعَجْمِ عَوْدُهُ      إِذَا طَرَقَتْ صَمَاءٌ لَانَ لَهَا الصَّخْرُ  
وَلَا ابْتَسَمَتْ نِيرَانُهُ فِي دَجْنَسَةٍ      فَأُضْحِكْتَ السَّارِي وَقَدْ قَطَبَ الْقُرُ  
هُوَ الْمَرْءُ مَا فِي عَيْنِ إِحْسَانِهِ قَدَى      يُشِينُ وَلَا فِي أُذُنِ نَعْمَائِهِ وَقَرُ<sup>(١)</sup>

ووصف ابن سناء الملك افتقاد الناس جود أبيه، وصوره تصويراً مؤلماً يثير مشاعر الأسى

في النفس، فالناس قد تجمعوا في بيت أبيه كعادتهم يأملون الخير والعطاء، فما وجدوا غير

صمت الموت الذي نشر ظله على المكان، ونيراناً أشعلت إحياء لذكرى ذلك العطاء:

بِدَارِكَ أَقْوَامٌ كَثِيرٌ رَأَيْتَهُمْ      فَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّ لَيْسَ فِي الدَّارِ كِبَارِ  
فَتَسْوِيْدُهَا حَيْطَانُهَا وَهُوَ هُمَا      وَإِقَادُهَا نِيرَانُهَا وَهُوَ تَذْكَارُ<sup>(٢)</sup>

وانطلاقاً من هذا الجود وهذا الفضل كان الآباء ملاذ المستجبرين ومحط رجال السائلين، فلم

يكونوا -لفضلهم- يردون حاجة محتاج، ولا يخذلون مستغيثاً أو مستجيراً، وبأسى ابن الساعاتي

لهؤلاء الذين فقدوا مجيرهم بموت أبيه:

بِمَنْ يَسْتَعِيْثُ الْمُسْتَجْبِرُ مِنَ الرَّدَى      إِذَنْ وَإِلَى مَنْ يَشْتَكِي الرَّجُلُ الْحَرْ<sup>(٣)</sup>

ويرى محيي الدين الشهرزوري في موت أبيه خسارة للناس جميعاً، فقد كان أبوه بمثابة أب

للمسلمين، يعطف عليهم ويقضي حاجاتهم، بحب وعطف، كما الأم الرؤوم:

لَقَدْ عَدِمْتَ مِنْكَ الْبُرِيَّةَ وَالِدًا      أَحَنَّ مِنَ الْأُمِّ الرَّؤُومِ وَأَرْحَمُ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ص ٢٨٦.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٥.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

وقد شارك هؤلاء الأباء في مجتمعاتهم مشاركات فاعلة، في خوض المعارك دفاعاً عن بلاد الإسلام، واتصفوا بأعلى درجات الصبر على النوائب، فابن سناء الملك يصف صبر أبيه المتماهي على كل خطب، وهو صبر يعجز أمامه أي إنسان مهما بلغت شجاعته:

وَقَدْ كُنْتُ صَبَّارًا لِكُلِّ عَظِيمَةٍ      إِذَا قِيلَ فِيهَا لَيْسَ لِلدَّهْرِ صَبَّارٌ (١)

وابن الساعاتي في رثائه أباه، يصور شجاعة أبيه، ويرسمها في صورة عامرة بالحركة

والحياة، فهي هو يغذ المطايا ويحثها استعجالاً للقتال:

سُرَيْتُ وَمَتَنُ الْغُرْبِ كَالْوَجْهِ كَالْحَمِّ      سُتَيْمٌ وَصُدْرُ الشَّرْقِ كَالثَّغْرِ يَفْتَرُّ  
تَغْذُ الْمَطَايَا وَالْكَوَاعِبُ أَعْيُنُ      لَهَا كَيْفُ مَا لَاحَظَتْهَا نَظْرُ شُرُ  
أَيْسَلُمُ لَمْ تُحْطُمْ عَوَامِلُ قَوْمِهِ      وَلَا فُلَّتْ مِنْهَا الْمَهْنَدَةُ الْبَتْرُ  
وَلَا خَضِبَتْ زُرُقُ النَّصَالِ وَعَفَّرَتْ      عَلَى الْأَرْضِ حُمُرٌ مِثْلَ مَا بَدْرُ الْجُمُرِ (٢)

وهذا الأب الشجاع إذا لاح ذكره تهللت له السيوف واهتزت الرماح فرحاً وشوقاً له:

إِذَا ذَكَرْتُ أَفْتَرَّتْ تُغُورُ سَيُوفِهِمْ      سُرُورًا وَهَزَّتْ مِنْ مِعَاطِفِهَا السُّمُرُ  
وَفَدَّتْهُ أَسْمَاءٌ تَعُدُّ كَثِيرَةً      تَصَافِحُ فِي لَبَّاتِهَا النَّصْلَ وَالنَّصْرُ (٣)

فثمة علاقة حميمة تربط بينه وبين عدة الحرب، علاقة كونتها المعارك.

وإن كان ابن الساعاتي وابن سناء الملك قد وصفا أبييهما بالشجاعة، فإن المعري وصف أباه بقوة أخرى تضاهي قوة السيف ومضائه، ألا وهي مضاء اللسان وقوة المنطق وفصاحته، فصرح بأن أباه شاعر مبدع تنقاد له القوافي:

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.

(٢) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٤.

أَمْوَلِي الْقَوَافِي كَمْ أَرَاكَ أَنْقِيَادَهَا      لَكَ الْفُصْحَاءُ الْعَرَبُ كَالْعَجْمِ اللَّكْنِ<sup>(١)</sup>

أضف إلى هذه البراعة في النظم والقول الفصيح، اتزاناً ووقاراً وسماحة وإيثاراً، إنه وقار بلغ منتهاه، وكان نفخة الصور يوم الفرع الأكبر لا تخرجه عنه:

فِيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَخْفُ وَقَارُهُ      إِذَا صَارَ أَحَدٌ فِي الْقِيَامَةِ كَالْعِهْنِ<sup>(٢)</sup>

وهل تراه يزاحم على الحوض يوم القيامة، أم يخلي مكانه لغيره سماحة منه وإيثاراً كما كان في الدنيا، يترفع عن الزحام؟:

وَهَلْ يَرِدُ الْحَوْضَ الرَّوِّيَّ مُبَادِرًا      مَعَ النَّاسِ أَمْ يَأْبَى الزَّحَامَ فَيُسْتَأْنِي  
حِجَا زَادَهُ مِنْ جُرْأَةٍ وَسَمَاحَةٍ      وَبَعْضُ الْحِجَا دَاعٍ إِلَى الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ<sup>(٣)</sup>

ويصور الشعراء المكانة التي حظي بها آباؤهم، فصوروا جزاءهم عند الناس، وكان لهؤلاء الآباء جزاء غير الرثاء عند أبنائهم، فقد جعل الشعراء لأبائهم جزاء عند الناس، وجزاء عندهم وهم الأبناء الثاقلون، ثم الجزاء الأوفى والأكمل عند الله تعالى.

أما جزاؤهم عند الناس، فهو في ذلك الحزن الذي أصاب الناس عند فقدهم، وما هذا الحزن سوى تعبير عن الحب الكبير، والمكانة التي يحظون بها، فابن الساعاتي في رثاء أبيه صور حزن الناس، وخاصة النساء منهم، وربما خص الشاعر النساء بذلك، لأن المرأة أكثر جراءة في التعبير عن حزنها جهاراً، وربما لأن المرأة تستطيع التعبير عن حزنها بأسلوب غير البكاء، أو لأن النساء كن من الفئات التي نالها عطف المرثي ورعايته وفضله، فيصور النساء وهن يبكين أباه، وقد محت الدموع آثار الخضاب والزينة:

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩١١.

(٣) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩١١-٩١٢.

بُكَتَهُ نِسَاءُ الْحَيِّ كُلُّ خَرِيدَةٍ      هِيَ الْغُصْنُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخَضِرُ  
مَحَا الدَّمْعَ آثَارَ الْخِضَابِ وَوَسْمَهُ      فَأَنْمَلُهَا مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ صِفْرٌ<sup>(١)</sup>

وفي تعبير آخر للمرأة عن حزنها، يصورها الشاعر وقد أسفرت عن وجهها وشعرها،  
وحرمت الطيب على نفسها، علامة على أن الخطب عظيم:

سَوَافِرٌ لَا مِنْ رَيْبَةٍ وَتَبْرُجٍ      وَقَدْ وُضِعَتْ عَنْهَا الْبِرَاقِعُ وَالْخَمْرُ  
أَبَتْ أَنْ تَمَسَّ الطَّيْبَ طَيِّ بِرُودِهَا      وَقَدْ أَقْسَمَتْ أَنْ لَا يَكُونَ لَهَا نُشْرٌ<sup>(٢)</sup>

ويظهر الشاعر لنا في هذه الأبيات بعض العادات الاجتماعية العربية في حالة الموت،  
تعبيراً عن الحزن إذ كانت المرأة تحل ضفائرها، وتضع خمارها وتحرم على نفسها الزينة  
والتبرج.

ويصف ابن سناء الملك مدى الحب الذي يكنه الناس جميعاً لأبيه، حتى تمنوا لو يفتدونه من  
الموت بأعمارهم، ويفتديه خيرة الناس وأفاضلهم:

وَأَنْتَ الَّذِي لَوْ يَقْبَلُ الْمَوْتَ فِدِيَّةً      فَدَى عُمراً مِنْهُ الْكَوَاكِبُ أَعْمَارٌ<sup>(٣)</sup>

وصور الشاعر المسلمين في كل الأمصار الإسلامية يشاركون أهل مصر أحزانهم بموته،  
حيث صور محبته وقد عمت قلوب العباد في كل مكان:

وَمَا خَصَّ مِصْرًا وَحَدَّهَا رِزْوَاهَا بِهِ      لَقَدْ رَزَيْتَهُ فِي الْبَسِيطَةِ أَمْصَارُ  
فَلَا تُعَذِّلُوا قَوْمًا تَفَانَتْ نَفْسُهُمْ      عَلَيْهِ أَسَىٌ لِلْقَوْمِ يَا قَوْمِ إِعْذَارٌ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٦.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٢.



وأما جزاؤهم عند أبنائهم الثاكليين، فهو الوفاء الدائم وقطع العهود على أن يظل الحزن ديدنهم، وعدم السلو سبيلهم، ووداع ملذات الحياة غايتهم، فكانهم بذلك يعبرون عن شيء مما تجيش به نفوسهم من حب ووفاء للأباء الراحلين، فهذا أبو العلاء المعري يجتهد في إخلاصه ووفائه لأبيه، فيمر على منزله معظماً مكرماً، وسرعان ما يدرك أنه تكريم المقصر:

أَمْرٌ بِرَبْعٍ كُنْتُ فِيهِ، كَأَنَّما  
أَمْرٌ مِنَ الْإِكْرَامِ بِالْحَجْرِ وَالرُّكْنِ  
وَإِجْلَالِ مَعْنَاكَ أَجْتِهَادٌ مُقَصِّرٌ  
إِذَا السَّيْفُ أَوْدَى فَالْعَفَاءُ عَلَى الْجَفْنِ<sup>(١)</sup>

وكانما إحساسه هذا بالتقصير دفعه إلى محاولة الوفاء أكثر، فعاهد نفسه وأباه على الحزن الطويل، وحرّم على نفسه الرضا والتبسم وكل ما له صلة بالفرح:

نُقِمْتُ الرِّضَا حَتَّى عَلَى ضَاغِكِ الْمَزْنِ  
فَلا جَادَنِي إِلَّا عَبُوسٌ مِنَ الدَّجْنِ  
وَلَيْتَ فَمَيَّ إِن شَامَ سِنِّي تُبَسِّمِي  
فَمِ الطَّعْنَةُ النَّجْلَاءُ يَدْمِي بِلا سِنِّ<sup>(٢)</sup>

وينتهي قصيدته بالإصرار ذاته كما بدأها بهذا الإصرار:

سَأَبْكِي إِذَا غَنَى ابْنُ وَرْقَاءَ بِهَجَجَةٍ  
وَإِنْ كَانَ مَا يُعْنِيهِ ضِدُّ الَّذِي أُعْنِي  
وَنَادِبَةٌ فِي مَسْمَعِي كُلِّ قَيْنَةٍ  
تُغَرِّدُ بِاللَّحْنِ الْبَرِيِّ عَنِ اللَّحْنِ  
وَأَحْمِلُ فِيكَ الْحُزْنَ حَيًّا فَإِنْ أُمِتَّ  
وَأَلْقَكَ لَمْ أُسَلِّكَ طَرِيقًا إِلَى الْحُزْنِ  
وَبَعْدَكَ لَا يَهْوَى الْفَوَادُ مُسْرَةً  
وَإِنْ خَانَ فِي وَصْلِ السَّرُورِ فَلا يُهْنِي<sup>(٣)</sup>

إن حزن أبي العلاء لن ينتهي إلا ببقاء أخروي مع أبيه، حين يودع هو الحياة.

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩٢٩-٩٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩٠٨.

(٣) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٩٤٠-٩٤١.

ويعاهد محبي الدين الشهرزوري أباه، بأن يبكيه بكاء يخلده، أكثر مما خلد بكاء الخنساء

صخرا، وفاء له، حتى أنه يرى في الصبر على موته إثما ووزرا لا يليق به:

سَأْنَسِي الْوَرَى الْخُنْسَاءَ حُزْنَاً وَحَسْرَةً      وَيُخْجَلُ مِنِّي فِي الْبُكَاءِ مُتَمِّمٌ  
وَكَيْفَ أُرْجَى الصَّبْرَ وَالْقَلْبَ تَائِبِعٌ      لِأَمْرِ الْأَسَى فِيمَا يَقُولُ وَيُحْكَمُ  
وَمَا الصَّبْرُ إِلَّا طَاعَةٌ غَيْرُ أَنْتَهُ      عَلَى مِثْلِ رَزْئِي فِيكَ وَزَرٌّ وَمَأْنَمٌ<sup>(١)</sup>

وإذ يعاهده على الحزن ما دام حيا، فإن من حق الوفاء عليه أيضا أن يقف شعره عليه،

فيشيد به ويخلده بين الورى:

وَقَفْتُ عَلَيْكَ الْحَمْدُ بَعْدَكَ وَالثَّنَاءُ      يُنْتَرُ مَا بَيْنَ الْوَرَى وَيُنْظَمُ<sup>(٢)</sup>

أما ابن الساعاتي فقد سلك في الوفاء طريقا آخر، فلم يسرف في الحزن المباشر ولا في

ذرف الدمع المذرار، إذ يرى في البوح عن مكنون الحزن والشكوى من ثقل المصيبة، ذلا لا

يليق به:

وَفِي الْبُوحِ بِالشَّكْوَى إِلَى النَّاسِ ذَلَّةٌ      وَأَعْظَمُ بِمِثْلِي أَنْ يُدَاعَ لَهُ سِرٌّ  
وَلَكِنْ أَبِيٍّ مِنْ فِرَاقٍ وَغَرْبَةٍ      فَلَيْسَ غَرِيبًا أَنْ يُضِيقَ بِهِ صَدْرٌ<sup>(٣)</sup>

ومن مظاهر وفائه لأبيه، بديع النظم وجميل الرثاء الذي يعجز أن يأتي به أحد، وشعر

يذهب اللب وتنتشي به القلوب، فسيخلد أباه بالشعر لا بالدمع وفاء له وإخلاصا وحبًا:

وَرَقِي إِلَى عَلِيَّكَ كُلَّ خَرِيدَةٍ      مِنْ النَّظْمِ يَكْرَهُ ضَاقٌ عَنْ كَتْمِهَا الْخِندَرُ  
كَأَنَّ عَصَا مُوسَى يُرَاعِي وَحَاسِدِي      عَلَى نَظْمِهَا فَرَعُونَ وَالْكَلِمُ السَّحَرُ

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٧، وانظر في هذا المعنى ابن سناء الملك، الديوان،

ج ٢، ص ٥١٤.

(٣) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٥.

متى ما أديرت في ندي بيوتها  
يقول صاحب التقوى متى حلت الخمر (١)



ويأخذ وفاء الشعراء لأبائهم صورة أخرى تتمثل بالدعاء الذي عهدناه في رثاء القادة وفي رثاء الأبناء، أن يهمي على القبر ومن فيه ماء السماء، وأن تغمر الحياة بزرعها وزهرها وجمالها القبر وساكنه، إنه موت يفيض بالحياة، ثم تأتي الحياة الأكمل والأكثر خلوداً، التي تتحقق بسلام الله ورحمته، فدعا بها الشعراء لأبائهم، ويتشابه الشعراء في دعائهم، وإن اختلفت تعبيراتهم وألفاظهم، فهذا ابن الساعاتي يدعو لأبيه:

عليك سلام الله دعوة شاكر	منيب وكم نعماء قيدها الشكر
وحلت مطايا الغاديات نسوعها	وإن حل ركب المزن في تربك العقر
تخايل في الأنداء أجباد زهره	كما أختال من عذراء في جيدها نحر
وزارتك أنفاس الخزامى كأنها	تناوك فينا أو خلانقك الزهر
ودبح متن الأرض نسج سمانها	فغودر وجهاً كله ذلك الظهر (٢)

ويلح معنى الحياة هذا على محيي الدين الشهرزوري، إذ نراه يدعو لأبيه أيضاً بها:

وجادك من نوء السماكين عارض	يروض أنماط الثرى وينم (٣)
----------------------------	---------------------------

ويتبع الشاعر هذه الحياة بحياة أخرى أهم وأكثر إلحاحاً، وهي عفو الله ورحمته التي يدعو

له بها:

لقبت من الرحمن عفواً ورحمة	كما كنت تغفو ما حبيب وترحم (٤)
----------------------------	--------------------------------

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٧.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٩.

(٤) المصدر نفسه، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٩.

هذا هو الجزاء والوفاء من الأبناء الشعراء للآباء، فما جزاء الله لهم كما تصوّره الأبناء  
 وصوروه؟ إنه جزاء من جنس العمل، وهذا هو ما اتفق عليه الشعراء الذين رثوا آباءهم، كل  
 صور الثواب بأسلوبه وإحساسه، وما عهده في أبيه من مكارم، فأبو العلاء المعري يرى رضى  
 الله وقد نزل على أبيه تبشّره به الملائكة، لقد أدى أمانة العبادة في الدنيا، فجاءه الأمن والسلام  
 عند الموت:

يُوفِيكَ عَنْ رَبِّ الْعُلَى الصِّدْقُ بِالرِّضَا      بُشِيرًا وَتَلْقَاكَ الْأَمَانَةُ بِالْأَمْنِ<sup>(١)</sup>

أما ابن سناء الملك فقد جمع بين حفاوة الملائكة بابيه وحفاوة المسلمين به إذ شيعوه:

وَشَيْعَةُ التَّكْبِيرِ حَتَّى إِذَا نُوِي      تَلْقَاهُ إِجْلَالٌ هُنَاكَ وَإِكْبَارٌ  
 رَأَتْ أَنْفُسٌ أَكْفَانَهُ وَهِيَ سُنْدُسٌ      وَإِنْ أَبْصَرَتْهَا أَعْيُنٌ وَهِيَ أُطْمَارٌ  
 وَيَا قَبْرَهُ لَا شَكَّ أَنَّكَ جِنَّةٌ      وَلَكِنْ بِهَا مِنْ أَدْمَعِ الْخَلْقِ أَنْهَارٌ<sup>(٢)</sup>

وربما رأى الشعراء في ذلك الحديث عن حسن الخاتمة لأبائهم ما يفى بحقهم، وما يخفف

عن قلوبهم ثقل المصيبة بفقدتهم.

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩٣٣.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٣.

## رثاء الأبناء:

كان لفقد الأبناء وموتهم تأثير كبير على الشعراء، إذ طغى الإحساس بالحزن والألم وعظم الفجبة على مشاعرهم، حتى أصبح هذا الفقد هو المحور الذي تدور حوله حياة الشاعر، ومنه تتبثق انفعالاته وأحاسيسه. ورؤيته للحياة حوله، وموقفه من الكون والكائنات، حتى أن موتهم شكل وكون فلسفة خاصة لدى الشعراء الثاكلين حول الموت والحياة، وحب الاستقرار فيها، وكون موقفا من الأماني والأحلام التي أضحت بموت أبنائهم هباء منثورا.

وقد أكثر الشعراء من الحديث عن أحوالهم بعد الحدث المؤلم، ووصفوا أنفسهم وما آلوا إليه وصفا دقيقا، وكان الحزن هو القدر المشترك عند الشعراء، فتشابهوا في الحديث عنه، وتقاربت أفكارهم تقاربا واضحا، ولعل مرد ذلك إلى أن طبيعة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث متقاربة.

وأجمع معظم الشعراء على أن الحزن لفقد الولد لا يدانيه حزن، فأكثروا من التصريح به بأساليب متنوعة، ليستخرجوا حزن القارئ من مكانه، فيشاركهم لوعتهم وأحزانهم، ومن صور تعبيرهم عن هذا الحزن، البكاء وكل ما يدل عليه من لوعة وكآبة وأسى، والشاعر التهامي يخونه الصبر، ويخيم ظلام الحزن عليه، ويعيش قلقا واضطرابا يوهي القلب والروح، فما أن تركز نفسه إلى التصبر حيناً، حتى يعلو حزنه مرة أخرى ليطنغى على كل شيء:

أَبَا الْفَضْلِ طَالَ اللَّيْلُ أَمْ خَانَنِي صَبْرِي	فُخِّيلَ لِي أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْرِي
أَرَى الرَّامِلَةَ الْبَيْضَاءَ بَعْدَكَ أَظْلَمَتْ	فَدَهْرِي لَيْلٌ لَيْسَ يَفْضِي إِلَى فُجْرٍ
فَبِي مِنْهُ مَا يُوْهِى الْقَوَى غَيْرُ أَنْنِي	بُنَيْتُ كَمَا بِنَى الْكَرِيمُ عَلَى الصَّبْرِ

وما صَبِرَ مَحْزُونٍ جُنَاحُ فَوَادِهِ  
يُرْفِرُفُ مَا بَيْنَ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ (١)

وعمارة اليمني يرثي ولده حسينا بدمع غزير، وقلب ملوع، ونار تتأجج في الأحشاء، فقد

كان هذا الطفل مؤنسه، وعدته، وبه كان سيصول ويجول فإذا به صفر اليبدين:

الدَّمْعُ يَهْمَلُ وَالْفَوَادُ عَلِيلٌ      وَالْقَلْبُ فِي غَمْرَاتِهِ مُتَبَوِّلٌ  
وَلَقَدْ أَبَيْتُ وَفِي حَشَائِي جَمْرَةٌ      مُتَأَجِّجٌ بِالْحَرِّ لَيْسَ يَكْزُولُ  
مَنْ فُقِدَ طِفْلٌ كَانَ لِي وَمُؤْنَسِي      وَبِهِ عَلَى الْأَيْسَامِ كُنْتُ أَصُولُ (٢)

وعبروا عن حزنهم كذلك بمجافاة النوم والرقاد، وكان في ذلك مزيدا من الوفاء والحب

للأين، فهذا أسامة بن منقذ، أكثر ما يثير جراحه وينكؤها زيارة قبر ابنه أبي بكر:

أزورُ قَبْرَكَ مُشْتَاقًا فَيَحْجِبُنِي      مَا هَيْلُ فَوْقَكَ مِنْ تَرَبٍّ وَأَحْجَارٍ  
فَأَنْتَنِي وَدُمُوعِي مِنْ جَوَى كَيْدِي      تَفِيضُ فَأَعْجَبَ لِمَاءٍ فَاضٍ مِنْ نَارٍ (٣)

إن عاطفة الأبوة التي تجيش في صدر أسامة جعلته يفزع من تلك الحجارة التي أهيلت على

جسد ابنه، فما عاد العقل قادرا على الاهتداء حتى إلى الطريق:

فَأَنْتَنِي لَسْتُ أَدْرِي أَيْنَ مَنْقَلْبِي      كَأَنْتَنِي حَائِرٌ فِي اللَّيْلِ مَعْتَسِفٌ (٤)

وإن كان الدمع عند غيره من الشعراء يفرج شيئا من الهم والحزن، فإن البكاء يزيد أسامة

ألما ولا يكاد يشفي له غليلا:

وَكُنْتُ أَظُنُّ الدَّمْعَ يَبْرُدُ غَلَّتَنِي      إِلَى أَنْ بَدَأَ لِي أَنْ دَمَعَ الْأَسَى جُمْرًا (٥)

(١) التهامي، الديوان، ص ٧٧، ٧٩.

(٢) عمارة اليمني، المختار، ص ٣٢٩.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

وإذ يأخذ الحزن من الشعراء كل مأخذ، فإن السلو يصبح شيئاً بعيداً، ومرفوضاً بالنسبة لهم، وكأنهم في إصرارهم على رفض التأسي يعلنون محبتهم الأكيدة لأبنائهم، ومزيدياً من الإخلاص والوفاء، فالتهامي يرد على الذين قالوا إنه سينسى ابنه الميت بغيره من الأبناء، يرد معاهداً إحساسه بالأبوة المفجوعة بأنه لن ينسى، فإن رؤية غيره من الأبناء تذكره به وتزيده هما ووجعا:

وَقَالُوا سُبَيْلِيهِ التَّأْسِي بِغَيْرِهِ      فَقُلْتُ لَهُمْ هَلْ يُطْفَأُ الْجَمْرُ بِالْجَمْرِ  
فَلَا تَسْأَلُونِي عَنْهُ صَبْرًا فَإِنِّي      دَفَنْتُ بِهِ قَلْبِي وَفِي طَيْبِهِ صَبْرِي (١)

ويعاهد عمارة اليمني نفسه أن يبقى حزنه على ابنه حياً خالداً في وجدانه ووجدان الناس، كما الابن حي في وجدان أبيه، فيقول في رثاء ابنه محمد:

سَأْبِكِي عَلَى ابْنِي مُدَّتِي وَحَيَاتِي      وَيَبْكِيهِ عَنِّي الشَّعْرُ بَعْدَ مَمَاتِي (٢)

ويبرز أسامة بن منقذ مدى حزنه العظيم على فقدان ابنه، بتصوير تلك التدايعات النفسية، والصراع الداخلي الذي يثور في نفسه، وذلك التفكير الباطن في محاولة يائسة للتسلي وربما للقاء من غاب، فما هو يستدعي النوم، فربما خيال أو طيف من الابن الغائب يأتي:

وَإِنِّي لِأَسْتَدْعِي الْكَرَى وَهُوَ نَافِرٌ      بِهِ مِنْ جَفُونِي أَنْ يُلَمَّ بِهَا دَعْرٌ  
لَعَلَّ خَيْالاً مِنْكَ يُطْرَقُ مُضْجَعِي      فَأَشْكُو إِلَيْهِ مَا رُمَانِي بِهِ الدَّهْرُ (٣)

وتمثله الأفكار والذكريات له كل ليلة، فيراه في فكره متمثلاً متجسداً، ويراه في نجم السماء

حاضراً فيأنس به:

(١) التهامي، الديوان، ص ٨٠.

(٢) عمارة اليمني، المختار، ص ١٨٤.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٦.

تَمَّتْكَ الْأَفْكَارُ لِي كُلَّ لَيْلَةٍ      وَتَوَنُّسَنِي أَشْبَاهُكَ الْأَنْجُمُ الزَّهْرُ (١)

وثمة دوافع كانت تفجر الحزن من مكانه عند الشعراء الذين رثوا أبناءهم، لما كان الأبناء يمثلونه لأبائهم من قيمة ومعنى في الحياة، فقدوه بفقداهم، فكان التهامي يرى في ابنه شطر الحياة الجميل، شطر الحياة الذي يستحق أن يحياه الإنسان ويتمسك به، ودونه لا داعي للحياة:

مَضَى بِأَبِي الْفَضْلِ شَطْرَ الْحَيَاةِ      وَمَا مَرَّ أَنْفُسُ مِمَّا بَقِيَ (٢)

والقاضي جمال الدين عبدالرحيم، يرى في موت ابنه موتا لبعض كيانه، وهو بعضه الأعز:

مَا الَّذِي أَطْمَعُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ فَارَقْتُ بَعْضِي

هَكَذَا تَفَلَّتُ الدُّنْيَا مِنَ الْأَيْدِي وَتَمَضَى (٣)

ويبلغ الأسى عند التهامي مبلغه، عندما يبين أنه كان يدخر هذا الابن لدينه وديناه، أما أن يكون له عونا في حياته، وابنا صالحا ينفعه بعد مماته:

رَجَوْتُكَ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ قَبْلَهَا      وَرَحْتُ بِكَفِّ مَنْ رَجَاهُمَا صِفْرًا (٤)

كما كان يعني له تعويضا عن شبابه وقوته التي انقضت، فإذا بالشباب يولي إلى غير رجعة:

وَلَمَّا أَتَى بَعْدَ الْمَشَيْبِ عُدَّتْهُ      بَعَصِرِ الشَّبَابِ الْغُضُّ بَوْرِكَ مِنْ عَصْرِ

وَقَلَّتْ شُبَابُ ابْنِي شَبَابِي وَإِنَّمَا      يُنْقَلُ مَعْنَى الشُّطْرِ مِنِّي إِلَى الشُّطْرِ

فَوَلَّى كَمَا وَلَّى الشَّبَابُ كِلَاهُمَا      حُمَيْدٌ فُقَيْدٌ طَيِّبُ الْعُهْدِ وَالْبِشْرِ (٥)

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٦.

(٢) التهامي، الديوان، ص ٩٣.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، قسم ٢، ج ٨، ص ٦٥٣.

(٤) التهامي، الديوان، ص ٨٢.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٢.



وينعى عمارة اليمني ابنه إسماعيل الذي لم يعيش سوى سبع سنين، كانت من أجمل السنين

التي عاشها الأب مع ابنه:

أَرْجُو بَقَاءَ أُمِّ صَفَاءَ حَيَاةٍ      وَقَدْ بَدَّدْتَ شُمْلِي النَّوَى بِشَنَاتِ  
 أَتْبَلِي اللَّيَالِي لِي بُنْيَا دُخْرَتَهُ      وَتَبْقَى لِي الْأَيَّامُ شُرَّ بِنَاتِي  
 وَمَا عَشْتُ إِلَّا سَبْعَةَ مِنْ سِنِّي الْوَرَى      سَقَى عُهُدَهُنَّ اللَّهُ مِنْ سُنَوَاتِ<sup>(١)</sup>



ولم يكتف الشعراء بتصوير شعورهم الحزين وبكائهم وأرقهم، بل أضافوا إلى رثائهم الإشادة بمناقب الابن وخصاله الحميدة، وهذا أمر مستحسن في المراثي ((فأحسن الشعر ما خلط مدحا بتفجع، واشتكاء بفضيلة، لأنه يجمع التوجع الموجه تفرجا، والمدح البارع اعتذارا من إفراط التفجع باستحقاق المرثي))<sup>(٢)</sup>.

فبكى الشعراء تلك المناقب التي اندثرت بموت أبنائهم بكاء زاد في لوعتهم وحسرتهم، وكانت مناقبهم تلك، هي التي استقر وزنها في المجتمع، وظل الناس يعلون من شأنها ومنزلتها، ويجلون من حازها، ويجعلون منها مقياسا ومثالا عاليا يتطلع الجميع إليه ويطمح، ومن هذه المناقب، البطولة والشجاعة والجود، فالتهامي يبكي في ابنه آمالا كبارا كانت معقودة على ذلك الصغير، ومناقب عظيمة كانت تبدو إماراتها عليه فما اكتملت، وما اكتمل فرح الأب بها:

وَسِبَلٌ رَجُونَا أَنْ يَكُونَ غَضْنَفَرًا      فَمَاتَ وَلَمْ يَجْرَحْ بِبَابٍ وَلَا ظَفِيرِ  
 أَحْيَيْنَ نَضًّا تَوَبُّ الطُّفُولَةَ نَاسِلًا      كَمَا يُنْسَلُ الرَّيْشُ اللَّوَامُ<sup>(٣)</sup> عَنِ النَّسْرِ

(١) عمارة اليمني، المختار، ص ١٨٧.

(٢) المبرد، التعازي، ص ٢٧.

(٣) اللوام: ريش لوام، يلائم بعضه بعضا، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة لأم.

وَأَلْقَى تَمِيمَاتِ الصَّبِيِّ وَتَبَاشَرَتْ  
 حَمَائِلُ أَغْمَارِ الْمُهَنْدَةِ الْبُتْرِ  
 وَبَانَ عَلَيْهِ الْفُضْلُ قَبْلُ أَنْغَارِهِ  
 وَيُبْدُو وَإِنْ لَمْ يَنْغَرِ كَرَمِ الْمَهْرِ (١)

ولم تكن تلك المناقب سوى آمال وأحلام يرجوها الأب في ابنه، فالشجاعة حلم وأمل،

وليست شيئاً واقعا موجودا محققا، يؤكد هذا الحلم قول الشاعر:

وَضَاعَفَ وَجْدِي أَنْ قُضِيَتْ وَلَمْ تَقُمْ  
 مَقَامَ الشَّجَا الْمَعْرُوضِ فِي نُغْرَةِ النَّغْرِ  
 وَلَمْ تَلَقْ صَفًّا مِنْ عِدَاكَ بِمِثْلِهِ  
 كَمَا أُسْنِدُ الْكِتَابِ سَطْرًا إِلَى سَطْرِ (٢)

ويعن الأب في حلمه، حين يعن في عرض الصورة بدقائقها وتفصيلها، صورة المعركة

التي يتألق فيها حلم الأب بشجاعة ابنه المرتقبة، معركة تزخر بالعنف فيملاً صدى صوت

السيوف فيها أفق الشاعر، ويتألق فيها الابن الفارس، الابن الحلم، فيقول:

يَضْرِبُ يَطِيرُ الْبَيْضُ مِنْ حَرٍّ وَقَعِهِ  
 شُعَاعًا كَمَا طَارَ الشَّرَارُ عَنِ الْجَمْرِ  
 تَرَى زُرْدَ الْمَازِي مِنْهُ مُفَكَّكًا  
 يَطِيحُ كَمَا طَاحَ الْقَلَامُ عَنِ الظُّفْرِ (٣)

وبموت الابن، يتهاوى حلم الأب بنصر مؤزر لدين الله، يضيفه هذا الابن إلى انتصارات

المسلمين:

وَلَمَّا تَضَيَّفَ فِي نَصْرَةِ اللَّهِ طَعْنَةً  
 إِلَى ضَرْبَةٍ كَالْتَيْنِ فَوْقَ شَفَا نَهْرٍ (٤)

وربما أسقط التهامي على ابنه ما كان تواقا إليه، ولم يستطعه في حياته، وكساه ثوبا من

الأمانى والأحلام كان يرجو تحقيقها، واقتلعها الفاطميون من جذورها حين أودع التهامي في

السجن، ثم قتل بعدها.

(١) التهامي، الديوان، ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٨٠.

ولم يقتصر بكاء بعض الشعراء على مناقب أبنائهم المرجوة فحسب، وأحلامهم التي بعثرها الموت، فقد بكوا جمال هؤلاء الأبناء، ووجوههم المشرقة، ورائحتهم الطيبة الشذية، ونقاءهم المفقود، ذلك النقاء الذي كان يمنح حياة الشاعر ألقا وإشعاعا، ويزرع في قلبه البهجة، فيبكي التهامي وجه ابنه الأبلج ببياضه المشرق:

بِأَبْلَجٍ لَوْ يَخْفَى لَنَمَّ ضِيَاؤُهُ      عَلَيْهِ كَمَا نَمَّ النَّسِيمُ عَلَى الزُّهْرِ  
وَكَانَ كَمِثْلِ الْعَنْبَرِ الْجَوْنِ لَبْنَةً      فَبَانَ وَأَبْقَى فِي يَدِي عَبْقُ الْعَطْرِ<sup>(١)</sup>

ومن هؤلاء أيضا، أسامة بن منقذ الذي اختصر كل ما يمكن أن يشيد به بابنه أبي بكر فسوره بالدره، بما تحويه من جمال وندرة، وعلو قيمة، وحب اقتناء الإنسان لها:

أَزُورُ قَبْرَكَ وَالْأَشْجَانَ تَمْنَعُنِي      أَنْ أَهْتَدِيَ لَطْرِيقِي حِينَ أَنْصَرِفُ  
فَمَا أَرَى غَيْرَ أَحْجَارٍ مُنْصَدَّةٍ      قَدْ أَحْنَوْتُكَ وَمَاوَى الدَّرَةِ الصَّدْفِ<sup>(٢)</sup>

وإن كان الشاعر قد رثى جمال ابنه، فلا نظن أن هذا الرثاء أصدق من البكاء على المنقلب التي لم تتضح بعد، فضياع الابن وانهيار الحلم والأمل، أصعب على النفس من التحسر على جمال في الوجه أو طيب في الرائحة مثلا، فخسارة الجمال الجسدي لا يوصل الإنسان إلى اليأس ولا إلى ذروة الحزن والأسى الذي يعانيه الشاعر بفقدان الحلم ببطولة الابن وشجاعته، وتحقيق ما عجز الأب عن تحقيقه، لأن تلك المناقب وإن لم تتضح بعد، فإن حلم الأب وآماله فيها قد نضجت، تلك الأحلام التي أدى زوالها إلى آثار وتحولات سلبية على الأب الشاعر، فالتهامي بعد موت ابنه الذي عقدت عليه الآمال، ما عاد يبالي بشيء في هذا الوجود، فما في بطن الأرض مساو لما على ظهرها:

(١) التهامي، الديوان، ص ٧٧.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٩، وينظر الأصفهاني، خريدة القصر، ج ١، ص ١٠٥.

فَلَوْ لَفَظْتُكَ الْأَرْضُ قَلْتُ تَشَابَهَتْ      مَنَاطِرُ مَنْ فِي الْبُطْنِ مِنْهَا وَفِي الظَّهِيرِ (١)

بل أن ذلك القلق الذي كان يسكن الشاعر حذرا وحرصا على ابنه، قد سكن، فما عاد في

الحياة ما يثير في نفسه قلقا:

أَمِنْتُكَ لَمْ يَبْقَ لِي مَنُ أَخَافُ      عَلَيْهِ الْجَمَامُ وَلَا أَنْتَقِي  
وَقَدْ كُنْتُ أَشْفِقُ مِمَّا دَهَاهُ      وَقَدْ سَكَنْتُ لَوْ عَاةَ الْمُشْفِقِ (٢)

ويزهد القاضي جمال الدين عبدالرحيم في الحياة بعد ما فارق ابنه، وما عاد له فيها وطر:

ما الذي أطمع في الدنيا وَقَدْ فَارَقْتُ بَعْضِي؟ (٣)

وسديد الدين بن رقيقة ما عاد يبالي بمن عاش من الناس ومن مات، فقد غاب من كان

يخشى عليه:

فلست أبالي حين بنت بمن ثوى      ولم أر من أخشى عليك وأحذر (٤)



ومن الآثار النفسية التي خلفها موت الأبناء على آبائهم الشعراء، تمنى الموت وافتداء هؤلاء الأبناء بالمهج والأرواح، وكان الشاعر في هذه الأمنية، وفي هذا الإحساس يعبر عن وفائه وحبه لابنه الراحل. ولا يتصور أن يكون هذا التمني افتداء لتلك المناقب التي مدح بها الشعراء أبناءهم، فعاطفة الأبوة تتجاوز هذه الأسباب، ليكون الدافع في هذه الأمنية هو الحب الأبوي الكبير، وعاطفة الأبوة الفطرية، فلو كان المرثي قائدا أو خليفة، لاستطعنا تصور الرغبة في الافتداء من منطلق افتداء المناقب

(١) التهامي، الديوان، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، الديوان، ص ٩٣.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، قسم ٢، ج ٨، ص ٦٥٣.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧١٦.

ذاتها والحفاظ على خليفة أو قائد يحتاجه المسلمون جميعهم، ولكن الأمر يختلف في رثاء الأبناء، والتهامي إذ يكني في البيت السابق عن تمنيه الموت بعد ابنه، فإنه يصرح بهذه الرغبة في موقع آخر، إذ تنحصر رغبته في أمرين إما أن يعيش وابنه معا وإما أن يموتا معا:

فَوَاللَّهِ لَوْ أَطَّيْعُ قَاسِمَتَهُ الرَّدَى      فَمِتْنَا جَمِيعاً أَوْ لِقَاسُمِنِي عُمَرَى  
وَلَكِنَّمَا أُرَوِّحُنَا مِلْكَ غَيْرِنَا      فَمَالِي فِي نَفْسِي وَلَا فِيهِ مِنْ أَمْرٍ (١)

وعمارة اليميني في رثائه ابنه حسينا، يتمنى الموت، فما الموت سوى راحة أضحي يسعى إليها:

أَتُرَى يَكُونُ لِي الْخَلَّاصُ قَرِيبٌ      فَالْمَوْتُ بَعْدَكَ يَا بُنَيَّ يُطِيبُ  
عَلَّتْ فِيكَ الْحَزْنَ كُلَّ تَعَلَّةٍ      لَمْ تُنْفَعْنِي شَرْبَةً وَطِيبٌ (٢)

وإذ يتمنى الشاعر الموت، فإنه لا يعد بقاءه وحياته بعد ابنه من الوفاء في شيء:

وَمَا أَنَا بِالْوَافِي وَقَدْ عَشْتُ بَعْدَهُ      وَرَبِّ اعْتِرَافٍ كَانَ أَبْلَغُ مِنْ عُدْرٍ (٣)

فهذا أسامة بن منقذ، يصف شففته على ابنه بخوفه من الموت حتى لا يعيش ابنه مرارة اليتيم، فكان الشاعر كان يستبعد الموت عن ابنه بحكم سنه الصغيرة، فإذا بالأمر يأتي مخالفا لما اعتقد، ويعيش هو تكله بابنه، وفي هذه اللحظة يتمنى الشاعر لو أن الابن عاش مرارة اليتيم ليبقى على قيد الحياة:

خُشِيتُ عَلَيْهِ الْيَتِيمَ لَكِنِّ تَكَلُّهُ      وَلَوْعَتُهُ لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى فِكْرٍ

(١) التهامي، الديوان، ص ٧٨.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ١٨٠.

(٣) التهامي، الديوان، ص ٨٣.

فِيَا لَيْتَهُ لَأَقَى الَّذِي كُنْتُ أُخْتَشِي عَلَيْهِ وَأَنِّي دُونَهُ صَاحِبُ الْقَبْرِ (١)

ويختلف البهاء زهير في طبيعة الفداء الذي يريده ويتمناه لابنه، فلا نجده يتمنى الموت بدلا

من ابنه بل يتمنى لو أن الناس جميعا ماتوا فداء له:

فَلَيْتَكَ لَوْ بَقَيْتَ لِضَعْفِ حَالِي وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِدَاكَ (٢)

وهو مع حزنه الشديد يفترض أن يموت هلاكاً بعد موته، فما الموت حزناً وفرقا إلا وفاء

له:

وَمَا لِي أَدَّعِي أَنِّي وَفِيَّيْ وَلَسْتُ مَشَارِكًا لَكَ فِي بِلَاكَ

تَمُوتُ وَمَا أَمُوتُ عَلَيْكَ حُزْنًا وَحَقُّ هَوَاكَ خُنْتُكَ فِي هَوَاكَ (٣)

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٥.

(٢) البهاء زهير، الديوان، ص ٢٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٧.

## رثاء الأخوة:

لا يختلف رثاء الأخوة في الأفكار التي يعرضها الشاعر في قصيدته عن رثاء الأبناء والأبناء، فالتعبير عن الحزن هو القاسم المشترك بين الشعراء، إضافة إلى الإشادة بالمناقب التي يمتاز بها الأخ وتصوير ما آلت إليه حال الشاعر بفقده، لما كان يمثل من قيمة معنوية عالية، ولما كان لوجوده من أهمية نفسية عند الشاعر، إلى غير ذلك من معاني الرثاء التي سبق ذكرها، فتميم بن المعز يقدم لحزنه وأساه بموت أخيه عقيل، بالحكمة حول حتمية الموت على كل إنسان، هذه الحكمة التي فرضها الموت على كل الشعراء، ليبيكي بعد ذلك شباب أخيه ويندبه:

قِسْمَةُ الْمَوْتِ قِسْمَةٌ لَا تَجُورُ	كُلُّ حَيٍّ بِكَاسِهَا مَخْمُورُ
يَسْتَوِي كُلُّ مَنْ تَفَاوَتْ فِيهَا	لَا أَمِيرٌ يَبْقَى وَلَا مَأْمُورُ
فَأَصَابَتْ يَدَ الْمُنُونِ عَقِيلًا	وَهُوَ مِثْلُ الْقَضِيبِ غَضٌّ نُضِيرُ
حِينَ هَزَّ الشَّبَابُ أَعْطَافَهُ الْغَيْبَ	دَ وَحِينَ اسْتَوَى لَهُ التَّعْمِيرُ
لَمْ يَجَاوِزْ حُدَّ الثَّلَاثِينَ إِلَّا	بِلِيَالٍ لَيْسَتْ لَهَا تَكْثِيرُ <sup>(١)</sup>

وقد بكى تميم أخاه الشاب، وأفاض في تصوير أساه الذي يبدو أنه سيكون دائما، فلا شيء يطفى نار الحزن، ولا شيء يعيد إلى القلب صبره، ولا إلى نفس الشاعر هدوءها وأمانها الذي كان:

أَهْ مِنْ لَوْعَةٍ لَهَا فِي سَوَادِ الْـ	عَيْنِ دُمْعٌ وَفِي الْفُؤَادِ زَفِيرُ
فَسَابِكِيكَ يَا عَقِيلُ بِقَلْبِ	فِيهِ مِنْ حُزْنِهِ عَلَيْكَ سَعِيرُ
كُنْتُ قَدَمَا أَظُنُّ أَنِّي جَلِيـ	لَيْسَ يَلْسُوِي عَزِيمَتِي الْمُحْذَرُ

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٢٢٦-٢٢٧.

فَأَرَانِي مِمَّا بَلَ الصَّبْرُ عِيًّا      أَيُّ قَلْبٍ عَلَى الْخُطُوبِ صُبُورٌ<sup>(١)</sup>

وإن كان تميم بن المعز شفى غليله بالدمع، فإن تاج الملوك الأيوبي لم يجده دمه الغزير في شيء، ولم يطفئ له غليلا، فالحزن أعظم من أن يطفئ ناره الدمع الذي يكاد يزيد نار الحزن بدلا من إطفائها:

لو كان يُشْفِي الدَّمْعُ غُلَّةً وَاجِدٍ      لَشَفَى غُلِيلِي فَيَضُ دُمْعِي الْهَامِرِ  
هِيَهَاتُ لَا بُرْدُ الْغُلِيلِ، وَقَدْ تَوَى      مَنْ كَانَ مِنْ عُدْدِي وَخَيْرُ دُخَائِرِي<sup>(٢)</sup>

وبموت الملك المعظم شمس الدولة يرى أخوه تاج الملوك الأيوبي أن الديار أفسرت من البهجة والملك خبا شعاعه، والرجال فقدوا بموته عدة لهم وذخرا:

يَا لِلرِّجَالِ لِنُكْبَةٍ قَدْ أَذْهَبَتْ      جَلْدَ الْجَلِيدِ وَحَسْنَ صَبْرِ الصَّابِرِ  
طَرَقَتْ فَتَى الْمَلِكِ الْمُعْظَمِ فَاثْتَشَى      مَنْ بَعْدَ بَهْجَتِهِ كُرْبَعِ دَاثِرِ<sup>(٣)</sup>

ويتساءل الصاحب شرف الدين الأنصاري في رثائه أخاه، عن سروره الذي كان ونومه الهنيء، تساؤلا يبرز من خلاله تغير حاله، فالقلب غائب والجفن مقرح والجسم هزيل ضعيف:

أَيْنُ فُؤَادِي وَالْجَفْنُ وَالْجِسْمُ، إِذْ      نَبَتْ سُرُورِي وَالْغَمُّضُ وَالْمُضْجَعُ؟<sup>(٤)</sup>

وفي تعبير آخر عن أحزانهم وأساهم، نرى الشعراء يتمنون الموت بعد فقدهم إخوانهم، يتمنونه حنينًا وشوقًا عسى لقاء يجمع بينهم، فابن قاضي خلاط في رثائه أخاه محمودا، يدعو لنفسه بالموت، فلعله يلقاه:

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٢٢٨.

(٢) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٤) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣١١.



بَعْدُ أَنْ قَدْ مَتَّ لَا مَتَّ      تَعَتْ بِالْعُمْرِ الطَّوِيلِ  
فَعَسَى أَلْقَاكَ إِنْ      قَالَتْ لَكَ عَمَّا قَلِيلٍ (١)

ولا يختلف عنه شرف الدين الأنصاري في الأمنية ذاتها للهدف ذاته:

وَلَيْسَ يُعَدِّي عَلَى الْبِعَادِ سِوَى الْـ      مَوْتٍ لَعَلَّ الْمَعَادَ أَنْ يَجْمَعَ (٢)

وإن كان شرف الدين الأنصاري قد تمنى الموت، فإن ابن سناء الملك فكر بقتل نفسه حتى

يلحق بأخيه، ولكن إيمانه بالله وخوفه من مصيره إلى النار فتفرقه عن أخيه يمنعه من ذلك:

وَكَمْ رَمَتْ قَتْلَ النَّفْسِ فِيكُمْ فَصَدَّنِي      وَصَبَّرَنِي عَنْ قَتْلِ نَفْسِي إِيْمَانِي  
وَوَخُوفِي أَنْ أَمْضِيَ إِلَى عِنْدِ مَالِكٍ      فَيَغْتَمُّ مِنْهُ قَلْبُهُ عِنْدَ رِضْوَانٍ (٣)

وإذ أفاض الشعراء في وصف أحزانهم ولواعج قلوبهم، فقد حرصوا على استثارة هذه المشاعر عند الناس، ربما ليسوغوا هذا الحزن العظيم، فاستثاروا هذه المشاعر بالحديث عن ذكرياتهم الحية مع أشقائهم الغائبين تارة، وعن المكانة التي كانت لهم في حياتهم وما كانوا يمثلونه لهم من قيم ومعان، وما آل إليه حال الشعراء بعد فقدهم، فهذا القاضي الفاضل يستعيد بأسى، ذكرياته مع أخيه، حين كانا يتخاصمان فيصد عنه، فليته يعود، ويعود معه ذلك الخصام الذي أضحى حبيبا إلى قلبه، ولا يخفى ما في هذا التمني من إحساس بالأسى:

وَكَانَ أَجَلُ الْخُطْبِ عِنْدِي صُدَّهُ      فَمَنْ لِي؟ وَطُوبَى لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصِّدْرِ (٤)

وابن سناء الملك يصور بحب يستثير حزن القارئ، مشهد الخلاف الأخوي الدافئ بينهما، يغضب الشاعر ويجفو، ويعود الأخ إليه محبا ودودا، يقابل الجفاء بالحب، والغضب

(١) ابن الشعراء، عقود الجمان ج ١، ص ٩٩.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣١١.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٣.

(٤) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٢.

بالاسترضاء، أي فقد مفعج سيكون موت هذا الأخ، وأي ذكرى مؤلمة تلك التي يستعيدها الشاعر؟:

وَأَغْضِبُهُ لَكِنَّهُ يَبْرُضَانِي<sup>(١)</sup>      وَكَمْ كُنْتُ أَجْفَوُهُ وَكَانَ يُحِبُّنِي

كما عمد الشعراء إلى وصف ما آل إليه حالهم بعد فقد إخوانهم، ليشاركهم القارئ أحزانهم،

فتميم بن المعز أضحي وحيدا لا سند له ولا قوة ولا أصل ولا فرع:

كَيْفَ يَبْقَى امْرُؤٌ تَوَلَّى أَبُوهُ      وَأَخُوهُ فَحَبْلُهُ مَوْتٌ—وَرُ  
بَانَ أَصْلِي وَجَدَّ فَرَعِي وَاللَّ—      هُ عَلِيمٌ بِمَا تُجِنُّ الصَّدُورُ<sup>(٢)</sup>

وبعد أن كان ابن سناء الملك يرى في أخيه روح الجسد وريحانة الحياة، فإن موته قد بتر

جزءا من حياته مهما، بتر قوته فأضعفها:

وَفِيهِمْ أَخٌ لِي كَانَ رُوحِي وَرَاحَتِي      كَمَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ رُوحِي وَرَيْحَانِي

وفي قوته قال:

وَأَعْلُو عَلَى الْأَطْوَادِ مِنْهُ بِمِثْلِهَا      كَمَا يَلْتَقِي الصَّوَانُ مِنْهُ بِصَوَانِ  
يُسُوِي سَنَاخِيبِ<sup>(٥)</sup> الذُّرَى وَيُدْكُهَا      فَيُرْكُضُ فِي أَعْلَى رَبَاهَا بِمِيدَانِ<sup>(٣)</sup>

وفي مشهد تصويري حزين يصف الشاعر زيارته قبر أخيه وما اعتراه من مشاعر الأمل

بأن أخاه حي في قبره، يبادلته الذكرى، ومشاعر الحنين الدافق الذي يخلع ثوب الحياة على

الميت، فيكاد ينفض عنه التراب، ليمارس حياة كأنها قبل الموت:

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٣.

(٢) تميم بن المعز، الديوان، ص ٢٢٨.

(٥) سناخيب الجبل: رؤوسه، ومفردها سناخاب، انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة سناخب.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٤.

وَهَيْهَاتَ أَنْ أَنْسَاهُ مَا هُبَّتِ الصَّبَا  
وَأَحْسَبُهُ فِي قَبْرِهِ لَيْسَ يَنْسَانِي  
وَكَمْ زُرْتُ مِنْهُ قَبْرَهُ فَرَأَيْتُهُ  
بِعَيْنِ ضَمِيرِي قَائِمًا يَنْتَلِقُنِي  
يَكَادُ إِذَا مَا جَنَّتَهُ أَنْ يُضَمَّنِي  
وَيُمْسِكُنِي عِنْدَ الرُّوْحِ بِأَرْدَانِي<sup>(١)</sup>

إنه مشهد يصور تلك الوحدة البائسة التي بات الشاعر يحيها بعد موت أخيه، وهي الوحدة ذاتها التي يعانيتها شرف الدين الأنصاري بعد موت أخيه، وحدة تجعل الديار الأهله موحشة حين تخلو من هذا الأخ، والمقابر المقفرة من الحياة مؤنسة إذ يحل بها ذلك الجسد:

تَوْحِشُنِي بَعْدَكَ الدِّيَارُ كَمَا  
يُؤْنِسُ نَفْسِي مُحَلِّكَ البَلْقَعِ<sup>(٢)</sup>



وكما أشاد الشعراء بمناقب آبائهم وأبنائهم، فقد أشادوا بمناقب إخوانهم أيضا، ورثوا فقدانها، فأناروا أو حاولوا استئثاره حزن القارئ إذ غابت تلك المناقب بغيابهم، فالأمير تميم بن المعز في رثائه أخاه عقيلًا، يصفه شخصية تتحلّى بكثير من مكارم الأخلاق، التي تجعل فقد من يحملها خسارة كبيرة، والحزن عليها عظيمًا، منها، البشاشة والجمال، والطبع السليم، وحسن الخلق، والعفة، والنقاء، وسلامة الصدر، إنه ذلك الهين اللين الذي لا تعسير عنده ولا تنفير، ودود جواد، سريع العطاء سريع الغوث:

أَيُّنَ تِلْكَ البَشَاشَةُ الغُضَّةُ الطَّلَّةُ  
أَيُّنَ ذَاكَ الطَّبَعُ السَّلِيمُ وَذَاكَ الـ  
كَانُ عَفَّ الضَّمِيرِ عُدْبَ السَّجَايَا  
صَادِقُ الوُدِّ وَارِي الزَّنْدِ لَا يَعِ  
قَةَ وَالْمَنْظَرُ البُهَيُّ الْمُنِيرُ  
خُلُقُ العُدْبِ وَالسَّنَا وَالنُّورُ  
لَيْسَ فِي سِرِّ أَمْرِهِ تَعْسِيرُ  
دَوِّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ تَطْهِيرُ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٣-٥٢٤.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣١١.

(٣) تميم بن المعز، الديوان، ص ٢٢٧.

ونعى تاج الملوك الأيوبي في أخيه، الشموخ والرفعة:

جَبَلٌ هَوَى فَارْتَجَّتِ الدُّنْيَا لَهُ      فَكَأَنَّما رَكِبَتْ جَنَاحِي طَائِرٍ<sup>(١)</sup>

وأظهر صورة أخيه، وهو يسير بين مواكب الخيل، والجيش يحيط به من كل جانب، فهذا الذي كان يقود المواكب، أضحى وحيدا تحت التراب، وقد نشرت هذه الشجاعة المفقودة إحساسا بالحرز كبيرا، خاصة في المواقف التي تستدعي هذه الشجاعة، فيقول:

مَنْ لِلنَّوَابِ يَوْمَ تَفْتَرِسُ السُّورَى      قَسْرًا بِأَنْيَابِ لَهَا وَأظْفَارِ  
مَنْ لِلدَّوَابِّ إِذْ تَدورُ صرُوفُهَا      فِي النَّاسِ وَالْأَيَّامِ ذَاتُ دَوَائِرِ  
أضْحَى وَحِيدًا فِي التَّرَابِ، كَأَنَّه      مَا سَارَ بَيْنَ مَوَاكِبِ وَعَسَاكِرِ<sup>(٢)</sup>

ويعد تعبير الشعراء عن حسن الخاتمة، أسلوبا للإشادة بمناقب إخوانهم، فيعبر القاضي الفاضل عن حسن الجزاء، بذكر أخيه الذي رفعه الله بعد موته، وبثناء عبق على السنة الناس، فقد خلده الله بما هو خير من الجسد الفاني:

لِيَهْنِكَ مِنْ بَعْدِ الرَّدى بَاقِي التَّنَا      وَإِنْ كُنْتَ مِنْ تَحْتِ النَّرى بِالْيِ البُرْدِ<sup>(٣)</sup>



بكى الشعراء كثيرا من فقدوا من آبائهم وأبنائهم، وعبروا عن أحزانهم بشتى الصور والأساليب، فذرفوا الدمع الغزير، وبذلوا المهج المحترقة بنار الحزن، وافتدوا بنفوسهم من مات من أحبة، ووقفوا أمام المنازل التي أصبحت خالية من أصحابها، وعادوا بالذكريات، فسهروا الليل الطويل، وعاشوا ظلمة الأيام وسوادها، وتقلبوا على جمر القلق والحيرة، وبنسوا من الحياة، وأضحوا من

(١) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(٣) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٢.

زوار المقابر، دعوا وابتهلوا بالدعاء، ثم وقفوا أمام كل هذا. وماذا بعد؟ لقد أدركوا أن كل مشاعر الحزن هذه، وكل تلك الكآبة التي عاشوا بين جدرانها ونذروا أنفسهم لها، لم تغنهم شيئاً، ولم تعد ميّتا إلى الحياة، ولم يتوقف قطار الموت، ولم تتوقف الحياة أيضاً، فالحياة تدور، والموت يأخذ كل يوم نفوساً جمّة، فلم يملكوا إلا أن يعزوا أنفسهم بمن ماتوا من أحبة، وكان عزاءهم لأنفسهم بالاعتراف بحتمية الموت وأن مصير كل إنسان إلى الفناء، وأن الموت قدر لكل إنسان على هذه الأرض، لا فرق بين أمير ومأمور، وبين عزيز وذليل، وغني وفقير، وما الإنسان في حياته سوى غافل لا يصحو من غفلته إلا أمام الموت، وقد أدرك الأمير تميم بن المعز هذه الحقيقة كما أدركها غيره، وعبر عنها في رثائه أخاه عبدالله، فافتتح رثاءه له بهذه الحقيقة، وكأنه يعزي نفسه، ويعزي من حوله قبل أن يبدأ البكاء:

كُلُّ حَيٍّ إِلَى الْفَنَاءِ يُصِيرُ      وَاللَّيَالِي تَعْلَى وَغُرُورُ  
وَأِلَى اللَّهِ يَرْجِعُ الْمَلِكُ وَالْمَلُوكُ،      وَيُقْضَى الْأَمِيرُ وَالْمَأْمُورُ  
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بَدًّا      فَطَوِيلُ الْحَيَاةِ نَزْرٌ حَقِيرٌ<sup>(١)</sup>

وهذا الشاعر التهامي إذ يبكي ابنه ويرثيه في قصيدة طويلة، ذرف فيها دمعته ومهجته، وعبر عن أساه بشتى الأساليب، نراه يعزي نفسه في أساه، وهو في ذروة حزنه وألمه إذ يستذكر كل أحلامه وآماله التي فقدتها بفقد ابنه، يعزي نفسه بأن ابنه سبقه في عبور ذلك الجسر الذي سيعبره كل الناس، مصورا هذه الدنيا بحلقة سباق، الجميع فيها سيصل إلى النهاية، والجواد الأفضل، هو الذي يصل أولاً، فكان هذا عزاءه في سبق ابنه إلى الموت:

عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ رَبُّكَ إِنْ تَكُنْ      عَبَّرْتَ إِلَى الْأُخْرَى فَنَحْنُ عَلَى الْجِسْرِ

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ١٤٧.

وما نُحْنُ إِلَّا مِثْلُ أَفْرَاسٍ حُلْبَةٍ      تَقْدَمُنَا شَيْءٌ وَنَحْنُ عَلَى الْأَثْرِ  
وَلَمَّا تَجَارَيْنَا وَغَايَةُ سَبَقِنَا      إِلَى الْمَوْتِ كَانَ السَّبْقُ لِلْجُدِّعِ الْغَمْرِ<sup>(١)</sup>

وأبو العلاء المعري في رثائه أباه، يعزي نفسه بأن الناس كلهم إلى الفناء، وإلى تلك الأرض التي خلق منها آدم، إنها الدنيا تند أبناءها جيلا بعد جيل:

زَمَانٌ تَوَلَّتْ وَأَدْحَوَاءٌ يَنْتَهِيهَا      وَكَمْ وَأَدَّتْ فِي إِثْرِ حَوَاءٍ مِنْ قَرْنٍ  
كَأَنَّ بَنِيهَا يَوْلِدُونَ وَمَا لَهَا      حَلِيلٌ فَتَخْشَى الْعَارَ إِنْ سَمَحَتْ بِابْنِ<sup>(٢)</sup>

ومن صور تعزية النفس، تأكيد الشاعر لنفسه بأن الروح عارية لله، وأنها لا بد أن تسترد في يوم من الأيام، ولا شيء يمكن للإنسان أن يفعله أمام هذه الحقيقة سوى الصبر، ولعل في فكرة احتساب الصبر لله ورجاء الأجر عليه من الله، ما قوى من عزيمة الشاعر على ذلك، فهذا أسامة بن منقذ، بعد أن بكى ابنه أبا بكر، وصور لوعته وأسأه بفقده، يردد إلى نفسه وإلى إيمانه بالموت ومصير كل الناس، ويؤنب نفسه ويردعها مذكرا إياها بذلك:

أَقُولُ لِلنَّفْسِ إِذْ جَدَّ النَّزَاعُ بِهَا:      يَا نَفْسُ وَيْحَكَ، أَيْنَ الْأَهْلِ وَالسَّلَفِ  
أَلَيْسَ هَذَا سَبِيلَ الْخَلْقِ أَجْمَعِهِمْ      وَكُلُّهُمْ يَوْرُودِ الْمَوْتِ مَعْتَرِفِ  
كَمْ ذَا التَّاسَفِ أَمْ كَمْ ذَا الْحَنِينِ، وَهَلْ      يَرُدُّ مَنْ قَدِ حَوَاهُ قَبْرَهُ الْأَسْفِ<sup>(٣)</sup>

وهو في ردعه وزجره لنفسه، يرغمها على الصبر وعلى احتساب الأجر عند الله تعالى، فما هذا الابن سوى عارية، وأسامة في عزائه لنفسه، فكأنما يعزي الناس جميعا في موتاهم فلا يجزعوا:

(١) التهامي، الديوان، ص ٨١.

(٢) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٢، ص ٩١٥.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٩.

وَسَعَ صَبْرِي عَنْ عَتِيقِ الْأَسَى  
 مِنْ بَعْدِ مَا ضَاقَ بِي الْمَسْكَ  
 أَسْلَمْتَهُ، إِذْ لَمْ أَجِدْ لِي يَدًا  
 بِدَفْعٍ مَنْ يُطْلَبُ مَا يَمْلِكُ  
 عَارِيَّةً كَانَ، وَمَا كُلُّ مَا  
 يُعَارُ، يُسْتَقْنَى وَيُسْتَمْلِكُ  
 أَعَارُهُ مُشْتَرِطًا رَدَّهُ  
 وَالشَّرْطُ مَا بَيْنَ الْوَرَى أُمَّلِكُ<sup>(١)</sup>

وفي رثائه أباه، يعزي ابن سناء الملك نفسه، بحسن خاتمة أبيه الذي فارق دار الفناء إلى جنات الخلد، وفارق جوار الناس إلى جوار رب الناس، إن في حسن الخاتمة هذه، والأمل بالله أن تكون كذلك، لمما يتعزى به الشاعر ويخفف من آلامه وأحزانه بأن فراق أبيه إنما كان إلى ما هو أفضل:

أَيَا دَارٍ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ لَهُ دَارٌ  
 وَيَا جَارٍ إِنَّ اللَّهَ فِيهَا لَهُ جَارٌ<sup>(٢)</sup>

ولا يتوقف عزاؤه لنفسه بحسن الخاتمة فحسب، بل يؤكد ما بأن في موت أبيه من العلامات ما يشير إلى هذه الخاتمة الطيبة:

وَأَنْتَ الَّذِي أَبْصَرْتَ فِي الْخُلْدِ سَاكِنًا  
 وَلَا تُتَكْرَنُ، بَعْضُ الْبُصَائِرِ أَبْصَارُ  
 وَأَنْتَ الَّذِي لَمَّا نَأَيْتَ تَفَاوَحْتَ  
 رِيَاضَ وَقَالُوا إِنَّهَا عَنْكَ أَخْبَارُ<sup>(٣)</sup>

ومن صور تعزية ابن سناء الملك لنفسه، ذم الدنيا، فما هذه الدنيا سوى غرور، وكل ما فيها فان وما فيها من حلاوة إلا ويتبعها مرارة، فلا أسف ولا حزن، فالكل في ركب الموت سائر:

لَزَهْدَنِي فِي هَذِهِ الدَّارِ مَوْتُهُ  
 فَسَيَانُ إِقْلَالِ لَدَيَّ وَإِكْتِنَارُ  
 وَأَيْقَنْتُ أَنِّي مُيِّتٌ وَأَبْنٌ مُيِّتٍ  
 فَلَمَوْتِ تَرْدَادِ الْإِنَا وَتُكْرَارِ<sup>(٤)</sup>

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٠.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.

(٣) المصدر نفسه، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥١٤.

وعزى محيي الدين الشهرزوري نفسه في رثائه أباه، بأن ذم الدنيا والدهر وما يجلبه للناس

من هم وحزن بعد فرح وحسرة، فليس هو الوحيد في مصيبتهم، وأبوه ليس الوحيد في موته:

لحا الله دَهْرًا لا تَزَالُ صرُوفُهُ      على الصَّيْدِ مِنْ أبنائِهِ تَتَغَشَّرُمُ<sup>(١)</sup>  
 إذا ما رَأينا مِنْهُ يوماً بِشاشَةً      أَتانا قُطُوبٌ بَعْدَها وَتَجَهُمُ  
 وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا وَلَوْمْ طِباعِها      وَأَصْبَحَ مَغْتَرًّا بِها فَهُوَ أَلأمُ<sup>(٢)</sup>

ويذكر الشاعر نفسه بمصير من سبقه من أمم وملوك وجبابرة، مثل كسرى وقيصر وثمود،

لقد مضوا جميعا وكأنهم لم يملؤوا الدنيا قوة وعزا ذات يوم، إن في مصير هؤلاء ما فيه أكبر

العزاء:

فَأَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ كِسْرَى وَقِيسَرَ      وَأَيْنَ قُضَى مِنْ قَبْلُ عادٍ وَجِرَّهُمُ  
 كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْكُنُوا الأَرْضَ مَرَّةً      وَلَمْ يَأْمُرُوا فيها وَلَمْ يَتَحَكَّمُوا<sup>(٢)</sup>

(١) تتغشرم: تجرو وتركب وتغشرم البيد: ركبها وغشرم: جريء ماض، ابن منظور، لسان العرب، مادة غشرم.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.



## رثاء الزوجات:

يبدو أن بعض الشعراء لم يولوا زوجاتهم كبير عناية في شعر الرثاء، فلا نكاد نرى نماذج تذكر مما توصلت إليه الدراسة- في رثاء الزوجة، وربما يعود ذلك إلى حرج الشاعر في إظهار جانب الحزن فيه عند موت زوجه وربما لأن الشعراء منذ القديم لم يعتادوا ذكر ما يتعلق بنسائهم، سواء من مشاعر الحب أو الحزن والأسى، لتلك الخصوصية الكبيرة التي تربط بينهم وبينهن. ولا يكاد يختلف ما توصلنا إليه من رثاء الزوجة عن غيره من أشكال الرثاء في مضمونه وأفكاره، فثمة تفجع وبكاء، يظهر في رثاء المسيحي لأم ولده، فيصور همه من الشدة والاشتعال بحيث يحرق ما يدنو منه، فهو كالنار الملتهبة، وهو هم لا يزول ولا ينقطع، بينما تقطع القلب من شدة الألم:

سَطَّتْ بِكَ عَيْنٌ طَرَفُهَا الدَّهْرُ يَدْمَعُ	وَقَالَتْ بِأَيْدِي الحَادِثَاتِ تَرْوَعُ
وَعَارِضٌ هُمْ لَوْ بَدَأَ لَمَعُ نَارِهِ	لَأَحْرَقُ مَا يَدْنُو لَهُ حِينَ يُلْمَعُ
وَتَسْلِمُ قَلْبٍ لِلنَّوَائِبِ قَطَّعَتْ	عَلَانِقُهُ وَالْهَمُّ لَا يَنْقُطُ عِ
وَقَدْ حَكَمَتْ أَيْدِي المَنَايَا بِجُورِهَا	وَقَدْ سَلَبَتْ مَنْ كَانَ فِي القَلْبِ يودِعُ <sup>(١)</sup>

وهذا عمارة اليميني في رثائه زوجه أم ولده، يصحو على حزنه وآلامه عند السحر، يذكره

صوت الحمام بأوجاعه وأحزانه:

نَبَّهْتَنِي حَمَامَةٌ بِسُخَيْرِ	عِنْدَ تَغْرِيدِهَا عَلَى الأَغْصَانِ
هَتَفَتْ بِي وَقَدْ تَحَدَّرَ دُمْعِي	فَوْقَ خَدِّي أَحْمَرًا كَالجَمَانِ
زِدْتُ هَمًّا يَنْوِجُهَا فَوْقَ هَمِّي	وَأَعْتَرَانِي حُزْنٌ عَلَيَّ أَحْزَانِي <sup>(٢)</sup>

(١) المسيحي، أخبار مصر، ج ٤٠، ص ١٧.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ٣٧٧.

وكانت دموع الملك المنصور كالغيث المنهمر حزنا على زوجه، وثمة لوعة يرق لها حتى

العاذل اللائم:

دموع كالغيوث الهاطرات  
لماضي من كآباتي وأتي  
ولوغات علي لها أحكام  
يرق لها ملامم اللائمات<sup>(١)</sup>

ومن صور الحزن التي وصفها الشعراء في رثاء زوجاتهم، تلك الوحشة التي خلفتها  
الزوجة برحيلها، فأضحت الديار مقفرة موحشة بعد أن كان الأُنس يملؤها، ويصف عمارة اليمنى

هذه الوحشة قائلا:

وخلت بعدها الديار فأضحيت  
موطنا للذئاب والغربان  
بعُد عهدي بها أنيسة رسم  
فرمتها المنون بالشنان  
عُدرتنا الأيام بعد اجتماع  
بُددت شملنا من الأوطان

ويستثير الشاعر مزيدا من الألم، بتصويره مشهد الأولاد وهم يبكون أمهم:

فصغير باك بقلب قريح  
وكبير ينوح بالأشجان<sup>(٢)</sup>

ويسير الشاعر خطوة خطوة على طريق الحزن، حتى يصل بنا إلى القبر، حيث عملية

الدفن، وتصوير ما يعتريه من أحاسيس وانفعالات في هذا الموقف:

ويح قلبي لما حدا حادي المـ  
ت وساروا بنعشها للمكان  
أنزلوها في التراب رغما برغمي  
ثم صارت رهينة الأكفان<sup>(٣)</sup>

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج٤، ص٦٨.

(٢) عمارة اليمنى، المختار، ص٣٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٧٧.

ويغيب عند هذا الموقف كل معنى للوجود والحياة، ويغيب القلب والعقل، وكأنه أودع كل

شيء معها في التراب:

عُيِّبُوا شَخْصَهَا فُغَابَ صَوَابِي      وَبُهَائِي وَمُهَجَّتِي وَجَنَانِي  
وَتَمَنَيْتَ لَوْ قَدَيْتَ نَظْرَهَا      بِسَوَادِ الْعَيُونِ مِنْ أَجْفَانِي (١)

إن غياب الزوج قد ترك أثرا في حياة الشاعر، فغدا ضعيفا بفقدها، وحيدا ليس ثمة من مؤنس له ورفيق سوى أحزانه وآلامه، يساير الصغار ويغني لهم إذ يبكون، ويأخذ دورها في هذه الحياة:

كَانَ أَنْسِي بِهَا قَدِيمًا وَقَدِيمًا      كُنْتُ أُسْطُو بِهَا عَلَى الْأَزْمَانِ  
تَرَكْتَنِي فَرْدًا أَكَايِدُ شَيْلِي      وَأُرَدُّ النَّوَّاحَ بِالْأَحْسَانِ  
وَأَقْضِي عَمْرِي بِظَنِّ كُذُوبٍ      وَبِقَلْبِي مَا لَا يُوَدِّي لِسَانِي (٢)

ويرى الملك المنصور في موت زوجه ما أضعف حياته وأوهاها، وذهب بزهو الأوقات

وجمالها، حتى أضحت الأيام ليالي حالكات بالحزن والأسى:

أَيَا مَنْ وَجَّهَهَا عِنْدِي عَزِيْرًا      وَيَا مَنْ مَوْتَهَا أَوْهَى حَيَاتِي  
لَقَدْ كَانَتْ بِكَ السَّاعَاتُ تَزْهَوُ      لِعَيْنِي كَالنَّجْمِ وَالزَّاهِرَاتِ  
وَفَقَدْتُكَ صَيْرَ الْأَيَّامِ عِنْدِي      لِبُعْدِكَ كَاللَّيَالِي الْحَالِكَاتِ (٣)

(١) عمارة اليمني، المختار، ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٨.

ويأخذ الشعراء بتوجيه ركب القصيدة نحو مناقب الزوج، وبكاء ما فقده بموتها، فهي زوجة تجمع بين جمال الجسد وسمو الروح وبهائها، وطيب الأصل والمنبت، فقد رثى عمارة اليمني في زوجته رشاقة القد وحمرة الخد ودعج العينين:

قُلْتُ إِنْ كُنْتُ قَدْ عَدِمْتُ خَلِيلاً      فَأَنَا قَدْ عَدِمْتُ ظَبِيئَةَ بَانَ  
دَعَجَةَ الْمُقْلَتَيْنِ فِي وَجْنَتَيْهَا      وَرَدَّةً فِي شِقَائِقِ النَّعْمَانِ<sup>(١)</sup>

ورثى فيها نقاء الروح المتمثل في عفة نفسها، وتقواها، وطيب أصلها وشرف منبتها:

كُمَلَّتْ عِفَّةٌ وَدِينًا وَفَخْرًا      وَبِهَاءً يُزْهِيْ عَلَى كَيْوَانِ  
أَصْلُهَا طَيِّبٌ وَفَرَعٌ زَكِيٌّ      مَوْرِقٌ الْعُودِ يَنْبُعُ الْأَغْصَانِ<sup>(٢)</sup>

وبكى الملك المنصور في زوجه تقواها، فبكاها هو وبكتها الأعمال الصالحات والنساء

الصالحات:

وَتَبْكِي الصَّالِحَاتُ عَلَيْكِ حُزْنَاً      بُكَاءَ الْأُمَّهَاتِ عَلَى الْبَنَاتِ<sup>(٣)</sup>

إن امرأة تحظى بهذه المزايا لتستحق من زوجها الإخلاص والوفاء، وإخلاص الشاعر لزوجته يتمثل بالحزن الدائم وعدم السلو عنها، وكأنه في هذا العهد يرضيها في قبرها، ثم يخلص لها في التوجه إلى الله بالدعاء، فهذا عمارة اليمني يبعد السلو عن نفسه، ويعوض ذلك بزفريات مشتعلة من الحزن والأسى:

وَعَدِمْتُ السُّلُوَ وَأَعْتَصْتُ عَنْهُ      زُفْرَاتِ اللَّهَيْبِ وَالنِّيْرَانِ<sup>(٤)</sup>

بينما يتمنى المسبحي وفاء لها وإخلاصا لو أنه قدم للموت فداء لها:

(١) عمارة اليمني، المختار، ص ٣٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٧٧.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٩.

(٤) عمارة اليمني، المختار، ص ٣٧٧.

فَيَا لَيْتِي لِلْمَوْتِ قَدَّمْتُ قَبْلَهَا  
وَإِلَّا فَلَيْتَ الْمَوْتِ أَذْهَبْنَا مَعَا<sup>(١)</sup>

ويعاهد الملك المنصور زوجته على دوام البكاء، معرضاً عن متع الحياة وملذاتها، فلا يسمع

سوى النواح ولا يرتدي سوى الحداد:

أَسَاكِنَةُ اللَّحُودِ عَلَيْكَ مِنِّي  
دَمُوعٌ دُونَهَا مَاءُ الْفُرَاتِ  
وَلَمْ أَكُ لِلْحِدَادِ أَخَا لِبَاسٍ  
يُعِينُ عَلَى صُرُوفِ النَّائِبَاتِ  
وَلَكِنِّي أَذْبِتُ سَوَادَ عَيْنِي  
فَسَالُ مَعَ الدَّمُوعِ السَّائِلَاتِ  
وَهَا أَنَا مِنْكَ فِي أَصْفَادِ حُزْنٍ  
لِغَيْرِ سَمَاعِ نُوحٍ لَا أُوَاتِي  
وَأُبْكِي كُلَّمَا غَنَى حَمَامٌ  
وَأُنْدُبُ فِي الْعَشِيَّةِ وَالْغَدَاةِ<sup>(٢)</sup>

ويعد الدعاء صورة أخرى من صور الوفاء للزوجة، فعمارة اليميني يدعو لزوجته بسلام من

الله ما غرد طير، وبقنان في جنة الرضوان:

فَسَلَامٌ عَلَيْكَ مَا غَرَّدَ الطَّيْرُ  
رُ عَلَيَّ أَيْكَةً مِنْ الْأَغْصَانِ  
وَحَبَاكِ إِلَهٌ مِنْهُ نَعِيمًا  
دَائِمًا ثَابِتًا مَعَ الْوَلَدَانِ  
فِي خُلُودٍ مِنْ الْجَنَانِ مُقِيمٍ  
مَعَ حَرِيمِ النَّبِيِّ مَعَ رِضْوَانِ<sup>(٣)</sup>

وإن كان الشعراء قد أظهروا ضعفهم وحزنهم لفقد أمهاتهم، فإن لمكانة الأم الكبيرة في نفس

الشاعر وفي نفس كل إنسان، لما تحمله وتجسده من معاني الأمومة والإنسانية، ما يسوغ الحزن

عليها، وذلك التفجع الذي أظهره الشعراء، ويسوغ أيضا رثاء الشعراء لأمهاتهم أكثر من رثائهم

لزوجاتهم.

(١) المسبجي، أخبار مصر، ج ٤٠، ص (س)، وانظر ابن سعيد، المغرب، ج ١، قسم مصر، ص ٢٦٦، والصفدي،

الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٨، والياضي، مرآة الجنان، ج ٣، ص ٢٩.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٤، ص ٦٩.

(٣) عمارة اليميني، المختار، ص ٣٧٧.

وثمة تعزية نلاحظها في الزوجة عند بعض الشعراء، ولكنها تعزية في غير زوجاتهم، ويبدو أن الحديث عن حتمية الموت في التعزية تقليد لا بد منه في معظم القصائد، فلم تخل التعزية بالزوجة من الحديث عن الموت وحتميته، فهذا الشاعر ابن حيوس يعزي أمير الجيوش الذيربي<sup>(١)</sup> بزوجة ابنه صمصام الدولة، مشيراً إلى عجز الإنسان عن تدارك الموت إذا ما أراد الله ذلك:

تُسَدُّ إِذَا حَمَّ الْجَمَامُ الْمَذَاهِبُ      وَيُعَيِّي الْبَرَايَا قَوْتُ مَا اللَّهُ طَالِبُ<sup>(٢)</sup>

ومثل البكاء والحزن والندب صورة من صور التعزية بالمرأة، ولكنه ذلك البكاء العام والحزن الذي نسبه الشاعر إلى الفضائل والمعالي والمكرمات، ونسبه إلى الناس جميعاً، فلم يخص الشاعر نفسه بهذا الحزن، وذلك لبعد العلاقة بينه وبين المرثية.

فالشاعر حين يجعل الموجودات والمكارم تبكي المرأة الفقيدة، إنما هو بذلك يبعث المواساة في قلب أهلها، كما أنه يشكل بصورة أو بأخرى مدحا لأهل تلك المرأة وذويها فلولا مكانة قومها ما عظمت مكانتها وما عظم الحزن عليها، حتى تلك المكارم التي بكتها، فإنما بكتها لفضلها وفضل القوم الذي تنتمي إليه هذه المرأة. فابن حيوس صير الكواكب نادبة موت تلك المرأة، وصير السحائب ذارفة دمعها:

هُوَى كَوَكَبٍ زَهْرُ الْكَوَاكِبِ مَذْهُوَى      فَفَارَقَ مَثْوَاهَا عَلَيْهِ نَوَادِبُ  
وَلَوْ لَمْ يَرَاعِ الْأَفَقُ حَقَّ جِوَارِهِ      لَمَا شَبِعَتْهُ بِالْبُكَاءِ السَّحَائِبُ<sup>(٣)</sup>

(١) هو أنوشتكين الذيربي، سيره الحاكم بأمر الله في عسكر إلى الشام سنة ٤٠٦هـ، وسار سنة ٤٢٩هـ إلى

حلب فملكها، توفي بحلب سنة ٤٣هـ، ينظر ديوان ابن حيوس، ج ١، ص ٣، هامش رقم ١.

(٢) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٨٧.

(٣) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٨٨.

وإذ يعبر بعض الشعراء عن هذا الحزن، فإنهم يفيضون في تعزية القادة بموت نسائهم، بأن يكثرُوا من مدحهم والثناء عليهم بمناقب تعين على الصبر وتساعد على تحمل المصيبة، فاختر الشعراء من المناقب: الوقار والاتزان والحلم والثبات، والشجاعة، فكلها مناقب تحول دون الإنسان والضعف أمام المصيبة.

فابن حيوس في تعزيته أمير الجيوش المظفر بزوجة ابنه صمصام الدولة، نوع في أساليب المدح ومعانيه وتأكيد مناقب المعزى لا مناقب المعزى بها، وبدأ في ذلك من الأبيات الأولى في القصيدة، ومن صور المدح التي عزى بها أمير الجيوش، أن جعل وجود أمير الجيوش وحياته عوضاً للناس عن مات وسيموت، وما للناس من عوض عنه لو مات هو:

وَأَنْتَ وَمَا فِي الْخَلْقِ مِنْكَ مَعْوَضٌ      لَهُمْ عَوْضٌ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ ذَاهِبٌ  
أَرَى غَيْرَ الْأَيَّامِ تَلْعَبُ بِالرَّوْرِ      فَلَا زِلْتَ مُحْرُوساً وَلَا جَدَّ لَاعِبٌ<sup>(١)</sup>

ويدعو ابن حيوس أمير الجيوش إلى التحلي بالصبر، ففي إبانته وفضله ومجده، ما يربأ به عن الاستسلام لوهن الخطب:

أُعْبِزُّ بِالتَّنْذِيرِ عَمْدًا وَإِنِّي      وَمَا إِن تَعْدَيْتُ الكِنَايَةَ هَائِبٌ  
وَلَيْسَ لِمَا أَخْفَى إِبَاؤُكَ مَظْهَرٌ      وَلَيْسَ لِمَنْ سَرَبَلْتَهُ الصَّوْنَ سَالِبٌ  
وَكَمْ مَظْهَرٍ مِنْ فَضْلِهِ وَهُوَ مُضْمَرٌ      وَكَمْ شَاهِدٍ مِنْ مَجْدِهِ وَهُوَ غَائِبٌ<sup>(٢)</sup>

ويذهب الشاعر إلى أن غياب تلك المرأة على رفعتها لا ينقص مجد الدولة ولا مجد أمير الجيوش، ما دام الموت تعدها، إن غياب كوكب من السماء لا يضيرها ما دام البدر فيها:

(١) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٨.

إذا ما سماء المجد لم يهو بدرها فأهون بأن تنقض منها الكواكب<sup>(١)</sup>

وهو بذلك يهون من وقع المصيبة، ولا يتمادى في إظهار الحزن والبكاء أسلوباً للتعزية، بل

ياخذ الجانب الآخر، وهو التخفيف والتسرية.

ومن هذا الجانب ينتقل الشاعر إلى جانب آخر يتمثل في مدح أمير الجيوش بصفات تتصل

اتصالاً وثيقاً بالصبر منها، الشجاعة والعزم كما تقدم:

وما هي إلا عزيمة منك صدقة ولا الصبر مغلوب ولا الهم غالب  
وعزمك قد أفنى حماة ممالك تطاعن شراً دونها وتضارب<sup>(٢)</sup>

ومن كان في مثل شجاعته وبأسه في مقارعة أعدائه، ليستطيع أن يقارعهما وخطبا،

وحرى به أن يكون فوق الهم وفوق الحزن، وأن يقتدي الناس به بالعزم والصبر:

ممالك قد دوختها بعدما صفت مشارب فيها وأطمأنت مشارب  
فحزت مدى قد عاودت دون نبليه أمانتي أهل الأرض وهي لواغب  
وأنت الذي ما إن يزال مظفراً إذا ما التقت آراؤه والنواب  
تعرّ بذا العز الأشم فإننه طريق إلى حسم المساء لا حجب  
وطيب ثناء طبق الأرض فاكتست مشارقها من عرفه والمغارب  
بعزمك يا سيف الخلافة يقتدى فلا تر خطباً أنه لك غاصب<sup>(٣)</sup>

(١) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩-٩٠.



وابن حيوس في حثه أمير الجيوش على السلو وترك الحزن، إنما يسلك طريقاً جديداً، إذ يربط بين فرح أمير الجيوش وفرح المسلمين حوله، فهم بهمه مهمومون، وبتركة الهم يزول

همهم، فجعله في همه مسؤولاً عن هم غيره، حتا له على تركه:

أَنْلْنَا بِتَرْكِ الِّهْمِّ يَمْضِي لِشَأْنِيهِ	مُنَانَا فَكَمْ نَيْلَتْ لُدَيْكَ الرَّغَائِبُ
وَذَلَّلَ عَصِيَّ النَّوْمِ بِالسَّطْوَةِ الَّتِي	أُرْحَتَ بِهَا نَوْمَ الْوَرَى وَهُوَ عَازِبٌ
وَهَبْنَا الْأَسَى فِيمَا وَهَبْتَ فَإِنَّا	تَهُونُ عَلَيْنَا مَا بَقِيَتْ الْمُصَائِبُ <sup>(١)</sup>

(١) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٩٠.

## رثاء آل البيت:

لم يكن رثاء آل البيت غرضاً جديداً في هذا العصر، فقد رثاهم الشعراء في العصور السابقة، وخاصة بعد مقتل الحسين بن علي زمن يزيد بن معاوية، إذ أصبح التشيع لآل البيت أمراً واضحاً، وعقيدة ثابتة في النفوس، ومن الشعراء الذين أخذوا على أنفسهم رثاء آل البيت، الكميّ بن يزيد، وله ديوان في رثائهم أسماه ((الهاشميات))، ومنهم أيضاً دعبل الخزاعي صاحب القصيدة المشهورة، وغيرهما. ويتولى البويهيين الشيعة الحكم، تكثر القصائد التي ترثي آل البيت، وتبكي فضل الحسين بن علي، ومن أشهر الشعراء الذين رثوا آل البيت في العراق، الشريف الرضي، وسبط بن التعاوني، وفي الجزيرة العربية، علي بن مقرب العيونسي وفي مصر، حيث يتولى الفاطميون الحكم، يأخذ بعض الشعراء على أنفسهم الوفاء لآل البيت، وتأكيد الولاء لهم، فيتخذون رثاءهم وسيلة للتعبير عن الوفاء والولاء.

ومن الشعراء الذين رثوا آل البيت تميم بن المعز وطلّح بن رزيك، وعبر هذان الشاعران في رثائهما، عن الحزن والألم لمقتل الحسين بن علي وما حلّ بآل بيته بأساليب متنوعة، منها البكاء والندب، فالشاعر تميم بن المعز، في تعبيره عن حزنه يستبكي عيون الناس، ويستحث أحزانهم، مستكراً ألا يثير مصرع آل البيت آلام الناس جميعاً، وألا يدفع بهم هذا الحدث إلى النار من قاتليهم:

أَلَا كَيْدٌ تَفْنَى عَلَيْهِمْ صَبَابَةً	فَيَقْطُرُ حُزْنًا أَوْ يَذُوبُ فُؤَادٌ
أَلَا مُقَلَّةٌ تَهْمِي أَلَا أَدْنُ تَعِي	أَكُلُّ قُلُوبِ الْعَالَمِينَ جَمَادٌ
تُقَادُ دِمَاءُ الْمَارِقِينَ وَلَا أَرَى	دِمَاءَ بَنِي بِنْتِ النَّبِيِّ تُقَادُ <sup>(١)</sup>

(١) تميم بن المعز، الديوان، ١١٩.

وطلائع بن رزيك يبكيهم بحرقة القلب المحزون، وبشوق القلب الذي فارق أحبته، وهو إذ

يبكيهم لا يرى لدمعه نفادا ولا لحزنه استقرارا:

أَمِ الشُّوقُ إِلَّا صَبُوءٌ وَحَنِينٌ	هَلِ الوُجْدُ إِلَّا زُفْرَةٌ وَأَنْيْنٌ
أَقَامَ لَهُ بَيْنَ الضَّلُوعِ كَمِينٌ	وَجَيْشُ دُمُوعٍ كَلَّمَاشٌ غَارَةٌ
تَحَدَّرَ مَاءُ الْعَيْنِ عَيْنَ مَعِينِ	إِذَا مَا التُّظَى شُوقٌ مُعِينٌ بِنَارِهِ
لَهَا كَلَّمَا جَنَّ الظَّلَامُ جُنُونٌ <sup>(١)</sup>	وَبِي لُوعَةٍ لَا يَسْتَقِرُّ نِزَاعُهَا

وحزن الملك الصالح كان عظيما، فهو حزن على الدين الذي يراه منهذما بموتهم، وهو

حزن ظهرت آثاره على شكل الشاعر فشاب مفرقه قبل أن يحين موعد الشيب:

فَقَلْبِي لَا يَخْلُو مِنَ الزَّفَرَاتِ	أَقْضَى زَمَانِي زُفْرَةٌ بَعْدَ زُفْرَةٍ
فَلَيْسَ بِمَنْفَكٍ عَنِ الحُرْقَاتِ	وَصَدْرِي فِيهِ حُرْقَةٌ بَعْدَ حُرْقَةٍ
وُظَلَّمَا مَنَارُ الصُّومِ وَالصَّلَوَاتِ	لَأَنَّهُمْ هَدُّوا أَعْتَدَاءَ بِفِعْلِهِمْ
لِكثْرَةِ هَمِّي سَبَبْتُ قَبْلُ لِذَاتِي <sup>(٢)</sup>	لَقَدْ سَبَبْتُ لَا عَنْ كِبَرَةٍ غَيْرِ أَنْي

والشعراء في رثائهم آل البيت أولوا حادثة مقتل الحسين بن علي وآل بيته -في الطف-

اهتمامهم فكان تعبيرهم عن هذه الحادثة تاريخا لها، وأسلوبا لإثارة مشاعر الحزن، من خلال

تصويرهم أحداث هذه الواقعة، وفي وصف حادثة الطف، يصور تميم بن المعز مشهد آل البيت

وهم قتلى تتناثر أجسادهم، وتختلط دماؤهم بالتراب:

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

وَكَمْ بِأَعَالِي كَرْبَلَا مِنْ حَفَائِرِ  
بِهَا جُنْتُ الْأَبْرَارِ لَيْسُ تَعَادُ  
بِهَا مِنْ بَنِي الزَّهْرَاءِ كُلِّ سَمِيدِعِ  
جَوَادٍ إِذَا أَعْيَا الْأَنْسَامُ جَوَادُ  
مُعْفَرَةٌ فِي ذَلِكَ التُّرْبِ مِنْهُمْ  
وَجَوْهَةٌ بِهَا كَانَ النَّجَاحُ يُفَادُ<sup>(١)</sup>

وفي استنارة لمشاعر الحزن والألم، يصور مشهد إيذاء آل البيت قبل قتلهم، حيث سيقت

النساء حاسرات الرأس وبنو أمية يمعنون في إيذائهم:

تُسَاقُ عَلَى الْإِرْغَامِ قَسْرًا نَسْلُوهُمْ  
سَبَابًا إِلَى أَرْضِ الشَّامِ نَقَادُ  
يُسَقَّنُ إِلَى دَارِ اللَّعِينِ صَوَاغِرًا  
كَمَا سِيقَ فِي عَصْفِ الرِّيَاحِ جَرَادُ  
يُعِزُّ عَلَى الزَّهْرَاءِ ذَلَّةُ زَيْنَبِ  
وَقَتْلُ حُسَيْنٍ وَالْقَلْبُوبِ شِدَادُ<sup>(٢)</sup>

والشاعر طلائع بن رزيك يبدأ إحدى قصائده بنداء لترربة الطف، نداء مفعم بالحزن والأسى

ويشي بالأحداث المؤلمة التي سيعرض لها الشاعر:

يَا تَرْبَةَ بِالطَّيْفِ جَا  
دَتِ فَوْقَكَ الدِّيمُ الْهَمُوعَةُ  
وَعَدَا الرِّيْبِعُ مُقَيَّسًا  
فِي رُبْعِكَ الْعَافِي رُبَيْعُهُ  
حَتَّى يَكْرِى الدَّمَنَ الْمُرُو  
عَةَ مِنْكَ مُخْضَبَةً صَرِيْعُهُ<sup>(٣)</sup>

ثم ينتقل بعد التقديم للحادثة بتصوير كيفية قتل الحسين بن علي، حيث تم استدراجه إلى

العراق بدعوى الإصلاح وحفظ دماء المسلمين، ثم الغدر به:

غَدَرْتَ هُنَاكَ وَمَا وَفَيْتِ  
مُضَرُّ الْعِرَاقِ وَلَا رُبَيْعُهُ  
لَمَّا دَعَتْهُ أَجَابُهَا  
وَرَعَا فَمَا كَانَتْ سَمِيْعُهُ<sup>(٤)</sup>

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

(٣) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٢.

وحين يرفض الحسين بن علي مبايعة يزيد بن معاوية كما أريد له، تشرع الرماح في

وجهه، ويصر أعداؤه على قتله:

مُنَعَتْ لَذِيذَ الْمَاءِ مِنْهُ      م      كِتَابٌ مِنْهُمْ مُنِيعَةٌ  
قَدْ أَشْرَعَتْ صَمَّ الْقَنَا      فُحِمَّتْهُ مِنْ وَرْدِ شُرُوعِهِ<sup>(١)</sup>

وإذ يمنع الحسين من ورود الماء، ويصر أعداؤه على قتله وهو ظمآن، يأخذ الشاعر في

تصوير المرحلة الثانية من عملية القتل، حيث تهوي السيوف وتمعن بآل البيت قتلا، ابتداء من

الحسين بن علي ثم تعريجا على النساء والشيوخ من آل بيته:

هُوتٌ، وَزَوَتْ مِنْهُمْ عَشِيَّةً قَتَلُوا      أُصُولَ زُكْتِ أَعْرَاقِهَا وَغُصُونُ  
تُصَرِّفُ حُكْمَ الْبَيْضِ وَالسَّمْرِ فِيهِمْ      فَمِنْهُمْ صَرِيحٌ بِالطَّبْيِ وَطَعِينُ  
بِنَفْسِي صَرَغِي لَمْ تَجُنْ لِحَوْمِهِمْ      بُكَّتَهُمْ سُهولٌ حَوْلَهُمْ وَحُزُونُ  
قُبُورُهُمْ قَبْلِي وَأَمَوَاتٌ نُكْبَلِي      بَطُونٌ سِبَاعٍ مَرَّةً وَسُجُونُ<sup>(٢)</sup>



وقد ظهر الاتجاه السياسي في رثاء آل البيت، إذ عمد الشعراء إلى بيان موقفهم من بني

أمية، والتعريض بهم، وتأكيد حق الفاطميين في الخلافة، فقد رأى طلائع بن رزيك في قتل

الحسين بن علي اغتصابا لحق آل البيت في الخلافة، كما رأى في هذا الاستيلاء غدرا بآل النبي

صلى الله عليه وسلم- وتكررا لما يعتقدونه من وصايته عليه السلام لعلي بن أبي طالب فيما

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦١.

رووه من حديث غدير خم<sup>(١)</sup>، وهذا هو أول نقاط الخلاف بين العلويين وبني أمية حول حق آل

البيت في الخلافة:

وُضِحَ الدَّلِيلُ عَلَى اغْتِصَابِ حُقُوقِهِمْ      وَالصَّبْحَ لَيْسَ يَرَى بِخَافٍ إِذْ أضا  
يَا أُمَّةً غَدَرْتَ بِأَلِ نَبِيِّهَا      وَنَبِيِّهَا فِي مَوْتِهِ مَا غَمَّضا  
نُكِّرُوا وَصِيَّةَ أَحْمَدٍ وَأَسْتَبْدَلُوا      مِمَّنْ أَحَبَّ بَعْلَمِهِمْ مَنْ أَبْغَضَا<sup>(٢)</sup>

وفي مكان آخر يصرح عمارة اليميني باغتصاب بني أمية حق آل البيت في الخلافة، مؤيدة

فعلها وحقها المزعوم، ببرهان ضعيف وزور:

غُصِبَتْ أُمِيَّةٌ إِرْتِ أَلِ مُحَمَّدٍ      سَفَهَا وَسَنَتْ غَارَةَ الشَّنَّانِ  
وَوَعَدَتْ تُخَالِفُ فِي الْخِلافةِ أَهْلَهَا      وَتَقَابِلُ الْبُرْهَانَ بِالْبَهْتَانِ<sup>(٣)</sup>

وبين الشعراء موقفهم المذهبي من بني أمية، فوصفهم بالنفاق حيناً وبالكفر حيناً آخر، وهذا

الوصف ينطلق من فكر الفاطميين الذين يرون في كل من لا يدين بالولاء لآل البيت ثم لمن

تبعهم من الأئمة، يرون فيه منافقاً وكافراً، وخارجاً عن طريق الحق والهداية، إذ إن من أصول

الإيمان عندهم الولاء لعلي بن أبي طالب ومن تبعه من الأئمة، وليس ثمة إيمان ولا قبول عمل

لمن لها يواليهم<sup>(٤)</sup>، وقد وصفهم عمارة اليميني بالنفاق والكفر فقال:

(١) روى سليمان بن قرم الضبي عن اسحق بن حسن بن قتادة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول

لعلي يوم غدير خم: ((من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه))، وهذا حديث

موضوع، وسليمان متروك الحديث، ينظر المقدسي، ذخيرة الحفاظ، ج ٣، ص ١٤٧٦، حديث رقم ٣٢٥٤.

(٢) طلائع بن رزيق، الديوان، ص ٨٢.

(٣) عمارة اليميني، المختار، ص ٢٦٣.

(٤) داعي الدعوة، المجالس، ج ١، ص ٧٠.

لَمْ تَقْتَعِ أَحْلَامَهَا بِرُكُوبِهَا      ظَهَرَ النِّفَاقَ وَغَارِبَ الْعُدُونِ  
وَقَعُودِهِمْ فِي رُتْبَةِ نَبَوِيَّةٍ      لَمْ يَبْنِهَا لَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ  
حَتَّى أَضَافُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُمْ      أَخَذُوا بِثَأْرِ الْكُفْرِ فِي الْإِيمَانِ<sup>(١)</sup>

وعد الفاطميون قتل بني أمية الحسين بن علي وأل بيته، ثارا لمن قتل من بني عبد شمس في غزوة بدر على يد علي بن أبي طالب، فحقد يزيد بن معاوية ومن والاه على آل البيت قديم، ورغبتهم بالثار منهم قديمة، وعبر تميم بن المعز عن ذلك بقوله:

أَصَابَتْهُمْ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ عَدَاوَةٌ      وَعَاجَلَهُمْ بِالنَّاكِثِينَ حَصَادٌ  
وَقَتَّلَهُمْ بَغْيًا عَبِيدٌ وَكَادَهُمْ      يَزِيدُ بِأَنْوَاعِ الشَّقَاءِ قَبَادَا  
بِثَارَاتِ بَدْرِ طَالِبُوهُمْ وَمَكَّةٍ      وَكَادَوْهُمْ وَالْحَقُّ لَيْسَ يُكَادُ<sup>(٢)</sup>

والأمر لا يقف عند حدود الأخذ بالثار لحقد قديم، فهناك سبب أقوى يرتبط بخلافة يزيد ابن معاوية التي ورثها عن أبيه معاوية بن أبي سفيان، دون رضى من كبار الصحابة، فكان معاوية ومن بعده بنو أمية يرون في الحسن والحسين منافسين على الخلافة لا بد من التخلص منهما ليستقر الأمر لبني أمية، وقد أشار طلائع بن رزيك إلى منازعة يزيد للحسن والحسين على الخلافة فقال:

وَأَتَى ابْنَ هِنْدٍ بَعْدَهُمْ فَأَثَارَ مَا      أَخْفَوْا مِنَ الْأَحْقَادِ وَالْأَضْغَانِ  
وَعَدَا يُنَازِعُهُمْ يَزِيدٌ كَأَنَّمَا      وَرِثَ الْخِلَافَةَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ  
وَأَذْكَرُ الْإِلِ<sup>(٣)</sup> الْقَوْمِ إِذْ فَعَلُوا بِهِمْ      أَضْعَافَ مَا فَعَلُوا بِبَنِي مُرْوَانَ<sup>(٣)</sup>

(١) عمارة اليماني، المختار، ص ٢٦٣.

(٢) تميم بن المعز، الديوان، ص ١١٨.

(٣) إلال: مفردا الأل وهي الحربة في نصلها عَرْض، ابن منظور، لسان العرب، مادة أَل.

(٣) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٤٥.

وتحدث طلّاح بن رزيك عن رفض بعض الصحابة مبايعة يزيد بن معاوية على الخلافة، حتى لا يكون أمرها وراثياً، ويظل أمر المسلمين شورى بينهم كما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الرفض الذي يعبر عنه طلّاح بن رزيك، موقف سياسي مما أصر عليه معاوية وبنو أمية من بعده، حين حولوا الخلافة من الشورى إلى الوراثة التي ما نص عليها الإسلام ولم يؤيدها، وإلا لكان آل بيته -عليه السلام- أحق الناس بالخلافة لو كانت وراثية، فقال طلّاح حول خلافة يزيد:

كَمْ مَدَّعِي الإِجْمَاعِ فِي تَقْدِيمِهِ	قَدْ ظَلَّ فِي تَيْهِ الضَّلَالِ مُرَكِّضًا
وَالْمُؤْمِنُونَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ فَلَمْ	يَكُ فِي الْجَمَاعَةِ مَنْ لَهُ عَنْهُ رِضَى
سَلْمَانُ وَالْمِقْدَادُ وَابْنُ عَبَّادَةَ	وَكَذَا أَبُو ذَرٍّ مَعَ الْهَادِي الرِّضَا
وَتَخَلَّفَ الْعُبَّاسُ عَنْهُ وَغَيْرُهُ	هُوَ حُجَّةٌ بَرَّهَانُهَا لَنْ يَدْحُضَا
هُوَ يَدَّعِي حَقَّ خِلَافَةِ أَحْمَدٍ	وَإِلَيْهِ ذَلِكَ أَحْمَدُ مَا فُوضَا
وَجَنَى بِحَقِّ الْمُسْلِمِينَ تَعَسَّفًا	وَقَضَى بِظُلْمٍ فِيهِمْ لَمَّا قَضَى
وَالظَّالِمُونَ تَتَابَعُوا فِي ظُلْمِهِمْ	وَالْحَقُّ لَيْسَ يَمُوتُ إِنْ هُوَ أَمْرُضَا <sup>(١)</sup>

وتحدث طلّاح بن رزيك عن ادعاء معاوية بن أبي سفيان مبايعة الصحابة يزيد على الخلافة، ليدفع أهل الشام إلى المبايعة بعد أن أبوا ذلك إلا إذا بايع الصحابة، وكان ابن عمر وابن أبي بكر وابن الزبير قد أبوا المبايعة، وطالبوا بأن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين<sup>(٢)</sup>، فقال طلّاح في ذلك:

(١) طلّاح بن رزيك، الديوان، ص ٨٣-٨٤.

(٢) أنظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩٧.



ما كانت الشورى التي قد لفقّت  
أخبارها بالزور والبهتان  
إلا كيوم بالسقيفة شيدت  
فيه مباني الظلم والعُدوان<sup>(١)</sup>



وعبر الأمير تميم بن المعز عن حبه آل البيت وولائه لهم، بإعلان عدائه لبني أمية وعزمه على الثأر للحسين بن علي وآل البيت، فلا يذوق راحة ولا لذيذ حياة، حتى يذيق بني أمية ما أذاقوه آل البيت من تعذيب وقتل، وعد الشاعر عداءه لبني أمية واجبا يفرضه عليه حبه آل البيت وانتسابه إليهم، منطلقا في ذلك مما رواه الفاطميون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار))<sup>(٢)</sup>، فيقول في ذلك:

آبِتْ لَا ذُقْتُ الْمَنَا  
م وَلَا اضْطَجَعْتُ عَلَى حُشِيَّةِ  
وَأَهْجُرَنَّ لِذِيذِ كِ  
لِّ مَعِيشَةٍ عِنْدِي هُنَيْيَّةِ  
حَتَّى أَزُورَ أُمَيْيَّةَ  
فِي كُلِّ بَلْقَعَةٍ قَصِييَّةِ  
وَأَذِيقُهُمْ كَأْسَ الْمَنِي  
سِيَّةٍ بِالْعُدُوِّ وَبِالْعَشِييَّةِ  
إِنْ لَمْ أَدُدْ طَعْمَ الْكَرِي  
عَنْ أَعْيُنٍ مِنْهُمْ عَمِييَّةِ  
فَبِرُنْتُ مِنْ نَسَبِ الْوَصِي  
سِي وَمِنْ وِلَادَتِهِ الْعَلِييَّةِ<sup>(٣)</sup>

أما الشاعر طلائع بن رزيك، فقد أعلن حربه على بني أمية انتقاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم - وما حل بآل بيته، فأشار إلى ولائه لآل البيت وولائه للأئمة من بعدهم، هذا الولاء الذي يدفع به إلى محاربة أعداء آل البيت وأعداء الدولة الفاطمية، مستغلا سلطانه وقوة جيوشه،

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٤٥.

(٢) داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ٦٥. والحديث موضوع، ينظر، المقدسي، ذخيرة الحفاظ، ج ٣، ص ١٤٧٦.

(٣) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٥٨-٤٥٩.

ومستغلا قدرته على نظم الشعر فيعاديهم به بهجائهم والتعريض بهم وكشف جريمتهم في حق آل البيت، فيقول:

ما ضاع بي وَتَرُ النَّبِيَّ وَالْأَهْلَ  
فَأَلَىٰ وَلِيَّهِمْ أُمْدٌ يَدُ النَّادِي  
وَلَقَدْ بُلَّغْتُ بِمَنْطِقِي مَا لَمْ يَنْلُ  
وَبِمَنْصَلِي قَدْ قَلَّتْهُ وَلِسَانِي  
وَأِلَىٰ عُدُوِّهِمْ أُمْدٌ سِنَانِي  
رُمِحَ بِلَهْزِمَةٍ<sup>(١)</sup> وَجَدَّ يَمَانِي<sup>(١)</sup>

وتحدث عن تمكنه في الدولة وقوة سيفه التي بها يشن الحرب على من عادى آل البيت ومن

والاهم من أعداء الدولة الفاطمية فيقول:

فِي كُلِّ حِينٍ لَكُمْ نَاصِرٌ  
وَأَيُّكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ الْهُدَى  
لَا زَالَ فِي أَعْدَائِكُمْ مَنْصَلِي  
مِنِّي لَا يَفْشَلُ فِي حِينٍ  
فِي الْخَلْقِ ذُو عِزٍّ وَتَمَكِينٍ  
يَنْهَلُ فِي طَلَسِ السَّرَاحِينِ<sup>(٢)</sup>

وعرض الشعراء ببني أمية ومن والاهم، وعدوا مثالبهم، ومنها الغدر، حيث رأوا في

استدراج بني أمية الحسين بن علي إلى العراق بحجة الإصلاح، وهم يبيتون له القتل، فعلا شنيعا

وغدرا لم يسبقهم أحد إلى مثله، وعدوا هذا الغدر غدرا بحق نبيهم محمد صلى الله عليه

وسلم-، فيتحدث الشاعر تميم بن المعز عن غدرهم، ويصفهم بالناقضين عهد الله، الناكثين دينهم،

والبائعين الحق بالباطل فيقول:

الناقضينِ النَّاكِثِينَ \_\_\_\_\_  
نَ عَلَى الشَّرِيعَةِ وَالْبُرِيَّةِ  
البائعينِ صَوَابُهُمْ  
فِي كُلِّ أَمْرٍ بِالْخَطِيئَةِ<sup>(٣)</sup>

(١) لهزيمة: كل شيء من سنان أو سيف قاطع، ابن منظور، لسان العرب، مادة لهزم.

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٣) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٥٩.

ويقول طلائع بن رزيك معبرا عن هذا المعنى:

مَضُرُّ الْعِرَاقِ وَلَا رَبِيعَهُ	غُدْرَتْ هُنَاكَ وَمَا وَفَّقَتْ
وَرَعَاءَ فَمَا كَانَتْ سَمِيعَهُ	لَمَّا دَعَتْهُ أَجَابَهَا
فِي الْغُدْرِ فَاضِحَةٌ شَنِيعَهُ	بِأَفْعَلَةٍ جَاؤُوا بِهَا
فِي حِفْظِ عِتْرَتِهِ مُضِيعَهُ <sup>(١)</sup>	وَعُدَّتْ بِحَقِّ نَبِيِّهَا

ومن المثالب التي هجي بها بنو أمية في معرض رثاء آل البيت البغي والجور، وقد رأى الأمير تميم بن المعز أن بغيهم هذا مؤذن بهلاكهم وزوالهم مستمدا هذا المعنى من قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مَتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾<sup>(٢)</sup>، وظلم بني أمية بعدائهم آل البيت وغدرهم بهم، إنما هو ظلم للمسلمين كافة - كما يرى الشاعر - لأنه اعتداء على آل نبيهم - عليه السلام -:

رِ وَالْبَغْيِ يُؤْزِنُ بِالْبَوَا	رِ وَالْبَغْيِ يُؤْزِنُ بِالْبَوَا
أَوْ مَا تَرَى بِالْبَغْيِ مَا	أَوْ مَا تَرَى بِالْبَغْيِ مَا
النَّاكِبِينَ عَنِ الْهُدَى	النَّاكِبِينَ عَنِ الْهُدَى
وَالْقَاسِطِينَ الْوَاثِبِينَ	وَالْقَاسِطِينَ الْوَاثِبِينَ
نُ عَلَى ابْنِ فَاطِمَةَ الزَّكِيَّةِ <sup>(٣)</sup>	نُ عَلَى ابْنِ فَاطِمَةَ الزَّكِيَّةِ <sup>(٣)</sup>

ونعتهم عدد من الشعراء مثل تميم بن المعز وطلائع بن رزيك وعمار اليماني بالكفر، وانطلق الأمير تميم بن المعز في وصفه لهم بذلك، من مذهبه الفاطمي، إذ يعتقد الفاطميون بكفر كل من عادى آل البيت ومن تبعهم من الأئمة، وهم يستدلون في ذلك إلى ما يروونه عن رسول

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٣.

(٢) سورة الإسراء، آية ١٦.

(٣) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٥٥.

الله صلى الله عليه وسلم - بأنه قال: ((من كنت مولاه فهذا علي مولاه...))، وعدوا هذا الحديث دليلاً على انتقال الولاية من واحد إلى واحد، وورثها الولد عن الوالد، وأنها الأصل الذي يدور عليه موضوع الفرائض<sup>(١)</sup>، لذا فهم يرون الكفر في عدم الإيمان بولاية وصي أمير المؤمنين علي، وفي إنكار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم - عند غدير خم<sup>(٢)</sup>، وفي نعت بني أمية بالكفر يقول الشاعر تميم بن المعز في قصيدة رثى بها آل البيت:

كُفَرُوا بِرَبِّ مُحَمَّدٍ	بَغْيًا فَمَا حَفِظُوا نَبِيَّهُ
وَشَفَوْا بِسَبْطِ الْحَقْوِ	دَوَّحَارِبُوا ظُلْمًا وَصِيَّهُ
وَنَسُوا مَقَالَ نَبِيِّهِمْ	وَهُوَ الْمَعْدَلُ فِي الْقَضِيَّةِ
مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَقَدْ	أَضْحَى أَبُو حَسَنِ وَلِيَّهُ <sup>(٣)</sup>

ونعتهم طلائع بن رزيك بالكفر أيضاً، حين أقدموا على قتل الحسين بن علي، وعدمهم من الذين باعوا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم، فقال:

بَاعَتْ هُنَاكَ الدِّينَ بِالْأَدِّ	دُنْيَا وَخُسْرَانٍ كَبِيعَةَ
بُجْبُوشٍ كُفْرٍ قَدْ غَدَا	ذَاكَ النَّفَاقُ لَهَا طَلِيعَةَ
أَبْنِي أُمَيْيَّةَ إِنْ فَعَا	لَكُمْ بِهِمْ بَيْسَ الذَّرِيعَةَ <sup>(٤)</sup>

ويعد طلائع بن رزيك موالاة بني أمية خروجاً عن الدين، واختياراً لحزب أعداء الله، ومن أراد أن يكون من أهل اليمين فعليه أن يعادي بني أمية ويبغضهم، لقتلهم الحسين بن علي ورفضهم ولايته التي يعدونها أساس الدين والفرائض، فيقول في رثاء آل البيت:

(١) داعي الدعوة، المجالس، ج ١، ص ٦٥.  
 (٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٧٧-١٧٨.  
 (٣) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٥٥-٤٥٦.  
 (٤) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٣.

فَارْفُضْ عِدَاهُمْ إِنْ غَدَوْ  
تَ بَدِينِ جَدِّهِمْ تُدِينُ  
إِنَّ الْبِرَاءَ مِنَ الْأَعَا  
دِي لِلْوَلَاءِ لَهُمْ قُرِينٌ (١)

وفي قصيدة أخرى يرثي بها آل البيت، ينكر على نفسه أن يكون من أصحاب الشمال، ويترك موالاته أصحاب اليمين، وهم آل البيت ومن تبعهم من الأئمة، وهو في هذا الرفض، ينعى بني أمية بالكفر إذ يعدهم أصحاب الشمال الذين تحدث الله عنهم في كتابه الكريم:

قَدْ مَلَّتْ مِنْ فُرْطِ الْوِودَا  
دِ إِلَى الْعَبِيدِ الْمُخْلِصِينَا  
أَكُونُ فِي الْحِزْبِ الشَّمَا  
لِ وَأَتْرِكُ الْحِزْبَ الْيَمِينَا؟ (٢)

ويأخذ طلائع بن رزيك من هجاء بني أمية ومن عادى آل البيت ديدنا له ما دام حيا، ويعد هذا الدأب في هجائهم تعبيرا عن ولائه وحبه آل البيت:

وَجَعَلْتُ دَأْبِي تَلْبَهُهُمْ  
حَتَّى أَرَى مَيْتًا دَفِينَا  
وَسَكَّرْتُ رَبِّي فِي الْوَلَا  
ءِ فَلَئِي نُوَابُ الشَّاكِرِينَا (٣)

وعمارة اليميني في رثائه آل البيت، ينعى بني أمية بالكفر، وبييع الدنيا بالآخرة، في إثارتهم الحرب ضد آل البيت وعدم اتباعهم الإمام، فعدهم مجانبين الحق، وانطلق عمارة اليميني في وصفه هذا لهم من عقيدة الفاطميين الذين أولوا آيات القرآن الكريم وما يتناسب مع مبدئهم في تأكيد حق الأئمة بالخلافة، فقد أولوا قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، والله يعصمك من الناس» (٤)، بأن هذا أمر من الله تعالى إلى نبيه الكريم للنص على وصاية علي بن أبي طالب وانتقال هذه الوصاية من الوالد إلى الولد ومن

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٣.

(٤) سورة المائدة، آية ٦٧.

تبعهم من الأئمة<sup>(١)</sup>، واستغل الفاطميون هذا التأويل ليدعموا حقهم في الخلافة، وأن الولاء لهم أمر ديني مفروض، وهذا ما عبر عنه عمارة اليميني في حديثه عن بني أمية ووجوب طاعة الإمام فقال في قصيدة له رثى بها آل البيت ومدح الملك الصالح:

فَأَتَى زِيَادٌ فِي الْقُبُجِ زِيَادَةٌ	تُرِكَتْ يَزِيدُ يَزِيدُ فِي النَّقْصَانِ
حَرْبٌ بَنُو حَرْبٍ أَقَامُوا سَوْقَهَا	وَتَشَبَّهَتْ بِهِمْ بَنُو مَرْوَانَ
لَهْفِي عَلَى النَّفْرِ الَّذِينَ أَكْفَهُمْ	غَيْثُ الْوَرَى وَمَعُونَةُ السَّهْفَانِ
مَالَتْ عَلَيْهِمُ بِالْثَمَالِيِّ أُمَّةٌ	بَاعَتْ جَزِيلُ الرَّبِّحِ بِالْخُسْرَانِ
دَفِعُوا عَنِ الْحَقِّ الَّذِي شَهِدَتْ لَهُمْ	بِالنَّصِّ فِيهِ شَوَاهِدُ الْقُرْآنِ
مَا كَانَ أَوْلَاهُمْ بِهِ لَوْ أُيِّدُوا	بِالصَّالِحِ الْمُخْتَارِ مِنْ غَسَّانِ <sup>(٢)</sup>

وعلى العموم، فقد استغل الشعراء رثاء الحسين وآل البيت، ليؤكدوا حق الأئمة الفاطميين بالخلافة، وظلم بني أمية ومن والاهم في انتزاع هذا الحق من الحسين بن علي وقتلهم إياه، مستندين في تأكيدهم هذا الحق إلى ما يعتقده الفاطميون من وجوب معرفة الإمام وطاعته، وارتباط الإيمان وقبول العمل بهذه المعرفة والطاعة، وما أولوه من آيات الله ورواه أئمتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - لتأكيد هذا المذهب.

ولم يخل رثاء آل البيت من الإشادة بمنابهم، وذكر فضلهم على الناس جميعاً، وانطلق الشعراء في الإشادة بفضلهم، من المذهب الفاطمي وما يعتقده الفاطميون في أئمتهم، فهم أعلام الهدى، وبحبهم واتباعهم يهتدي الناس ويفلحون، وهم الكرام الذين يجمعون خصال الخير كلها، وبموتهم يضيع الدين ويهدم، وفي هذا المعنى يقول تميم بن المعز:

(١) داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ٦٥.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ٣٦٤.

أهل الفضائل والمكاتب  
 وادعوا النبوة والهجرة  
 قتلت أمة هاشمياً  
 هدموا الشريعة، والشريعة  
 ريم والنسدي والأزجيسية  
 ية والعلا واللودعية<sup>(٥)</sup>  
 أعظم بذلك من بليسة  
 عة غضة المبدأ طرية<sup>(١)</sup>

ويشيد طلائع بن رزيك بفضل آل البيت، فهم من نشر نور الحق بين الناس، ومن بحر

علمهم ينهل ويرتوي كل سائل:

وإذا روى قوم فضائل غيرهم  
 ما يستوي من يعبد الأوثان إن  
 كلاً ولا من لا يجيب مسائلاً  
 رويت فضائلهم من القرآن  
 أنصفتهم، ومكسر الأوثان  
 عن مشكل ومكلم الثعبان<sup>(٢)</sup>

ويذكر طلائع بن رزيك فضل علي بن أبي طالب، ويشيد بشجاعته منذ أن كان صيياً،

وبتوحيده الله منذ صغره، وبقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وحبه إياه:

لم يخف فضل الأرمدة العينين في  
 ما كان في أقرانه منذ الصبا  
 أغيره منهم يقول كقوليه  
 الله ربي ما عبدت سواه في  
 أولاهم بالمصطفى في الناس من  
 غمراية عمّن له عينان  
 أحد سواه مبارز الأقران  
 إن كان يسمع من له أذنان  
 عصر الصبا (ومحمد) رباني  
 هو، دونهم والمصطفى إخوان<sup>(٣)</sup>

(٥) اللودعية: الحديد الفؤاد واللسان الظريف كأنه يلذع من ذكائه، ابن منظور، لسان العرب، مادة لذع.

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٥٦.

(٢) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٤.

ويشيد الشاعر في قصيدة أخرى بالرسول صلى الله عليه وسلم - وفضلته على العالمين، فهو منبع سعادتهم في الدنيا والآخرة، به يتوسلون، وبشريعته يتمسكون، وبهديه يشفون من آلام نفوسهم:

أَوْ مَا بَجَدَّكَ سَيِّدُ م      النَّقْلَيْنِ قَاطِبَةً هُدَيْنَا؟  
 مِنْ بَعْدِ مُورِدِنَا شَرِيْبًا      عَةَ وَرِدِهِ مَا إِنْ ظَمِينَا  
 هَلْ غَيْرُهُ قَدْ كَانَ يَدُ      عَى الصَّادِقِ الْبُرِّ الْأَمِينَا  
 وَهُوَ السَّعَادَةُ، إِنْ بَعْدُ      نَا عَنْ مَنَازِلِهَا شَقِينَا  
 مَا إِنْ تَوَسَّلْنَا بِهِ      فِي الْجَدْبِ نَلْقَاهُ سَقِينَا  
 وَإِذَا ذَكَرْنَااهُ عَلَيَّ      أَلَمْ أَلَمَّ بِنَا شَفِينَا<sup>(١)</sup>

وانطلق بعض الشعراء في إسادتهم بمناقب آل البيت من المذهب الفاطمي، فالشاعر طلائع ابن رزيك في رثائه الحسين بن علي يشيد بعلمه الوافر، فمن علمه ينهل العارفون، ويؤيد الفاطميون سعة علم علي بن أبي طالب وآل بيته من بعده ومن تبعهم من الأئمة، بما رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد بابها فليأت عليا))<sup>(٢)</sup>، وما رووه أيضا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((إنني تارك فيكم النقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وأنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))<sup>(٣)</sup>، وأيدوا بهذا الحديث ما يعتقدونه بأن ظاهر القرآن معجز لرسول الله، وتحقيق معناه وتفسيره معجز لأهل

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥١.

(٢) داعي الدعاة، السيرة المؤيدية، ص ٢٤، وهذا الحديث منكر جدا، إسنادا ومثنا، ينظر السيوطي، اللآلئ، ج ١، ص ٣٣٥.

(٣) داعي الدعاة، السيرة المؤيدية، ص ١٧. وقد روى الشيعة عن رسول الله ص - أنه قال: ((علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقا حتى يردا علي الحوض)) والحديث موضوع. ينظر، الحلبي، موسوعة الأحاديث، ج ٦، ص ٦٤.



بيته لا يدعيه سواهم إلا كاذب، لذا فعلمهم لا يضاويه علم مهما بلغ، فهم موئل العلماء والعارفين

ومن علومهم ينهلون، وفي هذا المعنى قال:

يا عُرْوَةَ الدِّينِ المَتِينِ —————  
 ما الرُّوضَةُ الغُضَاءُ أضُّ  
 نِ وَبَحْرَ عِلْمِ العَارِفِينَا  
 حَتَّ مِثْلُ عِلْمِ أَبِيكَ فِينَا<sup>(١)</sup>

ومن المناقب التي أشاد بها طلائع بن رزيك، أنه عد الحسين بن علي شيئا مقدسا يتوجه إليه أولياء الله، وهم لا يتوجهون إلى الجسد الفاني فيه، وإنما إلى نفسه الشريفة التي استقبلت آثار النبوة والكتاب، فكما تتوجه الأجساد إلى القبلية وإلى الكعبة، فإن النفوس تتوجه إلى علي وآل بيته لتقف على معالم دينها<sup>(٢)</sup>، فمن والاهم ولزم دعوتهم، التزم بدينه وقبل عمله ومن أعرض عنهم ولم يتوجه إليهم وإلى من تبعهم من الأئمة لم يقبل منه فرض ولا سنة<sup>(٣)</sup>، وفي هذا المعنى يقول طلائع بن رزيك مشيدا بالحسين بن علي:

يا قِبْلَةَ لأُولِيَا —————  
 ءِ وَكُعبَةَ للطائِفِينَا<sup>(٤)</sup>

والشاعر تميم بن المعز في إشادته بمناقب آل البيت، هجا بني أمية، واستخدم أسلوب المقابلة ليبرز فضل آل البيت ومثالب بني أمية، وهذه المقابلة جاءت من خلال الاستفهام الاستكاري الذي ينفي أن يكون وجه شبه أو توافق بين آل البيت وبني أمية، فالبيت هم أصحاب الفضل والمجد، وبني أمية لا فضل لهم ولا أصل يفخر به، كما يفخر آل البيت بجدهم

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥١.

(٢) داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ٦٠-٦١. وروى الشيعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((يا علي أنت بمنزلة الكعبة توتى ولا تأتي، فإن أتاك هؤلاء القوم فبكوا لك هذا الأمر فاقبله منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتيتهم))، وهذا الحديث موضوع، ينظر الحلبي، موسوعة الأحاديث الموضوعية، ج ١، ص ٣٧٠.

(٣) داعي الدعاة، الديوان، المقدمة ص ٧٠.

(٤) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥١.

محمد صلى الله عليه وسلم-، ورجال بني أمية ونساؤهم لا يعادلون شيئاً إذا قورنوا برجال آل البيت ونسائهم كعلي وفاطمة:

مَتَى قَطُّ أَضْحَى عَبْدُ شَمْسٍ كَهَاشِمٍ	لَقَدْ قَلَّ إِنْصَافٌ وَطَالَ شِرَارُهُ
مَتَى وَزِنَتْ صَمَّ الْحَجَارِ بِجَوْهَرٍ	مَتَى شَارَفَتْ سَمَّ الْجِبَالِ وَهَادُ
مَتَى بَعَثَ الرَّحْمَنُ مِنْكُمْ كَجَدِّهِمْ	نَبِيًّا عَلَتْ لِلْحَقِّ مِنْهُ زِنَادُ
مَتَى كَانَ يَوْمًا صَخْرُكُمْ كَعَلِيَّهِمْ	إِذَا عَدَّ إِيْمَانَ وَعُدَّ جِهَادُ
مَتَى أَصْبَحَتْ هِنْدُ كَفَاطِمَةَ الرِّضَا	مَتَى قَيْسُ بِالصَّبْحِ الْمُنِيرِ سَوَادُ (١)

ولجأ طلائع بن رزيك في إشدته بمناقب آل البيت أيضا إلى أسلوب المقابلة بينهم وبين بني أمية، ليعزز سطوع مناقب آل البيت إذا ما قابلها ضلال بني أمية وبيان مثالبهم، فقابل بين علم علي وآل بيته وجهل بني أمية، وبين إيمان علي وآل البيت وكفر بني أمية، وشجاعة آل البيت في حمل راية الإسلام ونشره، وبين جبن بني أمية وتخاذلهم، فقال:

كَيْفَ أَجَازُوا قِيَّاسَ قَايِسِهِمْ	بَيْنَ عَتِيقٍ بِجَهْلِهِ وَعَلِيٍّ
كَمْ بَيْنَ مَنْ فِي الصَّلَاةِ مُعْتَكِفٍ	وَعَاكِفٍ عُمُرَهُ عَلَى هُبَلٍ
وَهَازِمِ الْجَيْشِ وَحُدَّةِ أَبْدَا	وَقَاعِيدِ للضَّلَالِ فِي الظَّلِيلِ
وَحَامِلِ رَايَةِ النَّبِيِّ وَمَنْ	فَرَّ بِهَا فِي الْجِبَالِ كَالْوَعْلِ (٢)

وفي تعبير الشعراء عن حبهم آل البيت وألمهم لما حل بهم، أظهروا ولاءهم وتمسكهم بهم واتباع نهجهم، وعدوا هذا الولاء طريقهم إلى النجاة يوم القيامة، ومعينا لهم على جواز الصراط،

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ١٢٠.

(٢) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٢٣.

والفوز بشفاعة محمد - عليه السلام -، وهذا الولاء ليس لآل البيت فحسب، وإنما لمن تبعهم من

الأئمة وفي هذا المعنى يعبر طلائع بن رزيك عن ولائه لآل البيت بقوله:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الْمُصْطَفَى سَيْفُ دِينِهِ	طَلَائِعُ مَوْسُومٍ بِهِدِي هُدَاتِي
وَلِيَهُمْ إِنْ خَافَ فِي الْحَشْرِ غَيْرُهُ	لَطِيٌّ فَهُوَ مِنْهَا أَمِنَ الْجَنَبَاتِ
فَإِنَّ مَوَالَاتِي لَأَلِ مُحَمَّدٍ	وَحُبِّي مَرْقَاتٌ إِلَى الْقُرْبَاتِ
وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ ثَوَابُهَا	وَقَوْفِي يَوْمَ الْجُمُعِ فِي عَرَافَاتِ <sup>(١)</sup>

وفي قصيدة أخرى يعتقد طلائع بن رزيك بنجاته من كربات يوم القيامة بفضل موالاته وحب آل البيت، منطلقاً في هذا الاعتقاد من المذهب الفاطمي الذي يرى في اتباع آل البيت ومن يليهم من الأئمة نجاة من طوفان الضلالات والبدع، فالولاء لهم ومعرفتهم كسفينة نوح - عليه السلام -، فقال:

إِنَّ إِلَهَهُ أَعَزَّنِي	بِكُمْ وَأَقْسَرِمُ لَنْ أَهَوْنَا
وَإِذَا طَمَأ بَحْرُ الْمَخَا	وَفِي كَانَ وَدُكُّكُمْ سَفِينَا
وَأُرَى يَقِينِي فِيكُمْ	مُسْتَفْتِي ذِي حَقًّا يَقِينَا <sup>(٢)</sup>

وعبر طلائع بن رزيك عن ولائه لآل البيت، بتصوير حنينه وحبه لتربة الطف التي تحوي أجسادهم، وتعظيم تلك التربة التي استمدت مكانتها من سمو من دفن فيها، وحنين الشاعر لهذا المكان لا ينتهي إلا بانتهاء الحياة:

يَا بَقْعَةَ بِالطَّفِّ حَشُّ	وَتُرَابِهَا دُنْيَا وَدِينُ
أَصْحَتْ كَأَصْدَافٍ يَصَا	دِفْ ضَمْنَهَا السُّدْرُ الثَّمِينُ

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٦٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

مَنِّي السَّلَامُ عَلَيْكَ مَا      غَطَّتْ عَلَى الشَّمْسِ الدُّجُونُ  
وَلِيَّ الْحَنِينِ إِلَيْكَ مَهْمٌ      مَا أَخْتَصَّ بِالْإِبْلِ الْحَنِينُ<sup>(١)</sup>

ويتحدث طلائع بن رزيك في رثائه آل البيت عن ولاته لمن تبع آل البيت من الأئمة، فما تعبير الشاعر عن حبه وولائه لآل البيت إلا تصريح بحبه وولائه للأئمة الفاطميين الذين يرون أنفسهم خلفاء آل البيت، والشاعر يعبر عن حبه للحسين بن علي واتباعه له، وهو إن تحول عن حبه، فإنما يتحول إلى من وليه من الأئمة الذين يرى فيهم الشاعر امتدادا لآل البيت في حق الخلافة، وفي وجوب محبتهم واتباعهم والولاء لهم، فيقول في حديثه عن الحسين بن علي من قصيدة في رثاء العزة الطاهرة:

فَكُلُّ لُبِّ فِي هَوَاهُ مُعِي      مَا بَيْنَ مَكْفُولٍ وَمُضْمُونٍ  
لَا أَنْتَيْ عَنَّهُ إِلَى غَيْرِهِ      إِلَّا لِقَوْمٍ حُبُّهُمْ دِينِي<sup>(٢)</sup>

وإن كان الشعراء يدينون بالحب والولاء لآل البيت، فإن هذا الحب دفع بهم إلى كثير من المغالطات التي لا يرضى بها الشرع، وأولها، وضع تلك الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم - تأييدا لأفكارهم ومعتقداتهم، وبينت بعض كتب الحديث على أن ما ورد من أحاديث رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم - في حق آل البيت في الخلافة والوصاية، موضوع ومتروك سنده ورواته، فالخلافة في الإسلام ما كانت متوارثة بين الناس ولا بين الأئمة، بل هي شورى بين المسلمين، امتثالا لأمر الله تعالى في قوله: ﴿وَأمرهم شورى بينهم﴾<sup>(٣)</sup> وقوله: ﴿وشاورهم في الأمر﴾<sup>(٤)</sup> ويؤكد هذا، أن النبي صلى الله عليه وسلم - أظهر من

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٩.

(٣) سورة الشورى، آية ٣٨.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٥٩.

الإشارات العديدة ما يشير إلى تولي أبي بكر الصديق الخلافة من بعده، كتقديمه للصلاة بالمسلمين مثلاً، وإصراره على أن يؤم أبو بكر الناس، عندما كان عليه السلام مريضاً.

وفيما يتعلق باعتقاد الفاطميين بأن الولاء لآل البيت والأئمة من بعدهم ينجي الإنسان يوم القيامة، ويجوزة على الصراط، فلم يرد فيه أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وفي تكفير الفاطميين لمن لا يوالي الإمام ويعتقد به، تجاوز على حدود الله، فالعداء بين المسلمين وعدم الاجتماع على أمر من أمور الدين لا يخرجهم من الإسلام ولا حتى الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما...﴾<sup>(١)</sup>، فقد وصفتهم الآيات (بالمؤمنين) بالرغم من اقتتالهم، والإيمان أعلى درجة من الإسلام، فكيف بنا والفاطميون يخرجون طائفة كبيرة من المسلمين من دين الإسلام وتكفيرهم، لعدم موالاتهم للإمام؟

(١) سورة الحجرات، آية ٩.

## رثاء القادة والخلفاء في العصر الفاطمي:

تنوعت الأغراض الشعرية في العصر الفاطمي ما بين غزل، ومدح، ووصف، وتصوف وغير ذلك، وكان الرثاء من الأغراض الشعرية التي حظيت بنصيب وافر من شعر الشعراء، فتنوعت ضروبه، وتبع ذلك تنوع في القصائد والأساليب، ويعد رثاء الأئمة والقادة وغيرهم من المجالات التي أولاها الشعراء اهتمامهم، إذ شكل موتهم مصيبة هزت كيان المسلمين، لا سيما أنهم يدركون الفراغ السياسي الذي يتركه القائد، والانقسام الذي يصدع جسد الدولة بعد فقده، فأظهر الشعراء لفقد القادة والأئمة حزنا كبيرا، إذ يرون في الإمام خليفة الله في الأرض، يفوق الناس خلقا ودينا، فعبروا عن حزنهم بأساليب مختلفة، وشاركوا في أحزانهم الناس جميعا، ونشروا الحزن في كل مكان في هذا الكون، وينطلق القاضي الجليس في رثائه الملك الظافر، من خوفه على ضياع الدين بموت أئمة والقائمين عليه، هذا الخوف الذي أرقه وأبعد النوم عن جفونه:

دَمْعِي عَنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ غَوَادِي	وَسَفَّ فُوَادِي شَجْوَهُ الْمَتَمَادِي
وَأَرْقُ عَيْنِي وَالْعَيْوُنُ هَوَاجِعُ	هُمُومٌ أَقْضَتْ مَضْجَعِي وَوَسَادِي
بِمَصْرَعِ أُنْبَاءِ الْوَصِيِّ وَعَنْتَرَةِ النَّ	بِيِّ وَالِ الذَّارِيَاتِ وَصَادِي <sup>(١)</sup>

ويظهر الجانب الديني والمذهبي في الرثاء، فما الخلفاء الفاطميون إلا أئمة هذا الدين، يتوارثون الإمامة، ابتداء من علي بن أبي طالب، وابنيه الحسن والحسين ثم فيمن تلاهم، حتى يصل إلى الخليفة الإمام الذي يقيم دين الله، فهم كما بين الشاعر، أنصار هذا الدين، وسيفه المشرع، وأعلام الهداية ونجاة الأمة من ليل الضلال:

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٩٢.

أولئك أنصار الهدى وبنو السدى  
 وسُم العدا من حاضرين وباد  
 لقد هذ ركن الدين ليلة قتلته  
 بخير دليل للنجاة وهاد<sup>(١)</sup>

وحرصا على بقاء هذا الدين الذي عد الشاعر هؤلاء الأئمة حماته، يستتصر الوزير الفاطمي

طلّاع بن رزيك، ليتدارك أمر هذا الدين بعد مقتل الملك الظافر:

تدارك من الإيمان قبل دثوره  
 حشاشة نفس أذنت ينفاد  
 وقد كاد أن يطفي تالوق نوره  
 على الحق عاد من يقية عاد<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن في موقف الشاعر هذا من الخليفة، مبالغة تناقض موقف الإسلام من الخلافة،

فما أشار الدين إلى قضية الوراثة، بل دعا إلى أن يكون أمر المسلمين شورى بينهم وهكذا كان

يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم- والصحابة من بعده. ولو كان الأمر كما يرى الشاعر ومن

وافق هذا الرأي من شعراء الفاطميين، لورث علي الخلافة من رسول الله صلى الله عليه وسلم،

كما كان الشاعر مبالغاً حين عدّ الأئمة منقذي الأمة من ليل الضلال، وكان المسلمين يعيشون

ضلالاً وكفراً، إن دور الخليفة في الإسلام محصور في الإرشاد والجهاد والذب عن الدين،

وإقامة شرع الله بين الناس، وبموته لا يموت الدين ولا ينقضي، فقد تعهد الله لهذا الدين بالبقاء

والعلو، دون أن يقرن بقاءه وعلو شأنه بإمام أو غيره.

ومن القادة الذين هز موتهم الشعراء، الملك الصالح طلائع بن رزيك، فرأى عمارة اليمني

في موته فجيرة للدهر والأيام والسماء والأرض، إنه خطب أقرب إلى قيام الساعة:

لَيْتَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لَمْ يَتَّبَسَّمْ  
 عَنْ مَحِيَّاهُ اللَّيَالِي تُغَوَّرُ

(١) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٩٢-٢٩٣.

واستعار عمارة اليميني من أهوال يوم القيامة وما يعتري السماء والأرض والنجوم، صورة عبر من خلالها عن هول ذلك الخطب وأثره على كل شيء، وهي صورة تعكس مدى ما يجول في نفسه من انفعالات وأحزان:

شَاهَدْتُهُ مِنْ جَوْرِهِ تَسْتَجِيرُ	حَادَتْ ظَلَّتِ الْحَوَارِثُ مِمَّا
وَتَكَادُ السَّمَاءُ مِنْهُ تَمُورُ	تَرْجِفُ الْأَرْضُ حِينَ يَذْكُرُ عَنْهُ
رَأَيْتِ خُطْبَ لَهُ النُّجُومُ تَغُورُ <sup>(١)</sup>	طَبَّقَ الْأَرْضُ مِنْ مُصَابِ أَبِي الْغَا

وإن كان عمارة اليميني قد عبر عن حزن كل شيء لموت الملك الصالح، فإن المهذب ابن الزبير، قد عبر عن حاله هو والهم الذي ألم به بعد موته، فكلما ذكر هذا المصاب ضاقت عليه نفسه، وبات أسير الحزن الذي امتلك على الشاعر نفسه، ونومه، وراحة نفسه، ليضحي الأرق له رفيقا، والأسى عنوانا للوفاء:

أَسِيرٌ عَدَى سَدَّتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ	إِذَا ذُكِرَتْهُ النَّفْسُ بِيَتْ كَأَنَّي
إِذَا غَابَ عَنِّي كَوْكَبٌ لَأَحْ صَاحِبُهُ	وَكَمْ لَيْلَةٍ سَاهَرْتُ أَنْجُمَ أَفْقِهَا
مُشَارِقُهُ لِلنَّاطِرِينَ مُغَارِبُهُ	يَطُولُ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى كَأَنَّي
وَفَاءٌ لِبَدْرِ أُسْلَمَتْهُ كَوَاكِبُهُ <sup>(٢)</sup>	وَقَدْ أُسْلِمَ الْبَدْرُ الْكَوَاكِبَ لِلدُّجَى

أما ابن الخياط فيستثير مشاعر الحزن في رثائه والي صيدا ثقة الملك ابن الطهماني، بأن يظهر مدى الغربة التي بات يحياها هذا المرثي تحت التراب، فلا أذن تسمع ولا عين ترى، فهي غربة توحى بالوحشة الأبدية التي لا أنيس فيها، ولا دفاء يذيب بردها، غربة تحرك كل المشاعر حتى في قلب أعدائه:

(١) عمارة اليميني، المختار، ص ٢٢٦.

(٢) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ١٧٧-١٧٨.



فَمَا عَزَّنِي كَيْدٌ تَلْتَظِّي      وَلَا خَائِنِي مَدْمَعٌ سَافِحٌ  
مُقِيمٌ بِحَيْثُ بَصَمَ السَّمِيعُ      وَيُعْمَى عَنِ النَّظْرِ الطَّامِحُ  
يُرِقُّ عَلَيْكَ الْعُدُوَّ الْمُبِينُ      وَيُرِي لَكَ الْحَاسِدَ الْكَاشِحُ<sup>(١)</sup>

وفي مريثة أخرى له لعضب الدولة، يصور حزنه بفقدان رغبته في الحياة، كما يفقد قدرته

على الصبر، إنه الحزن الذي يطوق النفس بأغلاله، فتقف الكلمة أمامه عاجزة:

أَيَجْمَلُ بِي الْعِزَاءُ وَأَنْتَ ثَاوٍ      أَيَحْسُنُ بِي الْبُقَاءُ وَأَنْتَ فَاوٍ  
وَمَا أَنَا بِالرَّبِيبِ الْجَاشِ فِيهَا      فَأَسْلُوهُ وَلَا تَثْبِتِ الْجَنَانِ  
أَلَامٌ عَلَى أُمَّتِنَا عِ الشَّعْرِ مِنِّي      وَمَا عِنْدَ اللَّوَائِمِ مَا دَهَانِي  
كَفَى بِدَلِيلِ حُزْنِي أَنْ دَمَعِي      أَطَاعَ وَأَنْ فِكْرِي قَدْ عَصَانِي<sup>(٢)</sup>

واتخذ الشعراء من الإشادة بمناقب القادة المرثيين والتحسر عليها، وسيلة لإثارة الحزن

والأسى، لفقد تلك المزايا والمناقب، ومن هذه المناقب، الجلال وعلو القدر وطيب الذكر، فابن

أبي حصينة في رثائه قرواش بن المقلد صاحب الموصل، يشيد بأنه ذو مجد، قد جمع في

شخصه صفات المجد والعلو، وبموته كأن الكرام كلهم ماتوا، فقد كان جماعة في فرد:

يَا أَسَفَ النَّاسِ عَلَى مَا جَدٍ      مَاتَ فَقَالَ النَّاسُ مَاتَ الْكَرَامُ<sup>(٣)</sup>

وابن الخياط في رثائه أبا محمد بن أحمد الزرافى، يشيد به أيضا بأنه باني المجد والعلو،

وإن كان الجسد قد غاب، فثمة مجد ما زال قائما يشهد لذلك الباني بالبقاء:

وَعُودُ مَحْيِي النَّدى لِلْفَنَاءِ      وَعُوجِلُ بَاني الْعلى بِأَنَّهُ دَامَ

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ٥٠-٥١.

(٢) ابن الخياط، الديوان، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٦٩.

فَوَاحَسْرَتَا مَنْ أَدْلَّ الْعَزِيْزَ      وَوَا أَسْفَا مَنْ أَدْلَّ الْمُحَامِي (١)

ويرى المهذب بن الزبير في غياب الملك الصالح طلائع بن رزيك غيابا لكل من له مجد

ماض وحاضر، فكان المجد ماضيه وحاضره قد اجتمعا في الملك الصالح:

لَقَدْ غَابَ عَنِ أَفْقِ الْعُلَا كُلِّ مَا جِدَّ      لَهُ حَاضِرُ الْمَجْدِ التَّلِيدِ وَغَائِبُهُ (٢)

ومن المناقب الأخرى التي يرثى بها القادة في العصر الفاطمي، الجود، وإن كانت أساليب

التعبير قد اختلفت من شاعر إلى آخر، إلا أن المعنى واحد، فأفضل الملك الصالح تتبئ عنه

وتتحدث:

وَمَنْ أَسْكَتَ الْفُضْلَ الَّذِي كَانَ فَضْلُهُ      خَطِيْبًا إِذَا التُّفَّتْ عَلَيْهِ مَحَافِلُهُ (٣)

وبموت معتمد الدولة أبي قرواش، يموت معه ما رافق حياته من مظاهر تدل على جوده،

فقصره أضحى مقفرا من الحياة التي كان يبعثها عطاء المرثي في أرجائه:

زُلْتُ فَلَا الْقَصْرُ بُهَيِّي وَلَا      بَابُكَ مَعْمُورٌ كَثِيرُ الزَّحَامِ

وَلَا الْخِيَامُ الْبَيْضُ مَنْصُوبَةٌ      بَوْرِكْتُ يَا نَاصِبَ تَلْكَ الْخِيَامِ (٤)

ويصور الشاعر وجيه الدولة مرثيه كافي الكفاة إسماعيل بن عباد الضاحب، أصلا للجود،

يتفرع منه جود من سواه، ومركزا يدور في مداه العطاء ولا يدانيه، والعيش في ظل كرمه حلم

جميل لحلم الحياة، وسوق النعم رائجة رابحة:

فَمَا دَارَ فِيهِمْ لِلْسَّامِحَةِ وَالنَّدَى      بِهَا فَلكَ إِلَّا وَأَنْتَ لَهُ قُطْبُ

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ٩٦.

(٢) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ١٧٧.

(٣) عمارة اليماني، المختار، ص ٣٠٣.

(٤) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٠.

وَكَانُوا يُنْعَمِي مِنْكَ فِي حُلْمِ الْكُرَى  
فَنَادَاهُمْ فَقَدْ السَّمَاحِ: أَلَا هُبُّوا  
فَهَلْ لِكِتَابٍ فِيهِ زَكْرٌ لِنِعْمَةٍ  
لَقَدْ كَسَدْتُ فِي سَوْفِهَا بَعْدَكَ الْكُتُبُ (١)

وينوع ابن سنان الخفاجي في التعبير عن جود مخلص الدولة أبي المتوج مقلد بن نصر ابن منقذ، فيوظف عناصر مختلفة لإظهار هذه الصفة وإبرازها، منها، حزن المتشردين الذين كان يؤويهم ويعيّلهم: كما صور عطاءه رمزا محببا يهدئ روع المحتاج إذ يستشعر قربه وسرعة تلبيةه، وهي سرعة تعيد إلى المخيلة سرعة الجن في قصة سليمان - عليه السلام - وعرش بلقيس، وكأن الشاعر أراد أن يصور تكامل عطاء المرثي الذي ملك قلوب الرعية:

فَلَهْفِي عَلَيْكَ لِشُعْبِ الْعَفَا  
وَ تَرْمِي إِلَيْكَ بِأَقْطَارِهَا  
تَجُوبُ الْمَهَامِةَ حَتَّى تَنْبِيحَ  
بِقَارِي الْعَشِيرَةِ عِقَارِهَا  
وَسَاغِبَةٍ عَلَّتْ فِي الظَّلَامِ  
بَنِيهَا بِقُرْبِكَ مِنْ دَارِهَا  
فَكُنْتُ إِلَى بَدَلِ مَا أَمَلْتَهُ  
أَسْرَعَ مِنْ وَهْمِ أَفْكَارِهَا  
وَلَهْفِي لِإِخْوَانِ صِدْقِ أَطْلَسَتِ  
عَلَيْهَا بَقِيَّةَ أَعْمَارِهَا  
مَلَكْتُ ضَمَائِرَ رَهَا وَأَسْتَرَقَّ  
جُودَكَ رَبِيقَةَ أَحْرَارِهَا (٢)

أما ابن قلاقس، فقد صور جود وزير الدولة المصرية ضرغام بن سوار تصويرا مختلفا، إذ علل موته بجوده، فالموت طرق بابَه سائلا محتاجا، فيبلغ وزير الدولة ذروة عطائه إذ لا يرد سائلا حتى لو كان هذا السائل هو الموت، وإن كان العطاء هو الحياة:

وَأَحْسَبُ أَنَّ الْمَوْتَ وَافَاهُ سَائِلًا  
قَبْلَهُ مَا رَامَهُ غَيْرُ مَانِعٍ (٣)

(١) المحاسبي، أخبار مصر، ص ١٠١.

(٢) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٥٣-٥٤.

(٣) ابن قلاقس، الديوان، ص ٤٦٧.

ومن صور الجود الأخرى، تلك الصورة التي صاغها المهذب بن الزبير في رثاء الوزير  
رضوان بن الولخشي، إنه ذلك العطاء الذي يهمني دون حساب، فيصيب بفيضه من يشاء، عطاء  
يهمني من سحب يمينه، سحب غطت سماء الجود، فأبكتها عندما انقشعت:

بِنَفْسِي مَنْ أَبْكَى السَّمَوَاتِ مَوْتَهُ      بَغِيْبٍ طُنَّاهُ نَوَالٍ يَمِينِهِ  
فَمَا اسْتَعْبَرْتُ إِلَّا أَسَىً وَتَأْسَفًا      وَإِلَّا فَمَاذَا الْقَطْرُ فِي غَيْرِ جِينِهِ<sup>(١)</sup>

ومن المناقب التي بكاها الشعراء في رثاء القادة، التقوى والإيمان، وكانت تلك الصفة من  
المناقب التي تجمع الناس حول القائد، وتمنحهم الثقة بصلاح حكمه، ومن مظاهرها، قراءة  
القرآن والمداومة على العبادة، مما يوحى بارتباط القائد الوثيق بالله - عز وجل -، ارتباطا يجعل  
إقامة حكم الله والالتزام به هدفا يسعى إليه، وهذا ما كان يحرص عليه طلائع بن رزيك، كما  
صوره عمارة اليميني:

وَمَنْ عَوَّقَ الْقَارِي الْمُجَاهِدَ بَعْدَ مَا      أَعَدَّتْ لِغَزْوِ الْمُشْرِكِينَ جَحَافِلُهُ  
وَلَا قَابِلَ الْمِحْرَابِ وَالْحَرْبِ عَامِلًا      مِنْ الْبَاسِ وَالْإِحْسَانِ مَا اللَّهُ قَابِلُهُ<sup>(٢)</sup>

وصور ابن النضر الأديب تقوى الرشيد إبراهيم بن الزبير، بحسن الجزاء وطيب المضجع  
بعد الموت:

عَلَّقَتْ عَلَيْكَ مَرَاجِمَ كَفَلْتِ لِمَنْ      وَأَرَيْتِ جَمَلْتَهُ بِبُرْدِ الْمُضْجَعِ  
وَتَنَفَّسْتَ فِيكَ الصَّبَا مَفْتَوِّقَةً      بِنَسِيمِ مَسْكِ رِيَاضِهَا الْمُتَضَوِّعِ<sup>(٣)</sup>

(١) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ٢٢٧.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ٣٠٤.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ص ٩٦.

وقد أولى الشعراء شجاعة المرثي وبأسه أهمية في شعرهم، إذ عبروا عنها وأفاضوا فيها، وحاول كل شاعر أن يبرز فنه وبراعته في نسج خيوط هذه الصفة ومظاهرها، فالمهذب بن الزبير في رثاء الملك الصالح، ينسج خيوط شجاعته من ظلام الليل الذي خاله الشاعر ظلام غبار المعارك، ومن النجوم الساريات والبروق اللامعات، فوظف الليل بعناصره ليكون نسج تلك الشجاعة:

يُخَيِّلُ لِي أَنَّ الظَّلامَ عَجَابُهُ      وَأَنَّ النُّجُومَ السَّارياتِ مَوَاجِبُهُ  
وَأَنَّ البُرُوقَ اللامعاتِ سَيُوفُهُ      وَأَنَّ الغُيُوثَ الهامعاتِ مَوَاهِبُهُ<sup>(١)</sup>

وتأخذ الشجاعة صورة أخرى، إذ يرى الشاعر في مرثيه حاميا للإسلام مدافعا عن حمى المسلمين، وبموته تخلو ساحات المعارك من الفرسان، فكان القوة كلها جمعت في شخصه وماتت بموته، ولا تخلو مثل هذه الرؤية من المبالغة، ولكنها مبالغة أراد أن يسوغ فيها الشاعر ذلك الفيض من الحزن الذي لا يكون إلا لفقد من هو عظيم، وعبر ابن الخياط عن هذه الشجاعة وخسارة المسلمين بفقدائها في رثاء الأمير مختار الدولة بن بزال فقال:

فَمَنْ لِحماها إذا ما العُدُّ      وَ أُمَّتٌ كَتائِبُهُ دارُها  
وَمَنْ يَشْهَدُ الحَرْبَ غَيْرَ الجَبانِ      إذا الخَوْفُ غَيَّبَ أنصارُها<sup>(٢)</sup>

إذ استغل الاستفهام الذي يفيد النفي، ليبرز فقدان الشجاعة بعد المرثي.

وعلى حظي الدولة أبو المناقب موت الخليفة المستنصر ليلا بشجاعته، إذ هاب أن يأتيه

نهارا:

(١) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ١٧٨.

(٢) ابن الخياط، الديوان، ص ١١٦.

لَقَدْ هَابَ مَلِكُ الْمَوْتِ إِتْيَانَهُ ضُحَىً      فَفَجَأَهُ لَيْلاً وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ (١)

ويصور ابن قلايس شجاعة الوزير المصري ضرغام بن سوار، في ذلك المأتم الذي أقامته أدوات الحرب حزناً لموته، فثمة حياة كانت تعيشها في يمينه، تعيشها وهي تمارس دورها الذي وجدت من أجله في ساحات القتال، هذا الدور الذي توقف بموته:

وَكَمْ جَفْنٍ ضَيَّفِ سَائِلِ الدَّمْعِ سَاهِرٍ      وَكَمْ جَفْنٍ سَيَّفِ جَامِدِ الدَّمِ هَلِجِ  
وَكَانَتْ مَنِيَّاتُ الطَّبِيِّ بِيَمِينِهِ      فَقَدْ أَمِنَتْ مِنْ جُورِهَا الْمُتَتَابِعِ (٢)

ويرسم عمارة اليمني صوراً متنوعة لشجاعة الملك الصالح، مراوفاً بين الاستفهام تارة، والخبر تارة أخرى، وقد نسج كل خيوط هذه الصور من معارك الملك الصالح، وعبر عن هذه الصور، بانقلاب الحال بعد موته إلى نقيضه، فثمة فوضى تعم المكان، فوضى خاض الملك الصالح غمار الحروب لإزالتها، وتحقيق الأمان والاستقرار في البلاد، وهي فوضى تحيط بذلك الجسد المسجى، الذي كان يمارس فن الحياة في ساحات القتال، حيث الحركة الدائبة، والحياة التي تتدفق من نصال السيوف، والشاعر في تصويره ما كان وما هو كائن، إنما يبرز ذلك الشعور الكبير بالحزن المشوب بالفخر والحب لذلك الجسد الذي كان يتدفق بالحياة والبطولة:

وَمَنْ أَكْرَهُ الرَّمْحَ الرَّدِّيَّيَ فَالْتَوَى      وَأَرْهَقَهُ حَتَّى تَحْطَمَ عَامِلُهُ  
وَمَا هَذِهِ الصُّوْضَاءُ مِنْ بَعْدِ هَيْبَةٍ      إِذَا خَامَرَتْ جِسْمًا تَخَلَّتْ مَفَاصِلُهُ  
كَأَنَّ أَبَا الْغَارَاتِ لَمْ يَنْشِ غَارَةً      يُرِيكَ سَوَادَ اللَّيْلِ فِيهَا قَسَاطِلُهُ  
وَلَا لَمَعَتْ بَيْنَ الْعَجَاجِ نُصُولُهُ      وَلَا طَرَزَتْ تُوْبَ الْفِجَاجِ مَنَاصِلُهُ (٣)

(١) المقرئزي، اتعاط الحنفا، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٢) ابن قلايس، الديوان، ص ٤٦٧.

(٣) عمارة اليمني، المختار، ص ٣٠٣.

ويعصور ابن سنان الخفاجي مخلص الدولة أبا المتوج، حصنا يلوذ به الخائف والمهموم، ويبدأ تمتد إلى شباك الكرب، لتخلص منها كل مكروب محزون، فهو ذلك الشجاع الذي تتطلع إليه القلوب، بحب ورجاء:

وَعَانِ دُعَاكَ وَصَحْبُ الْهَمُومِ      تَرُوحُ عَلَيْهَا بِسْمَارِهَا  
فَأَنْقَذْتَهُ مِنْ يَدِ الْحَادِثَاتِ      وَقَدْ عَلَّقَتْهُ بِأَظْفَارِهَا<sup>(١)</sup>

وفي صورة تثير الحزن والأسى، وفي استفهام يثير مشاعر الحسرة، ينعي ابن الخياط الأيمن والاستقرار بنعيه الأمير مختار الدولة بن بزال الذي كان بشجاعته كاشفا للخطوب والناثبات:

سَمَّتْ هِمَّةَ الْخُطْبِ حَتَّى إِلَيْكَ      لَقَدْ عَظَّمَ الدَّهْرُ أخطَارَهَا  
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَأْمَنُ النَّائِبَاتِ      وَقَدْ أَنْشَبَتْ فِيكَ أَظْفَارَهَا<sup>(٢)</sup>

لقد رأى الشعراء فيمن رثوهم من القادة والخلفاء أنموذج الإنسان القائد الذي يريده المسلمون، ورأوا في صفاتهم ومناقبهم تلك المثل التي يحتكم إليها الناس، أو يطمحون بأن تتحقق في قادتهم وأولي الأمر منهم، هكذا أراد الإسلام ممن يتولى أمور المسلمين أن يكون، وهكذا حلم به الشعراء وطمحوا وتطلعوا، فعبروا عن أفكارهم ورؤاهم بتلك المناقب التي مدحوا بها هؤلاء القادة.

وإذ مثل القادة والحكام هذه المثل والقيم عند الشعراء، فقد استحقوا الكثير من الدعاء الذي أمطرهم به الشعراء في قصائد الرثاء، فدعا ابن أبي حصينة لمعتمد الدولة أبي قرواش، بأن

(١) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٥٣-٥٤.

(٢) ابن الخياط، الديوان، ص ١١٥. وانظر في هذا المعنى: المختار من ديوان عمارة، ص ٣٠٣ في رثاء الملك الصالح.

يسقي قبره ماء السماء، وألا تتعداه السحب المحملة بالمطر، وكأن الشعراء في ذلك يدعون بالحياة للمرثي، فالماء أصل الحياة، وهم أحياء بماء السماء حتى وإن حوتهم القبور:

يَا قَبْرَ قِرْوَانِ سَقَيْتَ الْحَيَا      وَلَا تُعَدَّتْكَ غَوَادِي الرَّهَامِ<sup>(١)</sup>

واختلف ابن سنان الخفاجي عن غيره من الشعراء في دعائه لمخلص الدولة أبي المتوج، ففي الوقت الذي جعل فيه بعض الشعراء دعاءهم للميت في آخر القصيدة، يفتتح هو قصيدته بالدعاء، بأن يحبو الله هذا الميت ماء السماء، وكأنه أراد أن يبدأ قصيدته ورتائه ببث الحياة في المرثي، فيخاطب حيا لا ميتا:

حُبَّتْكَ السَّمَاءُ بِأَمْطَارِهَا      وَكَيْفَ تَضِنَّ عَلَى جَارِهَا<sup>(٢)</sup>

ورثمة عنصر للحياة آخر يرافق أو يلي ماء السماء، ألا وهو جمال هذه الحياة المتمثل بالزهر والرياض التي دعا الشاعر بأن تغمر قبر مخلص الدولة، فثمة حياة داخل القبر وحياة خارجه، فتزول بذلك وحشة الموت ويباس الحياة وذبولها في القبر الذي أضحى صورة جميلة عامرة بالألوان والحياة:

وَلَا بَرِحَتْ فِي ثَرَاكَ الرَّيَاضُ      تُفَضُّ لَطَائِمَ نُوَارِهَا  
وَقَدْ نَابَ عَنْهَا جَمِيلُ النَّوَا      فَذِكْرُكَ أَعْبَقُ أَزْهَارِهَا<sup>(٣)</sup>



وكان للمذهب الفاطمي أثره في رثاء الأئمة، فاستخدم الشعراء بعض مبادئ هذا المذهب في شعرهم، إما لبيان حق الفاطميين في الخلافة، أو للإشادة بمناقب الإمام المستمدة من كونه امتدادا لآل البيت - كما يرى أصحاب هذا المبدأ- فمن ألفاظ المذهب الفاطمي استخدم القاضي الجليس

(١) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٠.

(٢) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٣.



مصطلح ((الوصي)) في رثاء الملك الظافر بالله، والوصي عند الفاطميين هو علي بن أبي طالب، إذ يعتقدون أن الله تعالى أمر نبيه أن يبلغ وصاية علي إلى الناس<sup>(١)</sup>. وبهذه الوصاية المفروضة، ختم الله فرائض الدين، وأبناء علي بن أبي طالب يرثون هذه الوصاية، ويرثها بعدهم من وليها من الأئمة الذين تصبح بذلك طاعتهم واجبة كما يرون، لذا فإن بعض الشعراء الفاطميين يؤكدون في شعرهم على وصاية هؤلاء الأئمة، وينعتون الإمام بالوصي، وفي هذا المعنى يبين القاضي الجليس في رثائه الملك الظافر بالله مستجداً بطلائع بن رزيك لنصرة آل البيت من الأئمة، بعد أن قتل الوصي وهو الخليفة الظافر بالله:

دُمِعِي عَنْ نَظْمِ الْقَرِيضِ غَوَادِي	وَسَفَّ فُوَادِي سَجْوَةَ الْمُتَمَادِي
بِمَصْرَعِ أَبْنَاءِ الْوَصِيِّ وَعَتْرَةِ النَّـ	بِيِّ وَأَلِ الذَّارِيَاتِ وَصَادِ
فَأَيْنَ بَنُو رُزَيْكَ عَنْهُمْ وَنَصْرُهُمْ	وَمَا لَهُمْ مِنْ مَنَعَةٍ وَذِيَادِ <sup>(٢)</sup>

ويضمن الشاعر رثاءه الملك الظافر بالله مصطلحا ومعنى فاطميا آخر، فيعد الملك الظافر هاديا للأئمة ودليل نجاتها من الضلال، فهو الهادي المهتدي، ويستند الشاعر في هذا المعنى إلى ما يعتقدوه الفاطميون في معنى قوله تعالى: «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»<sup>(٣)</sup>، فرووا في شرح هذه الآية أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال فيها: «أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي»، وجاء عن بعض الأئمة الفاطميين أنه قال: المنذر رسول الله وفي كل زمان إمام منا يهديهم إلى ما جاء به رسول الله، فأول الهداة بعده علي ثم الأئمة من بعده<sup>(٤)</sup>.

(١) داعي الدعاة، الديوان، ص ٧٢ (المقدمة).

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٣) سورة الرعد، آية ٧.

(٤) داعي الدعاة، الديوان، ص ٧٤، (المقدمة). ويروي الشيعة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال:

((لكل نبي وصي وإن عليا وصيي ووارثي))، وهو حديث باطل موضوع. ينظر، السسيوطي، اللآلئ، ج ١،

ويظهر أثر المذهب الفاطمي عند الشاعر المؤيد في الدين داعي الدعاة في رثائه الخليفة

الظاهر وتهنئة المستنصر بالإمامة، فهو في إشادته بالخليفة الظاهر يقول فيه:

غُصِّنَ مِنَ الْقَلَمِ الْمُمَدِّ وَصِنُوهُ      وَمِنَ النَّبِيِّ الْأَبْطَحِيِّ وَحِيدِرِ<sup>(١)</sup>

فالشاعر يرى كما يرى الفاطميون - وهو أحد دعائها- أن منزلة الإمام الظاهر من الرسول صلى الله عليه وسلم - كمنزلة علي منه، وما منزلة علي من النبي صلى الله عليه وسلم - إلا كمنزلة اللوح المحفوظ من القلم، فاعتقدوا أن محمدا - عليه السلام - هو القلم وعلي هو اللوح، وقالوا أن الله قد أبدع القلم واللوحة من نوره، ولهذا قال الفاطميون أن محمدا وعليًا خلقا من نور واحد، ورووا أن عليا قال: ((أنا ومحمد من نور واحد، من نور الله تعالى))<sup>(٢)</sup>.

وقد استغل الشاعر هذه الفكرة التي يعتقد بها الفاطميون، ليؤكد منزلة الإمام وأفضليته على سائر الناس، فما كان لعلي من فضل ينتقل إلى من يليه من الأئمة، وعلى هذا فإن الإمام الظاهر كما أراد أن يبين لنا الشاعر، مخلوق من نور الله، في حين أن سائر البشر مخلوقون من التراب، ولهذا السبب يرى الشاعر أن موت الإمام الظاهر إنما هو عودة وارتقاء إلى السماء حيث النور الذي خلق منه، فيقول:

وَسَمَا إِلَى الْعُلْيَا مِنَ الْأَفْقِ الَّذِي      هُوَ نُجْلُهَا وَشَبِيهٌ فِي الْجَوْهَرِ<sup>(٣)</sup>

ويؤكد الشاعر هذا المعنى في موقع آخر من القصيدة، يفخر فيه بنفسه، وهو الذي يتبوأ

مرتبة داعي الدعاة، فيرى أنه من نور الملائكة خلق، فيقول:

(١) داعي الدعاة، الديوان، ص ٢٢١.

(٢) داعي الدعاة، الديوان، ص ٧٦، (المقدمة). وهذا حديث موضوع وضعه جعفر بن أحمد بن علي، وكان رافضيا وضاعا، ينظر، السيوطي، اللآلئ ج ١، ص ٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

أنا آدمي في الرواء حقيقتي  
ملك تعين ذاك للمستبصر<sup>(١)</sup>

ويتخلص الشاعر من رثاء الإمام الظاهر إلى مدح الخليفة المستنصر، ويستخدم في مدحه ما يعتقده الفاطميون من شبه بين عيسى وعلي، وما يصح على علي من قول، يصح على من وليه من الأئمة، لذا فإن الشاعر عرض لهذا الشبه بينهما بقوله:

أشبهت عيسى في الذي أوتيته  
طفلاً من النعماء ولما تقصير<sup>(٢)</sup>

فعيسى -عليه السلام- أوتي الكلمة التي هي آية النبوة طفلاً، وكذلك علي أوتي الكلمة التي هي آية الوصاية طفلاً<sup>(٣)</sup>، والخليفة المستنصر تولى الإمامة والخلافة وهو في السابعة من عمره، لذا فقد أشبه عيسى وعلياً، وقد أراد الشاعر من هذا التشبيه أن يثبت معتقده الفاطمي في العلاقة بين علي وعيسى.

ومثل الإمام عند الفاطميين، مثل نهر الكوثر في علمه العظيم، وهو ما أعطاه إياه الله من علم التأويل الباطن<sup>(٤)</sup>، وكل من لا يؤمن بالإمام وعلمه بدافع البغض، إنما هو الأبر -كما أول الفاطميون سورة الكوثر-، وأفاد المؤيد من هذا المعنى والتأويل في مدحه الإمام المستنصر حين هنا بالخلافة معزيا إياه بموت الخليفة الظاهر، ومعرضاً بمن يعادي الدولة الفاطمية ولا يدين بمذهبها، فيقول:

(١) داعي الدعاة، الديوان، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(٣) داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ١٤٨.

(٤) داعي الدعاة، الديوان، ص ٣٢٩.

فُلْدِيٍّ مِنْ حُسْنِ الْوَلَاءِ عَقِيدَةٌ      يَرْضِيكَ مِنْهَا الْجَهْرُ وَالْإِسْرَارُ<sup>(١)</sup>

فالإسلام كما يرونه هو مثل الظاهر، والإيمان مثله مثل الباطن ولا بد من إقامة الإسلام والإيمان معا<sup>(٢)</sup>.

وفي قصيدة أخرى يرثيه بها، يستند على ما يراه الفاطميون في الإمام والوصي، بأن وجوده سبب لوجود الدنيا التي تقود إلى الآخرة، فكما أن عالم الجسم مرتبط بالشمس والقمر والنجوم التي تؤثر عليه في دار الدنيا، فإن الروح مرتبطة بالإمام والوصي الذي هو بالنسبة للروح في التأثير الديني والأخروي، كالشمس والنجوم في تأثيرها على الجسم في العالم الدنيوي<sup>(٣)</sup>، والشاعر عمارة يرى في الملك الصالح قطبا ترتبط به الأرواح كالشمس والكواكب التي ترتبط بها الأجساد، فماذا سيحل بالروح حين تفقد قطبها الذي هو سبب وجودها واستمرارها؟:

مَا أَوْحَشَ الدُّنْيَا غَدِيَّةً فَارَقَّتْ      قُطْبًا رَحَى الدُّنْيَا عَلَيْهِ تَسْدَارُ<sup>(٤)</sup>

(١) عمارة اليماني، المختار، ص ٢٣١.

(٢) داعي الدعاة، الديوان، ص ٩١، (المقدمة).

(٣) داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ١٠٢.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٣٩٤.

## رثاء القادة والسلاطين في العصر الأيوبي:

وأكثر الشعراء في العصر الأيوبي من رثاء القادة والسلاطين، ولا عجب في ذلك، فهم حماة الديار والمدافعون عن الإسلام والمسلمين، فنوع الشعراء من صور التعبير عن الحزن والأسى لفقد هؤلاء القادة، فصوروا الحزن عم كل شيء، وملأ النفس حتى غادرها الصبر، وفي رثاء الأصفهاني لصلاح الدين الأيوبي، نرى الشاعر يمتد بالحزن حتى يعم كل شيء، يعم بلاد الإسلام المقدسة، ويمتد ليصل الخيول والسيوف والرماح، ويمتد أكثر ليصل قلب كل مؤمن، فثمة حزن عام يصيب كل شيء ويمتد إلى كل الموجودات:

وكعادة البيت المقدس يحزن الـ	بيت الحرام عليه، بل عرفاته
بكت الصواري والصواهل إذ خلت	من سلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداً لحزن مصابه	إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في أغمادها	لا تنتضيها للوعى عزماته
يا وحشة الإسلام بوم تمكنت	في كل قلب مؤمن روعاته <sup>(١)</sup>

ولا يكفي العماد الأصفهاني بامتداد الحزن إلى كل مكان، بل إن موت صلاح الدين إنما هو

موت لكل حياة، فقد مثل هذا القائد أمة اجتمعت في إنسان:

لا تحسبوه مات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته <sup>(٢)</sup>
------------------------	---------------------------------------

وقائد مثله حقيق أن تموت البهجة بموته:

أعزز على عيني برؤية بهجة الـ	دنيا ووجهك لا ترى بهجته <sup>(٣)</sup>
------------------------------	--

(١) العماد الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩.

(٢) العماد الأصفهاني، الديوان، ص ٨٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩١.

فهذا شرف الدين الأنصاري يذرف الدمع الغزير، ويعتريه اليأس، بل إن هول نبأ موت

الملك المنصور ناصر الدين محمد، أذهله عن التصديق:

وَأُنْجِدُ فَيُضُ الدَّمْعُ فَاثَهْلَ سَاكِبُهُ	نَعِي أَعَارَ الصَّبْرَ فَازُورَ جَانِبُهُ
وَهَالُ عُمُودِ الْمَلِكِ فَاثَهَالُ كَاتِبُهُ	وَرَزَاءُ أَمْنَا كُلِّ رَزَاءٍ لِحُوفِهِ
رُكُزْنَ عَوَالِيهِ وَشِيمَتَ قَوَاضِيهِ	أَبَالْمَلِكِ الْمَنْصُورِ يَرْجِفُ قَائِلُهُ
فَأُصْبِحُ عِنْدِي أَحْسَنُ الظَّنِّ كَاذِبُهُ (١)	تَعَارُضُ فِيهِ ظَنُّ صِدْقِي وَكُذْبُهُ

وجاء التعبير عن الحزن عند بعض الشعراء مختلفا، وربما يكون أكثر استتارة لهول الموقف وعظم المصيبة، ففتيان الشاغوري في رثائه الملك المغيث بن الملك العادل، يستثير المشاعر بالاستغاثة والاستجداء بالله، مما يوحي بحزن تنتشظى له النفس، وينبه كل سامع إلي حزن زلزل أركان الدولة وقلوب الناس، وقلب الحزن فرحا عند أعدائه والفرح حزنا عند أحبائه:

لِنَنْ ذَاقُ الرَّدَى الْمَلِكِ الْمُغِيثُ	إِلَى الْمَلِكِ الْمُهَيَّمِ نَسْتَعِيثُ
فَيَكْتُرُ فِي سَيَادَتِهِ الْحَدِيثُ	تَذَكَّرُهُ الْمَلُوكُ بِكُلِّ نَادٍ
بِدُنْيَانَا فَأَطِيبُهَا خَبِيثُ	مُصَابَ زَلْزَلِ الْأَرْضِينَ حَزْنًا
لَهُ أَسْفَاً وَأُبْهَجَ مَنْ يَعِيثُ (٢)	وَرَزَاءَ كَوْرَتِ شَمْسِ الْمَعَالِي

وإذ يملأ الهم قلب فتیان الشاغوري بموت الأمير أسعد الدولة أبي الجود معن بن محسن بن نصر، فإنه لا يتمنى الحياة بعده، وتتمنى الموت هنا يجيء صورة أخرى من صور التعبير عن الحزن:

(١) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٨١.

(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٧٢.

أُظُنُّ قُوَادِي لِلْهُمُومِ قَرَارَةً      فَقَدْ عَمَّ مِنْهُ سَيْلُهَا السَّهْلُ وَالْحَزْنََا  
عَزِيزٌ عَلَيْنَا يَا أَبَا الْجَوْدِ أَنْنَا      حَبِيبْنَا وَقَدْ غَالَتْكَ أَيْدِي الرَّدَى مَنَا<sup>(١)</sup>

ويصور ابن عنين في رثائه الملك المعظم، حزنه وبؤسه اللذين لا ينتهيان، ويؤكد أنه ما عاد يبالي بالموت، فقد تساوى الموت والحياة بعد الملك المعظم، فكان الشاعر يصور في هذا الإعراض عن الحياة، وفاءه للمرثي، ويؤكد الحب والولاء:

فَأَفْعَلُ بِجَهْدِكَ مَا تَشَاءُ فَإِنِّي      بَعْدُ الْمَعْظُمِ لَا أَبَالِي بِالرَّدَى  
مَا خَلَّتْهُ بَقِيَّةٌ وَأَبْقَى بَعْدَهُ      يَا بؤْسَ عَيْشِي مَا أَمْرٌ وَأَنْكُدَا  
أَبْقَيْتَ لِي يَا دَهْرٌ بَعْدَ فِرَاقِهِ      كِيدًا مَقْرَحَةً وَجَفْنًا أَرْمُدَا<sup>(٢)</sup>

أما ابن الدهان، فقد ادخر دموعه لمثل هذا اليوم الذي مات فيه توران شاه فدموعه عزيزة، ولا تذرف إلا إذا أصيب الإسلام ومجد المسلمين بكسر قد لا ينجر:

مَا عَذْرٌ عَيْنِي لَا تَفِيضُ فَتَسْكُبُ      لِلْيَوْمِ تَدْخُرُ الدَّمُوعُ وَتَطْلُبُ  
وَإِذَا أَرَدْتُ عَلَى الصَّبَابَةِ شَاهِدًا      فَالِدَمْعُ أَعْدَلُ شَاهِدٍ لَا يَكْذِبُ  
يَا نَمْمَةً تَلُمُ الزَّمَانَ بِهَا الْعُلَى      مَا إِنْ تُسَدُّ وَصَدَعَهَا مَا يُرَأُبُ<sup>(٣)</sup>

فالحزن لم يكن لذات القائد أو شخصه، بقدر ما كان على ما يمثله القائد من قيم للمسلمين وحماية للدين. وفي صورة أخرى من صور التعبير عن الحزن عند الشعراء، عمد بعضهم إلى ذكر ما أحدثه موت القائد على حياته من تغير وتبدل، وما طرأ على موقفه من الحياة، فابن

(١) المصدر نفسه، ص ٥٤٥.

(٢) ابن عنين، الديوان، ص ٥٩.

(٣) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٣-٢٠٤.

الدهان مثلاً تحولت حياته بموت الملك المعظم توران شاه إلى النقيض، فحل الشقاء محل الهناء،

والكآبة محل السرور، والتعب محل الراحة:

مَا الْعَيْشُ بَعْدَكَ يَا هَنِيٍّ وَإِنَّمَا  
مَنْ عَاشَ بَعْدَكَ بِالْحَيَاةِ مُعَذِّبٌ  
وَلَمَّا قُضِيَتْ لَقَدْ تَرَكْتَ كَابَةً  
مَا تَتَّقُضِي وَحَرَارَةً مَا تَذْهَبُ<sup>(١)</sup>

وبموت أبي الحسن علي بن الحسين بن المعافي، الحاكم بصور، تتغير حياة الشاعر السوري، وتتقلب مشاعره، ويعاني حالة من اللاوعي واللاتصديق، ويعيش على الأمل والتمني، فالخطب عظيم، وكان الشاعر يرفض الحقيقة التي فرضت عليه، فوجد نفسه فجأة يقف أمامها، فيقول:

وَالصَّبْرُ أَوْلُ مُحْزُونٍ عَلَيْكَ فَهَلْ  
سَيِّءٌ سِوَى الصَّبْرِ يَتَّيْنِي عَنِ الْحَزَنِ  
خَلَفْتُ فِي نَظْرِي شَخْصًا يُخِيلُ لِي  
بَعْدَ الرَّدَى أَنْ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُنْ  
مَا لِلْمَنِيَّةِ لَيْسَتْ مِنْكَ تَوَيْسِنِي  
كَأَنَّهَا عَادَةٌ كَانَتْ مِنَ الْوُسْنِ<sup>(٢)</sup>

ويأخذ الشاعر شرف الدين الحلبي في وصف وتصوير ذلك الأسى الذي كسا حياته، وذلك الذل الذي عراه بموت الملك الظاهر، بعد أن كان يكسى في حياته ثوب العز، ويصف تلك الحاجة والفاقة التي ألمت به، بعد أن كان عطاء الملك الظاهر مذللاً له ولغيره:

غَازِي بَنِ يَوْسُفَ: لَا وَحَقِّكَ مَا خَبَيْتَ  
نَارِي وَلَا نَقَعَ الْبِكَاءِ غَلِيلاً  
أَبْقَيْتَ لِي مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ أُنَّةً  
تَفْرِي الصَّلْوَعِ وَرِنَّةً وَعَوِيلاً  
مَالِي أَرَى الْإِبِسَانَ أَصْبَحَ بَابُهُ  
قَفْرًا وَكَانَ جَنَابُهُ مَاهُولًا<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٥.

(٢) السوري، الديوان، ج ٢، ص ٨٠.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٤٧.



ولا تكاد الإشادة بالمناقب في العصر الأيوبي، تختلف عن الإشادة بها في العصر الفاطمي، ويبدو هذا التشابه مسوغاً، فالمناقب المحمودة لم يختلف عليها الشعراء في كلا العصرين، إذ أن معنى تلك القيم والمثل العليا واحد في مختلف العصور الإسلامية، وليس في هذين العصرين فحسب، لأن الأساس الذي تتبع منه هذه القيم واحد، وهو الدين، ومن هنا، لا يبدو الاختلاف كبيراً، بين إشادة شعراء العصر الفاطمي بمناقب قادتهم، وإشادة شعراء العصر الأيوبي بهذه المناقب، فهو يتكرر في مواضع متعددة، وتكاد الصور والمعاني تكون واحدة أو متقاربة إلى حد كبير.

ومن المناقب التي أشاد بها الشعراء وبكوا فقدوها، الجود، فنوع الشعراء في تعبيرهم عن هذه الصفة، ونسج كل منهم صورته بالشكل الذي أملاه عليه إحساسه، وإن كان معنى الصورة وروحها متشابهين.

فالعماد الأصفهاني في رثائه نور الدين يبرز فقدان هذه الصفة بموته، بل ما يبرز أن الرثاء كان لتلك المكارم أكثر مما هو لهذا الملك أو ذاك، وهو في رثائه لنور الدين يربط بين خصوصية الجود وعمومية الخير الذي فقد بفقده، فكان جود نور الدين كان المثال الأوفى والأكمل للخير الذي يعم كل شيء، وما من أحد حل محله في هذا الخير:

وَلَمَّا غَابَ نَوْرُ الدِّيْنِ	نِ عَتَا أَظْلَمَ الحَفْلُ
وَزَالَ الخِصْبُ وَالخَيْرُ	وَزَادَ الشَّرُّ وَالمَحَلُّ
وَمَاتَ البَأْسُ وَالجُّو	دُوعَاشَ اليَأْسُ وَالبُخْلُ
وَعَزَّ النَّقْصُ لَمَّا هَا	نَ أَهْلُ الفُضْلِ وَالفُضْلُ <sup>(١)</sup>

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٣٣٧.

وعبر بعض الشعراء عن جود صلاح الدين الأيوبي في صورة مختلفة، صورة ممعنة في العطاء، فرسمه جعفر بن شمس الخلافة وصوره واهبا نفسه للموت حين أتى، صورة ترى في الموت ضيفا سائلا، فتأبى إلا أن تقر به وتكرمه:

كريمَ أتاه الموتُ ضيفاً فلم يكن      لينزله إلا على السهلِ والرحبِ  
ولو خاب منه قبل ذلك سايلٌ      لخابٌ وليس البخلُ من شيمِ السَّحْبِ  
قضى ففضى المعروفُ وأنقضَ الندى      وحطت رحالُ الوفدِ في الشرقِ والغربِ<sup>(١)</sup>

وينوع العماد الأصفهاني في تصويره جود صلاح الدين، فيسلط الضوء على ارتباط الناس بعطائه حيا وميتا، وعلى امتداد هذا العطاء حتى يملأ القلوب بالحب لصلاح الدين حيا، وبالحزن عليه واستمرار الرجاء فيه ميتا:

أين الذي ما زال سلطاناً لنا      يرجى نداءه وتنتقى سطواته  
أغلال أعناق العدا أسيافه      أطواق أجياد السورى مناته  
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً      فينا يطم وتنتهي زخراته  
بحرٌ خلا من واريده ولم تزل      محفوفة بوفوده حافاتُه<sup>(٢)</sup>

إن حزن الشاعر لفقد صلاح الدين، وفقد تلك الصفة فيه، وذلك الخير الذي كان يعود على المسلمين بالنفع، ربما دفعه إلى المراوحة في تصويره هذا الجود بين الاستفهام حيناً والخبر حيناً آخر، فنراه يعود إلى الاستفهام عن فئة من الناس جبر صلاح الدين كسرهما بعطاياه، إنهم اليتامى والأرامل:

(١) أبو شامة، عيون الروضتين، ص ٣٤١.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٧-٨٨.

مَنْ لِلْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ رَاحِمٌ      مُتَعَطِّفٌ مَفْضُوضَةٌ صَدَقَاتُهُ<sup>(١)</sup>

ويعصور الشاعر تلك العلاقة الحميمة بين صلاح الدين والعطاء والصدقة وإسداء الجميل، بأن ذروة السخاء أن تمنح وأنت سعيد ومحب لما تفعل، وهكذا كان عطاء ذلك القائد:

مُعْرَى بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ كَأَنَّمَا      فَرَضْتُ عَلَيْهِ كَالصَّلَاةِ صَلَاتَهُ<sup>(٢)</sup>

ويملاً جود الأمير أسعد الدولة نفس فتیان الشاغوري، يملؤه بالإشراق والحب والإعجاب، فعطاؤه لا ينفد، حتى وإن امتنعت المزن عن المطر، وكان نداءه هو المطر، فيتجلى خير الأمير وجوده في الوقت الذي يقل فيه عطاء غيره:

وَيَا قَبْرَهُ وَارَيْتُ مِنْهُ أَنَامِيلاً      إِذَا الْمُزْنَ ضُنَّتْ بِالْحَيَا كَأَنَّ الْمُزْنَ  
مَفَاتِحَ أَرْزَاقِي، سَحَائِبُ أَنْعَمٍ      تَسِيحُ عَلَى الْأَقْصَى مِنَ الْخَلْقِ وَالْأَدْنَى<sup>(٣)</sup>

وإذ ملأ هذا الجود نفس الشاعر بالحب للأمير، فقد ملأها أيضاً بالحنن والمرارة بعد فقده:

وَأُنَى وَقَدْ ذُقْنَا مَرَارَةً فَقَدِهِ      (نُزُورُ دِيَاراً مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى)<sup>(٤)</sup>  
بِمِينًا لَقَدْ بَزَّ الزَّمَانُ حُجُولَهُ<sup>(٥)</sup>      وَغَرَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَالْيَدُ الْيَمْنَى<sup>(٦)</sup>

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٥٤٤. وانظر: في هذا المعنى، ابن عنين، الديوان، ص ٥٩، وابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٤.

(٤) حجول: مفرداها حجل وهو البياض نفسه، ابن منظور، لسان العرب، مادة حجل

(٥) هذا الشطر مأخوذ من قول المتنبي:

نُزُورُ دِيَارِ مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى      وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سَكَانِهَا الْإِدْنَ

انظر: المتنبي، الديوان، ج ٣، ص ١٦٥.

(٦) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٥٤٤.

وهي مرارة خلفتها حلاوة العطاء.

ولم يتوقف الشعراء عند حدود الجود في إشداتهم ورتائهم، بل تجاوزوه إلى غيره من المناقب، مثل الشجاعة والجهاد في سبيل الله، وكانت هذه الصفة من المناقب المهمة في حياة المجتمع في ذلك الوقت، فالمسلمون يخوضون حربا ضارية مع الصليبيين، حربا دينية في المقام الأول، جعلت مفهوم الجهاد والدعوة إليه شيئا بارزا ومهما، وإذ تطلع الشعراء إلى القادة، فإنما نظروا إليهم من منظار الشجاعة، والإقبال على الجهاد وحماية الإسلام والمسلمين، لذا فقد عد بعض الشعراء من رثوه من القادة سيفا من سيوف الله مسلولا، وحين يبكي الشاعر قائدا، فإنما يبكي سيفا أعمد، وكان مشرعا من أجل الله، فهذا العماد الأصفهاني في رثائه صلاح الدين الأيوبي ينعي تلك الشجاعة وذلك البأس الذي كان ينعم في ظله المسلمون بالأمن والسكينة، ويعيش الأعداء في ظله القلق والذل:

أَيْنُ الَّذِي عُنَّتِ الْفُرُجُ لِبَاسِهِ	ذُلًّا وَمِنْهَا أُدْرِكَتْ ثَارَاتُهُ
مَنْ فِي الْجِهَادِ صِفَاحُهُ مَا أُغْمِدَتْ	بِالنَّصْرِ حَتَّى أُغْمِدَتْ صَفْحَاتُهُ
مَنْ فِي صُدُورِ الْكُفْرِ صُدْرُ قَنَاتِهِ	حَتَّى تَوَارَتْ بِالصَّبَاحِ قَنَاتُهُ
لَذَّ الْمَتَاعِبِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ تَكُنْ	مَذًّا عَاشَ قَطُّ لِذَاتِهِ لُذَاتُهُ <sup>(١)</sup>

وأكثر ما تظهر الشجاعة واضحة مشرقة عندما يعرض تقويضها، ففي الوقت الذي يجبن فيه

الآخرون عن الدفاع ويتراجعون، يقدم صلاح الدين طامعا في الثواب راجيا الرضا:

فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ يَسْهُرُ دَائِمًا	لِيَطُولَ فِي رَوْضِ الْجِنَانِ سُنَاتُهُ
مَلِكٌ عَنِ الْإِسْلَامِ كَانَ مُحَامِبًا	أَبْدًا إِذَا مَا أَسْلَمَتْهُ حُمَاتُهُ <sup>(٢)</sup>

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٨.

ويمثل هذا المعنى ابن عنين في رثائه الملك المعظم فيقول عاتبا على الدهر:

يا دَهْرُ وَيْحَكَ ما عَدَا مِمَّا بَدَا	أَرْسَلْتُ سَهْمَ الحادِثَاتِ فَأَقْصَدَا
أَغْمَدْتُ سَيْفًا مَرْهَفًا شَفْرَاتُهُ	قَدْ كَانَ فِي ذَاتِ الإِلهِ مَجْرَدَا
كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتَّ فِيهَا لا تَرَى	إِلَّا ظُهُورَ الأَعْوَجِيَّةِ مَرْقَدَا
تَحْمِي حِمَى الإِسْلامِ مُنْتَصِرًا لَهُ	بِعِزَائِمِ تَسْتَقْبِرُ المُسْتَبْعَدَا
كَمْ مَوْرِدٍ ضَنْكٍ وَرَدَّتْ وَطَعْمُهُ	مَرًّا وَقَدْ عَافَ الكِماءُ المَوْرِدَا <sup>(١)</sup>

أما شرف الدين الأنصاري، فقد قدم صورة للشجاعة زاخرة بالحركة، ولكنها تلك الحركة

التي تعلي قيمة الشجاعة ومعناها، ترسم صورة للمعركة يتصدرها الملك المنصور بسيفه

المشرعة:

جداولُ أمواهِ الحُتوفِ سِيوفُهُ	وَعُدْرانُ أَدْرَاعِ المُلوكِ ضَرائِبُهُ <sup>(٢)</sup>
---------------------------------	---

ولأن الضد يظهره الضد، عمد الشعراء إلى إظهار الضد وتصويره لتعميق

شجاعة المرثي وبأسه، وذلك بوصف ما حالت إليه البلاد من ضعف، وفوضى، وطمع

للعُدو فيها بعد موت هؤلاء القادة، وكان الشعراء بعرض هذه الصورة المناقضة لما

كان عليه حال الدولة الإسلامية قبل مماتهم، يعرضون بمن جاء بعد هؤلاء القادة،

ليعمقوا معنى القوة التي يريدون، فأظهر فتيان الشاغوري حال الدولة بعد وفاة الأمير

أسعد الدولة، إذ أخذ الضعفاء يعيثون فيها فسادا، وهم الذين ما كانوا يجرؤون على ذلك

في حياته:

رَعَتْ بَعْدَهُ فِي الحَيِّ فَصَلانُ دُورِهِ	وَزَالَ هَدِيرُ المَقْرَمِ الصَّارِعِ القِرْنَا
--	---

(١) ابن عنين، الديوان، ص ٦٠.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٨٠.

وَأَضَتْ لَهُ الْأَيَّامُ سُودًا كَأَنَّهَا      سُرَى أَصْبَحَ التَّأْوِيبَ فِيهَا سُرَى وَهَنَا<sup>(١)</sup>

وفي رثائه الملك المعظم، يعرض ابن عنين صورة لما كانت ستؤول إليه حال الإسلام والمسلمين لولا شجاعة ذلك القائد وبأسه:

لَوْ لَا دَفَاعَكَ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَا  
وَدِيَارِ مِصْرٍ لَوْ وَنْتَ عَزَمَاتُهُ  
وَلَأَصْبَحَتْ خَيْلُ الْفَرَنْجِ مُغِيرَةً  
وَلَأَمْسَتْ الْبَيْضُ الْحَرَائِرُ أَسْهُمَاً  
وَيَنْغِرُ دَمِيظٌ فَكَمْ مِنْ بَيْعَةٍ  
أَجَلَيْتَ لَيْلَ الْكُفْرِ عَنْهَا فَانْطَوَى  
عَنْ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ عَادَ كَمَا بُدَا  
عَنْ نَصْرِهَا لَتَمَكَّنْتَ فِيهَا الْعِيدَا  
تَجَنَّبَ مَا بَيْنَ الْبَقِيعِ إِلَى كُدَى  
فِيهَا سَبَايَا وَالْمُؤَالِي أَعْبُدَا  
عِيدَ الصَّلَابِ بِهَا وَكَانَتْ مَسْجِدَا  
وَأَنْرَتْ فِي عَرَصَاتِهَا فَجَرَ الْهَدَى<sup>(٢)</sup>

وتظهر شجاعة هؤلاء القادة في السلم أيضا، مع رعاياهم من المسلمين، حيث نرى القائد مجيبا دعوة الملهوف، مفرجا هم المهموم، إنها الشجاعة التي لا تقف عند حد، فهذا ابن عنين في رثائه الملك المعظم، يمثل لنا هذه الصورة بقوله:

وَلَرُبَّ مَلْهُوفٍ دَعَاهُ لِحَادِثٍ      جَلَلٍ فَكَانَ جَوَابُهُ قَبْلُ الصَّدَى<sup>(٣)</sup>

ويصور فتیان الشاغوري الأمير أسعد الدولة، حصنا حصينا لقومه، إليه يلجأون ويقوته يحتمون ويلوذون، فإذا بهم بعد موته صفر اليدين، وكأنهم في مهب الريح يقفون:

عَزِيزٌ عَلَيْنَا يَا أَبَا الْجُودِ أَنْتَا      حَيِّنَا، وَقَدْ غَالَتْكَ أَيْدِي الرَّدَى مَنَا

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٥٤٣.

(٢) ابن عنين، الديوان، ص ٦١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٠.

وما كُنْتُ إِلَّا حِصْنٌ قَوْمِكَ بِإِذْخَاً      فَبِعَدِّكَ لَا يَلْقَوْنَ إِنْ ظَلَمُوا حِصْنَا<sup>(١)</sup>

وكانت التقوى من أبرز المناقب التي مدح بها القادة المرثيون، وجاء التعبير عنها بصورة صريحة سواء بلفظها أو بجملة من المناقب التي تصب في مصبها، فقرن القاضي الفاضل في رثائه صلاح الدين خيره بتقواه، فعد التقوى أساس هذا الخير ومنبعه:

قَضَى يَوْسُفُ الْإِحْسَانَ وَالْخَيْرَ وَالتَّقَى      فَيَا لَيْتَ أَنِّي قَدْ قَضَيْتُ إِلَيْهِ  
وَوَخَّلَفَهَا أَنَارُ صِدْقٍ كَرِيمَةٍ      بَقَيْنَ عَلَيْنَا، بَلْ بَقَيْنَ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>

ويذكر العماد الأصفهاني في رثائه من رثى من القادة والحكام صوراً مختلفة من التقوى، ففي رثائه نور الدين، أشاد بتقواه وورعه، بالتزامه بأمر هذا الدين، فأحيا الشريعة، ونشر نورها، وبنى المعالم التي تهتم بها من مساجد وغيرها:

أَنْتَ الَّذِي أَحْيَيْتَ شَرْعَ مُحَمَّدٍ      وَقَضَيْتَ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِنِشْوَرِهِ  
كَمْ قَدْ أَقَمْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ مُعَلِّمًا      هُوَ مِنْذُ غَبَّتْ مَعْرَضٌ لِذَنْبِهِ<sup>(٣)</sup>

ويتوج العماد صورة التقوى هذه، بذلك الموكب الملائكي الذي اجتمع عند قبره للمشاركة بدفنه:

نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِدَفْنِهِ      مُسْتَجْمِعِينَ عَلَى شُفَيْرِ حَفِيرِهِ<sup>(٤)</sup>

ونراه يصور تقوى أسد الدين شيركوه، بأن أيامه كانت مقسومة لله ما بين عبادة، وتفكير، وتهدد وتلاوة لكتابه العزيز:

أَيَّامُ عَمْرِكَ لَمْ تَزَلْ مَقْسُومَةً      لِلَّهِ بَيْنَ تَعَبُّدٍ وَتَعَرُّفٍ

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٤٤٥.

(٢) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤١١.

(٣) الأصفهاني، الديوان، ص ٢١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢١٥.

مُتَهَجِّدًا لِعِبَادَةٍ أَوْ تَالِيًا  
مِنْ آيَةٍ أَوْ نَاطِرًا فِي مُصْحَفٍ  
وَقَفُوتُ أَنَارُ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا  
وَقَدِ أَهْتَدَى مِنْ لِلشَّرِيعَةِ يُقْتَنَى (١)

وأجاد الأصفهاني أكثر ما أجاد، في تصوير تقوى صلاح الدين الأيوبي، في حياته، وجهاده

ومرضه وموته، فهو المطيع المطاع، وهو الصادق المخلص لله، والراضي بقضاء الله:

أَيُّنَ الَّذِي كَانَتْ لَهُ طَاعَاتُنَا  
مَبْدُولَةً، وَلِرُبِّهِ طَاعَاتُهُ  
بِاللَّهِ أَيُّنَ النَّاصِرِ الْمَلِكِ الَّذِي  
شَهِدَ خَالِصَةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ  
لَوْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ لَأُنزِلَتْ  
فِي ذِكْرِهِ مِنْ ذِكْرِهِ آيَاتُهُ

وفي مرضه نراه:

وَالْبِشْرُ مِنْهُ تَبَلَّجَتْ أَنْوَارُهُ  
وَالْوَجْهُ مِنْهُ تَلَالُتُ سَبْحَاتُهُ  
وَيَقُولُ اللَّهُ الْمُهَيِّمِينَ حِكْمَةً  
فِي مَرَضَةٍ حَصَلَتْ بِهَا مَرْضَاتُهُ (٢)

ويرثي ابن عنين الملك المعظم عيسى بن الملك العادل مشيدا بتقواه، فلو كانت التقوى

ومكارم الأخلاق تخلد أحدا، لخلد المعظم بتقواه وخلقه:

لَوْ كَانَ خُلِقَ بِالمُكَارِمِ وَالتَّقَى  
يُبْقَى لَكَانَ مَدَى الزَّمَانِ مُخْلَدًا (٣)

وبكى الصاحب شرف الدين الأنصاري الزهد والورع اللذين ماتا بموت الملك المعظم

عيسى، وما الزهد إلا خلق يتحلى به التقى خاصة إذا امتلك ما يزهد فيه، فكيف به وقد امتلك كل

شيء ثم زهد؟

٥٣٨٨٦٨

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠.

(٣) ابن عنين، الديوان، ص ٥٩.



لَا تَبْكِهِ فَهُوَ حَيٌّ بِالْقِيَاسِ عَلَيَّ      سَمِيهِ، وَأَبْكِ فِيهِ النَّسْكَ وَالْوَرْعَا<sup>(١)</sup>

وخلق التقوى هذا كان أبرز ما يهتم به الناس، فالحرب كانت دينية بينهم وبين عدوهم، وما لم تكن التقوى هي منطلق القتال في المعارك، فلن يكون هناك نصر. والقائد الناجح يجمع إلى تقواه الحكمة وسداد الرأي فهي عدة مهمة في إدارة حكم البلاد، وفي إدارة المعركة والتخطيط لها، وفي حل المعضلات التي تواجه المسلمين، وفي رثائه نور الدين يبين العماد الأصفهاني، أن نور الدين بحلمه وسداد رأيه كان يذلل الصعوبات أمام المسلمين، ويذلل جماح الخطوب:

مَنْ لِلْخُطُوبِ مُذَلِّلاً لِجَمَاهَا      مَنْ لِلزَّمَانِ مُسَهِّلاً لِوُجُوهِهِ  
مَنْ كَاشِفٌ لِلْمُعْضِلَاتِ بِرَأْيِهِ      مَنْ مُشْرِقٌ فِي الدَّاجِيَاتِ بِنُورِهِ  
أَعَزَّزَ عَلَيَّ بِأَنْ أَرَاهُ مُغَيَّباً      عَنِ مَحْفَلٍ مُتَشَرِّفٍ بِحُضُورِهِ<sup>(٢)</sup>

أما صلاح الدين الأيوبي، فقد رآه العماد الأصفهاني طبيباً للدهر بحكمته، تتجح مساعيه في الوقت الذي يخفق فيه غيره من الملوك، موفقاً في معاركه بحسن تدبيره وتخطيطه لها:

لَمْ يَجِدْ تَدْبِيرَ الطَّبِيبِ وَكَمْ وَكَمْ      أُجِدْتُ لِطَبِّ الدَّهْرِ تَدْبِيرَاتُهُ  
وَإِذَا الْمُلُوكُ سَعَوْا وَقَصَرَ سَعْيُهُمْ      رَجَحْتُ وَقَدْ نَجَحْتُ بِهِ مَسَاعَاتُهُ  
كَمْ جَاءَهُ التَّوْفِيقُ فِي وَقَعَاتِهِ      مَنْ كَانَ بِالتَّوْفِيقِ تَوْقِعَاتُهُ<sup>(٣)</sup>

فتوران شاه الذي رثاه ابن الدهان، يفقد المسلمون بموته ذلك العقل المدبر الذي يحل

المشكلات الصعبة، وذلك الحلم الكبير:

(١) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣٠٩.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٢١٣-٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٧، ٩١.

مَنْ لِلأُمُورِ الْمَشْكِلاتِ بِحُلِّهَا      مَنْ لِلشُّغُورِ الْمَسْتَضَامَةِ يَغْضِبُ (١)

أما الأمير بدر الدين الجعبري، فقد كان كما صوره ابن عنين، من تأتمر الملوك برأيه، ولا

يصدر أمر من أمور الدولة إلا بإشارته ورأيه:

قَدْ كُنْتُ ذَخْرًا لِلْمُلُوكِ وَعَمْدَةً      فَرَأَيْكَ الْإِيرَادُ وَالْإِصْنَادُ  
وَلَكُمْ بِرَأْيِكَ مِنْ وَرَائِكَ قَدْ سَرَى      نَحْوُ الْأَعَادِي جَحْفَلُ جُرَارُ  
قَدْ كَانَ أَنْ خُفَّتْ حُلُومُ ذَوِي النَّهْيِ      لِلْهَوْلِ فِيهِ رِزَانَةٌ وَوَقَارُ (٢)

ومن المناقب التي اتصف بها القادة وأدت إلى استقرار ملكهم، وشعور  
الرعية بالأمن والسكينة، تحقيق العدل والرخاء، وسعيهم إلى ذلك بوسائل  
شتى، فقد بلغ الأسى عند العماد الأصفهاني حدا كبيرا، حين افتقد نور الدين  
الذي كان يكشف كربات المكروبيين وينصر المظلومين، ويقبل عثرة  
العائرين، ويؤمن الخائفين:

مَنْ لِلْكَرِيمِ وَمَنْ لِنَعِيشِ عِثَارِهِ      مَنْ لِلْيَتِيمِ، وَمَنْ لِحَبِيرِ كَسِيرِهِ  
وَلَقَدْ أَتَى مَنْ كُنْتُ تُؤْمِنُ سِرْبَهُ      وَقَعَ لَهُ بِالْأَمْنِ مِنْ مَحْذُورِهِ  
وَلَقَدْ أَتَى مَنْ كُنْتُ تُكْشِفُ كَرْبَهُ      فَارْفَعْ ظِلَامَتَهُ بِنَصْرِ عَشِيرِهِ (٣)

وكان الأمير أسعد الدولة أمان الخائفين وملاذهم، ومعطي الراجين، يقول في ذلك فتيان

الشاغوري:

(١) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٦.

(٢) ابن عنين، الديوان، ص ٦٦.

(٣) الأصفهاني، الديوان، ص ٢١٣-٢١٤.

وَكَا نَ إِذَا وَا فَا هُ عَا فِ وَ خَا فِ أَصَابَ الْمُنَى عَا فُو هُ، وَ الْخَا فِ الْاُمْنَا (١)

لذا فإن الشاعر بموت هذا الأمير قد فقد أمنه وملاده:

إِذَا كَا نَتِ الْاُقْدَارُ خَصْمِي فَا يْنِ مَنْ يَرُدُّ، إِذَا اسْتَصْرَخْتَ اُنْيَابَهَا الْحَجْنَا  
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْخُطُوبِ إِغَارَةٌ عَلَيَّ بِمَنْ لَا يَسَامُ الضَّرْبُ وَالطَّعْنَا (٢)

وقضى الملك المنصور ومضى إلى ربه دون أن يغلق في حياته بابا دون أحد، أو يمنع

إجارته أحدا، فهو الملك الذي يأمن النزول جواره، ويعز الذي نزل بساحته:

مَضَى عَيْرٌ مُرْدُودٍ عَنِ الْوَفْدِ بَابُهُ وَلَا حَاجِبٍ يَوْمًا عَنِ الرَّفْدِ حَاجِبُهُ  
مَوْقَى صُرُوفِ النَّائِبَاتِ نَزِيلُهُ وَلَا عَزٌّ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ ذَلَّ صَاحِبُهُ (٣)

ويتساءل ابن الدهان عن أولئك اليتامى والأرامل، وعن أصحاب الحاجات وما سيحل بهم

بعد موت توران شاه:

أَصْبَحَتْ تَحْتَ الْأَرْضِ تَرْغَبٌ فِي الْأَسَى مَنْ كَانَ نَحْوَكُ فِي الْحَوَائِجِ يَرْغَبُ  
مَنْ لِلْأَرَامِلِ وَالْيَتَامَى كَافِلًا يَكْفِيهِمْ إِذْ لَا خَلِيلَ وَلَا أَبٌ (٤)



ومن المناقب التي أشاد بها الشعراء، والبشاشة، والهدوء، والسكينة، وحسن لقاء الناس، فهذا

توران شاه يصوره ابن الدهان:

بَادِي السَّكِينَةِ فِي النَّفُوسِ مُحْكَمٌ حَسَنُ الْلِقَاءِ إِلَى الْقُلُوبِ مُحَبَّبٌ

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٥٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤٥.

(٣) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٨١.

(٤) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٥-٢٠٦.

يَهْدِي إِلَيْهِ بِعَرَفِهِ طَيْبُ الثَّرَى      مَنْ كَانَ يَهْدِيهِ النَّاءُ الطَّيْبُ (١)

ومنهم من أشاد الشعراء بفصاحته وبلاغته، وطلاقة لسانه، فشرف الدين الأنصاري يرثي

الملك المعظم بقوله:

أَوْدَى بِأَسْمَحٍ مَنْ أَجْدَى، وَأَفْصَحَ مَنْ      قَالَ الصَّوَابَ، وَأَوْعَى مَنْ لَهُ سَمِيعَا (٢)

ويبكي فتیان الشاغوري فصاحة الأمير أسعد الدولة بقوله:

قَضَى اللَّسِينُ الْمُنْطِيقُ فِي كُلِّ مَحْفَلٍ      وَأَخْرَسَ مَنْ أَلْفَاظُهُ تُفْجِمُ اللِّسَانَا (٣)

إن الشعراء ربما رأوا فيما مدحوا به قادتهم من مناقب، نموذجاً للكمال الذي يجب أن يكون في هذا القائد أو الحاكم، كما أنهم رثوا قادتهم بما حلموا وطمحوا إليه، لقد رسموا لنا القائد الأمثل والأكمل، القائد الذي تطمح إليه الأمة.

ولا يكاد الدعاء لهؤلاء القادة والسلاطين، يختلف عنه في العصر الفاطمي، فالفكرة واحدة، والرغبة في الرحمة والمغفرة، وحياة أكثر بقاء وخلوداً مشتركة عند الشعراء، فابن عنين في

دعائه للأمير بدر الدين الجعبري، جمع بين الحياة بالماء، والحياة بالنبت والزرع، فقال:

اللَّهُ جَارِكُ يَا أَبْنَ يَوْسُفَ ثَاوِيَاً      وَسَقَى ضَرِيحَكَ وَإِبِلَ مِدْرَارُ  
حَتَّى تَرَى جَنَابَاتُ قَبْرِكَ رَوْضَةً      مَخْضُرَةً وَيُحْفَهُ النَّوَارُ (٤)

ولا يختلف سعد الدين مسعود في رثائه شهاب الدين غازي عن غيره من الشعراء في ذلك،

فدعا له بالسقيا قائلاً:

(١) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣٠٩.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٥٤٣.

(٤) ابن عنين، الديوان، ص ٦٥.

أَلَا رَوَى إِلَهَهُ تَرَابَ قَبْرِ  
حَلَّتْ بِهِ شَهَابُ الدِّينِ غَازِي<sup>(١)</sup>

ومن الشعراء من جمع بين مصدري الحياة وما هو أكثر بقاء وخلوداً، فدعا للمرثي بسحب من الماء ومطر السماء. ثم بمطر آخر هو مطر المغفرة والرضوان من الله تعالى، هذا الرضوان الذي يجعل المرثي حياً خالداً لا يموت في دار أعدائها الله للخلود، ومن هؤلاء الشعراء، العماد الأصفهاني في دعائه لصلاح الدين الأيوبي، فقد دعا له بماء السماء ورحمة الله ورضوانه:

فَعَلَى صَلاَحِ الدِّينِ يَوْسُفَ دَائِماً  
رِضْوَانُ رَبِّ العَرْشِ، بَلْ صَلاواتُهُ  
لِضَرْبِجِهِ سُقَيَا السَّحَابِ فَإِنْ يَغِيبُ  
تَحْضُرُ لِرِحْمَةِ رَبِّهِ سَقِيَاتُهُ<sup>(٢)</sup>

ولم يشر جعفر بن شمس الخلافة في دعائه لصلاح الدين إلى المطر، فقد اكتفى بأن يدعو له بخير الجزاء، وكأنه بهذا الدعاء قد جمع بين خير الماء، وكل خير سواه:

جَزَاءَهُ عَنِ الإِسْلاَمِ خَيْراً إِلَهُهُ  
فَمَا مَلَّ عَنْهُ مِنْ دِفَاعٍ وَمِنْ ذُبِّ  
فَفِي الخُلْدِ عِنْدَ اللَّهِ دَارُ مَقَرِّهِ  
يَمْتَعُ مِنْهُ بِالْجِوَارِ وَبِالقُرْبِ<sup>(٣)</sup>

وربما شكل ما دعاه الشعراء لقادتهم نوعاً من العزاء بفقدهم، فثمة حياة أخرى لهؤلاء أفضل مما فقدوا.



ووردت التعزية بالملوك والقادة والسلطين في ثنايا قصائد الرثاء التي رثوا بها، وكانت التعزية في هذه القصائد موجهة لأبنائهم، ولمن سيتولون الحكم بعدهم، فواسوهم في أحزانهم كما

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج ٨، ق ٢، ص ٧٦٩.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩.

(٣) أبو شامة، عيون الروضتين، ص ٣٤١-٣٤٢، وانظر: في هذا المعنى ديوان ابن الدهان، ص ٢٠٧.

شاركوهم التهنئة في فتوحاتهم وأفراحهم، وكأنما يذكر الشاعر من يتولى الحكم بأنه موجود، وأنه كانت له سابقة عند القائد الذي غاب والملك الذي رحل، ومن صور التعزية التي وردت في قصائد الرثاء تذكير المعزى بقضاء الموت الذي يأخذ الناس تباعاً، فلا يأسى إنسان على عزيز فقده، ولا على ملك مات، فلو دامت الدنيا لغيرهم ما وصلت إليهم، وأمام هذه الحقيقة، ما على المعزى إلا الصبر والتسليم وترك الجزع، والالتفات إلى ما هو قادم، فهذا ما نجده في رثاء الشيخ أبي الحسن أحمد بن يعقوب، أبا المتوج مقلد بن نصر بن منقذ معزيا ابنه أبا الحسن علياً:

ما جَارَ حُكْمَ اللَّيَالِي عَنْ سَجِيَّتِهِ	وَلَا اسْتَسَنَّ الرَّدَى فَيْكُمْ وَلَا ابْتَدَعَا
هَذَا سَبِيلُ الرَّدَى مَنْ قَبَلْنَا سَلَفُوا	وَسَوْفَ نَمُضِي عَلَى آثَارِهِمْ تَبَعَا
لَوْ خُلِدُوا لَمْ تَكُنْ هَذَا مَنَازِلُنَا	وَلَمْ نَجِدْ مَعَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَتَسَعَا
فَعِشْتُمْ يَا بَنِي نَصْرٍ وَلَا سَلَبُ	الرَّحْمَنُ أَنْعَمَهُ عَلَيْكُمْ وَلَا نَزَعَا <sup>(١)</sup>

وابن حيوس في تعزيتة تاج الملوك محمود بن نصر بأبيه شبل الدولة، يجمع في تعزيتة بين صور العزاء كلها، من حديث عن حتمية الموت وتأكيدها، إلى حزن وتفجع على المعزى به، إلى إشادة بمناقبه، وينهي تعزيتة بمدح المعزى والثناء على مناقبه، ففي بيانه وتأكيده حتمية الموت، تخفيف من حزن وأسى تاج الملوك، فيقول حاثاً إياه على الصبر والتسليم للموت:

لِصْرَفِ اللَّيَالِي أَنْ يَصُولَ وَنَخْضَعَا	وَحَتَمَ عَلَيْنَا أَنْ يَقُولَ وَنَسْمَعَا
أَطْعَنَاهُ كَرَاهًا حِينَ لَمْ نَلْقَ نَاصِرًا	عَلَيْهِ وَلَا فِي كَفِّ عَدَوَاهُ مَطْمَعَا
فُكِّمَ قَلَّ ذَا حَدِّ وَذَلَّقَ نَابِيًا	وَأَمِنْ مَرْتَاعًا وَرُوعًا أَرُوعَا <sup>(٢)</sup>

(١) ابن العديم، بغية الطلب، ج ٢، ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٦-٣٥٧.

وفي تصويره حالة الحزن التي أصابت الناس بموته، يلجأ إلى الثناء عليه في طيات هذا الحزن، يثني عليه ليدخل السلوى إلى قلب تاج الملوك، بأن أباه الذي رحل كان عظيماً في حياته، عظيماً في مماته ليدخل السلوى إلى قلبه، بأنه ليس وحده من يأسى ويحزن، إن كل شيء يشاركه الحزن على رحيله:

لِيَبْكُ طَوِيلًا كُلُّ مُكْدٍ وَعَائِلٍ      عَلَى مَلِكٍ أَغْنَى وَأَرْوَى وَأَشْبَعَا  
وَيُحْرِ نَوَالٍ يَنْزِرُ النَّاسَ مَاءَهُ      إِذَا ظَنَّ أَنْ قَدْ غِيضَ عَاوِدٌ مُتْرَعَا<sup>(١)</sup>

إن في مدح شجاعة هذا القائد الملك، والحديث عن أمجاده ومآثراته ما يشكل عزاء لتاج

الملوك، فقد مضى أبوه بعد أن حقق للإسلام مجدا وعزا:

وَتَحَتَّ مُلُوكِ الْخَافِقِينَ أُسِيرَةً      تَزْعَزَعُ يَوْمًا إِنْ قَنَاهُ تَزْعَزَعَا  
كَيَوْمِ عَزَازٍ إِذْ حَمَى الدِّينَ سَيْفُهُ      وَقَدْ قَارَبَتْ أَرْكَانُهُ أَنْ تَضَعُضَعَا  
أَقَامَ بِهِ سَوْقَ الطَّعَانِ وَلَمْ يُقِمَّ      دَعَائِمُ هَذَا الشَّرْعِ كَالسُّمْرِ شُرَعَا  
فَوَلَّى عَظِيمُ الرُّومِ وَالرَّأْيُ مَا رَأَى      مُصِيخًا إِلَى دَاعِي السَّلَامَةِ مُهْطَعَا<sup>(٢)</sup>

إلى أن يقول:

فُكَلُّ جَمِيلٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ      تَأَصَّلُ مِنْ أَفْعَالِهِ وَتُفْرَسَا  
مَسَاعٍ إِلَى غَيْرِ الْمُحَامِدِ لَمْ تَمِلْ      وَنَفْسٌ إِلَى غَيْرِ الْعَلِيِّ لَنْ تَطَّلَعَا

ولم يرحل عن الحياة وترك فيها من المجد شيئا لم يحزه ومن الفضائل ما لم يتصف به، لقد

حقق كل ما يمكن أن يحققه قائد:

(١) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩.

مَضِيَّتْ وَلَمْ تَتْرِكْ مِنَ الْمَجْدِ غَايَةً  
وَلَمْ تَبْقِ فِي قَوْسِ الْمُرْوَةِ مُنْزَعًا<sup>(١)</sup>

وينتقل الشاعر إلى التعزية بمدح الابن المعزى، فما غاب بدر إلا ليطلع بدر محله، ففي مناقب تاج الملوك ما يعوض عن سوء صنع الزمان، وفي ملكه ما يعيد إلى الدولة النضارة والخير المفقود، ففيه سداد الرأي والحكمة، والجود، والشجاعة، فإن ذهب الأصل وذوى، فهناك فرع يحمل ما في الأصل من صفات الخير:

فَنَابَ مُنَابَ الشَّمْسِ عَنِ قَمَرِ الدُّجَى  
وَهَلْ غَابَ بَدْرُ النَّمِّ إِلَّا لِيُطْلِعَا  
حَمِدْنَا بِمَحْمُودٍ نَمِيمٍ زَمَانِنَا  
وَعَاوَدُ مَشْتَانَا بِنِعْمَاهُ مَرْبَعَا  
حَوَى حَسْبًا مَحْضًا وَرَأْيًا مُؤَيَّدًا  
وَمَنَا بِلَا مِنْ عِزًّا مُمْنَعًا<sup>(٢)</sup>

ومن الشعراء من جمع بين التعزية والتهنئة في آن معا، فهذا عمارة اليمني يظهر حزنه لموت الملك الصالح طلائع بن رزيك، ويندب تلك الخسارة التي حلت بالمسلمين بفقدته، لكنه يتخلص من هذا الخطب إلى تهنئة ابنه الملك الناصر رزيك بن الصالح، بما سيؤول إليه من أمر الحكم، وعد هذا جبرا لكسر حل بموت أبيه:

يَا أَمِيرَ الْجِيُوشِ هَلْ لَكَ عِلْمٌ  
أَنَّ حَرَ الْأَسَى عَلَيْنَا أَمِيرُ  
إِنَّ قَبْرًا خَلَّتْهُ لُغْرِي  
إِنْ دَهْرًا فَارَقْتَهُ لَفَقِيرُ  
لَا تَطُنَّ الْأَنَامُ أَنَّكَ مَيِّتٌ  
لَمْ يَمِتْ مِنْ ثَنَاؤُهُ مُنْشُورُ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٦١.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦١-٣٦٣.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٣٩٣-٣٩٤.



وينتقل إلى الملك الناصر مهنتاً له بالوزارة فالكسر بموت الملك الصالح جاء ومعه جبرا لكسر المسلمين، والبؤس حمل معه النعيم، وحزن القلب خبأ في طياته نصراً عوض الله به المسلمين بمصيبتهم، فجاء ابن الملك الصالح ناصراً للمعالي، جابراً كسر المسلمين:

إِنْ مَضَى كَافِلٌ فَهَذَا كُفَّـلٌ      أَوْ وَزِيرٌ يَغِيبُ فَهَذَا وَزِيرٌ  
أَعْقَبَ الدَّاهِرُ بؤْسَهُ بِنَعِيمٍ      رَبِّ حَزْنٍ فِي الطَّيِّ مِنْهُ سُرُورٌ  
مَا شَكُونَا كَسْرَ النَّوَابِ حَتَّى      قِيلَ فِي الْحَالِ كَسْرُكُمْ مُجْبُورٌ<sup>(١)</sup>

وكما عزي الشعراء الملوك والقادة بأبنائهم، فقد عزوهم بأبنائهم، وإن كانت التعزية في هؤلاء تؤكد مدح المعزى والثناء عليه، فهذا عمارة اليميني يعزي تاج الخلافة وردا في ابن مات له، يعزیه وقد ورد إليه من الشام اخوة ثلاثة يواسونه في مصابه، وذلك عام (٥٥٦هـ)، فابتدأ عمارة تعزيته بمدح تاج الخلافة، وما يتصف به من سؤدد وعز ومجد ويؤكد هذه المناقب دون غيرها لتكون طريقة إلى حثه على الصبر:

وَكُلُّ الْعُلَى مِنْ قَبْلِ وَرْدِ عَقِيمَةٍ      فَلَيْسَ لَهَا يَا وَرْدُ غَيْرُكَ مِنْ بَكْرِ  
كَرِيمٍ لَهُ مِنْ آلِ رَزِيكَ إِمْرَةٌ      نَمَا فَرَعُهَا مِنْ دُوْحَةِ الْمَجْدِ وَالْفَخْرِ  
يُعَدُّونَهُ نَخْرًا لِكُلِّ مَلَمَّةٍ      وَأَكْرَمَ بِهِ عِنْدَ الْمُلَمَّاتِ مِنْ نَخْرِ  
وَسَادَ مِنَ الْأَمْلَاقِ كُلِّ مَسْوَدٍ      وَقَادَ جُيُوشَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْكُفْرِ  
وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الْمَنَايَا تُطِيعُهُ      إِذَا شَاءَ فِي زَيْدٍ وَإِنْ شَاءَ فِي عَمْرٍو  
وَتُبْدِي لَهُ الْعِصْيَانَ فِي مُهْجَةِ ابْنِهِ      لَقَدْ بِالْغَتِّ فِي شِيمَةِ اللُّؤْمِ وَالْغَدْرِ<sup>(٢)</sup>

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٣٩٤.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ٢٤٩.

ويدرك الشاعر أن الأب يتلطف لذكر ابنه، ولا يغنيه الإطراء في مدحه عن حبه في سماع ما يقال عن ولده، فإن هذا مما يريح قلبه ويهدئ روعه، لذا فقد ثنى بمدح ذلك الابن، مشيراً إلى تلك الآمال التي كانت معقودة عليه، وعلامات السيادة والشجاعة التي ظهرت عليه منذ صغره:

تَوَلَّتْ بِصِرْغَامِ بْنِ بَدْرِ وَإِنَّهُ  
لَأَمْنَعُ فِي الْإِمْكَانِ مِنْ بَيْضَةِ الْعَقْرِ  
مَضَى الْأَكْرَمُ الْمَأْمُولُ حِينَ تَطَلَّعَتْ  
إِلَيْهِ عَيُونَ الْوَفْدِ وَالْعَسْكَرِ الْمَجْرِ  
وَلَا حَتَّ لَهُمْ فِيهِ مَخَابِلُ سُودِدٍ  
وَيُخْبِرُهُمْ عَنْ صِدْقِهَا كَرَمِ النَّجْرِ<sup>(١)</sup>

إن في هذه المزايما ما قد يريح قلب الأب الثاقل، ولكنها أيضاً يمكن أن تجلب لهذا القلب مزيداً من الأسى والحزن، حين يفقد الأب ابناً كان سيصبح سيدياً، وظهرت عليه علامات السيادة، لذا فإن الشاعر يهون على الأب الثاقل معزيا إياه بأخوته الثلاثة الذين جاؤوه من الشام، فقد جبر الكسر، فأخذ الله واحداً وأعطى ثلاثة، هم كالأنامل في الكف عوناً وكهارون لموسى شدا للأزر، وكأخوة يوسف سندا وقوة:

كَأَنَّ اللَّيَالِيَّ اسْتَشَعَرَتْ سُوءَ فِعْلِهَا  
وَأَنَّ ضَاقَ عَنِ تَقْصِيرِهَا سَعَةَ الْعَنْزِ  
فَعَوَّضَنَّهُ بِأَبْنٍ ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ  
وَقَدْ يَسْتَفَادُ الرَّبِيحُ مِنْ مَوْضِعِ الْخَسْرِ  
أَنْتَ بِهِمُ الْأَيَّامُ جَبْرًا لِكْسْرِهَا  
فِيَا لَكَ مِنْ كَسْرٍ وَيَا لَكَ مِنْ جَبْرٍ  
سُرُوا مِنْ بِلَادِ الشَّامِ نَحْوَكَ نُجْعَةً  
كَمَا أَنْتَجَعَ الْأَسْبَاطُ يَوْسُفَ فِي مِصْرٍ  
وَمَا أَنْتَ إِلَّا الْكَفُّ تَسْطُو عَلَى الْعِدَى  
وَهُمْ قُوَّةٌ فِيهَا كَأَنْمَلِكِ الْعُشْرِ  
وَقَدْ أُيِّدَ الرَّحْمَنُ مُوسَى كَلِيمَهُ  
بِهَارُونَ لَمَّا قَالَ أَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي<sup>(٢)</sup>

(١) عمارة اليميني، المختار، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

وأما ابن الخياط في تعزيتة الأمير غضب الدولة في موت ابنه أبي عبدالله محمد، فقد أكثر

من تصوير مشاعر الحزن والبكاء واللوعة على الميت، فبكى واستبكى الناس كلهم:

سَأَعُولُ بِالْبُكَاءِ وَأَيُّ خُطْبٍ      يَقُومُ بِهِ بَكاؤُ أَوْ عَوِيلُ  
وما أَنْصِفُ إِنْ وَجِلَّتْ قُلُوبٌ      مِنَ الإِشفاقِ أَوْ ذَهَلَتْ عُقُولُ<sup>(١)</sup>

كما أبكى السيوف والرماح، والخيول، وأبكى الغصون والزمان، وكأنه في هذا التفعج يتمثل  
مشاعر الأب الثاكل، فيعبر عن كل هذا الفيض من الحزن ليستخرج أحزان الأب من مكنها،  
فيبكيه كما شاء، لترتاح بالبكاء نفسه:

أما أَنْدَقَّتْ رِماحُ الخُطِّ حُزْناً      عَلَيْكَ أما تَقَطَّعَتْ النَّصُولُ  
أما وَسَمَ الجِياذُ أَسَى فَنَحْمَى      بِهِ غُرُرُ السَّوایقِ وَالْحُجُولُ  
أما أبكى الغُصُونِ الخُضْرُ عُصْنَ      نُضيرُ العودِ عَاجِلُهُ الذُّبُولُ  
أما رُقَّ الزَّمانُ عَلى عَليْلِ      يَصِحُّ بِبِرْئِهِ الأملُ العَليْلِ<sup>(٢)</sup>

وبعد هذا الفيض الكبير من الحزن، ينعى على الدنيا بؤسها، ويذكر أن كل شيء مصيره إلى

زوال، هي الدنيا تأخذ أكثر مما تعطي، إنها دار خراب لا أسف على فراقها:

أَنْفَيْتَ مِنَ المَقامِ بِشَرِّ دارِ      تَرى أَنَّ المَقامُ بِها رَحيلُ  
وما خَيْرُ السَّلامَةِ في حِياةِ      إِذا كَانتِ إِلى عَطبِ تَوولُ  
هِيَ الأيامُ مَعطِها أَخوذاً      لِمَا يُعْطى وَمَطمِعُها أَكوولُ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ٢٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

ويؤكد الشاعر بأنه لا شيء يستطيعه الأمير غضب الدولة أمام هذا الموت سوى التعزي،  
والتسليم والصبر، فالذي غاب شبل ترك وراءه أسوداً، وفرع خلف وراءه أصولاً، فلا يضير

الأساد غياب الشبول ولا الأصول يضيرها سقوط الفروع:

أَعْضَبَ الدَّوْلَةَ المأمولُ صَبِيراً	وَكَيْفَ وَهَلَ إِلَى صَبْرٍ سَبِيلاً
وما فارقَتْ مَنْ يُسَلَى وَلَكِنْ	سوى الأسادِ تُحْزِنُهَا الشَّبُولُ
وما فُقِدَ الفروعِ كَبِيرُ رُزْءٍ	إِذَا سَلِمَتْ عَلَى الدَّهْرِ الأَصُولُ
وما عَزَاكَ مِثْلَكَ عَنْ مُصَابٍ	إِذَا مَا رَاضَكَ اللَّبُّ الأَصِيلُ
فلا قُصِرَتْ عوَالِيكَ الأَعَالِي	ولا زَالَ الزمانُ بِهَا يُطوَلُ <sup>(١)</sup>



أما في العصر الأيوبي، فقد زحرت قصائد الرثاء التي قيلت في القادة والملوك من بني  
أيوب بالتعزية والمواساة، ولم تقتصر هذه التعازي على أسلوب واحد من أساليب التعزية، فجمع  
الشعراء فيها بين أساليب التعزية المتعددة، فالعماد الأصفهاني في رثائه صلاح الدين الأيوبي،  
مزج في تعزيته أولاده بين التفجع والحزن، وبين مدح مناقب صلاح الدين<sup>(٢)</sup> ومدح مناقب  
أبنائه، وقد سبق الحديث في باب الرثاء عن مدى التفجع والحزن لموت صلاح الدين، والتثناء  
على مناقبه، وحسن خاتمته، ونكتفي هنا بالإشارة إلى هذه الألوان من التعزية، كما يبدو في  
تفجعه وبكائه على موت صلاح الدين والتعزية بحسن الخاتمة:

يا وَحْشَتَا للبيضِ في أَعْمادِها	لا تُتَنِّضِيها للوغي عَزَمَاتُه
يا وَحْشَةَ الإسلامِ يَوْمَ تَمَكَّنَتْ	في كلِّ قلبٍ مُؤْمِنٍ رُوْعَاتُه

(١) ابن الخياط، الديوان، ص ٢٠٧.

(٢) انظر ص ١٠٣ وما بعدها من هذه الدراسة.

لَمْ أَنْسَ يَوْمَ السَّبْتِ وَهُوَ لِمَا بِهِ      يَبْدِي السَّبَاتَ وَقَدْ بَدَتْ غُشَيَاتُهُ  
وَالْبِشْرُ مِنْهُ تَبَلَّجَتْ أَنْوَارُهُ      وَالْوَجْهَ مِنْهُ تَلَأَلَتْ سُبْحَاتُهُ<sup>(١)</sup>

ومن أساليب التعزية التي سلكها العماد الأصفهاني، أن جعل صلاح الدين مختاراً لفرار الدنيا غير مكره، إنه يأنف الحياة في دنيا زائلة، ويرتفع عن ملك لا يدوم، ويطمح إلى ما هو خالد، فقد غادر هذه الدنيا إلى خير منها، وفي هذا ما يجلب السكينة إلى قلوب محبيه وأولاده:

أُضْجِرْتُ مِنَّا، أَمْ أَنْفَتُ فَلَمْ تُكُنْ      مِمَّنْ تُصَابُ لِشِدَّةِ ضُجْرَاتِهِ  
أَرْضِيَتْ تَحْتَ الْأَرْضِ يَا مَنْ لَمْ يُزَلْ      فَوْقَ السَّمَاءِ عَلِيَّةٌ دَرَجَاتُهُ  
فَارَقْتُ مُلْكًا غَيْرَ بَاقٍ مُتَعَبِيًّا      وَوَصَلْتُ مُلْكًا بَاقِيًّا رَاحَاتُهُ<sup>(٢)</sup>

ويشرع الشاعر في أسلوب آخر في تعزيته، وهو مدح بنيه وعقد الآمال عليهم وحثهم أن

يسلكوا درب أبيهم، فإن غاب أو هوى الجبل فثمة ذرى وهضبات خلفها وراءه:

أُبْنِي صِلَاحِ الدِّينِ إِنَّ أَبَاكُمْ      مَا زَالَ يَا بِي مَا الْكَرَامُ أَبَاتُهُ  
لَا تُقْتَدُوا إِلَّا بِسُنَّةِ فَضْلِهِ      لِتَطِيبُ فِي مَهْدِ النَّعِيمِ سُنَاتُهُ  
وَرِدُوا مَوَارِدَ عَدْلِهِ وَسَمَاحِهِ      لِتُرَدَّ عَنِ نَهْجِ الشَّمَاتِ شِمَاتُهُ  
وَلَيْتَنِّي هَوَى جَبَلٍ، لَقَدْ بَنَيْتُ لَنَا      بِنْيَاهُ مِنْ هَضْبَاتِهِ ذُرْوَاتُهُ<sup>(٣)</sup>

وابن عنين في تعزيته الملك الناصر بموت الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، يجمع في

تعزيته بين أمرين، تأكيد حتمية الموت الذي لا يمكن رده، ومدح الملك الناصر الذي سيتولى

الحكم بعده، ففي تأكيد حتمية الموت الذي لا يملك الإنسان سوى الصبر أمامه يقول:

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩-٩٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٢.

لَوْ كَانَ خُلِقَ بِالْمَكَارِمِ وَالنَّقَى      يَبْقَى لَكَانَ مَدَى الزَّمَانِ مُخَلِّدَا  
 أَوْ كَانَ شَقُّ الْجَبَبِ بِنَقْذٍ مِنْ رَدَى      شَقَّتْ عَلَيْكَ بَنُو أَبِيكَ الْأَكْبَدَا  
 أَوْ كَانَ يُغْنِي عَنْكَ دَفْعُ بَالِقْنَا الـ      سَخَطِي غَادَرَتِ الْوُشَيْجِ مَعْصَدَا  
 وَلَقَدْ تَمَنَّتْ أَنْ تَكُونَ فَوَارِسَ      مِنْ آلِ أَيُّوبَ لَكَ الْفِرْدَا<sup>(١)</sup>

ثم يشرع في مدح الملك الناصر، الذي بحكمه سيجبر الزمان كسر المسلمين، وهذا المدح

يحمل في طياته التخفيف من الآلام ومداواة الجراح وتأکید الدعوة إلى الصبر:

قُلْ لِلْأَعَادِي إِنْ فَقَدْنَا سَيِّدَا      يَحْمِي الذَّمَارَ فَقَدْ رَزَقْنَا سَيِّدَا  
 النَّاصِرُ الْمَلِكُ الَّذِي أَضْحَى بِرُو      حِ الْقُدْسِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُؤَيِّدَا  
 أَعْلَى الْمُلُوكِ مَحَلَّةً وَأَسْدَهُمْ      رَأْيَا وَأَشْجَعَهُمْ وَأَطْوَلَهُمْ يَدَا<sup>(٢)</sup>

ويعزي شرف الدين الحلي الملك الظاهر غياث الدين بموت أخيه الملك المؤيد نجم الدين

مسعود، ويدعوه إلى الصبر مادحا إياه، بأنه قدوة الناس وأسوتهم في صبره وقت الشدة، ومواسيا

إياه بعدم التقصير في حق أخيه، فالموت لا يدفع بقوة السيف:

فِيَا مَانِعَ الْإِسْلَامِ صَبْرًا فَإِنَّمَا      بِصَبْرِكَ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ يَقْتَدَى  
 فَلَوْ كَانَ غَيْرَ الْمَوْتِ دَافَعَتْ دُونَهُ      بِطَعْنِ بَرْدِ السَّمْهَرِيِّ مَفْصَدَا<sup>(٣)</sup>

ويدعو له بمجد يهمني عليه، ودنيا تنقاد له مختارة، وهداية من الله:

قُدِّمَ يَا غِيَاثَ الدِّينِ سَيِّدِكَ لِلْعُلَى      يُشِيدُ مَبَانِيهَا وَسَيْفِكَ لِلْعَدَى  
 وَلَا زَلَّتِ الدُّنْيَا تَبِيْحَكَ مُلْكُهَا      وَلَا زَلَّتْ مَهْدِيًّا لَهَا وَمَمَّهَا<sup>(٤)</sup>

(١) ابن عنين، الديوان، ص ٥٩-٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢.

(٣) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ١٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٩.

ويؤكد شرف الدين الأنصاري في تعزيتته بموت الملك المعظم، فكرة احتساب الأجر في المصيبة، وأن الأجر عظيم بقدر ما تكون المصيبة عظيمة، والصبر عليها عظيماً، كما يؤكد حياة الميت فيمن خلفه بعده ليتابع ما كان عليه، ويسير على هديه:

تُعزِّي يَا ابْنَ مُعزِّ الدِّينِ عَنْهُ، فَقَدْ	جَلَّ المُصَابُ وَجَلَّ الأَجْرُ فِيهِ مَعَا
لِئِنْ جَزَعْتَ عَلَيْهِ فَهِيَ حَادِثَةٌ	صَمَاءٌ يَسْمَعُ فِيهَا عَنُرٌ مِنْ جَزَعَا
وَإِنْ صَبَرْتَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مُضْضٍ	بِهَا، فَمِثْلِكَ فِي أَمْثَالِهَا شُجْعَا
لَا زِلْتُ مِنْ كُلِّ مَفْقُودٍ لَنَا خَلْفًا	حَتَّى نَظُنَّ جَمِيعًا أَنَّهُ رَجَعَا <sup>(١)</sup>

وشملت تعازي الشعراء أبناء الملوك وأحببتهم، فهذا ابن الساعاتي يعزي الأمير عز الدين

والي القاهر بولد له مات، فيبدأ تعزيتته بالبكاء والتحسر على ذلك الشمل الذي تشتت بموته:

أَطُوفُ بِأَطْلَالِ خَلْوَنٍ وَأَرْبَعٍ	وَيَا قَلْمًا تُجَدِي طَلُولٍ وَأَرْبَعٍ
وَأَسْأَلُ عَمَّنْ بَانَ عَنْهَا صَبَابَةٌ	لَوْ أَنَّ سَوَالِي وَالصَّبَابَةَ يَنْفَعُ
فَلَلَهُ شَمْلٌ كَالدَّمْعِ مَبْدَدٌ	وَعَهْدٌ أَجْتِمَاعٍ عَادٌ وَهُوَ مُضْضِعٌ <sup>(٢)</sup>

وإذ يعبر عن مشاعر الحزن هذه ينتقل إلى التعزية بأن الحزن لا يعيد ميتاً وأن هذه الدنيا

مصيرها إلى زوال:

عزَاءُ فَمَنْ وَدَعْتَهُ لَيْسَ يَرْجِعُ	وَكَمْ بَانَ عَنَا ظَاعِرِينَ وَمُودِعُ
وما هذه الدنيا وإن راق حُسْنُهَا	سوى غَادِرٍ فِي غُدْرِهِ مُتَصَنِّعُ
يُلْذُّ لَنَا مَجْنَى تَلِيهِ نَدَامَةٌ	وَيُعْجِبُنَا وَرْدٌ وَخَيْمٌ وَمُرْتَعُ

(١) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٣١٠.

(٢) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨١.

وَلَدَافَعَتْ عَنْكَ الْمَنُونُ فَوَارِسَ      بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةُ الْأَجْدَادِ  
قَوْمٌ بَنِي شَاذِي وَأَيُّوبُ لَهُمْ      فُخْرًا تَلِيدًا فَوْقَ مَجْدِ عَادِي<sup>(١)</sup>

وابن الدهان حرص في رثائه الملك المعظم توران شاه أخوا صلاح الدين الأيوبي على تعزية صلاح الدين بالجمع بين البكاء والتحسر، والإشادة بالمناقب التي تحلى بها توران شاه، وبين حثه على الصبر والتجديد، فشرع في مدح صلاح الدين بهذه الصفة التي امتاز بها في النكبات والخطوب، فهو المثال الذي يحتذي به المسلمون في صبره، وهو من الوقار ما يربأ به عن خفة الاستسلام للحزن، ومن الشموخ ما لا ترعزه الخطوب:

فَأَسْلَمَ صَلاَحَ الدِّينِ مَا هَبَّتْ صَبَاً      أَوْ لَاحَ بَرْقٍ أَوْ تَبَدَّ كَوَكُوبُ  
لَا زَالَ عَزْمُكَ مَاضِيًا لَا يَنْتَهِي      وَشَدِيدَ بَأْسِكَ مَاضِيًا مَا يَذْهَبُ  
وَجَمِيلَ صَبْرِكَ فِي الرَّزَايَا يُعْتَلِي      وَكَرِيمَ عَوْدِكَ فِي الْحَوَادِثِ يُصَلِّبُ  
حَاشَى وَقَارِكَ أَنْ يَطِيرَ بِهِ الْأَسَى      أَوْ أَنْ يَزْعُزِعَهُ الْمَرَامُ الْأَصْعَبُ<sup>(٢)</sup>

وفي معنى الحث على الصبر والجمع بينه وبين المدح، نرى عمارة اليميني في رثائه نجم الدين والد الملك الناصر صلاح الدين، يبدأ بالحث على الصبر منذ الصدمة الأولى، ويربط بين الصبر والثواب المعد للصابرين، ويعزي صلاح الدين بأن الحياة مصيرها إلى فراق وأن الحزن لا يجدي شيئاً:

(١) ابن عنين، الديوان، ص ٦٢، وانظر: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٢٢-٢٢٣.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٧-٢٠٨.



هِيَ الصَّدْمَةُ الْأُولَى فَمَنْ بَانَ صَبْرُهُ  
عَلَى هَوْلٍ مَلَقَاها تَضَاعَفَ أَجْرُهُ  
وَلَا بَدَّ مِنْ مَوْتٍ وَفُوتٍ وَفِرْقَانَةٍ  
وَوَجِدِ بِمَاءِ الْعَيْنِ يَوْقَدُ جَمْرَهُ  
وَمَا يُتَسَلَّى مَنْ يَمُوتُ حَبِيبُهُ  
بِشَيْءٍ وَلَا يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ فِكْرُهُ<sup>(١)</sup>

ويشيد عمارة اليمني بصلاح الدين واخوته وأقاربه من آل أيوب، فبهم يدوم حكم البلاد

وتحفظ وحدثها:

فَمِنْ نَاصِرِيهِ عِزُّهُ وَتَقِيُّسُهُ  
وَسَيْفَاهُ مِنْهُمْ وَالصَّلَاحُ وَفَخْرُهُ  
أُولَئِكَ أَهْلُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ يَنْتَهِي  
إِلَى أَمْرِهِمْ طَيِّبِ الزَّمَانِ وَنَشْرُهُ<sup>(٢)</sup>

(١) عمارة اليمني، المختار، ص ٢٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٠-٢٦١.

## الفصل الثالث

رثاء القضاة والمؤرخين والأدباء

حظي العلماء بمكانة عالية ومنزلة رفيعة في هذين العصرين، وتبعاً لذلك حظوا بحظ وافر من الرثاء عند موتهم، ولم يقتصر الشعراء في رثائهم على تخصيص علماء برزوا في علم معين، فشمّلوا في رثائهم علماء الدين والفقه، واللغة والشعر وغيرهم.

وركز هذا النوع من الرثاء على ذكر المناقب والمحاسن وما يتصف به هؤلاء من سعة العلم ومكارم الأخلاق وغير ذلك. فالحزن على العالم غير مقتصر على ذاته فحسب، بل أن الحزن على خسارة علمه وما فقده المسلمون من هذا العلم بموته أعظم، ولهذا السبب خص الشعراء المناقب بالذكر أكثر من ذات العالم وشخصه، ولكن ذلك لم يمنع الشعراء من التعبير عن عميق حزنهم وأساهم بفقد العلماء والقضاة والفقهاء، فأبو العلاء المعري يظهر عميق الحزن والأسى على القاضي الحنفي أبي حمزة، فيغسله بالدمع، ويجعل القلب والأحشاء مكانه:

وَدَعَا أُيُّهَا الْحَفِيَّانِ ذَاكَ الْـ  
شَخْصَ، إِنَّ السُّودَاعَ أَيْسَرُ زَادِ  
وَاعْسِلَاهُ بِالْدمْعِ، إِنْ كَانَ طَهْرًا  
وَأَدْفِنَاهُ بَيْنَ الْحَشَا وَالْفُؤَادِ<sup>(١)</sup>

والقاضي الرشيد بن الزبير يرثيه فخر الكتاب أبو علي الجويني، مصورا تلك النار التي لا

تخبو، وذلك الدمع الذي لا يتوقف، مما أفقد الشاعر لذة الحياة:

حُرَّقِي مَا لِنَارِهَا مِنْ حُمُودِ  
كَيْفَ تَخْبُو وَالنَّارُ ذَاتُ الْوُقُودِ  
عَبْرَاتِي يَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ  
صَبَّرْتِ فِي الْخُدُودِ كَالْأَخْدُودِ  
عَبْرَاتِي تَرْمِي بِهَا فِي حُدُودِ  
زَفَرَاتٍ تَرَقَّى لَهَا فِي صُعُودِ  
لَكَ يَا ابْنَ الزُّبَيْرِ قَلْبٌ لَأَيَّا  
مِ سُرُورِي وَلِدُنَّتِي لَا تَعُودِي  
كَيْفَ تَحْلُو لِي الْحَيَاةُ وَقَدْ حُلَّتْ  
تُ عَنْ عَذْبِ خَلْقِكَ الْمُورُودِ<sup>(٢)</sup>

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٩-٩٩٠.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ٢٢٤-٢٢٥.

وإذ بكى الجويني القاضي الرشيد بدمعه وآهاته، فإن ابن قلاقس جعل كل شيء يبكي  
القاضي أبا عبدالله محمد بن رجا قاضي صقلية، فبكاه المجد والغيث والطير والليل والصبح وكل  
شيء بكاه مع الشاعر:

سَقَّ الْكَمَالَ عَلَيْهِ جِيبَ سَوَادِهِ	وَأَفَاضَ طَرْفَ الْمُجَدِّ مَاءَ فُؤَادِهِ
وَتَيَقَنَتْ رُتْبُ الْمَفَاخِرِ أَنَّهَا	خَفِضَتْ وَقَدْ رَفَعُوهُ فِي أَعْوَادِهِ
وَأَنهَلَتْ دَمْعَ الْغَيْثِ بَعْدَ مُصَابِيهِ	أَسْفًا عَلَيْهِ وَكَانَ مِنْ حُسَّادِهِ
وَأَعْتَاضَتْ الْأَطْيَارُ مِنْ تَغْرِيدِهَا	نُوحًا بَيْنَ الْحُزْنِ فِي تَرْدَادِهِ
وَيُدُّ الدَّجَى مُنْذُ اسْتَقَلَّ سَرِيرُهُ	نَفَضَتْ عَلَى الْإِصْبَاحِ صَبْغَ حَدَادِهِ <sup>(١)</sup>

إن حزن ابن قلاقس جعله عاجزا عن رثائه رثاء يليق به، وكان اللغة غاضت:

فِي أَيِّ لَفْظٍ اسْتَطِيعَ رِثَاءَهُ      إِنَّ لَمْ أُمَّتْ فُخْرِسْتُ عَنْ إِيرَادِهِ<sup>(٢)</sup>

وعد ابن أبي حصينة موت القاضي أبي يعلى حمزة بن الحسين مصيبة عظيمة صلي بناها كل  
تقي ورع:

هُوَ الشَّرْفُ الْعَالِي <sup>(٣)</sup> يَمُوتُ أَبِي يَعْلى	وَلَا عُرُو أَنْ جَلَّتْ رِزِيَةٌ مِنْ جَلًّا
سَيَصَلِّي بِنَارِ الْحُزْنِ مَنْ كَانَ آمِنًا	بِهِ أَنَّهُ فِي الْحَشْرِ بِالنَّارِ لَا يُصَلِّي <sup>(٤)</sup>

أما فتیان الشاغوري فقد رأى في موت القاضي كمال الدين الشهرزوري رزءا أصاب

الإسلام والمسلمين، رزءا لهوله شاب الشعر وأسودت الوجوه، وصغرت أمامه كل مصيبة:

(١) ابن قلاقس، الديوان، ص ٤١١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤١٢.

(٣) هو مكان في مواضع دمشق.

(٤) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧١.

عَدِمَ الْإِسْلَامَ مَعْدُومَ الْمِثَالِ      وَهُوتَ مِنْ أَوْجِهَا شَمْسُ الْمَعَالِي  
يَا لَهُ رِزْءًا لَقَدْ حُلَّ حَبًّا      قَبْلَهُ لَيْثٌ عَلَى شَمِّ الْجِبَالِ  
جَلَّ حَتَّى نَقَّ فِيهِ كُلُّ رِزْءٍ      جَلَّ وَانْكَدَرَتْ شُهْبُ الْجَلَالِ  
فَالشُّعُورُ السُّودُ كَالْأَيَّامِ بِيضًا      وَالْوَجُوهُ الْبِيضُ سَوْدًا كَاللَّيَالِي (١)

وعد ابن الدهان موت شهاب الدين بن عصرون موتا للجلد والعزاء وإضراما لنار في القلب

لا تتطفئ:

يَأْبَى النَّاسِي إِنْهَاءَ الْأَسَى الْجَلْدَا      فَإِنَّ نَعْيِي رَدَاهُ لِلْعَزَاءِ رَدَا  
أَذْكِي بِقَلْبِي نَارًا لَا خُمُودَ لَهَا      قَوْلُ النَّعَاةِ شَهَابُ الدِّينِ قَدْ خَمَدَا (٢)

وأبكى محمد بن سعد المقدسي على القاضي أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامه

المساجد والمحارِب، كما أبكى عليه الناس كافة:

أَبْعَدُ أَنْ فَقَدْتُ عَيْنِي أَبَا عَمْرٍ      بَضُمْنِي فِي بَقَايَا الْعُمْرِ عِمْرَانُ  
مَا لِلْمَسَاجِدِ مِنْهُ الْيَوْمَ مَقْفِرَةٌ      كَأَنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ الْجَمْعِ قَيْعَانُ  
مَا لِلْمَحَارِبِ بَعْدَ الْأَنْسِ مَوْجِشَةٌ      كَأَنَّ لَمْ يَبْقَ فِيهَا الدَّهْرُ قُرْآنُ  
تَبْكِي عَلَيْهِ عَيُونَ النَّاسِ قَاطِبَةً      إِذْ كَانَ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْهُ إِنْسَانُ  
وَكَانَ فِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْهُ نُورٌ هُدَى      فَصَارَ فِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْهُ نِيرَانُ (٣)

ومن الأساليب التي تزيد من مشاعر الحزن والأسى، تصوير ما آل إليه

حال الشاعر وحال الناس بعد فقد هؤلاء، فقد أصبح الهم ملازما ابن أبي

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٠.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ١٣٨.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٧٤-٧٥.

حصينة بعد موت القاضي أبي يعلى حمزة ابن الحسين، وتسرب إليه اليأس من هذه الحياة:

فَلَسْتُ أَبَالِي بَعْدَهُ أَيِّ غَايِرٍ      مَنِ النَّاسِ أَمَلَى اللهُ مَدَّتَهُ أَمْ لَا  
تَقَلُّ دُمُوعِي وَالْهَمُومُ كَثِيرَةٌ      كَذَلِكَ دُخَانُ النَّارِ إِنْ كَثُرَتْ فَلَا<sup>(١)</sup>

ومما زاد من حزن فتیان الشاغوري تلك الوحشة التي حلت بعد القاضي كمال الدين الشهرزوري، محل أنس به وجمال عيش معه:

أَلَيْسَتْ دَارُكَ إِحْشَاءً وَكُمُ      حَلَّهَا الْإِنْسَانُ فِي حُلِيِّ الْجَمَالِ<sup>(٢)</sup>  
وحظي التعبير عن المناقب التي تمتع بها هؤلاء القضاة وغيرهم، بحظ أوفى في قصائد الرثاء، إذ بكأها الشعراء وبكوا فقدانهم والمسلمين إياها، ومن المناقب التي أشاد بها الشعراء الزهد، والتقوى، والاعتدال، فكان القاضي أبو حمزة أوابا يجتنب الغلو في حياته، مقتصرًا في إقباله على الدنيا، زاهدا:

قَصَدَ الدَّهْرُ مِنْ أَبِي حَمْزَةَ الْأَوْ      ابِ مَوْلَى جِئِي وَخِذْنِ اقْتِصَادِ<sup>(٣)</sup>

ويظهر أبو العلاء المعري تقوى القاضي أبي حمزة، بذلك الكفن الذي أشار به على من كفناه، وهو كفن يشير إلى ارتباط وثيق بين القاضي وكتاب الله:

وَأَحْبَبَاهُ الْأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ الْمَصِّ      كَفِّ، كِبْرًا عَنْ أَنْفُسِ الْأَبْرَادِ  
وَأَتَلُّوا النَّعْشَ بِالْقِرَاءَةِ وَالنَّعْسِ      بِيحٍ، لَا بِالنَّحِيبِ وَالنَّعْدَادِ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٢.

(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩١.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٩٠-٩٩١.

(٤) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٩١.

أما الشيخ العماد الحنبلي فقد أظهر الشاعر الصلاح موسى بن الشهاب<sup>(١)</sup> تقواه بتلك العبادة

التي كان يعكف عليها دائما:

كَمْ لَيْلَةٌ بَتَّ تَحْيِيهَا وَتَسْهَرُهَا      وَالذَّمْعُ مِنْ خُشْيَةِ اللَّهِ مُسْبُولٌ  
وَسُجْدَةٌ طَالَ مَا طَالَ الْقَنُوتُ بِهَا      قَدْ زَانَهَا مِنْكَ تَكْبِيرٌ وَتَهْلِيلٌ<sup>(٢)</sup>

ويأسي ابن الدهان على عدل شهاب الدين بن عصفرون، الذي كان يعدل بين الخصوم ويعيد

الأمر إلى نصابها، وهو في أساءه هذا إنما ينفي هذه الصفة عن غيرها، وكأن المرثي وحده من

يقيم العدل:

مَنْ لِلْخُصُومِ إِذَا أَبَدَتْ شَقَاشِقَهَا      وَمَالٌ حَامِحُهَا فِي غِيَّةِ لُدَا<sup>(٣)</sup>

وإن كان شهاب الدين ابن عصفرون عادلا، فإن كمال الدين مودود بن الشاغوري كان هينا

لينا بعيدا عن أبواب السلاطين، غنيا عنهم بقرب الله:

كَمْ ضَمَّ قُبْرُكَ يَا مُودُودٌ مِنْ دِينِ      وَمِنْ عَفَافٍ وَمِنْ بَرٍّ وَمِنْ لِينِ  
مَا كُنْتَ تَقْرُبُ سُلْطَانًا لِتَخْدِمَهُ      لَكِنْ غَنِيَتْ بِسُلْطَانِ السَّلَاطِينِ<sup>(٤)</sup>

وكل تلك المناقب اقترنت بسعة العلم والتبحر فيه، فأبو العلاء المعري في رثائه القاضي أبا

حمزة، يثني عليه بالذكاء والعلم، إذ قرب بين مذاهب الفقهاء وخاصة الشافعي والحنفي، ومثل

هذا التوحيد والتقريب بين الأدلة وتهذيبها إنما يحتاج إلى سعة علم ودراية بالفقه، وهذا ما حازه

ذلك القاضي، إضافة إلى تبحره في علم الحديث:

(١) كان الصلاح عارفا أديبا ذا معرفة بالشعر والأدب، فاضلا عاقلا، ظريفا، حلو الشعر والمنطق، أنظر: أبو

شامة، الذيل الروضتين، ص ١٠٥، هامش رقم ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٣) ابن الدهان، الديوان، ص ١٣٨.

(٤) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٦٢٨، أنظر الأبيات في الذيل على الروضتين، ص ٩٠.

وَفَقِيهًا أَفْكَارُهُ شَدِيدٌ لِلنَّعْمِ  
فَالْعِرَاقِيُّ بَعْدَهُ لِلْحِجَازِ  
رَاوِيًا لِلْحَدِيثِ، لَمْ يَحْجُجِ الْمَعْمُ  
أَنْفَقَ الْعَمْرُ نَاسِكًا، يُطَلَّبُ الْعِلْمُ  
مَانَ، مَا لَمْ يَشِدَّهُ شِعْرُ زِيَادِ  
يَ، قَلِيلُ الْخِلَافِ سَهْلُ الْقِيَادِ (١)  
رُوفٌ مِنْ صِدْقِهِ إِلَى الْإِسْنَادِ  
مَ بِكَشْفٍ عَنِ أَصْلِهِ وَأَنْتِقَادِ (٢)

ويصور فتیان الشاغوري القاضي كمال الدين في قوة منطقته وحجته وجداله في أمور الفقه،  
بأنها تلك القوة التي تختتم على أفواه المتكلمين، فلا يملكون إلا الاستسلام له، لذا فإن موته ترك  
ثغرة في حمى العلم، فبلي العلم بعده وخبا ألقه:

كُفِّمَ فَقِيهِ بِالْجِدَا أَحْيَيْتَهُ  
مَا رَأَيْنَا قَبْلَهُ مِنْ خَطَّةٍ  
فَهُوَ كَالشَّمْسِ عَلُوًّا كَاتِبًا  
فَالْجَلَابِيبُ الْقَشِيْبَاتُ مِنَ الْعِلْمِ  
عَطَلَتْ مِنْكَ الْمَنَايَا طِيْلُاسَانَ  
بَعْدَ أَنْ جُدَلْتُ فَاهُ بِالْجِرِيدِ  
لَا حَ فِي أَسْوَدِهِ بِيضُ اللَّالِي  
وَعَلِيُّ بْنُ هَلَالٍ كَالِهَلَالِ  
مِنْ بَعْدِكَ أَسْمَالٌ بِوَالِي  
كَانَ تَاجًا بِلَالِي الْعِلْمِ حَالِي (٣)

وإذ تبحر هؤلاء القضاة في العلم، فقد جمعوا إلى علمهم حسن التعبير وفصاحته، فنرى  
القاضي كمال الدين يشيد به فتیان الشاغوري بأنه صاحب إنشاء بليغ يتحكم بالألفاظ كيف يشاء:

مُنْشَىٰ إِنْ شَاءَ إِنْشَاءً رَمَى  
يُكَلِّمُ الْبَحْرَ لَدَى غَضْبَتِهِ  
كُلَّ ذِي لَفْظٍ أَحْتِيَالٍ بِأَخْتَلِ  
بِكَلَامٍ رَاقٍ كَالسَّحْرِ الْحَالِ (٤)

(١) العراقي هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، فقيه أهل العراق، ويقال فلان عراقي المذهب، أي حنفي  
والحجازي هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي، أنظر ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٧.

(٢) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٨.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩١-٣٩٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٢-٣٩٣.



وثمة صفة لا ينفك الشعراء يشيدون بها، ولا يختلف القضاة في هذه الصفة عن غيرهم، فقد كان لهم نصيب منها، وهي الشجاعة، وكان المرثي لا يصل إلى حد الكمال الذي يحلم به الشاعر ويطمح إليه الناس إلا بها، فابن قلاقس في رثائه القاضي أبا عبدالله محمد بن رجا، يتحسر على ذلك السيف الذي كان مسلطاً على أعدائه:

وَمَهْدٌ مَا كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَهَا      أَنْ التَّرَابُ يَكُونُ مِنْ أَعْمَادِهِ  
وَتَحَكَّمَتْ فِيهِ الْمُنُونُ وَطَالَمَا      حَكَمَتْ بَبِيضِ ظَبَاهُ فِي أُضْدَادِهِ<sup>(١)</sup>

ويظهر ابن أبي حصينة شجاعة القاضي أبي يعلى، بحزنه على ذلك السيف الذي تركه الدهر مفلولاً:

لَقَدْ قَلَّ مِنْهُ الدَّهْرُ حَدٌّ مَهْنَدٍ      تَرَكْنَا بِهِ فِي كُلِّ حَدٍّ لَهُ فَلَاحٌ<sup>(٢)</sup>

وتظهر شجاعة كمال الدين الشهرزوري حين يشتد الخطب، ويحتاج المسلمون فيه إلى الهمة العالية ورباط الجأش والصبر:

ثَابِتُ الْجَاشِ إِذَا جَاشَتْ لَدَى الـ      غِيْضٍ فِي المَحْفَلِ أَكْبَادُ الرِّجَالِ  
كُنْ كَمَا كَانَ كَمَالُ الدِّينِ فِي      صَبْرِهِ عِنْدَ المِلمَاتِ النَّقَالِ<sup>(٣)</sup>

ومن يخوض غمار المعارك ويسخو بالحياة، يسهل عليه أن يسخو بماله ويجود، لذا فإن هؤلاء القضاة، وصفوا بالسخاء والجود بالمال، وهو سخاء متناه وعطاء لا حدود له، فأبو العلاء المعري يرى في الفقيه أبي حمزة بحراً لا حد لعطائه وعلمه، بينما يرى غيره كالشماد في قلعة نيله وعلمه:

(١) ابن قلاقس، الديوان، ص ٤١٢.

(٢) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧١.

(٣) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٣.

وَإِذَا الْبَحْرُ غَاضَ عَنِّي، وَلَمْ أَرِ  
و، فَلَارِي بَادِّخَارِ الثَّمَادِ<sup>(١)</sup>(\*)

وابن أبي حصينة يرى في القاضي أبي يعلى غيئا ووبلا يحمل في طياته الخير دائما:

فَقَدَّنَاهُ فَقَدْ الْغَيْثُ أَقْلَعُ وَبَلُّهُ  
عَنِ الْأَرْضِ لَمَّا أُمَلَّتْ ذَلِكَ الْوَبْلَا<sup>(٢)</sup>

ومات القاضي شهاب الدين بن عصفرون، ولا مال معه ولا درهم، فقد

أنفق ماله كله في حياته وجاد به:

خَرَقًا يُخَالُ عَيْبًا مِّنْ تَكْرَمِهِ  
وَمَاتَ لَا سُبْدًا أَبْقَى وَلَا لُبْدًا<sup>(٣)</sup>(\*\*)

حتى أن جوده في رأي الشاعر بلغ حدا لم يبلغه أحد، فتراه يسأل الناس

أن يقبلوا عطاءه، فإذا قبلوه كان حامدا لهم شاكرا إذا أعطي قبول العطاء:

يُلْفَاكَ يَسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ فَإِنْ قِيلَتْ  
مِنْهُ الْعَطَايَا الَّتِي مَا مِنْهَا حَمِيدًا<sup>(٤)</sup>

إن رجالا حووا كل هذه المناقب، لحري بالشعراء أن يختموا رثاءهم بالدعاء لهم وفاء

وإخلاصا وحباً، فهذا ابن قلاقس يدعو لقاضي صقلية برحمة من الله وصلاة، وبسقيا ماء السماء،

يضحك لها وجه الأرض بالزهر والنوار:

صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى صَدَاهُ فَإِنَّهُ  
مِنْ سِرِّ صَفْوَتِهِ وَمِنْ عِبَادِهِ

وَسَقَى ثَرَاهُ مِنَ الْغَمَائِمِ صَبَّابٌ  
ضَحِكُ الْمَعَاهِدِ مِنْ بُكَاءِ عِهَادِهِ<sup>(٥)</sup>

(\*) الثماد: الحفر يكون فيها الماء القليل، ابن منظور، لسان العرب، مادة ثمد.

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ١٠٠٢.

(٢) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧١.

(\*\*) يقال: ما له سبد ولا لبد أي ليس له قليل ولا كثير، ولا مال معه، ابن منظور، لسان العرب، مادة سبد.

(٣) ابن الدهان، الديوان، ص ١٣٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٥) ابن قلاقس، الديوان، ص ٤١٣.

ويشاركه في صورة الحياة المخضرة هذه، فتیان الشاغوري في رثائه الفقيه كمال الدين

مودود:

سَقَى الْإِلَهَ ضَرِيحاً أَنْتَ سَاكِنُهُ      حَتَّى تَرَى مُنْبِتاً خَضِرَ الرِّيَّاحِينَ<sup>(١)</sup>

أما ابن الدهان، فيرى في صلاة الله على شهاب الدين عصرون وسحب لطفه التي تهمني

عليه، ما يكفي من الدعاء:

صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهَ الْعُرْشِ فِي الْمَلَأِ الـ      أَعْلَى وَوَالِي لَهُ مِنْ لُطْفِهِ مَدَدًا<sup>(٢)</sup>

ورثي الشعراء علماء اللغة والمؤرخين، فهذا شرف الدين الأنصاري يرثي التاج الكندي

الذي كان إماما في النحو واللغة، يرثيه باكيا حزينا لفقده:

أَقْرُّ عَيْنِي زَمَانًا، ثُمَّ أَسَخَّنْهَا      بِعَيْشِهِ، وَرَدَاهُ الْفَاضِلُ الْكِنْدِي

لُقِيتُ مِنْ فَقْدِهِ مَا فَتَّ فِي عَضْدِي      وَقَدْ غَنَيْتُ زَمَانًا وَارِيًّا زَنْدِي<sup>(٣)</sup>

وإذا كان حزن شرف الدين الأنصاري على الإمام الكندي حزنا فريدا، فإن الحزن بموت

سبط ابن الجوزي، عم المسلمين وعم الأمصار الإسلامية، إذ فقدوا بموته مشعلا منيرا، أضاء

الكثير مما كان يعمه الظلام من تاريخ وأدب، فرثاه أحمد بن إبراهيم بن عبداللطيف بن مصعب

بقوله:

ذَهَبَ الْمُؤَرِّخُ وَأَنْقَضَتْ أَيَّامُهُ      فَتَكَدَّرَتْ مِنْ بَعْدِهِ الْأَيَّامُ

قَدْ كَانَ شَمْسُ الدِّينِ نَوْرًا هَادِيًّا      فَفَقَضَى فَعَمَّ الْكَائِنَاتُ ظَلَامُ

كَمْ قَدْ أَتَى فِي وَعْظِهِ بَقَضَائِلِ      فِي حُسْنِهَا تُتَحَيَّرُ الْأَفْهَامُ

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٦٢٨.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ١٤١.

(٣) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ١٨١.

حَزِنَ الْعِرَاقُ لِفَقْدِهِ وَتَأَسَّفَتِ  
مِصْرٌ وَنَاخَ أَسَىٰ عَلَيْهِ السَّمَاءُ<sup>(١)</sup>

وفتيان الشاغوري في رثائه المؤرخ ابن عساكر، رأى في موت هذا المؤرخ رزءاً أصيب

به الإسلام، فأبكى الأرض والسماء:

أَيُّ رُكْنٍ وَهِيَ مِنَ الْعُلَمَاءِ  
أَيُّ نَجْمٍ هُوَ مِنَ الْعُلَمَاءِ  
إِنَّ رَزْءَ الْإِسْلَامِ بِالْحَافِظِ الْعَا  
لِمِ أَمْسَى مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْزَاءِ  
وَأَمْتَرَى حَزْنُهُ مَدَامِعُ أَهْلِ الْأَ  
رَضِ حَتَّى جَرَّتْ دُمُوعُ السَّمَاءِ<sup>(٢)</sup>

وبكى الشعراء في هؤلاء العلماء سعة علمهم الذي عم القاصي والداني، يقول فتيان

الشاغوري في علم ابن عساكر مثنيا ناعيا باكيا:

كَانَ حَبْرًا يُقْرَى مَسَامِعَنَا مِنْ  
أَسْوَدِ الْجَبْرِ أَيْبُضِ الْأَلَاءِ  
كَانَ بَحْرًا مِنْ عَامٍ فِيهِ حَبَاهُ  
بِاللَّكِي الْأَنْيَقَةِ اللَّأَلَاءِ  
كَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْأَنْبَاءِ بِأَسْمَاءِ  
عِ رِجَالِ الْحَدِيثِ وَالْعُلَمَاءِ  
كَانَ عَلَّامَةً وَنَسَابَةً لَمْ  
يَخَفُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ  
أَفْقَرَتْ بَعْدَهُ رُبُوعُ الْأَحَادِيدِ  
ثِ وَأَقْوَتَ مَعَالِمُ الْأَنْبَاءِ<sup>(٣)</sup>

وبكى خسارة تلك الدقة والأمانة والحرص على الوصول إلى العلم الحقيقي دونما تصحيف

وتغيير وخطأ:

كَانَ مِنْ وَصْمَةِ التَّغْيِيرِ وَالتَّصْوِ  
حَيْفِ أَمْنًا لَخَابِطِ الْعُشْوَاءِ<sup>(٤)</sup>

(١) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٦٢.

(٢) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٦١٢-٦١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٦١٣.

ولم تكن سعة العلم هي ما فقدته المسلمون بفقد هؤلاء العلماء والمؤرخين فحسب، بل فقدوا أيضا التقوى، التي أشاد بها الشعراء، فابن سناء الملك في رثائه الشريف أبا القاسم عبدالرحمن الحسيني الحلبي يصور تلك التقوى بحزن العبادة عليه وحسرتها إذ فقدت عابدا مداوما عليها:

وَالشَّرْعُ لَمَّا التَّقَى بِالذَّهْرِ وَبَخَهُ      وَقَالَ وَيْلَكَ قَدْ أَشَمَّتْ حَسَّادِي  
وَالصَّوْمُ قَدْ قَالَ لَهْفِي مَنْ لِهَاجِرَتِي      وَاللَّيْلُ قَدْ قَالَ وَيْلِي مَنْ لَأُورَادِي<sup>(١)</sup>

إن عالما تقيا كهذا لحري بالدين أن يندبه، وبلاد الإسلام كافة أن تبكيه:

وَيَلْطُمُ الدِّينُ خُدْيَهُ وَمَفْرِقَهُ      مِنْ بَعْدِ تَخْرِيْقِ أَثْوَابِ وَأَبْرَادِ  
وَقَدْ بَكَتْ سُورُ الْقُرْآنِ فَاسْتَمِعُوا      شَهِيْقُ نُونٍ بِسَمْعِ الْقَلْبِ أَوْ صَادِ  
وَأَعُولَتْ حَلَبٌ إِعْوَالُ نَاكِلَةٍ      حَتَّى لَقَدْ سَمِعَتْ مِنْ أَرْضِ بَغْدَادِ  
وَمِصْرٌ أُنْكَلُ مِنْهَا غَيْرُ أَنْ لَهَا      بِالقَبْرِ تَنْفِيْسُ أَحْزَانٍ وَأَكْمَادِ<sup>(٢)</sup>

وكان المؤرخ ابن عساكر كما صورته فتیان الشاغوري مستقيما في دينه لا يحيد عن الحق، ثابتا في السراء والضراء، ويبدو أن حب الشاعر له قد أوصله إلى المبالغة في وصف تقواه حتى جعله شبيها بالأنبياء، فيقول:

كَانَ فِي دِينِهِ قَوِيْمًا قَوِيْمًا      ثَابِتًا فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ  
قَدْ أَرَانَا سَرِيْرَهُ كَيْفَ كَانَتْ      قَبْلُ تَجَلَّى أَسِرَّةَ الْأَنْبِيَاءِ<sup>(٣)</sup>

ولم تكن صفحات الكتب هي ميدان هؤلاء العلماء فحسب، بل ثمة ساحات للقتال، شهدت هؤلاء، وهم يشهرون سيوفهم دفاعا عن دين الإسلام وبلاد المسلمين، كما شهروا أقلامهم

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٥.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٦١٣.

وعقولهم، فهذا ابن سناء الملك يرى في فقد الشريف أبي القاسم الحسيني، فقد لقوة وسيف كان يحمي حمى المسلمين:

لَمْ يُبْقِ بَعْدَكَ مَنْ يَحْمِي صُرَيْمَتَهُ      كَيْدَ الْعُدُوِّ وَيُكْفِي صَوْلَةَ الْعَادِي  
لَمْ يُبْقِ بَعْدَكَ مَنْ تَرَوَى مَأْتَرَهُ      حَتَّى بِاللُّسُنِ أَعْدَاءٍ وَأَضْدَادِ  
لَمْ يُبْقِ بَعْدَكَ مَنْ أَخْبَارُ سُودِدِهِ      يُلْهَوُ بِهَا الشَّرْبُ أَوْ يُشْدُو بِهَا الشَّادِي<sup>(١)</sup>

وابن عساكر المؤرخ، كم جرع العدو مرارة بأسه وقوته:

كَمْ بِهِ جَرَعَ الْعُدُوُّ ذَعَافَا      مِنْ أَفَاوِيْقِ الْبُؤْسِ وَالْبِأْسَاءِ  
وَلَهُ وَثْبَةٌ تَذُلُّ لَهَا أَسَا      دُ الشَّرَى وَالْجِيُوشُ فِي الْهَيْجَاءِ<sup>(٢)</sup>

ودعا الشعراء لهؤلاء العلماء بفيض من السقيا بماء السماء، ورحمة تتنزل عليهم ففي الدعاء

لسبط ابن الجوزي يقول أحمد بن إبراهيم:

يَسْقَى ثُرَى وَارَاهُ صُوبَ غَمَامَةٍ      وَتَعَاهَدْتَهُ تَحِيَّةً وَسَلَامًا<sup>(٣)</sup>

ودعا ابن سناء الملك لأبي القاسم الحسيني برضوان من الله ومغفرة:

سَقَى ضَرْبِيحَكَ رِضْوَانًا وَمُغْفِرَةً      وَلَا أَقُولُ سَفَاكَ الرَّائِحِ الْغَادِي<sup>(٤)</sup>



ورثى الشعراء بعضهم عند الموت، مظهرين الحزن والأسى، مشيدين ببعضهم داعين الله

بحسن الجزاء، فهذا أبو العلاء المعري يرثيه غيره من الشعراء، ذارقين دمعهم ودمهم، فيرثيه

تلميذه أبو الحسن بن همام:

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٤-٥٠٥.

(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٦١٣-٦١٤.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ص ٦٢.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٦.

إِنْ كُنْتُ لَمْ تُرِقِ الدَّمَاءُ زَهَادَةً      فَلَقَدْ أُرُقْتُ الْيَوْمَ مِنْ جَفْنِي الدَّمَا<sup>(١)</sup>

وبيكيه أبو مسلم وادع بن عبدالله وبيكي عليه الليل، كواكبه وشهبه:

وَلَوْ أَنَّ هَذَا اللَّيْلُ يَعْلَمُ أَنَّه      قَضَى لَقَضَى أَلَّا تَزُولُ غِيَاهِيه  
وَلَوْ عَلِمْتُ شَهَبَ الظَّلَامِ بِفَقْدِهِ      إِذَا نَدَبْتَهُ فِي الظَّلَامِ كَوَاكِبِه<sup>(٢)</sup>

ورثي أبو العلاء المعري الأديب المعروف بالمتع، باكيا إياه منتحبا:

بَانَ مِنِّي مَنْ كَانَ يُكْتَرُّ عَنِّي      فِي الخُطُوبِ الَّتِي تُتَوَّبُ مَنَابِه  
إِنْ قَضَى نَحْبَهُ فَإِنِّي مَنْ لَا      يَنْقُضِي أَوْ إِلَيْهِ يُفْضِي أَنْتِحَابِه  
وَقَلِيلٌ لِيذِي الكَابِئَةِ وَالْوَجْدِ      دِ عَلَيْهِ بِكَأُوهُ وَاكتئابِه<sup>(٣)</sup>

وفي رثاء ابن الفارض، جعل أبو الحسين الجزار السحب كلها تبكيه وتزوره لتذرف دمعها

عليه:

لَمْ يَبْقُ غَيْثٌ سَحَابَةٍ إِلَّا وَقَدُ      فَرِضَتْ عَلَيْهِ زِيَارَةَ ابْنِ الفَارِضِ  
لَا عَرَوْا أَنْ يُرَوَى نَرَاهُ وَقَبْرَهُ      بَاقٍ لِيَوْمِ العَرَضِ تَحْتَ العَارِضِ<sup>(٤)</sup>

وأشاد الشعراء بمناقب من رثوهم من شعراء عصرهم، وبكوا فيهم ما فقدوه من جميل

السجايا، فقد شك أبو العلاء المعري ونفى أن يكون هناك شبيهه بالأديب الممتع:

وَأَضْرِبِي فِي البِلَادِ طَوَّالًا وَعَرْضًا      أبدأ لَنْ تَرَى بِهَا أَضْرَابِه<sup>(٥)</sup>

(١) اليافعي، مرآة الجنان، ج ٣، ص ٥٩.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٢٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٥.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج ١، قسم مصر، ص ٣٤٧.

(٥) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٧٥.

ووصف أبو العلاء المعري بهذه الصفة أيضا عندما رثاه أحمد بن حمزة

أبو الفضل:

أُتْرَى يَدُ الدُّنْيَا تَجُودُ بِمِثْلِهِ      هَيْهَاتَ لَيْسَ يَرَى لَهُ مِنْ تَانٍ (١)

وكما رأى هذان الشاعران في الممتع وأبي العلاء شخصيته لا تتكرر، فإن أبا محمد هبة الله

ابن عرام الأسواني، رأى في محمد بن علي بن الغمر، شاعرا فذا لا نظير له أيضا:

لَتُبَكِّ بَنُو الآدَابِ طُرّاً أَدِيبُهُمْ      وَفَارِسُهُمْ فِي حَلْبَةِ النَّظْمِ وَالنَّثْرِ  
وَلَا يَطْمَعُوا مِنْ دَهْرِهِمْ بِنَظِيرِهِ      وَهَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ أَبِي الْغَمْرِ (٢)

ومن مناقب الشعراء، الندى والجود، فقد رويت أخبار جود أبي الحسن علي بن محمد ابن

عيسى على لسان العدو قبل الصديق، فكان مما مدحه به ابن سنان الخفاجي:

وَمُعَدَّلٌ جَارٍ عَلَى غُلُوَائِهِ      يَرُوي حَدِيثَ نَدَاهُ عَنْ أَعْدَائِهِ (٣)

ورأى أبو مسلم وادع بن عبدالله أن جود أبي العلاء المعري قد عم أهل الأرض قاطبة، فقال

فيه:

وَقَدْ عَمَّ أَهْلَ الأَرْضِ جَمْعاً مُصَابُهُ      كَمَا عَمَّهُمْ إِحْسَانُهُ وَمَوَاهِبُهُ (٤)

ومن المناقب المشاد بها، الشجاعة وعزة النفس وترفعها عن قبول الذل والضميم، فيقول ابن

سنان الخفاجي في الشاعر علي بن محمد الكاتب حين قتل وصلب:

لَدِنِّ كَعَالِيَةِ القَنَاةِ يَخِيفُ فِئِي      عَزَمَاتِهِ وَيَمِيدُ فِي أَهْوَائِهِ

(١) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٦٦.

(٢) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٥٦٥.

(٣) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٤.

(٤) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٢٢٥.



عَجَبًا لِحَدِّ السِّيفِ كَيْفَ أَصَابَهُ  
وَمُضَاوُهُ فِي الرَّوْعِ دُونَ مُضَائِرِهِ  
إِنْ يَرْفَعُوهُ فَقَدْ غَنُوا بِعَلَائِهِ  
أَوْ يَشْهَرُوهُ فَقَدْ كَفُّوا بِثَنَائِهِ<sup>(١)</sup>

ومن الشعراء من وصف بسعة العلم وشموليته، مما جعل فقده خسارة للعلم والعلماء، فهذا

أبو العلاء المعري يرثيه أبو مسلم وادع بن عبدالله بقوله:

أَلَا يَا شَبِيهَ الْبَحْرِ أَقْسِمُ لَوْ دَرَى  
بِمَوْتِكَ مَا جَاشَتْ بِلَيْلٍ غَوَارِبُهُ  
وَلَوْ نَطَقَتْ كُتُبُ الْعُلُومِ إِذَا بَكَى  
عَلَى فَقْدِهِ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ غَرَائِبُهُ  
فَمَا زَالَ كُلُّ النَّاسِ يَنْهَبُ عِلْمَهُ  
إِلَى أَنْ غَدَا صَرَفُ الرَّدَى وَهُوَ نَاهِيَةٌ<sup>(٢)</sup>

حتى أن أبا الفتح الحسن بن عبدالله بن أبي حصينة قد رثى العلم ونعاه بعد أبي العلاء

المعري:

الْعِلْمُ بَعْدَ أَبِي الْعَلَاءِ مُضَيَّبٌ  
وَالْأَرْضُ خَالِيَةٌ الْجَوَانِبِ بَلْقَعُ  
لَا عَالَمَ فِيهَا يُبَيِّنُ مُشْكِلًا  
لِللِّسَانَيْنِ وَلَا سَمَاعٍ يَنْفَعُ  
وَعَظَ الْأَنَامَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنَ الْهُدَى  
لَوْ كَانَ يُعْقِلُ جَاهِلٌ أَوْ يَسْمَعُ  
وَمُضَى وَقَدْ مَلَأَ الْبِلَادَ غَرَائِبًا  
تَسْرِي كَمَا تَسْرِي النُّجُومُ الطُّلَعُ<sup>(٣)</sup>

ولا يجد الشعراء -كعادتهم- ما يقدمونه لمن ماتوا سوى الدعاء، هذا الدعاء الذي ما فتئ

الشعراء جميعهم يلحون عليه، إنه الدعاء بالسقيا بماء السماء، وبربيع يملأ القبر وما حوله، فهذا

أبو العلاء المعري يدعو للشاعر الممتنع:

(١) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٤.

(٢) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٦.

فُوشَى قَبْرُهُ الرَّبِيعُ وَلَا زَالَ م مُرَبًّا عَلَى ثَرَاهُ رَبَابُهُ (١)

ويأتي أبو مسلم بن وادع بن عبد الله ليدعو لأبي العلاء المعري:

سَقَى قَبْرَهُ السَّحْبُ الْغِزَارُ وَخَصَّهُ مِنْ اللَّهِ عَفْوٌ لَا يَزَالُ يُصَاحِبُهُ (٢)



وقد عزی الشعراء أنفسهم وعزوا المسلمين بفقد علمائهم وفقهائهم وشعرائهم، فما خسارة هؤلاء وفقدهم إلا خسارة لحضارة الإسلام، وللدين نفسه، وعبروا عن تعزيتهم بموت هؤلاء العلماء في رثاء هؤلاء بصور عدة منها الحديث عن الموت وحثميته وطبيعة هذه الحياة، وهم في تعزيتهم هذه إنما يعزون أنفسهم ويعزون المسلمين بفقدهم، قبل أن يعزوا أهل ذلك العالم أو الفقيه أو الشاعر، فهذا أبو العلاء المعري في رثائه القاضي أبا حمزة يؤكد حتمية الموت في تعزيتة أبناء القاضي، وربما تعزيتة الناس بفقد هذا الفقيه، فالحذر من الموت لا يجدي، فكل إنسان مصيره إلى الموت وما الناس إلا مسافرون في هذه الحياة:

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبَتَّتِي الْوَرْدُ قَاءُ وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعَمَادُ  
وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظِلُّ السَّيِّدِ دَرُّ ضَرْبِ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ (٣)

وابن قلاقس في رثائه القاضي الجليس أيضا، عزی أبناءه بأن الموت لا يترك أحدا ولا ينفذ

منه شيء، حتى الفرقدان افترقا فلا يلتقيان:

وَهَيْهَاتَ جَرَّ الدَّهْرُ مِنْ قَبْلِ جُرْهُمَا وَشُدَّ عَلَى عَادٍ وَشَدَّادٍ عَادِيَا  
وَكُدِّرُ نَدْمَانِي جَذِيمَةٌ بَعْدَمَا أَقَامَا زَمَانًا يَشْرَبَانِ النَّصَافِيَا

(١) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٢٥.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ١٠٠٢-١٠٠٣.

وَأَمَّا افْتِرَاقُ الْفَرَقَيْنِ فَإِنَّهُ يَكُونُ افْتِرَاقًا لَا يَحُولُ تَلَاقِيًا<sup>(١)</sup>

ومن صور التعزية مدح آل الفقيد والثناء عليهم، فإن في مدحهم ما يجلب الصبر إلى قلوبهم، ويمنحهم الأمل بأنهم امتداد لمن فقدوا، ويحثهم على مواصلة السير على نهج من مات، وفي هذا المدح نجد الإلحاح على أهمية الصبر والتحلي به، فما الصبر إلا من شيم الكرام، وهذه الدعوة إليه لا تقلل من شأن الفقيد أو الحزن عليه، بل إننا نرى الشعراء يتبعون الدعوة إلى الصبر بمزيد من التفجع والألم لعظم الرزء الذي حل بهم بفقده، وكأن في المبالغة بالبكاء وإظهار الحزن تخفيفاً من لوعة الفاقدين، لما يجلبه الحزن والبكاء من راحة للنفوس والقلوب، فنراهم بذلك قد جمعوا بين مدح أهل الفقيد والحزن عليه.

ففتيان الشاغوري في رثائه ابن عساكر مؤرخ دمشق، نراه يمزج بين الحزن ورثاء المناقب<sup>(٢)</sup>، وبين تعزية آل عساكر بمدحهم، وهو في تعزيتهم يؤكد ما تركه ابن عساكر بعده من حياة باقية، ترك علما حيا، جعله خالدا في تاريخ الإسلام، وخلف أبناء نجباء يواصلون ما بدأه أبوهم الذي لم يفن منه سوى حياة الجسد:

إِنْ يَكُنْ فِي الْمَوْتَى يُعَدُّ فَقَدْ	م	خَلَّفَ عِلْمًا أَبْقَاهُ فِي الْأَحْيَاءِ
مُودِعٌ فِي سَوَادِ كُلِّ فُؤَادٍ		بِتَصَانِيفِهِ بِيَاضِ وُلاءِ
وإِلَيْهِ تُتَمَّى بِنُوءِ وَطِيبِ الْأَصْلِ		مُسْتَأْزَرٌ بِطِيبِ الْجَنَاءِ
لَكُمْ يَا بَنِي عَسَاكِرِ بِيَّتِ		سَامِقٌ فِي ذُرَى الْعُلَى وَالْعُلَاءِ
لَمْ يَزَلْ مُنْجِبًا أَبُوكُمْ فَمَا بَشُ		شِرَ إِلَّا بِالسَّادَةِ النَّجْبَاءِ
وَلَكُمْ فِي الْأَنَامِ صِيَّتٌ رَفِيعٌ		مُشْرِفٌ فَوْقَ هِمَّةِ الْجُوزَاءِ

(١) ابن قلاقس، الديوان، ص ٥٨٢.

(٢) انظر ص ١٣٨-١٤٠ من هذه الدراسة.

فَتَعَزَّوْا عَنْهُ بِصَبْرٍ وَإِنْ كَانَ مُضَى بِأَصْطِبَارِنَا وَالْعَزَاءِ<sup>(١)</sup>

ولا يكتفي الشاعر بهذه التعزية، فهو في أسلوب آخر يؤكد ذلك الحزن العظيم والفجعة التي مني بها النابس بفقده، مازجا هذا الحزن بحسن الجزاء الذي يجعل الميت فرحا بموته، وينزل السكينة على قلوب أهله، مبينا أن الحزن لموته أكبر من أي رثاء، وفي هذا المدح تعزية لأهله:

نَحْنُ نُبْكِي عَلَيْهِ حَزْناً وَكَمْ قَدْ صَافَحْتَهُ فِي اللَّحْرِ مِنْ حَوْرَاءِ  
أَنْتِ أَعْلَى مِنْ أَنْ تُعَدَّ بِوَصْفِ بُلْغَتِهِ بُلَاغَةَ الْبُلْغَاءِ  
أَنْتِ أَوْلَى بِأَنْ تُرْثِيكَ حَتَّى يُبْعَثَ الْخُلُقُ، أَلْسُنُ الشُّعْرَاءِ<sup>(٢)</sup>

وعرض الشعراء في تعزيتهم بالعلماء لبعض المعاني الاجتماعية، خاصة معنى الشماتة في المصيبة، فردوا على الشامتين مذكرين إياهم، بحتمية الموت، وأن الموت لا ينجو منه أحد، فكما أصاب هؤلاء العلماء بسهمه، فهو لا بد أن يصيبهم بالسهم ذاته، فليفرحوا قليلا لأنهم سيبكون كثيرا بل أن الشعراء استغلوا ردهم على هؤلاء الشامتين، ليمدحوا هؤلاء العلماء، ويشيدوا بمناقبتهم، فقد كانوا عظماء في موتهم، عظماء في حياتهم، وما في هذا الثناء سوى تعزية لأهلهم ولمن أحبوهم، فهذا يوسف بن هبة الله بن مسلم في رثائه الشيخ ابن جميع الطبيب، يرد على الشامتين بموته قائلا:

فَقُلْ مُعَلِّناً لِلشَّامِتِينَ بِيَوْمِهِ ذُو الْجَهْلِ إِنَّ الْجَهْلَ مِنْكُمْ بِمَاتِمِ  
تَمُرُّ سَفِيهَاتُ الرِّيَّاحِ عَوَاصِفَا فُهَلْ زَعَزَعَتْ ضَعْفًا نَبَاتُ يَلْمَمِ  
وَمَا سَرَّحَ السَّرَّحُ الضَّعِيفُ جِرَاكُهُ بِأَرْضٍ فَكَانَ اللَّيْثُ فِيهَا يَمُجِّنِمِ  
أَلَمْ يَكْ ذَا وَرَدَ النُّفُوسِ بِأَسْرِهَا فُكُلٌ أُخِيرَ تَابِعُ الْمُتَقَدِّمِ

(١) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٦١٤.

(٢) المصدر نفسه، الديوان، ص ٦١٤-٦١٥.

فَلَا فَرْحَ إِلَّا وَيَعْقِبُهُ الْأَسَى      وَلَا غَايَةَ الْبُنْيَانِ غَيْرَ التَّهْدِمِ<sup>(١)</sup>

وفي الرد على الشامتين بموت القاضي كمال الدين الشهرزوري، يبين لهم فتیان الشاغوري أن الموت واقع عليهم لا محالة، فهو قدر محتوم على كل إنسان، ثم يتخلص من ذلك إلى التثناء والإشادة بقوم ذلك القاضي معزياً إياهم بهذا المديح، فهم لا يملكون أمام الموت شيئاً، فلو كان البأس والعزم يحمي إنساناً من الموت، لحمت القاضي شجاعة قومه وسيوفهم:

أَيُّهَا الشَّامِتُ بِالمُوتِ أَنْتَظِرُ	فَالرَّدَى كَأَسِّ مُدِيرِ ذِي أَنْتِقَالِ
لَيْسَ يَنْجُو مِنْ سَطَاهُ مَنْ سَطَا	بِجُيُوشِ تَمَلُّ الأَرْضِ وَمَالِ
فَسَمَا لَوْ رَدُّ عَنْهُ المَوْتُ بِأَسِّ	لَأَنْتَنَتْ مُحَمَّرَةً بِيضُ النَّصَالِ
وَتَمَطَّتْ تَحْتَهُمْ أَسْدٌ شَرِيٌّ	تَحْتَهَا خَيْلٌ كَأَمْثَالِ السَّعَالِ
وَفَدَّتْهُ بِنَفْسِ طَائِعَاتِ	أَسْدٍ حَمْسٍ وَرَبَّاتِ جِجَالِ
مِنْ بَنِي عَمِّ وَأَبْنَاءِ زَمَانِ	ذِي وِلايَةٍ وَعَبِيدٍ وَمَوَالِي <sup>(٢)</sup>

وفي رثائه ابن عساكر، يشير إلى الشامتين، رادا عليهم بأن الموت لا بد واقع بهم، ولكن

شتان بين موت ابن عساكر وموت من سواه:

مَنْ يَكُنْ شَامِتًا فَللمُوتِ بِأَسِّ	لَيْسَ يَنْتَقِي بِالْعِزَّةِ الْقَعَسَاءِ
وَلَهُ وَثْبَةٌ تَنْزِلُ لَهَا أَسْدٌ	دُ الشَّرِيِّ وَالْجِيُوشِ فِي الهَيْجَاءِ
مَنْ يَمُتْ فَلْيَمُتْ مَمَاتُ أَبِي القَا	سِمٍ عَنْ عَقْفَةٍ وَطَيْبِ تَنْبَاءِ <sup>(٣)</sup>

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ٥٧٨.

(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦١٤.

إن هذا التثناء على ابن عساكر في ميّته، إنما هو تعريض بالشامتين بموته، فلن يموتوا ميّته

عفيفة ولن يخلّفوا بعد موتهم تثناء يحييهم بين الناس.

## الفصل الرابع

### رثاء الدول والمدن

رثاء الدولة الفاطمية

رثاء المدن

## رثاء الدولة الفاطمية:

عز سقوط الدولة الفاطمية على من كان له بها صلة وثقى، فرثاها عمارة بشعر يفيض بالحب والحنين ولم يسمع فيما بكيت به دولة بعد انقراضها أحسن من قصيدة لعمارة بن علي اليميني<sup>(١)</sup>، إذ جوت هذه القصيدة موضوعات عدة تجاوزت مجرد ذرف الدموع والبكاء، وأشادت بهذه الدولة ومجدها فقد بدأ عمارة اليميني قصيدته يلوم الدهر الذي حطم هذه الدولة وأبادهها، بعد أن كانت زينة في جيد الزمان، فليس ثمة دولة تعادل في الحب عند الشاعر كما هي الدولة الفاطمية:

رُمِيتَ يا دَهرُ كَفَّ المَجْدُ بِالشَّلِّ	وَجِيْدُهُ بَعْدَ حُسْنِ الحَلِيِّ بِالْعَطْلِ
سَعَيْتَ فِي مَنهَجِ الرَّأْيِ العُثُورِ، فَإِنْ	قُدِّرَتْ مِنْ عَثْرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقْبَلِ
جَدَعْتَ ما رِناكَ <sup>(٢)</sup> الأَقْنَى فَأَنْفَكَ لا	يَنْفُكُ ما بَيْنَ قَرَعِ السِّنِّ والحَجَلِ
هُدِمَتْ قاعِدَةُ المَعروفِ عَن عَجَلِ	سُقِيتَ مَهْلاً، أَمّا تَمْشِي عَلى مَهْلٍ؟ <sup>(٣)</sup>

ثم يبدأ في بيان حزنه الخاص على هذه الدولة، باكيا سعادته التي نالها على أيديهم وفقدتها

بفقدهم، ونادبا نعيما لم يكن يأمل به قبلهم:

لَهْفِي وَلَهْفَ بَنِي الأَمالِ قاطِبَةً	عَلى فَجِيعَتِنَا فِي أَكْرَمِ السُّدُولِ
قَدِمْتُ مِصرَ فَأَوْلَتْنِي خَلانِفُها	مِنَ المَكارِمِ ما أَرَبِي عَلى الأَمَلِ
قَوْمَ عَرَفْتُ بِهِ كَسَبَ الأَلُوفِ، وَمِمنَ	كَمالِها أَنّها جاعَتِ وَلَمْ أُسَلِّ
وَكُنْتُ مِنْ وُزراءِ الدَّستِ حِينَ سَما	رَأْسُ الحِصانِ بِهادِيهِ عَلى الكَفَلِ

(١) المقرئزي، أتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣٢، وأنظر المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ٣، ٣٦٢-٣٦٦.

(٢) المارن: ما لان من الأنف منحدرًا عن العظم، ابن منظور، لسان العرب، مادة مرن.

(٣) المقرئزي، أتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣٢.



وَنِلْتُ مِنْ عُظْمَاءِ الْجَيْشِ مُكْرَمَةً      وَخَلَّةٌ حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلْلِ<sup>(١)</sup>

وعمارة إذ يبكي الفاطميين، فإنه يعلن أن حزنه عليهم لا يتوقف وجرح قلبه بفقدانهم ودولتهم

لا يندمل:

يا عاذلي في هوى أبناءِ فاطمَةَ      لك الملامةُ إن قصرت في عذلي  
ياشهرزُز ساحةَ القصرين، وأبكِ معي      عليهما لا على صيفينَ والجملِ  
وقل لأهلهمَا: والله ما التَحَمَّتُ      فيكم جِراحي ولا قرحي بِمُندَمِلِ

وحزنه هذا يثير غضبه ونقمة على صلاح الدين، ويدفعه إلى التعريض به وما فعله

بالفاطميين بعد أن جاء لإنقاذهم من الفرنج، فإذا به -كما يرى عمارة- يغدر بهم ليستولي على

ملكهم:

ماذا عسى كانتِ الإفرنجُ فاعِلَةً      في نَسْلِ آلِ أميرِ المؤمنينَ علي  
هل كان في الأمرِ شيءٌ غيرُ قِسْمَةٍ ما      ملكتم بين حُكْمِ السَّبِيِّ والنَّفَلِ  
وقد حُصِّلْتُمْ عَلَيْهَا وَأَسْمُ جَدِّكُمْ      مُحَمَّدٌ وَأَبوكُمْ غَيْرُ مُنْقَلِ<sup>(٢)</sup>

وكعادة الشعراء في شعر الرثاء، أخذ عمارة اليماني يعدد مآثر الفاطميين، وجودهم

ومواسمهم واحتفالاتهم وعطاياهم في المناسبات المختلفة، يعدد هذه المآثر ليثير الحزن والأسى

بزوال تلك الدولة:

أبكي على مآثراتٍ مِنْ مكارِمِكُمْ      حالَ الزَّمانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحِلِ  
دارُ الضِّيافةِ<sup>(٣)</sup> كانتِ أُنْسٌ وَإِدْرِكُكُمْ      واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طُلُلِ

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفاء، ج ٣، ص ٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٣.

(٣) أنظر: دار الضيافة، المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٧٩.

وَفِطْرَةَ الصَّوْمِ (١) إِنْ أَضَحَّتْ مَكَارِمُكُمْ  
 وَكَسُوهُ النَّاسِ فِي الْفُضْلَيْنِ (٢) قَدْ دُرُسَتْ  
 وَمُوسِمٌ كَانَ فِي يَوْمِ الْخَالِجِ (٣) لَكُمْ  
 وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ (٤) كَمْ لَكُمْ  
 وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ (٥) كَمَا  
 وَالْخَيْلُ تَعْرُضُ فِي وَشِي وَفِي شَيْعَةٍ  
 وَلَا حَمَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةِ آلِ  
 وَمَا خَصَّصْتُمْ بِيَرِّ أَهْلِ وَلِنَكُكُمْ  
 كَانَتْ رَوَاتِكُمْ لِلذَّمْتَيْنِ وَلِلضُّ  
 ثُمَّ الطَّرَازُ بِتَنْبِيسِ الَّذِي عَظُمَتْ  
 وَلِلْجَوَامِعِ مِنْ أَحْبَابِكُمْ نِعُكُمْ

تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ ضَيْمًا غَيْرَ مُحْتَمَلٍ  
 وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ عِنْدَهُمْ وَبَلِي  
 يَأْتِي تَجْمَلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ  
 فِيهِنَّ مِنْ وَبَلٍ جَوْدٍ لَيْسَ بِالْوَشَلِ  
 يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصْرَيْكُمْ مِنَ الْأَسَلِ  
 مِثْلُ الطَّوَاوِيسِ فِي حَلِي وَفِي حَلَلِ (٦)  
 أَطْبَاقٍ إِلَّا عَلَى الْأَكْتِافِ وَالْعَجَلِ  
 حَتَّى عَمَمْتُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْمَلِ  
 يَفِ الْمَقِيمِ، وَلِلطَّارِي مِنَ الرُّسُلِ  
 مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالسُّدُولِ  
 لِمَنْ تَصَدَّرَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلِ (٧)

وإذ يستعيد عمارة اليمني ذكرى تلك المآثر، يداعبه الأمل بأن تعود هذه الدولة إلى الحكم

مرة أخرى، فيحيا الأمل في نفسه من جديد، ويعود إليه مجده بعودة مجدهم:

وَرُبَّمَا عَادَتِ الدُّنْيَا لِمَعْقِلِهَا  
 مِنْكُمْ فَأَضَحَّتْ بِكُمْ مَحْلُولَةَ الْعَقْلِ (٨)

(١) أنظر: دار الفطرة، المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤٦ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص١١٧.

(٦) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٣٣.

(٧) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٣٤، وأنظر أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٢٩٤-٢٩٥.

(٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٣٤.

وينطلق عمارة اليميني إلى تأكيد ولائه للدولة الفاطمية، مستمداً هذا الولاء من مذهبهم الذي يذهبون إليه، وكأنه يروج لهذه المذهب في قصيدته هذه، ويعرض بآل أيوب الذين يتبعون المذهب السني، ويتوعددهم بالخسران والعذاب يوم القيامة، وهذا ما يراه الفاطميون في كل من لا يدين بالولاء والطاعة للإمام وارث الوصاية والولاية من علي، إذ ادعوا أن الله قرن طاعته بطاعة رسوله وطاعة الأئمة، ويبين ذلك في قوله عز من قائل: ((وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم))<sup>(١)</sup> واعتقدوا أن الله لن يقبل من مطيع طاعته إلا بطاعة من افترض عليه طاعته من أوليائه الذين هم الأئمة من آل البيت<sup>(٢)</sup> وإذ لا يدين الأيوبيون بالولاء والطاعة للأئمة فإن مصيرهم كما يرى عمارة اليميني سيكون إلى النار، وتحرم عليهم الجنة، فيقول في هذا المعنى:

وَاللَّهِ لَا فَازَ يَوْمَ الْحُشْرِ مَبْغُضُكُمْ      وَلَا نَجَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ غَيْرُ وُلِيِّ  
وَلَا سَقَى الْمَاءِ مِنْ حُرٍّ وَمِنْ ظُمًا      مِنْ كَفَّ خَيْرِ الْبَرَايَا خَاتِمَ الرُّسُلِ  
وَلَا رَأَى جَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي خُلِقَتْ      مَنْ خَانَ عَهْدَ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ بْنِ عَلِيٍّ<sup>(٣)</sup>

ويعلل عمارة اليميني حبه للفاطميين وولائه للأئمة، بأن هذا الولاء هو باب النجاة من النار، وسبب قبول سائر عمل الإنسان وما افترضه الله عليه، إذ يرى الفاطميون أن الولاية من الدين هي العمدة، ومن لا يدين بالولاية للأئمة بطل ما يقوم به من فرائض حدودها بالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد، وكان عمارة في ولائه هذا، يدعو إلى هذا المذهب ويحث عليه، مدفوعاً بأمله في أن تعود الدولة الفاطمية إلى سدة الحكم فيقول:

(١) سورة النساء، آية ٥٩.

(٢) أنظر داعي الدعاة، المجالس، ج ١، ص ٦٥. ومقدمة ديوان داعي الدعاة، ص ٧٠.

(٣) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣٤.

أُنْمَتِي وَهُدَاتِي وَالذَّخِيرَةَ لِي      إِذَا أَرْتَهْنَتُ بِمَا قَدِمْتُ مِنْ عَمَلِي  
بَابُ النَّجَاةِ هُمْ دُنْيَا وَآخِرَةَ      وَحُبُّهُمْ فَهُوَ أَصْلُ الدِّينِ وَالْعَمَلِ (١)

ويرى الشاعر أن الأئمة ليسوا كغيرهم من البشر، ففي حين خلق الناس من الطين فإن الأئمة خلقوا من نور الله، ويعتمد في ذلك على ما يعتقده الفاطميون بأن محمدا وعليا خلقا من نور واحد، ورووا أن عليا قال: أنا ومحمد من نور واحد، من نور الله تعالى (٢)، وما يجري على علي من خلق يجري على من تبعه من الأئمة كما يرى أصحاب هذا المذهب، وفي هذا المعنى يقول عمارة اليميني:

أُئِمَّةٌ خَلِقُوا نُورًا، فَنُورُهُمْ      مِنْ نُورِ خَالِصِ نُورِ اللَّهِ لَمْ يُفَلِّ (٣)

ولهذا السبب يرى فيهم الشاعر أئمة يستحقون الولاء والحب، إذ يفضلون الناس كما تنص على ذلك عقيدتهم، في عملهم وخلقهم ومنزلتهم من الله ورسوله، فيؤكد هذا الولاء الذي لا يزول بقوله:

وَاللَّهِ لَا زُلَّتْ عَنْ حَبِيٍّ لَهُمْ أَبَدًا      مَا أَخَّرَ اللَّهُ لِي فِي مَدَّةِ الْأَجَلِ (٤)

وإذ رثيت الدولة الفاطمية، إلا أن الدولة الأيوبية لم ترث، ولعل السبب في ذلك ((أن الحكم الأيوبي لم يبد مرة واحدة، كما حدث للفاطميين، بل حكم المماليك باسم الأيوبيين أولا، وكان لأمرأة البيت الأيوبي حكم لا يزال قائما بالشام، كما أن المماليك لم يعملوا على إيادة آثار الأيوبيين، بل حافظوا عليها، وكانوا يعتزون بنسبتهم إليهم، وعملوا مثلهم على أن يتلقوا التقليد

(١) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٢) داعي الدعوة، الديوان، ص ٧٦، (المقدمة)، ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ((خلقت أنا وعلي من نور، وكنا عن يمين العرش قبل أن يخلق الله آدم بألفي عام ...)) وهذا حديث موضوع، وضعه جعفر بن أحمد بن علي بن بيان، وكان رافضيا وصناعا، ينظر السيوطي، اللآلئ، ج ١، ص ٣٢٠.

(٣) المقرئزي، اتعاظ الحنفا، ج ٣، ص ٣٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٣٤.

## رثاء المدن:

كانت المعرة من أول المدن التي رثيت في هذه الفترة، فعندما خربها الفرنج سنة (٥٠٤هـ)، أنشد وجيه ابن عبدالله التنوخي أمام خرابها ودمارها باكيا بنيانها وشيوخها وشبابها، داعياً أن يكون في خرابها عبرة وعظة، فكل شيء سيؤول إلى خراب:

هذه صاحِ بلدةٌ قد قُضِيَ اللـ  
هـُ عليها كما ترى بالخرابِ  
وقَف العيسُ وقفةً وأبكٍ من كا  
نَ بها من شيوخها والشبابِ  
واعْتَبِرَ إنْ دَخَلتَ يوماً إليها  
فَهِيَ كانت منازلُ الأُحبابِ<sup>(١)</sup>

وكان لاحتلال بيت المقدس من قبل الصليبيين في سنة (٤٩٢)، صدى كبير في أنحاء العالم الإسلامي، ولكن الشعر لم يرق إلى مستوى الحدث ((وكان الشعر العربي شعر انتصارات، وليس بشعر هزائم ... فهل يمكن أن يكون الشعراء قد قصدوا إلى ألا يقولوا شعرا يعبر عن الهزائم حتى لا يفتوا في أعضاء الجند، وهل امتنعوا من القول في مثل هذه الأحداث لما يحسون به من مرارة الهزيمة وخيبة الأمل؟))<sup>(٢)</sup>.

فلم يصلنا من شعر قيل في هذه الحادثة سوى قصيدة للأبيوردي، قالها في العراق حين قصد المسلمون في بلاد الشام دار الخلافة في بغداد، وقام القاضي أبو سعد الهروي قاضي دمشق في الديوان ببغداد، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين، وقال أبو المظفر الأبيوردي في هذا المعنى أبياتاً<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٠٠.

(٢) عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ١٥.

(٣) ينظر، ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٨٩.

وثمة مقطوعة أخرى قيلت في هذه المصيبة وتعبّر عن سقوط القدس بيد الصليبيين ولكن لا يعرف من قائلها<sup>(١)</sup>.

وفي العصر الأيوبي رثى الشعراء القدس مرتين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي، الأولى سنة (٦١٦هـ) والثانية سنة (٦٢٦هـ).

وكان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن أبي بكر صاحب دمشق، قد خرب البيت المقدس سنة ٦١٦هـ، ((وفي أول المحرم وقيل في سابع محرم أخرج المعظم أبراج القدس وسوره خوفاً من استيلاء الفرنج عليه، فاضطرب الناس وخرجوا منه متفرقين في البلاد، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة وكثرة السكان))<sup>(٢)</sup>.

فأنشأ الشعراء يرثون القدس الشريف، ويبكون ويستبكون، فهذا محمد بن المبارك بن علي القرقساني الخطيب يعلن الحزن ولبس الحداد ومجافاة النوم والرقاد حزناً على القدس:

مُصَابُ الْقُدْسِ قَدْ سَلَبَ الرَّقَادَا      وَقَدْ لَبَسَ الْخَطِيبُ يَهْرَادَا  
وَقَاضِيَهُ قَضَى نَحْبًا وَإِنْ لَمْ      يَمُتْ لِحْرَابِ مَا أَعْلَى وَشَادَا<sup>(٣)</sup>

ويسمع قاضي الطور مجد الدين محمد بن عبدالله الحنفي بهذا النبأ، فيمر على القدس وعلى ما تبقى من آثارها ويبكي، إذ يتذكر عهد المسلمين الغابر وما فيه من أمجاد بادت، ليحل بالقدس ما حل:

مُرَّرْتُ عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ مُسْلِمًا      عَلَى مَا تَبَقِيَ مِنْ رُبُوعِ كَأَنْجُمِ

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١١٥.

(٣) ابن الشعراء، عقود الجمان، ج ٦، ص ٢٦١-٢٦٢، نقلاً عن عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص ٢٣١.

كفأضت دموع العين مني صباةً  
على ما مضى من عَصْرِنَا المتقدم (١)

ويشير إلى محاولات الصليبيين في تدميره وتخريبه، وإزالة كل أثر له، عله في ذلك يحرك

مشاعر المسلمين، ويستحث فيهم الألم والرغبة في تخليصه:

وَقَدْ رَامَ عِلْجَ أَنْ يُعْفِيَ رُسُومَهُ      وَشَمَّرَ عَنْ كَفِّي لَنَيْمٍ مُذَمَّمٍ  
فَقُلْتُ لَهُ شَلَّتْ يَمِينُكَ خِائِهَا      لِمُعْتَبِرٍ أَوْ سَائِلٍ أَوْ مُسَلِّمٍ (٢)

وإذ يرى الشاعر ما آل إليه حال القدس، يتمنى لو أنه يفتديه بنفسه:

فَلَوْ كَانَ يَفْدَى بِالنَّفُوسِ فُدَيْتُهُ      بِنَفْسِي وَهَذَا الظَّنُّ فِي كُلِّ مُسَلِّمٍ (٣)

إنها دعوة من الشاعر لكل مسلم لافتداء القدس.

ونعود إلى رثاء محمد بن المبارك بن علي الخطيب في القدس، فقد استثار الهمم للجهاد

والدفاع عنها، ولم يقف عند حدود البكاء والتفجع، أو عند لبس السواد:

ونادى المسجد الأقصى أيرضى      بهذا الفعل من فرض الجهاد (٤)

وفي استنارة لمشاعر النخوة والغيرة على الدين، نراه يكسو المسجد الأقصى، منبره،

ومحرابه، وصخرته، وأبوابه، وجبال القدس، ومدارسها، يكسوها ثوب الحزن والحسرة والبكاء،

توصلا إلى حالة الخراب التي أصابته، واستنارة للهمم، لدفع هذا الشر والدمار عنه:

وَمِنْ بَرَّةِ الشَّرِيفِ بَيْنَ خَوْفًا      وَمِمَّا حَلَّ بِالْمَحْرَابِ مُأَادَا

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١١٦، وانظر ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٥.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٤) ابن الشعار، عقود الجمال، ج ٦، ص ٢٦١-٢٦٢، نقلا عن عبدالجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر

الحروب الصليبية، ص ٢٣١.

ولا تَرْقَى لِصُخْرَتِهِ دُمُوعٌ      فَكَمْ قَدْ أَقْرَحَتْ أَسْفَا فُـوَادَا  
 كذا مُحْرَابٌ دَاوُدَ عَلْتَسَهُ الـ      كَابَةٌ دُمُعُهُ مَجْلَى الْعِهَادَا  
 وَلَازِمَ بَابَ رَحْمَتِهِ عَذَابٌ      وَسَحَّ الطُّورُ أَدْمَعَهُ وَجَادَا  
 وَأَصْبَحَتِ الْمَدَارِسُ مَعْبُولَاتٍ      تَرِيْقُ مُحَابِرُ الْفِتْيَا الْمِدَادَا<sup>(١)</sup>

أما المرة الثانية التي رثيت بها القدس، فكانت سنة ٦٢٦هـ، حين سلم بيت المقدس إلى الفرنج<sup>(٢)</sup> (وقد رثاه شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور بقصيدة حسنة)<sup>(٣)</sup> استهلها بالبكاء وتصوير نار الحزن المتوقدة في القلب، وشجو الشعر الحزين:

أَعْيَنِي لَا تَرْقَى مِنَ الْعَبْرَاتِ      صِلِي فِي الْبُكَاءِ الْأَصَالُ بِالْبُكْرَاتِ  
 لَعَلَّ سَيُولُ الدَّمْعُ يُطْفِئُ فَيُضْهِهَا      تُوَقِّدُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ جَمْرَاتِ  
 وَيَا قَلْبُ أَسْعِرْ نَارَ وَجْدِكَ كُلَّمَا      خَبَّتْ بِأَدْكَارٍ يَبْعَثُ الْحُسْرَاتِ  
 وَيَا فَمُ بَحِّ بِالشَّجْوِ مِنْكَ لَعَلَّهُ      يَرْوِّحُ مَا أَلْقَى مِنَ الْكُرْبَاتِ<sup>(٤)</sup>

ويستثير مشاعر الحزن والأسى، ومشاعر الغيرة على هذا الدين ومقدسات المسلمين، ويعدد فضائل البيت المقدس، وما تمثله خسارته وهدمه من خسارة لتلك الفضائل وتضييع لها، إن هذا الرثاء ما هو إلا حث في معظمه على الجهاد، الجهاد من أجل القدس، ومن أجل الحفاظ على هذا الدين:

على الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي جَلَّ قُدْرُهُ      على مُوْطِنِ الْإِخْبَاتِ وَالصَّلَوَاتِ

(١) ابن الشعراء، عقود الجمان، ج ٦، ص ٢٦٢ نقلا عن عبد الجليل عبدالمهدي، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، ص ٢٣١.

(٢) ينظر ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٣٧٨.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج ٤، ص ٣٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣٥.



على مُنْزِلِ الْأَمْلاكِ وَالْوَحْيِ وَالْهُدَى  
 على سُلْمِ الْمِعْرَاجِ وَالصَّخْرَةِ الَّتِي  
 على الْقِبْلَةِ الْأُولَى الَّتِي أَتَجَهَّتْ لَهَا  
 على خَيْرِ مَعْمُورٍ وَأَكْرَمِ عَامِرٍ  
 وما زالَ فِيهِ لِلنَّبِيِّينَ مَعْبَدٌ  
 على مُشْهَدِ الْأَبْدَالِ وَالْبِدَالِ  
 أَنَاقَتْ بِمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ صُخْرَاتِ  
 صَلَاةِ الْبِرَايَا فِي اخْتِلَافِ جِهَاتِ  
 وَأَشْرُفِ مَبْنِيِّ لِخَيْرِ بِنَاةِ  
 يُوالونَ فِي أَرْجَائِهِ السُّجْدَاتِ<sup>(١)</sup>

فماذا فقد المسلمون بفقد هذا المسجد؟ وبفقد تلك المدينة المقدسة؟ فقدوا شد الرحال إليه،  
 وتلك الخلوات مع الله في محرابه وتلك الصلوات، وتلك الآيات تترد في جنبات المسجد الأقصى،  
 تتصاعد من أفواه المصلين، وفقدوا دموع التائبين، وسموا في الروح وقربا من الله في هذا  
 المكان، فبكى الشاعر كل هذه المعاني الدينية بفقده:

عفا المُسْجِدُ الْأَقْصَى الْمُبَارَكُ حَوْلَهُ الرَّ  
 عفا بعدما قَدْ كانَ لِلْخَيْرِ مُوسِمًا  
 يُوافي إليه كُلُّ شَعْتِ قَانِيَتِ  
 خلا مِنْ صَلَاةٍ لَا يَمَلُّ مُقِيمُهَا  
 خلا مِنْ حَنِينِ التَّائِبِينَ وَحُزْنِهِمْ  
 فَبِعِ الْعِمَادِ الْعَالِيِ الشُّرُفَاتِ  
 وَلِلْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالْقُرْبَاتِ  
 لِمَوْلَاهُ بَرٌّ دَائِمِ الْخُلُواتِ  
 تُوشِحُ بِالآيَاتِ وَالسُّورَاتِ  
 فَمِنْ بَيْنِ نِوَاحٍ وَبَيْنِ بَكَاةِ<sup>(٢)</sup>

لقد مني الإسلام بمصيبة وقوع المسجد الأقصى في يد أعدائه، لذا فالحزن شمل أقدس  
 الأماكن، شمل مكة، ومدينة الرسول عليه السلام، وشمل مسجد الهادي، وبيت الله الحرام،  
 والحزن عم الإسلام وأصابه:

لِتَبِكَ عَلَى الْقُدْسِ الْبِلَادُ بِأَسْرِهَا  
 وَتَعَلَّنَ بِالْأَحْزَانِ وَالنُّسْرَحَاتِ

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ٤، ص ٣٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣٦.

لِتَبْكِ عَلَيْهَا مَكَّةَ فَهِيَ أُخْتُهَا  
وَتَشْكُو الَّذِي لَاقَتْ إِلَى عُرْفَاتِ  
لِتَبْكِ مَا حَلَّ بِالْقُدْسِ طَيْبَةً  
وَتَشْرَحُهُ فِي أَكْرَمِ الْحُجَرَاتِ<sup>(١)</sup>

ويعاود الشاعر استنارة الهمم مرة أخرى، ويستحث بني أيوب بذلك المجد والتاريخ الذي كان لهم، وذلك الخطر الذي يتهدد تاريخهم وملكهم، يستثيرهم بذلك الخطر الذي يحرق بالمسلمين من تشريد وتشتيت، فدون القدس لن يقوم للملك قائمة ولا للمسلمين:

لَقَدْ شَتَّتُوا عَنْهَا جَمَاعَةَ أَهْلِهَا  
وَكُلُّ اجْتِمَاعٍ مُؤَذَّنٌ بِشَتَاتِ  
وَقَدْ هَدَمُوا مَجْدَ الصَّلَاحِ بِهَدْمِهَا  
وَقَدْ كَانَ مَجْدًا بَاذِخَ الْغُرْفَاتِ  
وَقَدْ أَحْمَدُوا صَوْتًا وَصَيْتًا أَثَارَهُ  
لَهُمْ عَظْمٌ مَا وَالُوا مِنَ الْغُرُورَاتِ  
أَمَا عَلِمْتَ أَبْنَاءَ أَيُوبَ أَنَّهُمْ  
بِمُسْعَاتِهِ عَدَّوْا مِنَ السَّرَّوَاتِ  
وَأَنَّ افْتِتَاحَ الْقُدْسِ زَهْرَةٌ مُلْكِهِمْ  
وَهَلْ تُمْسِرُ إِلَّا مِنَ الزُّهْرَاتِ<sup>(٢)</sup>

ولكنه الحزن يلح على الشاعر، ويزداد إلحاحا ووقعا في نفسه وفي القصيدة كلما أمعن في وصف ما حل بالقدس، لذا فبعد استنارته الهمم وحثه على الجهاد، لا يملك إلا أن يبكي ويستبكي معه النساء في رثائه القدس، فيبكي تلك المدينة المقدسة قائلا:

فَمَنْ لِي بِنِوَاحٍ يَنْحَنُ عَلَى الَّذِي  
شَجَانِي بِأَصْوَاتٍ لَهْنٍ شَجَاةٍ  
يُرِدِّدُنْ بَيْتًا لِلخُرَاعِي قَالَهُ  
يُؤَبِّنُ فِيهِ خَيْرَةَ الْخَيْرَاتِ  
مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ  
وَمَنْزِلٌ وَحِيٍّ مَقْفَرٍ الْعَرَصَاتِ<sup>(٣)</sup>

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ٤، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٣٣٦.

ولم يكن الشاعر تسجيليا في قصيدته هذه، فبالرغم من بكائه وحزنه، لم يقتصر على مجرد تسجيل الأحاسيس والتعبير عنها، فاستغل مشاعر البكاء والحزن هذه، ليمر من خلالها إلى محطة فرح تكون بتحرير القدس، ومن هنا كان حثه على الجهاد واستنارته الهمم في رثائه هذا.



ومن الشعراء من رثى المنازل والديار وأشهرهم أسامة بن منقذ الذي أصيبت بلاده شيزر بزلزال دمرها، وأباد أعدادا كبيرة من أهلها، وكان منهم أهل الشاعر وقومه، إذ مات معظمهم في هذا الزلزال، لذا فقد تعددت القصائد والمقطوعات التي رثى بها أهله، ورثى بها ديارهم ومنازلهم، وبكى أسامة هذه الديار بكاء مرا، وصور حزنه وأساه في معظم ما قاله من رثاء فيها، فذرف الدمع الغزير، ووصل الليل بالنهار حزنا وأسى، وكان هذا الحزن وهذا الدمع، هو أقل ما يقدمه من وفاء لتلك الديار:

صَبْرِي، وَرَاجِعُنِي الرَّقَادُ النَّافِرُ	غَاضَتْ دُمُوعِي فِي الْمَنَازِلِ وَأَزَعَوِي
يَنْجَابُ خَشِيَّتِهَا الْغَمَامُ الْبَاكِرُ	إِنْ لَمْ أَسْحَ بِهَا سَحَابٌ أَدْمَعِي
وَسَحَابٌ دَمْعِي مُسْتَهْلٌ مَا طِرُّ؟	أُحْمَلُ الْأَطْلَالَ مِنْهُ عَارِضِي
وَبِعَهْدٍ مَنْ سَكَنَ الْمَنَازِلَ غَادِرُ <sup>(١)</sup>	إِنِّي إِذْ بَشْتُونَ عَيْنِي بَاخِرُ

ويعمد الشاعر إلى إثارة مشاعر الحزن والأسى، في وصف ما آلت إليه الديار من خراب ودمار ووحشة، مما يجعلها عبرة وعظة لكل لبيب معتبر، فلا نعمة تدوم ولا قوة ولا منعة، ولا علو ولا شموخ:

عِظَةُ اللَّيِّبِ وَعِبْرَةٌ لِلنَّاطِرِ	أَنْظُرُ مَنَازِلَ آلٍ مُنْقَذٍ مِنْهَا
--	---

(١) أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص ٢٨.

كانوا بها في نعمة محروسة  
 ما رامها ملك ولا ذو قُدرة  
 مثلها ما استطاعها ومن الذي  
 فاصابها قدر فأهلك من بها  
 يمارم وذوايل وبواتر  
 إلا انثنى عنها بقلب طائر  
 يلج العرين على الهزير الخاير؟  
 وأعاد شامخها كرسم دائر  
 تمرى سحاب دمع المتباير<sup>(١)</sup>

ويقف أسامة أمام الديار، وقد أصابها البلى والدمار، فإذا بها موحشة مقفرة، لا مرعى فيها

ولا أثر لحياة، فتكرها عينه وما حل بها، ولكنه القلب يأبى إلا أن يعرفها:

ديار خلّت من أهلها وتوحّشت  
 علاها البلى حتى تعفت رسومها  
 فليس بها مرعى لعين ولا خصب  
 وأنكرها طرفي فأثبتها القلب<sup>(٢)</sup>

فيندب أهلها، ويتحسر على أنسها الغابر، ولا يندب حجارة أو بناء:

تقول لي الأشواق: هذي ديارهم  
 وما كنت أهوى الدار إلا لأهلها  
 فقلت: نعم، لكنها منهم قفر  
 وبعدهم لا جاد ساكنها القطر<sup>(٣)</sup>

ويبكي عزا كان يسكنها، وجودا يحل في جنباتها، وحماية ذمة ومستجير تقيم فيها:

يا منزلاً كان فيه العز مقترباً  
 من خاف جوراً وعدماً ثم لاذ به  
 بالسيف، والمال مقروناً إلى الكرم  
 لاقى الأمانين من جود ومن عدم<sup>(٤)</sup>

ويستحضر الشاعر حزينا، ذكرياته في تلك الديار، يوم كان السعد سماءها والأهل نجومها،

والربيع جمالها ونضارتها ويبكي تلك الألفة التي كان يعيش في كنفها:

(١) أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص ٢٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٨.

دِيَارِ الْهُوَى حَيَّى مُعَالِمِكَ الْقَطْرُ  
وَأَنَّ لَمْ يَدْعُ إِلَّا تَذَكُّرَكَ السَّهْرُ  
عَهْدَتِكَ أَفْقًا لِلسُّعُودِ، وَسَاكِنُو  
رُبُوعِكَ فِي أَرْجَائِكَ الْأَنْجُمِ الزُّهْرُ  
وَعَصْرُهُمْ فَصَلُّ الرَّبِيعِ نَضَارَةٌ  
فَهَلْ يَرْجِعُنَّ لِي ذَلِكَ الزَّمَنُ النَّضْرُ (١)

فإذا به بعد كل ذلك يضحى وحيدا مستوحشا، لا أهل له ولا دار ولا سكن، فيبكي الأهل والأوطان، ويبكي وحدة بعد أنس وألفة:

إِذَا بَكَى لِدِيَارٍ بَادَ سَاكِنُهَا  
ذُو وَحْدَةٍ سَاءَهُ فِي دَارِهِ الزَّمَنُ  
بَكَيتُ أَهْلِي وَأَوْطَانِي وَأَسْفَنِي  
أَنْ لَيْسَ لِي بَعْدَهُمْ دَارٌ وَلَا سَكْنٌ (٢)

ورثى أسامة بن منقذ في دياره كل ما يتعلق بالحياة، رثى الزرع المخضر والخير الوفير وقوة قومه البائدة، ورثى الزمان السعيد والشباب المنقضي، فالزلازل الذي دمر شيزر، أباد الفرح في قلب الشاعر، ففي قصيدته التي رثى بها وطنه وأهله الهالكين في الزلازل بحصن شيزر، يقف أسامة بن منقذ على أطلال المنازل والديار ويرى الدمار عم كل شيء، فيبدأ رثاءه بالدعاء والابتهال، بأن يهمني ماء الحياة على تلك الديار غزيرا مدرارا، ليبعث الحياة في أرض أضحت قاحلة بعد خير عميم، وفي ديار ذبلت فيها الحياة وبادت، ويأتي دعاء الشاعر بالسقيا في مطلع القصيدة على خلاف ما اعتاد عليه معظم الشعراء حين يختمون بالدعاء قصائدهم، فمشهد الدمار الذي وقف أمامه الشاعر، ربما حدا به إلى استسقاء نقيضه وهو الحياة فقال:

حَيَّا رُبُوعَكَ، مِنْ رَبِيٍّ وَمَنْزِلِ  
سَارِي الْغَمَامِ بِكُلِّ هَامٍ هَامِلِ  
وَسَقْتِكَ يَا دَارَ الْهُوَى بَعْدَ النَّوَى  
وَطَفَاءَ تَسْفِحِ بِالْهَتُونِ الْهَاطِلِ

(١) أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨.

حَتَّى تَرَوْضَ كُلَّ مَاحٍ مَاحِلٍ      عَافٍ، وَتُرَوِّي كُلَّ ذَاوِ ذَابِلٍ<sup>(١)</sup>

ويرى الشاعر في هذا الدمار موتا لكل شيء جميل، للزمان الذي مضى في تلك الديار بذكرياته وأحداثه، ولأهل كانوا يعمرون تلك المنازل بالحياة، ولشباب مضى وولى، والدمع أمام هذا الموت كله يجف بجفاف تلك الحياة، وينضب أمام الحيرة التي تعتربه على أي شيء يبكي وعلى أي موت؟

أَبْكِيكَ، أَمْ أَبْكِي زَمَانِي فِيكَ، أَمْ      أَهْلِيكَ، أَمْ شُرْحَ الشَّبَابِ الرَّاحِلِ  
مَا قَدَّرَ دَمْعِي أَنْ يُقَسِّمَهُ الْأَسَى      وَالوَجْدَ بَيْنَ أُحْبَبَةٍ وَمَنْ أَزَلِ  
أَنْفَقْتَهُ سَرَفًا، وَهَذَا أَنَا مَائِلٌ      فِي مَاحِلٍ، أَبْكِي بِجَفْنِ مَاحِلٍ<sup>(٢)</sup>

ويعبر الشاعر ففر تلك الديار من أهلها، فليس من مجيب عليه إذا نادى، وليس من ناصر له إذا استنصر، فالصمت مطبق، والموت يعم كل شيء:

وَإِذَا فِرَعَتْ إِلَى الْعَزَاءِ دَعْوَتُ مَنْ      لَا يَسْتَجِيبُ، وَرُمَتْ نَصْرَةَ خَائِلٍ<sup>(٣)</sup>

وإذ يرى الشاعر الصمت يحيط به من كل مكان، وليس ثمة من مجيب، يطلق سؤاله المرير، عن نساء قومه ورجاله، عن أبطال فرسان، جمعوا بين الشجاعة والعطاء، وبين الحزم واللين، وعن قوم لم تستطع الدنيا أن تغريهم أو تقهرهم بهواها، فقهرتهم بزلزالتها، والشاعر في سؤاله هذا، إنما يستحث ألمه وحزنه وآلام القارئ على فرسان بادوا، وعلى حرائر لم تأنس إلا بفرسانها:

أَيْنَ الطَّبَاءِ عَوْدَتُهُنَّ كَوَانِسَا      بِكَ فِي ظِلَالِ السَّمْهَرِيِّ الذَّابِلِ

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

النَّافِرَاتُ مِنَ الْأَنْبِيسِ تُكْرَمًا      وَالْأَنْبِيسُ بِكُلِّ لَيْثٍ بِاسْمِ  
مِنْ كُلِّ مَكْرُوبٍ اللَّقَاءِ مُنْزَلِ      رُحْبِ الْفِنَاءِ لَطَارِقٍ أَوْ نَازِلِ  
عَزَّوْا عَلَى الدُّنْيَا وَخَالَفَ فِعْلُهُمْ      أَفْعَالَهَا، فُبَغْتَهُمْ يَغْوَانِلِ (١)

ويفص الشاعر أثر الزلزال على دياره، إذا دمر كل ما فيها من أماكن تمارس فيها الحياة، فغدت المنازل دماراً، وأماكن اجتماع القوم ومحافلهم ما عاد لها وجود، وحصونها ومعاقلها ومعالم الحضارة فيها، غدت كأن لم تكن:

حَتَّى إِذَا اغْتَالَتْهُمْ يَخْطُوبُهَا      وَرَمَتْهُمْ بِحُـوَادِثٍ وَزَلَزِلِ  
كُرِسَتْ مَنَازِلُهُمْ، وَأَوْحَشَ مِنْهُمْ      مَأْنُوسُ أُنْدِيَّةٍ وَعِزُّ مَحَافِلِ  
وَأَهَا لَهُمْ مِنْ عَالِمٍ وَمَعَالِمِ      وَمُمْتَعَاتِ عَفَائِلِ وَمَعَاقِلِ (٢)

ولم يبق للشاعر من دياره البائدة سوى كآبة لا تزول، وهم استقر في القلب، فلا يملك أمام هذا الحزن، وهذا الألم سوى الصبر على موت سيصيب الناس جميعاً، كما أصاب قومه ودياره:

وَبَقِيْتُ بَعْدَهُمْ حَلِيفٌ كَأَبِي      مَسْتَوْرَةٌ بِتَجْمَلٍ وَتَحَامِلِ  
سَعِدُوا بِرَأْحَتِهِمْ، وَهَا أَنَا بَعْدَهُمْ      فِي سُقُوءٍ تُضْنِي، وَهَمٌّ دَاخِلِ  
دَعُ ذَا فَأَنْتَ عَلَى الْحَوَادِثِ مَسْرُوءٌ      تَلْقَى الرَّزَايَا عَالِمًا كَالجَاهِلِ  
وَأَصْبِرْ، فَمَا فِيمَا أَصَابَكَ وَصَمَةٌ      كُلُّ الْوَرَى غَرَضٌ لِسُهُمِ النَّابِلِ (٣)

ورثي تلك الديار أيضاً والد أسامة بن منقذ وهو مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي ابن

منقذ، فبكاها، وبكى ما حل بها من دمار:

(١) أسامة بن المنقذ، الديوان، ص ٣٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٣-٣٠٤.

ما في وقوفك في الديار تورع  
فأفيض شئون العين فهي الأربع  
درست فليس لناظر لولا الهوى  
من طول ما بليت به مستمتع<sup>(١)</sup>

ولا يرى الشاعر في البكاء والأسى إنصافاً لتلك الديار، فالإنصاف والوفاء لها لا يكون إلا

بموت يريح النفس من ألم البقاء، بعد ديار أصبحت دماراً:

يا دار لو أنصفت ربك لم أقف  
فيه كهاتفه تتوح وتسجع  
أنا مدع فيما أقول، لأنني  
باق، وعذري عنه ما لا يسمع  
فوددت لو أنني ظفرت براحة  
إما بموت أو بعيش ينفع<sup>(٢)</sup>

ويرثي شيزر أيضاً، أبو الحسن علي بن مرشد، ولا يرى ما يمكن عمله أمام الدمار الذي

حل بها وزوال أهلها، سوى البكاء والتسليم بالقدر:

يا ديار الأحباب ما فيك للمحـ  
زون إلا البكاء والتسليم<sup>(٣)</sup>

ويتساءل متفجعاً عن أهل سكنوها وعمروها بالحياة ونعموا فيها بالخير، وهو إذ يتساءل لا

ينتظر رداً من أحد كما فعل أخوه أسامة بن منقذ، بل يجيب على تساؤله برد مؤلم يصور خراب

تلك الديار وخلوها من أهلها:

أين سكانك الذين بهم كما  
ن على العيش نضرة ونعيم  
أفقرت منهم الديار وأضحكت  
دارسات كأنهن رقوم<sup>(٤)</sup>

ويلقى أبو الحسن اللوم على الدهر، فيما جرى له ولأهله ودياره، ويندب ألفة زالت وكأنها لم

تكن، وديارا عامرة أضحت مقفرة، ليدعو بالثبور على دهر كان سبباً في تفرق الشمل:

(١) أسامة بن المنقذ، المنازل والديار، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٦.



إِخْوَتِي شَأْتِ بِكَدِ الْبَيْتِ  
 وَأَعْتَدِي الدَّهْرُ بِبِلَا جُرْ  
 فَتَقَرَّقْنَا، كَأَنْسَا  
 وَبِحِ قَلْبِي مِنْ دِيَارِ  
 أَصْبَحْتُ قَفْرًا كَأَنْسَا  
 لَا أَقْرَأُ اللَّهَ مَنْ قَفْرٌ  
 نِ لَقَدْ جَارَتْ عَلَيْنَا  
 وَمَا كُنَّا أَعْتَدِينَا  
 لَمْ نَكُنْ قَطُّ التَّقِينَا  
 كُنْتُمْ فِيهَا عَفِينَا  
 لَمْ نَكُنْ فِيهَا تَوِينَا  
 تَ لَهُ بِالْبَيْتِ عَيْنَا (١)



ورثى أسامة من مات من أهله في زلزال شيزر، فينوح مع حمائم الأيك، ولا يسمع في هديل الحمام سوى النواح والبكاء الذي يتردد صدهاء في نفسه، ولا يرى في هذه الدنيا من هو أكثر حزنا منه، فمصيبته هي الأعظم والأشد:

حَمَائِمُ الْأَيْكِ هُجَّتُنَّ أَشْجَانَا  
 هُوَذَا الْعَوِيلُ عَلَى غَيْرِ الْهَدِيلِ، وَهَلْ  
 مَا وَجَدَ صَادِحَةً فِي كُلِّ شَارِقَةٍ  
 كَمَا وَجِدْتُ عَلَى قَوْمِي تَخُونَهُمْ  
 قَلْبِيكَ أَصْدَقْنَا بِنَا وَأَشْجَانَا  
 فَقَيْدُكَنَّ أَعَزُّ الْخَلْقِ فَقَدَانَا  
 تُرْجِعُ النَّوْحَ فِي الْأَفْئَانِ الْهَانَا  
 رَبِّبِ الْمَنُونِ وَدَهْرٍ طَالَ مَا خَانَا (٢)

والشاعر في استحضاره الحمائم وهديلها، إنما يستلهم فيها الحزن والبكاء الذي لا يتوقف إلى يوم القيامة، ويستلهم منها الوفاء وحفظ الوداد، وهو في استخدامه الحمام والهديل يبدو متأثرا

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

بالأسطورة إذ يحكون أن الهديل فرخ من أفراخ الحمام هلك على عهد نوح، والحمام تبكي عليه إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup>.

وهو في حزنه، كأنما يريد أن يبعث هذا الحزن في كل قلب، فيشير إلى الزلزال الذي قضى عليهم وما ألحقه من دمار، فأتى على الديار، مساكنها وربوعها وأفنى أهلها:

وَبِحَ الزَّلَازِلِ أَفْنَيْتَ مَعْشَرِي فِإِذَا      ذَكَرْتَهُمْ خِلْتَنِي فِي الْقَوْمِ سُكَرَانَا  
وَفَاجَأْتَهُمْ مِنَ الْأَيَّامِ قَارِعَةٌ      سَقَتْهُمْ بِكَوُوسِ الْمَوْتِ ذَيْفَانَا<sup>(٢)</sup>  
مَاتُوا جَمِيعًا كَرَجْعِ الطَّرْفِ وَانْقَرَضُوا      هَلْ مَا تَرَى تَارِكًا لِلْعَيْنِ إِنْسَانَا  
لَمْ يَتْرِكِ الْمَوْتَ مِنْهُمْ مَنْ يُخَبِّرُنِي      عَنْهُمْ، فَيُوضِحُ مَا لَاقَوْهُ تَبْيَانَا  
بَادُوا جَمِيعًا وَمَا شَادُوا فَوَاعَجَبًا      لِلخَطْبِ أَهْلَكَ عَمَّارًا وَعَمْرَانَا  
هَذِي قُصُورُهُمْ أَمْسَتْ قُبُورُهُمْ      كَذَلِكَ كَانُوا بِهَا مِنْ قَبْلِ سُكَّانَا  
أَخْنَتَ عَلَى مَعْشَرِي الْأَدْنَيْنِ فَاصْطَلَمَتْ      مِنْهُمْ كَهَوْلًا وَشَبَابًا وَوِلْدَانَا<sup>(٣)</sup>

ومن صور الحزن الأخرى، وصف الشاعر ما حل به بعد فقداه أهله وقومه، فيصور أسامة بن منقذ نفسه وحيدا فردا، نهبا للحزن والأسى والشقاء، يقف على أطلال أحبة غابوا، ويشرب من كأس مرارة الفقد:

فَلَوْ رَأَوْنِي لَقَالُوا: مَاتَ أَسْعَدُنَا      وَعَاشَ لِلْهَمِّ وَالْأَحْزَانِ أَشْقَانَا  
أَفْسَدْتُمْ عُمْرِي الْبَاقِيَ عَلَيَّ، فَمَا      أَنْفَكُ فِيهِ كُتَيْبَ الْقَلْبِ وَلَهَانَا  
أَفْرَدْتُ مِنْكُمْ، وَمَا يُصَفُّ لِمُنْفَرِدٍ      عَيْشٌ وَلَوْ نَالَ مِنْ رِضْوَانِ رِضْوَانَا<sup>(٣)</sup>

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٠-٩٨١.

(٢) ذيفانا: السم القاتل، ابن منظور، لسان العرب، مادة ذيف.

(٢) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه، الديوان، ص ٣٠٥.

ولم يقف الرثاء عند حدود البكاء والحزن، فتجاوزه إلى الإشادة بمناقب القوم والأهل، وما هذه الإشادة سوى صورة من صور الحزن والأسى، فأسامة بن منقذ يثني على قومه بالصبر عند الشدائد، في الوقت الذي يعجز فيه الآخرون عنه:

أعزز علي بهم من معشر صبر      عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا<sup>(١)</sup>

ويرى أن شجاعة قومه لا تضاهيها شجاعة، فكم من ملك عظيم رام هزمهم فما

أفلح:

كَم رَامَ مَا أَدْرَكَتَهُ مِنْهُمْ مَلِكٌ	فَعَادَ بِالْيَأْسِ مِمَّا رَامَ لَهْفَانَا
إِنْ أَفْقَرَتْ شَيْزَرٌ مِنْهُمْ، فَهُمْ جَعَلُوا	مَنْعَ أَسْوَارِهَا بِيضًا وَخُرْصَانَا
هُمْ حَمُوهَا فَلَوْ شَاهَدْتَهَا وَهُمْ	بِهَا لَشَاهَدْتَ أَسَادًا وَخَفَانَا
عَلَوْا بِمَجْدِهِمْ سَيْفُ بِنِ ذِي يَزْنِ	كَمَا عَلَتْ شَيْزَرٌ فِي الْعِزِّ غَمْدَانَا <sup>(٢)</sup>

وهم إلى شجاعتهم يتصفون بالرحمة والرأفة وإغاثة الملهوف والضعيف، وباقراء الضيف،

وإغداق العطايا على الناس، فإذا ما خلوا في الليل عكفوا على عبادتهم:

كَانُوا مَلَاذًا لِأَيْتَامٍ وَأَرْمَلَةٍ	وَبَائِسٍ فَاقِدٍ أَهْلًا وَأَوْطَانَا
إِذَا أَنْتَبَهُمُ الْفَيْتُ شَطْرَهُمْ	مُسْتَرْفِدِينَ وَزَوَارًا وَضَيْفَانَا
تَرَاهُمْ فِي الْوَعَى أَسَدًا، وَيَوْمَ نَدَى	غَيْثًا هَتُونًا، وَفِي الظُّلْمَاءِ رَهْبَانَا <sup>(٣)</sup>

وعلى الرغم من خلافه مع قومه، إلا أنهم لا يخذلونه ساعة الشدة، فهم قوته وسيفه المشرع

وبهم يصول ويجول:

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٦.

بُنُو أَبِي وَبَنُو عَمِّي، دَمِي دُمُهُمْ  
وَأِنْ أُرُونِي مُنَاوَاةً وَسُنَانَا  
كَانُوا جُنَاحِي فَحَصَّتْهُ الْخُطُوبُ، وَإِنْ  
وَأَنِي فَلَمْ تَبْقَ لِي الْأَيَّامُ إِخْوَانَا  
كَانُوا سِوْفِي إِذَا نَارَلْتُ حَادِثَةً  
وَجَنَّتِي حِينَ أَلْقَى الْخُطْبَ عَرِيَانَا  
بِهِمْ أَصُولٌ عَلَى الْأَمْرِ الْمُهُولِ، إِذَا  
عَرَا، وَأَلْقَى عُبُوسَ الدَّهْرِ جَذَلَانَا<sup>(١)</sup>

والشاعر هنا يؤكد ولاءه وانتماءه لقومه، وعدم الخروج على القبيلة وإن كان ثمة خلاف بينه وبينهم، كما يؤكد ارتباط القوم به ونصرتهم له حتى وإن خرج عن رأيهم، فالخلاف لا يزيل المحبة، ولا يقضي على الولاء والانتماء.

إن قوما يمثلون للشاعر ما يمثلون، وفيهم من المناقب ما سبق ذكره، لحري بالشاعر أن يفي بحقهم بعد موتهم، وأن يخلص لهم، وهذا الوفاء أخذ صوراً متعددة منها: معاهدتهم على عدم السلو والتأسي بفقدهم:

إِذَا نَهَى الصَّبْرُ دَمْعِي عِنْدَ ذِكْرِهِمْ  
قَالَ الْأَسَى: فِضٌّ وَجَدَّ سَحَاءً وَتَهْتَانَا  
مَا حَدَّثْتَنِي بِالسَّلْوَانِ بَعْدَهُمْ  
نَفْسِي وَلَا حَانَ سُبُلَانِي وَلَا أَنَا<sup>(٢)</sup>

ويأتي تمني الموت إثر موتهم، صورة أخرى من صور الوفاء لهم كما يراها، فتمناه قائلاً:

فَلَيْتَنِي مَعَهُمْ أَوْ لَيْتَ أَنَّهُمْ  
بَقُوا وَمَا بَيْنَنَا بَاقٍ كَمَا كَانَا<sup>(٣)</sup>

وتأتي صورة الوفاء الأخيرة، ألا وهي الدعاء للقوم، بالرحمة والمغفرة والرضا:

سَقَى تَرَى أَوْ دَعُوهُ رَحْمَةً مَلَأَتْ  
مَثْوَى قُبُورِهِمْ رُوحاً وَرِيحَانَا  
وَأَلْبَسَ اللَّهُ هَاتِيكَ الْعِظَامَ، وَإِنْ  
بُلْبِينَ تَحْتَ التَّرَى عَفْواً وَغَفْرَانَا<sup>(٤)</sup>

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

ورثيت بعض المعالم الحضارية في بعض المدن، ومن المعالم الحضارية التي رثيت، قلعة شيزر، التي هدمت في الزلزال سنة (٥٥٢هـ)، فرثاها شرف الدولة إسماعيل بن منقذ، مفتتحا رثاءه بقوله:

لَيْسَ الصَّبَاحُ مِنَ الْمَسَاءِ بِأَمْثَلٍ      فَأَقُولُ لِلَّيْلِ الطَّوِيلِ أَلَا أَنْجَلِي<sup>(١)</sup>

ثم يصف ما حل بالقلعة من دمار وخراب، ويبيها، بعد أن كانت حصنا حصينا مستعصيا، فإذا الروم يملؤها ويسد طرقها، ويخفي معالمها، حتى لا يكاد الساري يستدل طريقه فيها، وكأنه إذ يدخلها يهوي في قاع عميق:

لو عَايَنْتَ عَيْنَاكَ ((قَلْعَةَ شَيْزِرِ))      وَالسَّتْرُ دُونَ نَسَائِهَا لَمْ يُسْبِرْ  
لَرَأَيْتَ حِصْنًا هَائِلًا الْمَرَأَى غَدَا      مَتَهَلِّهَلًا مِثْلَ النَّقَا الْمُتَهَيِّ  
لَا يَهْتَدِي فِيهِ السَّعَاءُ لِمَسْلُوكِ      فَكَأَنَّمَا تَسْرِي بِقَاعِ مَهْوُولِ<sup>(٢)</sup>



ومن المعالم الحضارية التي رثيت، قصر الخلفاء في القاهرة المعزية، فقد رثاه القاضي الفاضل ببيتين ((هما على قصرهما شديدا الدلالة على ما كان لها من آثار، شادتها أيد لها طاقة فوق طاقة البشر، وعلى ما بدأ ينزل بها من ضربات تهدمت من جوانبها))<sup>(٣)</sup> فقال:

صَاحِبُ هَذَا الْقَصْرِ كَمْ قَبَّلَتْ      سَاحَتُهُ أَمْسٍ وَكَمْ عَظَّمَا  
وَقُدْرَةُ الْقَادِرِ فِي هُدْمِهِ      أَعْظَمُ مِنْهَا فِي بِنَاءِ السَّمَاءِ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن أبي جرادة، زبدة الحلبي، ص ٤٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٨٤.

(٣) أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص ٧٧.

(٤) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٦.

وَأَبَدَتْ بِبَيْتَيْهِمِ الْقَوَافِي وَيَتَمُّهَا      فَلَا أَبْعَدُ اللَّهُ الْيَتِيمَ الْمَيِّتَ مَا<sup>(١)</sup>

وتأخذه ذكريات ذلك القصر، بشموخه وعلوه ومنعته، فيثير الدمار حسرة المجد الغابر:

إِذَا سَحَبَتْ مِنْهُ الرِّيحُ ذِيولَهَا      غدا عِطْرُ ذَاكَ التُّرْبِ نَهْبًا مُقْسَمًا  
فَأَيُّ أَرْبِياعٍ لِلرِّيحِ سُكَّتِ بِهِ      وَإِنْ قَسَمْتَ غَارَاتُهَا مِنْهُ مَغْنَمًا<sup>(٢)</sup>

ويأخذنا القاضي الفاضل إلى الداخل، حيث أروقة القصر عامرة بالسعادة، وحيث الجيوش تنطلق منها إلى ساحات القتال، والوفود تقصد نوال ذلك الملك فتملأ تلك الأروقة بتزاحمها، كل ذلك أصبح كأن لم يكن، وزال بسرعة، وزال معه كل شيء:

كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ فِيكَ السَّعَادَةُ طُلُقَةً      وَوَجْهَ ظُبَاهَا بِاسِمًا مَتَجَّهُمَا  
وَلَا صَارَ ذَاكَ الْبَهُوُّ مُلْكًا مُحَجَّبًا      وَلَا جَرَّ ذَاكَ الرَّحْبُ جَيْشًا عَرْمَرَمًا  
وَلَا كَانَ قَصْدُ الْوَفْدِ غَرَّةً كُوكِبٍ      فَلَمَّا بَدَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَسَلَّمًا<sup>(٣)</sup>

ولا يقف القاضي الفاضل في رثائه هذا القصر على حد البكاء والتحسر واجترار الذكريات، بل نراه في رثائه يتخذ موقفاً أو منحى إيجابياً، يتمثل في الحث على الجهاد، وحض بني أيوب على المحافظة على الملك الأيوبي، والبيت الأيوبي، وأن ينتصفوا لأنفسهم وللمسلمين، ولا يقفوا عند حد الفقدان والتضييع، فما زال فيهم قوة القلب، وما زال فيهم الجود والكرم والسماحة، وما زالت فيهم القوة والشموخ والعزة التي لم يحنها الدهر، ولا ذلك المصاب:

شِمُّ الْوَجْهِ بَدْرًا وَالْيَمِينُ سَحَابَةٌ      تَرُّ الْجِلْمِ طُودًا يُتَّبَعُ الْعَزْمُ ضَيْغُمًا  
وَقُمْ فِي دِيَارٍ قَدْ حُلَّتْ بِقِيَامِهِ      فَنَاجِ بِهَا دِينًا مِنَ الْوُدِّ قِيَمًا

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٠٣.

وَقُلْ: يَا دِيَارَ الطَّاعِنِينَ بَرِّغْمَنَا  
 دِمَاؤُكَ فِيهَا، لَا دِمَاؤُكَ فَانْتَصِفْ  
 أُعْلَلْ نَفْسًا لَا سَقِمَتْ سَقِيمَةً  
 وَأَقْنَعُ بِالْأَمَالِ مِنْكَ كَوَاذِبًا  
 وَإِنِّي لَمَلَأَنَّ الْفُؤَادَ عَزَائِمًا  
 وَعَهْدِكَ، أَنْ أَضْحَى لَكَ الدَّهْرَ مَرْغِمًا  
 وَإِلَّا فَكُنْ مِنْ ذَمِّهَا مُتَدَمِّمًا  
 يَظُنُّ غَدًا مِنْهَا أُدُقُّ وَأَسْقَمُ  
 فَلَا أَخْلَفُ اللَّهُ الْمُرْجَى الْمُرْجَمًا  
 لَوْ أَنِّي وَجَدْتُ الْيَوْمَ لِلرَّأْيِ مُعْزَمًا<sup>(١)</sup>

ثم يحثهم على تجهيز الجيوش والكر على أعدائهم، يساندهم المسلمون، للحفاظ على دعائم

البيت الأيوبي:

إِذَا الرَّزْقُ لَمْ يُسَلِّمْ إِلَيْكَ زِمَامَهُ  
 فَشَدَّ السُّرَى أَنْ أُرْسَلَ اللَّيْلُ عَقْرَبًا  
 فَقَاطِعُ بِنَا أَبْنَاءَ حَـوَا وَآدَمِ  
 فَلَا تُعْمَلَنَّ إِلَّا الْمُطَيَّبِي الْمَزْمَمَا  
 وَكَرَّ الْكَرَى أَنْ أُرْسَلَ السُّوْطُ أَرْقَمَا  
 وَوَاصِلْ بِنَا آلَ الْجَدِيلِ وَشَدِّقْمَا<sup>(٢)</sup>

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج٢، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٠٥.

## الفصل الخامس

### أغراض أخرى من الرثاء

رثاء الأصدقاء

رثاء الجواري

رثاء المماليك والغلمان

رثاء أصحاب المهن

رثاء الحيوان



## رثاء الأصدقاء:

رثى الشعراء أصدقاءهم، كما رثوا أقاربهم وإخوانهم وآباءهم، ربما لتلك المكانة التي يحتلها الصديق في نفس الإنسان عادة، وهي مكانة أكثر قربا من الأخ والأب والقريب في بعض الأحيان، فقد فجع الشعراء بموت أصدقائهم، ونظموا في رثائهم العديد من القصائد، ويكونهم ويندبون فقدهم، ويكون تلك المزايا والمناقب التي فقدوها بفقدهم، فقد كان الصديق يمثل للشاعر معاني وقيما كثيرة، فهذا صديق أمية بن عبدالعزيز، كان له دواء وشفاء:

سَوَابِقُ عُبْرَتِي سِحِّي وَفِيضِي      وَإِنْ تَعَصِرَ الدَّمُوعُ فَلَا تُغِيضِي  
فَقَدْ أَخَذَ الرَّدَى مَنْ كَانَ مِنِّي      بِمَنْزِلَةِ الشِّفَاءِ مِنَ الْمَرِيضِ<sup>(١)</sup>

والمعتمد إبراهيم صديق العماد الأصفهاني، يمثل له الأُنس في الحياة، وبفقدته أوحش المكان، وغمرت نفسه الوحدة:

فِيَا وَحْشَةً مِنْ مُؤْنِسٍ قَدْ عَدِمْتُهُ      وَيَا وَحْدَةً مِنْ صَاحِبٍ قَدْ فَقَدْتُهُ  
فَقَدْتُ أَحَبَّ النَّاسِ عِنْدِي وَخَيْرَهُمْ      فَمَنْ لَأَمِي فِيهِ إِذَا مَا نُشِدْتُهُ<sup>(٢)</sup>

لذا فقد أكثر الشعراء من البكاء والتحسر، وذرف الدمع لفقد أصدقائهم، وعمدوا إلى استئثار المشاعر، ليكون الحزن على أصدقائهم عاما، فابن أبي حصينة يبكي صديقة أبا العلاء المعري، ليس بدمع يفيض من العين فحسب، بل من المهج أيضا:

لَوْ فَاضَتْ الْمُهْجَاتُ يَوْمَ وَفَاتِهِ      مَا اسْتُكْرِتَ فِيهِ فَكَيْفَ الأَدْمُعُ<sup>(٣)</sup>

وتفيض مهجة أمية بن الصلت بالحزن أيضا إذ يضحى وحيدا دون صديق:

(١) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١١٣.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٩٧.

(٣) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٣.

مُصَابٌ صَابٌ بِالْمُهْجَاتِ فَيُضِي      وَرَزَاءٌ قَالَ لِلْعَبْرَاتِ فَيُضِي  
شَرِيفَةٌ بِأَدْمَعِي وَصَلِيَتْ وَحَدِي      فَهَا أَنَا مِنْكَ فِي طَرْفِي نَقِيضٍ<sup>(١)</sup>

والشاعر أحمد بن عبد الغني اللحي القطرسي، يرثي صديقه وببكيه، وإن كان لا يعدو  
البكاء إنصافاً ولا لوعة القلب وفاء:

يَا رَاحِلًا وَجَمِيلُ الصَّبْرِ يَتَّبِعُهُ      هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى لِقَاكَ يَتَّفِقُ  
مَا أَنْصَفْتُكَ جُفُونِي وَهِيَ دَامِيَةٌ      وَلَا وَفَى لَكَ قَلْبِي وَهُوَ يَحْتَرِقُ<sup>(٢)</sup>

وعبر الشعراء عن أساهم بأساليب مختلفة منها، وصف حالهم وما آلوا إليه بعد موت  
أصدقائهم، فهناك الحزن الدائم، وفاء وإخلاصاً، فهذا أبو العلاء المعري يتمنى ألا يطغى على  
حزنه لموت صديقة أبي إبراهيم العلوي حزن آخر:

فِيَا قَلْبٌ لَا تَلْحِقْ بِنُكُلِ مُحَمَّدٍ      سِوَاهُ لِيَبْقَى تَكْلُهُ بَيْنَ الْوَسْمِ  
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحَزْنَ لِلْحَزَنِ مَاحِيًا      كَمَا خُطَّ فِي الْقِرطَاسِ رُسْمٌ عَلَى رُسْمٍ<sup>(٣)</sup>

وإذ يضحى الصبر عزيزاً عند البهاء زهير، فإنه يرفض العيش بعد موت صديقه فتح الدين  
عثمان بن حسام الدين والي الإسكندرية:

لَقَدْ خُنَّتْهُ فِي الْوُدِّ إِذْ عَشَّتْ بَعْدَهُ      وَمَا كُنْتُ فِي وَدِّ الصَّدِيقِ بِخَوَانٍ  
وَعَهْدِي بِصَبْرِي فِي الْخُطُوبِ يَطِيعُنِي      فَمَا لِي أَرَاهُ الْيَوْمَ أَظْهَرَ عَصِيَانِي<sup>(٤)</sup>

وعبر بعض الشعراء عن تغير أحوالهم بعد موت أصدقائهم، وانقلابها إلى الضد، منها:  
عزوفهم عن الدنيا وملذاتها ولهوها، فخطب الموت والفقدان كان عظيماً، فهذا الشاعر السوري

(١) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١١٣.

(٢) ابن الشعار، عقود الجمان، ج ١، ص ٧٨.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٥٤-٩٥٥.

(٤) البهاء زهير، الديوان، ص ٣٤٨.

في رثاء صديقه أحمد بن عطا الروذباري يعافي قلبه من الهوى وحب اللهو، إذ شغله الحزن عن ذلك:

وما سَرَّ قَلْبِي أَنْ يُعَافِيَ مِنْ الْهُوَى      وَأَتَى يَلَا حُبَّ يَتَرَّمُ سُرُورُ  
وَأِنِّي لَمْشَغُولٌ عَنِ اللَّهِ فِي الْهُوَى      يَخْطُبُ لَهُ صَمُّ الْجِبَالِ تَمُورُ  
فَلَا بُرِحْتُ عَنِّي هُمُومٌ لِفَقْدِهِ      فَإِنِّ اغْتِبَاطِي بِالْحَيَاةِ غُرُورُ<sup>(١)</sup>

وإن كان ابن الساعاتي يرى في صديقه الظهير الحبشي روحا لبدنه، فإنه عند فراقه يفارق

متعة الدنيا وصبوتها كما يفارق الجسد ممارسة الحياة، حين تغادره الروح، فيقول:

يَا هَالِكًا كَأَنَّ رُوحِي فَارَقَتْ بَدَنِي      فَكَيْفَ ظَنَنْكَ بَعْدَ الرُّوحِ بِالْبَدَنِ  
حُسْبُ الْغَوَانِي شَبَابٌ بِتُّ أَنْفَقَهُ      عَلَى زَمَانِ الْهُوَى فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ  
الآنَ طَلَّقَ قَلْبِي فَضْلُ صَبُوتِهِ      وَرَاجَعَ الْجِلْمَ مَنْقَادًا بِلَا رَسَنِ<sup>(٢)</sup>

وتمنى بعض الشعراء الموت بعد أصدقائهم، حزنا عليهم، فالحياة بعد الصديق لا تعني شيئا،

فالبهاء زهير يرى أن بقاءه على قيد الحياة بعد موت صديقه ليس من الوفاء في شيء:

أَتَمْضِي أَنْتَ مَنْفَرِدًا وَأَبْقَى      لَقَدْ غَدَرْتَكُ نَفْسُكَ يَا وَفِيَّ  
فَهَلْ حَقَّ حَيَاتُكَ يَا زُهَيْرٌ      وَهَلْ حَقَّ وَفَاتُكَ يَا عَلِيَّ<sup>(٣)</sup>

بينما يتمنى ابن سناء الملك لو أنه افتدى صديقه (وثاب بن النصير) بروحه وأهله وماله:

وَلَوْ قَبِلْتُ فِيكَ الْكَوَاكِبُ فِدْيَةً      بَدَّلْتُ لَهَا رُوحِي وَأَهْلِي وَمَالِيَا<sup>(٤)</sup>

(١) الصوري، الديوان، ج ١، ص ٢٢٥.

(٢) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٩.

(٣) البهاء زهير، الديوان، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٧.

وفي أسلوب آخر من أساليب الرثاء، يجمع الشعراء بين الرثاء والمدح، فأنبروا يشيدون  
بمناقب أصدقائهم، ليجعلوا الحزن بفقدهم أكبر، ومن هذه المناقب الجود، فقد بكى السوري ندى  
صديقه أبي القاسم بن ضحى وجوده:

ماتَ النَّدى وَالْمَجْدُ فِي مِيتَتِهِ      وَالْأدَبُ الْبَارِعُ أَوْدى وَالنَّهْيُ  
وَالَّذِي دَلَّ مِنَ الْجُودِ عَلَى      سَبِيلِ مَنْ قَبِيلُهُ كَانَ سُدَى<sup>(١)</sup>

والبهاء زهير لا يكاد يصدق أن جود صديقه الممتد امتداد البحر قد جف وتيس، وأن غيث  
عطائه وهباته قد نضب، فيتساءل متفجعا:

وَحَقًّا صَارَ ذَاكَ الْبَحْرُ يَبْسًا      وَصَوَّحَ ذَلِكَ الرَّوْضُ الْبَهْيَ  
وَأَقْلَعُ ذَلِكَ الْغَيْثُ الْمَرْجَى      فَلَا الْوَسْمِيُّ مِنْهُ وَلَا الْوَلِيُّ<sup>(٢)</sup>

ويرى أبو العلاء المعري في علو منزلة صديقه ما يقارب الثريا:

فِي دَافِنِيهِ فِي الثَّرَى! إِنَّ لِحَدَّهُ      مُقَرَّرُ الثَّرِيَا، فَادْفِنُوهُ عَلَى عِلْمِ<sup>(٣)</sup>

ويعجب ابن أبي حصينة من أولئك الذين دفنوا صديقه أبا العلاء المعري في الثرى وكان  
حريا به أن يودع السماء، لسموه وعلو مكانته:

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ وَهُوَ يُوْدَعُ فِي الثَّرَى      أَنَّ الثَّرَى فِيهِ الْكَوَاكِبُ تُوْدَعُ  
جَبَلٌ ظَنَنْتُ وَقَدْ تَزَعَزَعُ رُكْنُهُ      أَنَّ الْجِبَالَ الرَّاسِيَاتِ تَزَعَزَعُ<sup>(٤)</sup>

بينما نرى القاضي الفاضل قد بكى جمال صديقه أبي الحسن، فحسد الثرى إذ عانق ذلك

المحيا:

(١) السوري، الديوان، ج ١، ص ٥٢.

(٢) البهاء زهير، الديوان، ص ٣٨٦.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٥١.

(٤) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٣.

أبا حَسَنٍ كَيْفَ ذَاكَ الْجَمَّالَا  
لُنْ، وَذَا الْجَمِيلُ وَتَلْكَ الْعَمَلَا  
وَهَلْ أَجْمَلُ التَّرْبُ فِي صُنْعِهِ  
لِقَاكَ، وَلِلتَّرْبِ أَنْ يَجْمَلَا<sup>(١)</sup>

ومن المناقب التي اعتر بها الشعراء في أصدقائهم وأشادوا بها، الشجاعة والبأس، فكان الشاعر يرى في شجاعة صديقه وبأسه مصدر قوة له وحماية، وبموته يسري الضعف في كيانه وحياته، وعبر أبو العلاء المعري عن هذه الشجاعة التي تحلى بها صديقه أبو إبراهيم العلوي، بأن نسب الحزن بموته إلى السيوف والرماح، بل نراه في مشهد تصويري زاخر بالحركة، يصف لنا كيف يمارس هذا الصديق فروسيته، فالسيوف والرماح يحلو لها الطعن والضرب وهي في يمينه التي تحسن استخدام السلاح، وهي فروسية تتجلى في إقباله على القتال في الوقت الذي يفر الآخرون ويجبنون:

بكى السيف حتى أخضل الدمع جفنه  
على فارسٍ يرويه من فارسٍ الدهم  
تَلدُّ العوالي وَالظُّبَى فِي بِنَانِهِ  
لِقَاءَ الرَّزَايَا مِنْ قُلُولٍ وَمِنْ حَطْمِ  
وَبِاللهِ رَبِّي مَا تَقَلَّدَ صَارِمًا  
لَهُ مُشَبِّهٍ فِي يَوْمِ حَرْبٍ وَلَا سَلْمِ  
وَلَا صَاخَ بِالْخَيْلِ: أَدْمِي فِي عَجَاجَةٍ  
إِذَا قِيلَ: حَيْدِي قَالَ فِي صُنْكَهَا: أُمِّي  
وَلَا صُرَّفَ الْخَطِّي مِثْلَ يَمِينِهِ  
يَمِينًا، وَإِنْ كَانَتْ مَعَاوِدَةَ النَّعْمِ  
وَلَا أَمْسَكَتْ يَسْرَى عِنَانًا لَعَارَةً  
كَيْسَرَاهُ وَالْفَرَسَانُ طَائِئِشَةَ الْعَزْمِ<sup>(٢)</sup>

ويرى ابن سناء الملك في صديقه وثاب بن النصير سيفاً قاطعاً، وقوة له يضرب بها عدوه ويسر بها أحبته:

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج٢، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٢) المعري، ديوان سقط الزند، ق٣، ص٩٥٢-٩٥٤.

لقد كانَ عَضْباً أَرْهَفَ العِزْمَ حَدَّهُ  
وَأَعْيَا يَمِينِي أَنْ تُسَلَّ المَوَاضِيَا  
وقد كنتُ منه حينَ أَصْبَحَ في يَدِي  
أُسْرَ المَوَالِي أَوْ أَضْرَ المَوَارِيَا<sup>(١)</sup>



واعترز الشعراء بعلم أصدقائهم وسعته، وفصاحتهم وبلاغتهم، فاثنوا عليهم بها، وبكوا علومهم التي فقدوها بفقدهم، وفقدوا الناس جميعاً، فابن أبي حصينة يتباهى بعلم صديقه أبي العلاء المعري ويفخر به، إذ كان علمه شاملاً حاوياً لعلوم عصره، وكان أبو العلاء المعري مقصداً لطلاب العلم، وهو إذ يبكيه، إنما يبكي فيه التأدب والعلم ومكارم الأخلاق:

فَصَدَّتْكَ طَلَّابُ العُلُومِ وَلَا أَرَى  
لِلْعِلْمِ بَاباً بَعْدَ بَابِكَ يَقْرَعُ  
مَاتَ النِّهْيُ وَتَعَطَّلَتْ أَسْبَابُهُ  
وَقَضَى التَّأْدِبُ وَالْمَكَارِمُ أَجْمَعُ<sup>(٢)</sup>

ويشيد أبو العلاء المعري بصديقه أبي إبراهيم العلوي، بفصاحته وبلاغته وتبحره في علوم العربية، حتى عده أمير المعاني، ففي تعزيبته أبناءه يشيد بهذه المناقب قائلاً:

فَهَذَا وَقَدْ كَانَ الشَّرِيفُ أَبُوهُمُ  
أَمِيرُ المَعَانِي، فَارِسُ النُّثْرِ وَالنَّظْمِ  
إِذَا قِيلَ نُسْكٌ، فَالْخَلِيلُ بَنُ أَزْرِ  
وَإِنْ قِيلَ فَهَمٌّ، فَالْخَلِيلُ أَخُو الفَهْمِ<sup>(٣)</sup>

وإن كان الناس يقيمون بيوت العزاء لموتاهم، فإن الشعر يقيم رسم التعزية لأبي إبراهيم قبل

أن يفنى بعده ويهدم:

أَقَامَتْ بِيوتِ الشُّعْرِ تُحْكِمُ بَعْدَهُ  
بِنَاءَ المَرَاثِي وَهِيَ صَوْرٌ إِلَى الفَهْمِ<sup>(٤)</sup>

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٦.

(٢) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧٤.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٦٥-٩٦٦.

(٤) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٦٦.

وأعجب الشعراء بتقوى أصدقائهم وورعهم وزهدهم في الدنيا، ورأوا أن تلك الميزة تطمئنهم على مصير أصدقائهم بعد الموت، فابن أبي حصينة يدعو الناس أن يسيروا على درب صديقه أبي العلاء المعري في إعراضه عن الدنيا وزهده فيها، ويدعوهم أن يكونوا في تقواه وورعه:

وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ فَسِرْ بِسِيرَةِ أَحْمَدِ      تَأْمَنُ خَدِيعَةٌ مَنْ يَغُرُّ وَيَخْدَعُ  
رَفُضَ الْحَيَاةِ وَمَاتَ قَبْلَ مَمَاتِهِ      مَطْوَعًا بِأَبْرٍ مَا يَتَطَوَّعُ  
عَيْنٌ تَسْهَدُ لِلْعَافِ وَلِلنَّقِيِّ      أَبَدًا وَقَلْبٌ لِلْمُهَيِّمِينَ يَخْشَعُ<sup>(١)</sup>

ويمعن ابن سناء الملك في الإشادة بتقوى وزهد صديقه علي بن حسان الحسيني، فصور

صلاته وذكره، إنسانا يبكيه ويبكي فقده:

مَا زَالَ بَرًّا بَرِّي الْقَوْلِ مِنْ خَطْلِي      قَوَّالٍ مَأْتِرَةٍ قَوَّامٍ أَسْحَارِ  
بَكَى عَلَيْهِ مُصَلَّاهُ وَمَسْجِدُهُ      فَمَا الْمَصَابِيحُ إِلَّا نَارُ تَذْكَارِ  
وَصَامَ عَنْ كُلِّ مُحْظُورٍ فَكَانَ لَهُ      فِي الْخُلْدِ عِنْدَ أَبِيهِ عِيدُ إِفْطَارِ<sup>(٢)</sup>

ويرى ابن الساعاتي أن صديقه الظهير الحبشي قد جمع من المناقب ما يعجز أو يصعب

اجتماعها في إنسان، إنها شخصية الصديق المتكاملة، فقد جمع بين العزم والحزم واللين

واللطف، وجمع بين الشيء ونقيضه ووفق بينهما:

قَدْ كُنْتَ تَنْفِذُ وَالْأَغْرَاضُ خَافِيَةٌ      لَطْفًا نَفَازُ أَخِيكَ السَّهْمِ فِي الْجُنِّ  
وَتَطْلُبُ الْغَايَةَ الْقُصْوَى فَتُدْرِكُهَا      حَالًا وَكَمْ ضَعُفَتْ عَنْهَا مَنِ الْمُنِّ  
يُنَالُ أَيْسَرَ فِكْرٍ مِنْ بَدِيهَتِهِ      مَا عَزَّ قَدَمًا عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْفِطَنِ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ٣٧٤.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٩.

(٣) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٩-٢٩٠.

إن من كانت هذه مناقبهم لحري بهم أن يبشروا بحسن الجزاء، وأن تظهر عليهم عند موتهم علامات الرضا والفوز والقبول، -وتلك مفخرة أخرى يضيفها الشعراء إلى مناقب أصدقائهم- فأبو العلاء المعري في رثائه أبا إبراهيم العلوي، يذف البشري بأن سيد الملائكة هو من صعد بروحه إلى السماء، يهديها لمحمد عليه السلام وفاطمة -رضوان الله عليها-، والشاعر هنا كأنه يظهر تشيع صديقه، ويمدحه باتصال نسبه بآل البيت:

تَقَرَّبَ جَبْرِيلُ بِرُوحِكَ، صَاعِدًا      إِلَى الْعَرْشِ، يَهْدِيهَا لِجَدِّكَ وَالْأُمَّ  
فِدْوَنُكَ مَخْتَوْمَ الرَّحِيقِ، فَإِنَّمَا      لِنَشْرَبَ مِنْهُ كَانَ يُحْفَظُ بِالْخَتْمِ (١)

والبهاء زهير يستبشر بحسن خاتمة صديقه فتح الدين عثمان، فيرى أنه قد سلا الدنيا وما فيها من أصدقاء، عندما رأى ما أعد له من النعيم:

فِيَا ثَاوِيًا قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ ذِكْرَهُ      فَأَضْحَى وَطَيْبُ الذِّكْرِ عُمَرُ لَهُ ثَانِ  
وَجَدْتِ الَّذِي أَسْلَاكَ عَنِّي وَإِنِّي      وَحَقَّكَ مَا حَدَّثْتَ نَفْسِي بِسُلْوَانِ  
وَعَوَّضْتَ عَن دَارِ بَاكِنَافِ جَنَّةٍ      وَعَوَّضْتَ عَن أَهْلِ بَحْوِرٍ وَوِلْدَانِ (٢)

وفي تصوير الشعراء حسن خاتمة أصدقائهم، ما يخفف عنهم شيئاً من أحزانهم، فهم بإحساسهم هذا إنما يعزون أنفسهم بشكل أو بآخر، بأن ما ألوا إليه إنما هو خير مما فارقه، وأمام هذا الفيض الكبير من المشاعر والحزن، وبكاء جميل الصفات، لا يملك الشعراء أمام الموت سوى الدعاء لأصدقائهم وفاء منهم وإخلاصاً لهم، فالصوري يدعو لصديقه أحمد بن عطا الروذباري، بماء السماء يسقي قبره:

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٧٠.

(٢) البهاء زهير، الديوان، ص ٣٤٩.



سقى الله قبر الروذباري هاطلاً      ففيه لأجناس العلوم قبور<sup>(١)</sup>

ولا يختلف الحكيم أمية أبو الصلت في دعائه لصديقه عن الصوري:

سقاك وجاد قبرك صوب مزن      يشق ثراه من روض أريض  
إذا استقرى الحيا نحرته عليه      عشار المزن مرهقة الوميض  
وإن مسحت جوانبه النعامي      أعيرت نفحة المسك الفضيض<sup>(٢)</sup>

ويتمنى ابن الساعاتي في دعائه، ماء وغيثا تجود به السماء، جودا يعادل جود ذلك الصديق

الذي كان:

سقى ترى حل فيه كل ساريه      هام يحل خيوط الغيث والمزن  
وعقرت فيه أرسلال ركائبه      إن لم تعقر عناق العيس والبذن  
من عارض هين يغشى فتى كرم      كم قد حوى لحدّه من عارض هين<sup>(٣)</sup>

إن هذا الدعاء الذي ختم به الشعراء رثاءهم أصدقاءهم وحزنهم لفقدهم، إنما هو عنوان وفاء

لهم يحمل في طياته حزنا وألما.

(١) الصوري، الديوان، ج ١، ص ٢٢٥.

(٢) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١١٣.

(٣) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٩٠.

## رثاء الجواري:

لو نظرنا في الشعر الذي قيل في رثاء الجواري، لوجدنا أن الجارية في بعض الأحيان نالت حظها من الرثاء أكثر مما نالته الزوجة، وربما يعود ذلك إلى قلة الحرج في الحديث عن علاقة الشاعر بجاريته ووصف جمالها ومحاسنها، أو لأن العلاقة بالجواري كانت أمراً مألوفاً في ذلك الوقت، ثم إن العلاقة بالجارية ليس لها تلك الخصوصية التي للزوجة، مما ينفي ذلك الشعور بالغيرة عليها عند وصفها، فهي علاقة ينتهي بها الشاعر، وربما تخلو من تلك المودة والسكينة والارتباط النفسي الذي يكون بين الرجل وزوجته، ومن الشعراء الذين رثوا جواريهم تميم ابن المعز الفاطمي وابن سناء الملك.

فالأمير تميم بن المعز يمعن في البكاء والتحسر على جاريته، وقد بكى فيها كل ما تتصف به من صفات كانت تجلب له الرضا ومزيذاً من اللهو والسرور، فرثى ظرفها ووسامتها وغناها، ورثى ضياء كانت تحبه نفسه، ومكانة في القلب عوضته عن غيرها:

لله ما بانَ بِـيَوْمِهِـا	مِنْ رِقَّةِ الظَّرْفِ وَحُسْنِ الوَسَامِ
كَانَتْ رِضَا النَّفْسِ وَنَيْلُ المُنَى	وَلَذَّةُ العَيْشِ وَطِيبُ المَدَامِ
رِيحَانٌ سَمَعِي وَسَنَا مَقَلَّتِي	وَسُؤْلُ قَلْبِي مِنْ جَمِيعِ الأَنَامِ
لَهْفِي عَلَى مَا فَاتَ مِنْ قُرْبَيْهَا	لَهْفًا لَهُ فِي كُلِّ عَضْوٍ سَقَامِ <sup>(١)</sup>

وقد حوت هذه الجارية في خصالها صفات الجارية كما يتمناها تميم بن المعز ويحب، فطباعها كما يرى لا شية فيها، هينة لينة، لطيفة المعشر، لا تذيق الشاعر ألم الصد، ولا تعذل ولا تتجنى، ومن هنا كانت خسارة الشاعر كبيرة كما يراها:

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٠٦.

لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ التِّي  
 لَهْفِي وَقَلَّ اللَّهْفُ مِنِّي لَمَنْ  
 لَمْ أَدْرِ فِي حُبِّي لَهَا مَا الْأَسَى  
 وَكُلُّ مَحْبُوبٍ لَهُ ضَجْرَةٌ  
 وَمَا تَجَنَّبْتُ فُطْمًا أَيْقَنْتُ  
 وَلَا دَعَاها التِّيَّةَ يَوْمًا إِلَيَّ  
 خَلَانِيكَ كَالشَّهْدِ مَعْسُولَةً  
 قَدْ خُلِّصَتْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَذَامٍ  
 كَانَ سُلُوبِي عَنْهُ كَلَّ أَمْتَمَامٍ  
 وَلَا تَطَعَّمْتُ أَلِيمَ الْغَرَامِ  
 يُطَوُّونَ فِيهَا الْعَدْلُ وَالْأَخْتِصَامِ  
 أَنِّي بِهَا ذُو كَلْفٍ مُسْتَهَامٍ  
 أَنْ تُظْهِرَ الدَّلَّ وَتَبْدِي الْمَلَامِ  
 وَعِشْرَةٌ كَالرَّوْضِ غِيبِ الْغَمَامِ<sup>(١)</sup>

وإن كان الشعراء قد نعوا أمهاتهم وزوجاتهم إلى الجود والتقوى والعفة والحشمة، وعدوا  
 موتهن خسارة للمسلمين، فإن الشاعر تميم بن المعز نعى جاريته إلى الطرب ومجلس الأُنس  
 والشراب، ونعاها إلى العود والغناء الرائق:

أَنْعَى إِلَى الْإِطْرَابِ أَخْلَافَهَا  
 أَنْعَى إِلَى الْعُودِ وَأَوْتَارِهِ  
 أَنْعَى إِلَى الْإِحْسَانِ إِحْسَانَهَا  
 وَلَذَّةِ الْإِيناسِ يَوْمَ النَّدَامِ  
 ذَاكَ الْغِنَا الْجَائِزُ حَدَّ التَّمَامِ  
 وَشَدْوَهَا الْعَذْبُ كَسَجْعِ الْحَمَامِ<sup>(٢)</sup>

والشاعر لم يعبر عن حزنه وأساه لفقده تلك الجارية دون أن يربط حزنه بأي رغبة خاصة،

إلا في ختام قصيدته، بعد أن نعاها إلى كل شيء سواه:

مَا كُنْتُ إِلَّا كَبِيدِي قَطَّعْتُ  
 وَكُنْتُ قَدْ دَافَعْتُ عَنْهَا الْعِدَا  
 وَمَقْلَتِي بَانَتْ وَقَلْبِي أَسْتَهَامُ  
 فَكَيْفَ لِي عَنكَ بِدَفْعِ الْحَمَامِ<sup>(٣)</sup>

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٠٧.

وفي مقطوعة أخرى لا تترقرق عيناه بالدمع إلا عندما بحث عنها بين جمع من المغنيات

أخذن يضربن الدفوف، فافتقد بغيابها لذة السمع واللهو:

ذَكَرْتُكَ بِالرِّيحَانِ وَالرَّاحِ ذِكْرَةً      مُرَدَّةً كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تَرْهَقُ  
فلما تناولن الغناء شوايدياً      وَأَتْبَعُ مَزْمُوماً مِنَ الضَّرْبِ مُطْلَقُ  
تَتَّبَعَتِ الْعَيْنَانِ شَخْصَكَ فِيهِمْ      فَلَمَّا نَأَى ظَلَّتْ دَمُوعِي تَرْقُرُقُ (١)

ويبدو أن ابن سناء الملك كان أكثر ارتباطاً بجاريته من الأمير تميم بن المعز، إذ كانت مختلفة عن جارية تميم بن المعز، وتبعاً لهذا الاختلاف كان الحزن أكبر والحسرة لفقدائها أعظم،

فهو منذ البداية بكأها بدمع غزير:

بُكَيْتِكَ بِالْعَيْنِ الَّتِي أَنْتِ أَخْتَهَا      وَشَمْسُ الضَّحَى تَبْكِيكَ إِذْ أَنْتِ بِنْتُهَا  
شَهِدْتُ بِأَنِّي فِيكَ أَلَامٌ نَائِلِي      لِللَّيْلَةِ بَيْنَ مِتِّ فِيهَا وَعِشْتُهَا  
وَأَنْفَقْتُ مِنْ تَبْرِ الْمَدَامِجِ لِلْأَسَى      كُنُوزاً لِهَذَا الْيَوْمِ كُنْتُ دَخَرْتُهَا (٢)

وقد بكى ابن سناء الملك في جاريته الجمال والنضرة ورشاقة القد، فقال:

وَمَا وَجْهِكَ الْوَجْهَ الَّذِي غَابَ فِي التُّرَى      وَلَكِنَّهُ الْبَدْرُ الَّذِي غَابَ فِي الْغُرْبِ (٣)  
أَيَا تُرْبٍ مَا أَنْصَفَتْ نُضْرَةَ غُصْنِهَا      أَهَذَا صَنِيعُ التُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرَّطْبِ (٤)

ونوع ابن سناء الملك في أساليب استتارة الحزن والأسى، ومن هذه الأساليب تصويره

لمرض الجارية ومحاولته اليائسة لإنقاذها:

(١) تميم بن المعز، الديوان، ص ٣٠٣.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٠.

وَدَافَعْتُ عَنْكَ الْمَوْتَ بِالطَّبِّ جَاهِدًا      وَذَا غَطَّ هَلْ يَدْفَعُ الْمَوْتَ بِالطَّبِّ  
 وَحَمَاكِ عَانَتْ فِي حِمَاكِ وَأَدْخَلْتِ      عَلَيْكِ الضَّنَى حَتَّى أَبَاحَتْهُ لِلنَّهْبِ  
 وَزَارْتِكِ غِبًّا كَيْ يَحُبَّ مَزَارُهَا      وَيَا جَهْلَهَا بِالْمَوْتِ فِي ذَلِكَ الْغَيْبِ<sup>(١)</sup>

ويبدأ الشاعر في تصوير انفعالاته النفسية وآلامه وأحزانه، وجاريته تلفظ أنفاسها فيشق ثوبه

حزنا ويعلم أمام الناس أساه، ويظل الحزن الحبيس والهلع المكتوم في القلب أكبر:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ شَقَّ ثُوبًا وَإِنِّي      لَفَعَلُ خَلِيٍّ عَنِ تَفَعُّلِهِ بِنَبِيٍّ  
 نَعْمَ كَيْدِي وَالْقَلْبُ مِنِّي سُقَّقَا      عَلَيْكَ أَسَىٰ هَذَا شِغَاغِي وَذَا خَلْبِي<sup>(٢)</sup>  
 وَرَمْتُ نَهْوَضًا إِذْ عَثَرْتُ فَلَمْ أَقْمِ      عَلَى قَدَمِي لَكِنْ سَقَطْتُ عَلَى جُنْبِي<sup>(٣)</sup>

وعمد ابن سناء الملك إلى الإشادة بمناقب تلك الجارية الأخلاقية، ربما ليجد له مسوغا في كل ذلك الحزن الذي يشعر به أمام موتها، فهي جارية ليست ككل الجوارى، ففيها التقوى والاعتكاف على العبادة، وفيها الوفاق والاتزان والترفع عن اللغو واللهو، وفيها الطهر والحياء والعفة:

وَيُنْدَبُ حَتَّى يَسْمَعَ الْخَلْقُ نَدْبَهُ      مُصَلِّكٍ بِالتَّسْبِيحِ لَا الْعُودَ بِالصَّرْبِ  
 وَحَاشَاكَ مِنْ لَعْوٍ وَحَاشَاكَ مِنْ رَدٍّ      وَحَاشَاكَ مِنْ لَهْوٍ وَحَاشَاكَ مِنْ لَعْبِ  
 وَمَا بَرِحَتْ فِي الْحُسْنِ قَنْدِيلُ قَبْلَانِيَّةِ      وَفِي الطُّهْرِ لَا رِيحَانَةَ الشَّرْبِ وَالشُّرْبِ  
 إِذَا ظَهَرَتْ كَانَ الْحِجَابُ مِنَ الْحِجَى      وَإِنْ سَفَرَتْ نَابَ الْحِيَاءِ عَنِ النَّقْبِ  
 وَمِنْ طَبْعِهَا ذَاكَ الْعَفَافُ وَكَسْبِهَا      وَمَا أَحْسَنَ الطَّبْعَ الَّذِي زِيدَ بِالكَسْبِ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٧.

(٢) الخلب: حجاب القلب، ينظر ابن منظور، لسان العرب، مادة خلب.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٧-٤٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٦-٤٩٧.

وإضافة إلى هذه المزايا فهي منعمة مرفهة، تعيش في القصور وتحتجب عن الناس:

دُعِي ذَا وَقُولِي كَيْفَ خُلَيْتِ لِلرَّدَى      وَأُخْرِجْتِ مِنْ خَلْفِ الْمَقَاصِيرِ وَالْحُجْبِ  
وَكَيْفَ أَعْتَدَى ذَاكَ الْجِمَامُ عَلَى الْجَمِي      وَكَيْفَ سَبَاكَ الْمَوْتُ جَهْرًا بِلا حَرْبٍ<sup>(١)</sup>

وقد رثى ابن سناء الملك جاريته بهذه المناقب كلها، ليعمق مدى الخسارة التي مني بها

بفقدها، إنه موت حرمة النوم ونشر على حياته القلق ومزيذا من الضنى والوهن:

وَرَزْوُكُ أَشْهَى مِنْ سُهَادِي لِناظِرِي      وَرُوحِي إِلَى جِسْمِي وَأَمْنِي إِلَى قَلْبِي  
وَأَنْسَنِي مِنْ بَعْدِهَا طَوْلٌ وَحَشَاتِي      وَضَاجَعَنِي فِي مَضْجَعِي بَعْدَهَا كَرْبِي  
وَأَيْسَرُ مَا بِي أَنْتِي مِنْ تَدَلُّهِي      أَرْوْحُ بِلا ذَهْنٍ وَأَغْدُو بِلا لُبِّ  
وَأَشْبَهُ حَالِي حَالَهَا فَتَرَى الرَّدَى      قَضَى نَحْبَهَا فِيمَا أَرَى أَوْ قَضَى نَحْبِي<sup>(٢)</sup>

لذا فإن الشاعر قد أخذ على نفسه عهداً أن يكون وفيّاً مخلصاً لها، فهجر الأماكن التي أقامت

فيها في حياتها، ولازم زيارة قبرها معاهداً إياها أن ينظم فيها أجمل شعره:

هَجَرْتُ مَغَانِيكَ الَّتِي كُنْتُ لُبَّهَا      وَغَيْرِي يَرْضَى بِالْقُشُورِ عَنِ اللَّبِّ  
وَوَاصَلْتُ قَبْرًا أَنْتِ فِيهِ أَضْمُهُ      لِصَدْرِي بَلْ أَهْدِي الْهِنَاءَ إِلَى النَّصْبِ  
وَأَهْدِي إِلَيْكَ الذِّكْرَ مِنْتِي وَإِنَّهُ      سَلَامِي لَا أَهْدِي السَّلَامَ مَعَ الرِّكْبِ  
قَدْ أَعْتَاضَ يَا بَوْسَ الَّذِي أَعْتَاضَهُ فَمِي      يَنْظُمُ الْمَرَاثِي عَنِ مَقْبَلِكِ الْعَذْبِ<sup>(٣)</sup>

ومزيداً من الوفاء لها والإخلاص، يعاهدها على أن يسلك طريق الحزن عليها فلا يحيد عنه

ويرفض في تركه نصح الناصحين:

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٠٠.

ويا ناصحي ما أنت باللوم ناصحي      ودع صحتي ما أنت في الحزن من صحتي  
 ولست رفيقي في طريقي إنني      سأركب منها كل مستوعر صعب<sup>(١)</sup>

إن كل هذا الحزن لا يكاد يجد فيه الشاعر وفاء لجاريتته ولا تقديرا لحقها عليه:

ووالله ما وفائك حقاك مدمعي      على أنه قد أنبت الأرض بالعشب<sup>(٢)</sup>

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج٢، ص ٥٠١.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٩٨.

## رثاء المماليك والغلمان:

لم يكن الغلمان والمماليك بأقل حظا في الرثاء من غيرهم، فكما رثى الشعراء أحبائهم ونساءهم وجواريتهم، رثوا غلمانهم ومماليكهم، ومن الشعراء الذين اشتبهوا برثاء مماليكهم وغلمانهم، تاج الملوك الأيوبي فرثاهم، مظهرا حزنه وبكائه وأساه، فقال يرثي مملوكا له:

أَوْ لَيْسَ حَقًّا أَنْ يَطُولُ بُكَائِي      وَيَعَزُّ حَسَنُ تَجَلُّدِي وَعَزَائِي؟  
أَوْ مَا كَفَى فَقْدُ الْأَجْبَةِ مَغْرَمًا      حَتَّى أُبْتَلَى بِشِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ؟<sup>(١)</sup>

وفي حزنه على موت مملوك آخر، يروي ثرى القبر بدمعه:

سُقَيْتُ ثَرَاهُ مُزَنَّةً مِنْ مَدَامِعِي      فَأَغْنَتْهُ عَنِ سُقْيَا الْغُمَامِ الْمَوَاطِرِ<sup>(٢)</sup>

ولعل أبرز مملوك رثاه تاج الملوك هو مملوك له اسمه (قائنا)، فقد نظم في رثائه أكثر من

مقطوعة يتفجع فيها على فقده:

كَيْدٌ نَدُوبٌ وَأَضْلَاعٌ تَتَوَقَّدُ      مَالِي عَلَى هَذَا الْبَلَاءِ تَجَلُّدُ  
حُكْمُ الزَّمَانِ يَفْقَدُ مَنْ أَحْبَبْتُهُ      مَالِي بِمَا حَكَمَ الزَّمَانُ بِهِ، يَدُ  
لَمْ تَبْقُ إِلَّا أَدْمَعٌ لَا تَرْتَكِي      أَوْهٌ أَضْلَعُ نِيرَانُهَا لَا تَحْمَدُ  
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ يَوْمَ فِرَاقِهِ      سَيْفٌ عَلَى قَتْلِ الْمَجِبِّ مُجَرَّدُ<sup>(٣)</sup>

وفي موجة التعبير عن حزنه، يصور لنا ما حل به بعد موت مملوكه، وأول ما حل به هو

فقدان الصبر وعدم القدرة على السلو:

(١) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٠.



فَقَدْتُ مَنْ لَسْتُ وَاجِدًا أَبَدًا      صَبْرًا عَلَى فَقْدِهِ وَلَا جَلْدًا<sup>(١)</sup>

إضافة إلى ما يعانيه من مجافاة النوم، ومزيد الهم والكآبة يزدادان بمرور الوقت:

وَأَعْجَبُ أَنْ لِي قَلْبًا صَبُورًا      عَلَى مَا نَابَ مِنْ عَظْمِ الْمَصَابِرِ  
وَأَنْ أُرْعَى الْكَوَاكِبَ طَوَّلَ لَيْلِي      وَقَدْ خِلْتُ الْكَوَاكِبَ مِنْ شِهَابٍ<sup>(٢)</sup>

ومن التحولات التي أحدثها موت مملوكه في حياته، أنه أضحي يقف مواجهة أمام حقيقة أن

الدنيا لا تستحق الركون إليها، ولا يؤمن جانبها، إنها مذمومة، مذموم ما تمنحه:

صَاحٍ لَا تَرْكُنَنَّ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا      يَا، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَ الْقَرَارُ  
لَا يَغْرَنُكَ فَالزَّمَانُ إِذَا جَا      دَ شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَسْتَعَارُ  
إِنَّ دُنْيَاكَ لَوْ تَفَكَّرْتَ فِيهَا      لِأَفْتِكَارٍ مَا يَنْقُضِي وَأَعْتَبَارُ<sup>(٣)</sup>

ومن الأمور التي تثير حزن الشاعر وتزيد من أساه في رثاء مماليكه، تلك الذكريات عن

حياته الهانئة والعيش الجميل الذي كان عامرا باللهو والأنس، والطرب، وملذات الحياة، تلك

الحياة التي فقدها بموتهم:

أَهْ وَالْهَفْتِي عَلَى طَيِّبِ عَيْشٍ      قَدْ نَعِمْنَا بِهِ وَنَحْنُ جِوَارُ  
زَمَنٍ لَمْ تَبْنِ يَمَنْ نَشْتَهِي دَا      رٌ وَلَا شَطَّ بِالْحَبِيبِ مَزَارُ  
حَيْثُ كَانَتْ بِالشَّامِ لَهُ أَوْطَا      نَ وَلَهُوَ يُقْضَى بِهِ الْأَوْطَارُ<sup>(٤)</sup>

(١) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٥٩.

وثمة لقاءات دافئة، وكأس شراب تدور، وأوتار تشدو، وجمال حيثما سرح الطرف، ومملوك  
يزيد هذا المجلس بهاء وجمالاً وعذوبه، كل ذلك فقدّه الشاعر بفقد مملوكه، فأصبحت تلك

المجالس سبباً للحزن والحسرة، بعد أن كانت السبب في الفرح والبهجة:

حَيْثُ أَلْحَاطْنَا تَبْوَحَ بِشَكْوَا	نَا وَكَاسَاتُنَا عَلَيْنَا تَدَارُ
وَلَنَا مُجْلِسٌ تَصَايَحَتِ النَّوَا	يَاتُ فِي جَانِبَيْهِ وَالْأَوْتَارُ
فِيهِ مَا تَشْتَهِي النَّفُوسُ وَمَا تُصَوِّ	بُو إِلَيْهِ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ
زَمْنٌ مَذْ حَلَا خَلَا، وَيَهْـذَا	قُدِّرَتْ، مُنْذُ كَانَتْ الْأَقْدَارُ
وَلَعْمَرِي لَمْ يَبْقَ مِنْ طَيْبِ ذَاكَ الـ	عَيْشِ إِلَّا الْحَنِينُ وَالْتَذْكَارُ <sup>(١)</sup>

وثمة جمال وحسن، يثيران الحزن إذ واراهاما التراب:

سَلَامٌ عَلَى الْوَجْوِ الَّذِي غَابَ فِي الثَّرَى	وَعَهْدِي بِهِ بَدْرًا يَنْبُرُ سَمَاوَهُ
سَلَامٌ عَلَيْهِ، هَلْ تُغَيِّرُ حُسْنُهُ	وَهَلْ زَالَ عَنِ ذَاكَ الْجَمَالِ بِهَاوَهُ <sup>(٢)</sup>

وتحوم الذكرى في خاطر الشاعر، ويستحضر صورة ذلك المملوك، فينشغل بالحزن عليه

ميثاً، كما انشغل بالفرح به حياً:

يُصَوِّرُهُ فِكْرِي وَإِنْ غَابَ شَخْصُهُ	فَمَا هُوَ إِلَّا غَائِبٌ مِثْلُ حَاضِرٍ
وَيُشْغِلُنِي ذِكْرَاهُ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ	غَرَامًا، فَلَمْ يَخْطُرْ سِوَاهُ بِخَاطِرِي
وَكَيْفَ اشْتِغَالَ النَّفْسِ عَنْهُ وَذِكْرُهُ	مَنْوُطٌ بِأَنْفَاسِي وَسَمْعِي وَنَاطِرِي؟ <sup>(٣)</sup>

(١) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

إن بعد هذا المملوك الأبدى، ولد في نفس الشاعر اليأس من اللقاء، مما جعل الشاعر كالأم التكلي، وإذ يصل إلى هذه الحالة من اليأس، يتمنى الموت إخلاصاً ووفاء لمملوكه:

كَأَنَّي يَوْمَ بَانَ ثَاكِلَةً      قَدْ تَكَلَّتْ بَعْدَ فُرْقَةٍ وَلَدَا  
لَوْ كُنْتُ أَنْصِفُ فِي مُحَبَّتِيهِ      لَمْتُ مِنْ بَعْدِ بَيْنِيهِ كَمَا  
كُلُّ بَعِيدٍ يُرْجَى الْإِيَابَ لَهُ      وَلَسْتُ أَرْجُو إِيَابَهُ أَبَدًا<sup>(١)</sup>

والشاعر إذ يرى حزنه لا يجدي شيئاً أمام الموت، يتوجه بالدعاء لمملوكه، وفاء له وإخلاصاً:

سَقَى اللَّهُ قَبْرًا ضَمَّ أَعْضَاءَ جِسْمِهِ      فَإِنَّ تَرَابًا ضَمَّمَهُ لَسَعِيدٍ<sup>(٢)</sup>

أما الصاحب شرف الدين الأنصاري، ففي رثائه سابق الدين مملوك المنصور - على لسانه - نراه يصور قلة صبره وحزنه على فقده، إذ كان هذا المملوك عوناً ونخراً لمولاه، فإذا بهذا الذخر يفنى ويزول:

يَمَنْ أَسْكَنَ قَلْبِي عَنْكَ يَا سَكْنِي؟      يَمَنْ أَعْلَلُّ أَمَالِي؟ يَمَنْ؟ يَمَنْ؟  
إِنْ خَانَنِي زَمَنِي فِيهِ، فَلَا عَجَبٌ      قَدْ كُنْتُ أَدْخُرُهُ عَوْنًا عَلَى زَمَنِي<sup>(٣)</sup>

وكان هذا المملوك قويا شجاعاً فارساً، جميلاً نضراً شاباً، لذا فالحزن لفقد تلك المناقب فيه كبير:

مَا رَأَى فِي نَاطِرِي مِنْ بَعْدِهِ أَسَدٌ      عَلَى جَوَادٍ، وَلَا بَدْرٌ عَلَى غُصْنٍ

(١) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ١٥١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٢.

(٣) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٤٧٣.

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ كَفَّ الدَّهْرِ قَادِرَةً      أَنْ تَدْرِجَ الحَسْنَ وَالإِحْسَانَ فِي كَفْنِ (١)

ويأتي رثاء ابن الدهان مملوكا قتل للملك القاهر ناصر الدين محمد بن شيركوه، مختلفا عن سابقيه، فهو رثاء يحوي تنوعا في أفكار الرثاء، ففيه الحزن والبكاء والتفجع، وفيه المدح وذكر المناقب، والتعزية والمواساة، وقد أظهر الشاعر حزنه لموت ذلك المملوك، بذلك البكاء الذي أشجاه، وبالصبر الذي فارقه، فالرزة عظيم والمصيبة مفاجئة:

دَعْنِي وَلَا تَلْحَنِي فِي دُمْعِي الهَيْتِ      فَمَا بَكَيْتُ بِقَدْرِ الشَّجْوِ وَالشَّجِنِ  
كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَمَا حَمَلْتُ مِنْ حَزْنٍ      يَهْدُ أَيْسَرَهُ الحِصْنِينَ مِنْ حُصْنِ (٢)

إن ذلك الارتباط بين السيد ومملوكه، والتعلق الذي يصوره الشاعر، إنما يكشف عن الحب الكبير الذي يكنه السيد لمملوكه، وبالتالي يكشف عن الحزن الكبير لفقده:

قَدْ كَانَ فِي الحَلْمِ لِي عَبْدًا وَكُنْتُ لَهُ      بِحَكْمِ حَبِي لَهُ عَبْدًا بِلَا تَمْنِ (٣)

وفي تصوير تلك الخواطر، والانفعالات النفسية التي يعيشها السيد في موجة حزنه، ما يستثير مشاعر الحزن لدى القارئ، فيشاركه أساه لفقد ذلك المملوك، فثمة غصن يهتز، فيثير ذكرى ذلك المملوك بقده الجميل، وأمنية بلقاء الطيف، وحسرة على أيام ليتها دامت، وليتها ما كانت، ومحاولة للتناسي والتظاهر بالسلو، وصراع نفسي يعترى الشاعر في ألمه:

وَمَا أَرَدْتُ تَنَاسِيَهُ لِأَسْلُوهُ      إِلَّا وَذَكَرْنِيهِ هِزَّةَ الغُصْنِ  
لَا أَرْجِي عَوْدَهُ فِي يَقْظَتِي أَبَدًا      فَلَيْتَهُ رَدَهُ فِي رَقْدَتِي وَسُنْبِي

(١) شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٤٧٣.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٧.

أَوْ لَيْتَهُ دَامَ لِي مِنْ بَعْدِ مَعْرِفَتِي      أَوْ لَيْتَ مَعْرِفَتِي أَيَّامَ لَمْ تَكُنْ (١)

ويجمع الشاعر في رثائه بين التفجع والإشادة بالمناقب، فالمملوك ليس كغيره من المماليك، فهو يتصف بمزايا تجعله يستحق ما يتمتع به لدى سيده، وأهلاً لذلك الحزن الكبير لموته، فهو مملوك تكاملت فيه الصفات المثالية المأمولة، فهو مصدر سرور وجمال، وفيه براعة في الصيد ودقة في الرماية وشجاعة وجود:

يَا نُزْهَةَ الْعَيْنِ فِي جِدِّ وَفِي لَعِبِ      وَمُنِيَّةَ النَّفْسِ فِي سِرِّ وَفِي عَلَنِ  
وَأَحْذَقَ النَّاسِ فِي صَيْدٍ وَأَحْسَنَهُمْ      رَمِيًّا وَأَبْعَدَ مِنْ بُخْلِ وَمِنْ جُبْنِ (٢)

وهو يجمع في سجاياه الشيء وضده، ففيه اللين في موقف اللين والخشونة في موقف يحتاج فيه إليها:

حَاوِ الشَّمَائِلِ مَعْسُولٍ خَلِيقُهُ      صَافِي الْأَدِيمِ أَبِي لَيْنٍ خَشِينِ (٣)

والشاعر في موجة الحزن التي اعترت السيد لموت مملوكه، يقر ويعاهد أمام تلك الشمائيل وأمام هذا الحب الكبير الذي يكنه له، أن لا يميل القلب بعده إلى أحد، فليس ثمة من يعدله:

مَا مَالُ بَعْدَكَ لِي قَلْبٌ إِلَى أَحَدٍ      وَجِدًّا وَلَا سَكَنَتْ نَفْسِي إِلَى سَكَنِ (٤)

إنه ذلك العهد الذي قطعه أغلب الشعراء، لأحبائهم الذين رثوا، ليس من يحتل القلب مكانهم وفي نموذج آخر لرثاء المماليك، نلاحظ رثاء لمملوك مختلف، ((مملوك تركي، صبي بالغ، كان

(١) ابن الدهان، الديوان، ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٨.

وهناك مشهد آخر يخبيء في ثناياه الحزن والأسى، فلم يبق على جسد ذلك الصبي إلا القليل من الثياب، فرياح تعصف وشمس تحرق، وبرد في ليل بهيم، وصبر على ذلك من الصبي، صبر جعل الأكباد تتفتت حزنا عليه ونقمة على قسوة صالبيه:

وَمَكْشُوفٌ رَأْسٌ سَائِبَاتٍ بِرُحْبِهِ	وَعَرِيَانٌ إِلَّا مِنْ غَلَلَةٍ حُسْنِهِ
السَّوْفِي عَلَيْهِ كُلُّ تَرَبٍّ بِقُرْبِهِ	تَحُولُ رِيَّاحُ الْجَوِّ فِيهِ وَتُعْصِفُ
لَقَدْ زَالَ ذَاكَ الْحُسْنُ مَذَّأَشْرَقَتْ بِهِ	وَتُشْرِقُ شَمْسُ الصَّيْفِ مِنْ حَرِّ وَجْهِهِ
أُحَقِّقُ بِهَا مِنْهَا فَنَادَتْ بِحَرْبِهِ	مُغَيَّرَةً تِلْكَ الْمُحَاسِنَ إِذْ غَدَا
أَلَا أَعْجَبُ وَأُخْبِرُ عَنْ قَسَاوَةِ قَلْبِهِ	فِيَا عَجَبًا مِمَّنْ أَسَارَ بِصُلْبِهِ
سُجَاعٌ لَهُ الْإِقْدَامُ فِي يَوْمِ حَرْبِهِ	صَبِيٍّ صَغِيرٍ فَائِقُ الْحُسْنِ نَاسِكِ
إِلَى أَنْ أَتَاهُ الْمَوْتُ قَاضٍ لِنُحْبِهِ <sup>(١)</sup>	صُبُورٍ عَلَى هَذِهِ الشَّدَائِدِ كُلِّهَا

إن هذا الرثاء جاء مؤرخا للحادثة التاريخية لهذا المملوك، كما وردت في مصادرها فهو تسجيل لتفاصيل الواقعة، دون تدخل خيال الشاعر، فهو حدث تاريخي تم نظمه شعرا، وإن كان هذا التسجيل قد خبا في طياته حزنا كبيرا يستثار عند الإحاطة بمضمون القصيدة وتصور الحدث كما مثلته الأبيات.

(١) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٨١-١٨٢.

## رثاء أصحاب المهن:

وهذا الرثاء لا يخلو من الظرف والطرافة، وهو رثاء لا يثير حزنا بقدر ما يثير رغبة في السخرية، وربما كان صاحب المهنة المرثي يثير في نفس الشاعر إحساسا بالدهشة أو الإعجاب ببراعته في مهنته ودقة صنعه، فيلجأ إلى رثاء صاحبها.

والحزن في هذا الرثاء تختلف صورته باختلاف المهنة، فتصوير مشاعر الحزن في رثاء القزاز مثلا تختلف عنها في رثاء الملاح، عنها في رثاء الطبيب، فهذا هو الشاعر ابن الغمر، يصور مشاعر الحزن في رثائه قزازا، فلا يبكيه هو، ولا يبكيه الناس، ولكن تبكيه أدوات النسيج التي يعمل بها، ويبكيه المكوك والنير<sup>(١)</sup> والمغزل:

بَكَى فُقِدَكَ الْمَكْوَكُ وَالْمِقْبِضُ السَّنَطُ<sup>(٢)</sup>      وَنَاحَ عَلَيْكَ النَّيْرُ وَالتَّخْتُ<sup>(٣)</sup> وَالْمَشْطُ  
وَأَعْوَلْتِ الْأَلْطَاخُ<sup>(٤)</sup> وَالْمِغْزَلُ الَّذِي      تَدْوِرُهُ فِيهَا أَنَامِلُكَ النَّشْطُ<sup>(٥)</sup>

ثم يأخذ في ذكر مناقبه والإشادة بها ولكنها إشادة بإتقانه المهنة، ولا علاقة لها بسجايا ولا بشجاعة ولا جود ولا تقوى إلى غير ذلك فقد أشاد به في لقط الثوب وتجهيزه:

أَنَامِلٌ لَمْ تُخَلِّقْ لِشَيْءٍ سِوَى السَّدَى<sup>(١)</sup>      وَوَلَقَطٍ وَتَخْلِيصٍ وَيَا حَبْدًا لِلْقَطِ<sup>(٧)</sup>

(١) من أدوات النسيج، ينسج بها، لسان العرب مادة نير.

(٢) المفصل بين الكف والساعد، لسان العرب، مادة سنط.

(٣) وعاء تصان فيه الثياب، لسان العرب مادة تخت.

(٤) كل شيء لطح بغير لونه، لسان العرب مادة لطح.

(٥) الأذقوي، الطالع السعيد، ص ٢٣٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٦، والسدى هو أسفل الثوب وقيل ما مد منه، لسان العرب مادة السدا.

(٧) المصدر نفسه، ص ٢٣٦.

ويأخذ الشاعر في وصف هيئة القزاز وبراعته في أداء عمله، تلك هي المناقب التي بأسى الشاعر لفقدائها، لقد فقد قزاز بارع، يصوره منذ البداية، ومن لحظة استوائه فوق النول يتزر بمنزره، ويجهز المكوك بيده اليمنى، ويقبض على المقبض اليسرى، وكأنه فارس مغوار في ساحة المعركة، وما ساحة المعركة هنا سوى النول، وما سيفه سوى المغزل:

إِذَا أَسْتَوَى فَوْقَ ظَهْرِ النَّوْلِ وَانْبَسَطَتْ  
رَجْلَاهُ فِي الزَّرْزَرَايَا (١) وَهُوَ مُتَّزِرٌ  
وَسَايَرَتْ يَدَهُ الْمَكُوكُ وَاعْتَقَلَتْ  
يُسْرَاهُ مَقْبِضُهَا وَالنَّيْرُ مَنَحُودٌ  
فَمَنْ مُهْلَهْلٌ أَوْ سَيْفٌ بَنُ ذِي يَزْنِ  
أَوْ مِنْ رُبَيْعَةٍ فِي الْهَيْجَاءِ أَوْ زَفْرُ  
كَأَنَّمَا مِغْزَلُ الْأَطَاخِ فِي يَدِهِ  
إِذَا تَنَاوَلَهُ صَمَامَةٌ ذَكَرُ (٢)

ولا ينسى الشاعر في هذا الرثاء الدعاء لهذا القزاز، إنه قزاز يستحق ماء السماء يهمني على قبره، فما كان يظلم في نسجه، فهو قزاز لن يأتي الزمان بمثله:

سَقَى وَأَبِلُ الْوَسْمِيِّ قُبْرَكَ دَائِمًا  
فَمَا كُنْتُ ذَا حَيْفٍ وَمَا كُنْتُ تَشْتَطُّ  
فَمَا تَنْجُ الْأَيَّامُ مِنْكَ آخِرًا  
إِلَى أَنْ يَبْيَضَ الذَّنْبُ أَوْ يُنْبَحَ الْقَطُّ (٣)

ويبدو أن الشاعر ابن الغمر يروق له هذا النوع من الرثاء، فيرثي صاحب مهنة أخرى هو الملاح، ففي تصويره لحالة الحزن التي سادت إثر موته، لا يصور حزنا بشريا، بل حزن الآلات والأدوات التي يعمل بها ويديرها ببراعة، فلم يفنقه الناس

(١) الأزرار: الخشبات التي يدخل فيها رأس عمود الخباء وربما تكون خشبان النول، لسان العرب مادة زرر.

(٢) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٢٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.



خارج البحر، ولكنه المرسي الحزين والمدري والمجداف، فمن لها بعد هذا الملاح يديرها ويستخدمها ببراعة؟:

مَنْ لِحْرَ اللَّبَانِ<sup>(١)</sup> فِي الثَّقَلَيْنِ      وَ لِإِلْقَا الْمَرْسَى عَلَى الْأَنْبُطَيْنِ<sup>(٢)</sup>  
 وَأَعْتَقَالِ الْمِدْرَى<sup>(٣)</sup> وَقَدْ سَكَنَ الرَّيْبَ      حُحُّ بَرُغَمِ السَّفَارِ فِي تَشْرِينِ  
 وَالْمَجَازِفُ مِنْ يَهَا مُسْتَقْبَلٌ      بَعْدَمَا قَدْ أَتَاكَ رَيْبُ الْمَنُونِ<sup>(٤)</sup>

ويبدأ الشاعر في تصوير ذلك الملاح، خلال أداء عمله على ظهر السفينة، ويشيد بما فيه من مناقب، فهو ذو صوت جميل، يسلي الرفاق بنشيدته، ويراوح بين رغبات اللاهين ومشاعر المحبين، إن هذه الفئة هي التي ستبكي هذا الملاح، إذا يفتقدون نشيدته:

مَنْ يَلَايِي لِصُحْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ      بِنَشِيدِ جَزَلٍ وَصَوْتِ حَزِينِ  
 تُطْرِبُ الْأَرْوَعُ الْحَلِيمُ فَيَأْهُو      وَتُسَلِّي بِالْحَبِّ لُبَّ الْحَزِينِ<sup>(٥)</sup>

وهو ملاح بارع، يدير السفينة ببراعة، فيأمن المسافرون على أنفسهم بقيادته:

تَهْتَدِي فِي الظَّلَامِ بِالْقُطْبِ وَالْجَدِّ      بِي وَفِي الصُّبْحِ بِالضِّيَاءِ الْمُبِينِ  
 فَتَنْشُقُ الْبِحَارَ فِي اللَّيْلِ شَقًّا      حَرَكَاتٍ تَوْلَدَتْ مِنْ سُكُونِ  
 كَانَتْ الْمَرْكَبُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا      حَرَمًا أَمِنًا كَحِصْنٍ حَصِينِ  
 فَهِيَ الْيَوْمَ بَعْدَ فَقْدِكَ عَطْلٌ      بَلْ حَطَامٌ مُلْقَى لِيَوْمِ الدَّيْنِ<sup>(٦)</sup>

(١) تطلقه العامة على الحبل الذي تقاد به السفينة، الطالع السعيد، ص ٢٣٧، هامش ٣.

(٢) النبط هو الماء الذي يخرج من قعر البئر إذا حفرت، لسان العرب مادة نبط.

(٣) شيء يعمل من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه، لسان العرب مادة دري.

(٤) الأدقوي، الطالع السعيد، ص ٢٣٧.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

إن رثاءه لهذا الملاح يخلو من دعاء له، فقد اكتفى الشاعر بالإشادة به حين صور براعته في عمله، ولكن هل تراه أثار حزنا أم رغبة في السخرية؟ ربما يتولد الحزن حين يجعل الشاعر موت هذا الإنسان البسيط موضوعا للدعابة.

أما رثاء الأطباء فكان ذا جانبين، جانب جاد وآخر هازل، يأخذ شكل الهجاء، أما الجانب الأول فيمثلته الشاعر يوسف بن هبة الله بن مسلم في رثائه الطبيب ابن جميع، والشاعر عز الدين الغنوي في رثائه الطبيب أفضل الدين الخونجي، فقد صور الشاعر في رثائه ابن جميع مشاعر الحزن والأسى التي ألمت به لفقده، فبكى الدمع وذرف الدم:

أَعْيَنِي بِمَا تَحْوِي مِنَ الدَّمْعِ فَاسْجَمِي      وَإِنْ نَفَذْتَ مِنْكَ الدَّمْعَ فَيَسْجَمِي  
فَحَقٌّ بَأَن تَذْرِفِي عَلَيَّ فَقَدْ سَيِّدِي      فَقَدْنَا بِهِ فَضْلَ الْعِلْمِ وَالْكَرَمِ<sup>(١)</sup>

ويعد الشاعر هذا الحزن وفاء وإخلاصا يكاد لا يفي الطبيب حقه:

فَلَا تُعْذِلُونِي إِنْ بَكَيْتُ تَأْسُفًا      فَقَدَرُ عَظِيمِ الحَزَنِ قَدْرُ الْمُعْظَمِ  
وَوَاللَّهِ مَا وَفَيْتُ وَإِحْسَابُ حَقِّهِ      وَلَوْ أَنَّ جِسْمِي كُلُّ عَيْنٍ بِمِرْزَمِ<sup>(٢)</sup>

والشاعر حين يبكي الطبيب الفقيد إنما يبكي فيه فضله وعلمه وبراعته، ويبكي مناقب تفنى

حين يفنى أصحابها، فهناك العلم والسؤدد وسداد الرأي، وحل المشكلات الصعبة:

وَأَفْضَلُ أَهْلِ العَصْرِ عِلْمًا وَسُؤْدَادًا      وَأَفْضَلُهُمْ فِي مُشْكِْلِ القَوْلِ مُبْهَرَمِ  
وَأَهْدَاهُمْ بِالرَّأْيِ وَالْأَمْرِ مُبْهَرَمِ      وَأَعْلَمُهُمْ بِالْغَيْبِ عِلْمُ نَقْهَمِ<sup>(٣)</sup>

(١) بن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ٥٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

وليس ابن جميع وحده من يتصف بسعة العلم هذه وسداد الرأي، فهناك الطبيب أفضل الدين

الخونجي، الذي رثاه عز الدين محمد بن حسن الغنوي الضرير الأربلي (٦٤٦هـ):

قَضَى أَفْضَلَ الدُّنْيَا وَلَمْ يُبْقِ فَاضِلٌ	وَمَاتَتْ بِمَوْتِ الخُونَجِيِّ الفُضَائِلُ
فِيهَا أَيُّهَا الحُبْرُ الَّذِي جَاءَ أُخْرَةَ	فَحَلَّ لَنَا مَا لَمْ تَحُلِّ الأَوَائِرُ
وَمُسْتَنْبِطُ العِلْمِ الخَفِيِّ بِفَكْرَةٍ	بِهَا اتَّضَحَتْ لِلسَّائِلِينَ المَسَائِرُ
وَفَاتِحُ بَابِ المَشْكَلَاتِ بِهَا لَنَا	فَلَمْ يَسْمُ لَوْلَاهُ لَهَا المَتَطَاوِلُ
وَحُبْرًا إِذَا قَيْسُ البِحَارِ بِعِلْمِهِ	غَدَا عِلْمُهُ بَحْرًا وَتَلُكُ الجَدَاوِلُ <sup>(١)</sup>

ومن المناقب الأخرى التي وجدت في ابن جميع سعة الصدر، وحسن اللقيا، وبشاشة الوجه،

وحسن الخلق، إنها مزايا يجب أن يتصف بها الطبيب الناجح:

وَأَرْحَبُهُمَّ صَدْرًا وَكَفًّا وَمَنْزِلًا	وَوَجْهًا كَمِثْلِ الصُّبْحِ عِنْدَ التَّبَسُّمِ
وَطَلْقُ المَحْيَا رَائِقُ البِشْرِ بِاسْمَاءَ	وَلَيْسَ بِفِظِّ الخُلُقِ كَالْمَتَجَهِّمِ <sup>(٢)</sup>

أما الطبيب الأفضل، فكان لحسن خلقه محبوبا من أعدائه، كما هو محبوب من أصحابه:

أُتَدْرِي بِمَنْ قَدْ سَارَ حَامِلٌ نَعِيشِهِ	عِدَاهُ أَحَبُّوهُ وَمَنْ هُوَ حَامِلٌ <sup>(٣)</sup>
---	---

إن المتألم في ألمه والمنكوب في خطبه لا يجد أمامه خيرا من ابن جميع يلجأ إليه، لأنه ذلك

الطبيب البارع:

وَأَنْجِدُ مَنْ يَمَمْتَهُ لِمَلَمَةٍ	وَأَنْجِدُ مَنْ أَمَلَتْهُ لِتَأَلُّمِ
وَأَهْدِي إِلَى الداءِ الخَفِيِّ بِعِلْمِهِ	إِذَا جَالَ بَيْنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ وَالدَّمِ <sup>(٤)</sup>

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧٨-٥٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٧٩، وأنظر أيضا الأبيات ٢١، ٢٢، ٢٣ من الصفحة ذاتها.

ولا يختلف الدعاء في رثاء الأطباء عن غيره من الدعاء لكل من رثوا سابقا، بأن يسقيه ماء

السماء وأن يزهر قبره بالحياة مخضرة:

سَقَاكَ مِنَ الوَسْمِيِّ كُلِّ سَحَابَةٍ      تُحِيلُ عَلَيْكَ العَيْنَ ذَاتُ تَوْسُّمٍ  
ولا زالَ مِنْكَ النَّشْرُ يَأْرُجُ عَرْفُهُ      فَيُهْدِيهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا بِمُسْلَمٍ<sup>(١)</sup>

أما الجانب الثاني في رثاء الأطباء، فهو الجانب الهازل، الذي يأخذ فيه الرثاء شكل الهجاء، نرى ذلك في رثاء أبي الحكم للطبيب اليهودي المفشل (٥٥٤هـ)، وإذا كان الرثاء يأخذ شكل الهجاء هنا، فلا بد أن كل القيم التي أشيد بها فيما سبق، سيكون ضدها في هذا الرثاء، حتى الذكرى وصور الحزن معكوسة، فما هو أبو الحكم يعود عن الذكرى ولا يقف على أطلال ذلك المفشل، بل يعرج على قبره، لا ليدعو له، بل ليدعو عليه:

أَلَا عَدَّ عَن ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ      وَعَرَّجَ عَلَى قَبْرِ الطَّبِيبِ الْمُفْشَلِ  
فِيَا رُحْمَةَ اللَّهِ اسْتَهِنِي بِقَبْرِهِ      وَكُونِي عَنِ الشَّيْخِ الوَضِيعِ بِمَعْزِلٍ<sup>(٢)</sup>

ولا يكتفي الشاعر بذلك، بل نراه يهمني عليه بوابل من الدعاء عليه بالعذاب والويل والثبور:

وَكَبَّيْبُهُ فِي قَعْرِ الجَحِيمِ بِوَجْبَانَةٍ      كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ  
فَلَا زَالَ وَكَافَا تَزَجِّيهِ دِيمَةً      عَلَيْهِ بِمَنْهَلٍ مِنَ السَّلْحِ<sup>(٣)</sup> مُسْبِلٍ<sup>(٤)</sup>

وإذا وصف من قبله بطهارة الجسد وعلو المنزلة وسموها، فقد نعت هذا الطبيب بأسوأ

النعوت، ربما ليزيل أي شعور بالحزن والأسى لموته، بل ليستثير مشاعر البغض له:

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ٥٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٢٥.

(٣) لمارق منه من كل ذي بطن، لسان العرب مادة سلج.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء، ص ٦٢٥.

وَأَوْضَعُ مَيْتَ بَيْنِ تَرْبٍ وَجَنِّ دَلِ

وَأُورِدُهُ مِنْ مَائِهَا شَرًّا مِنْهُلٍ (١)

لَقَدْ حَارَ ذَلِكَ اللَّحْدُ أُخْبِتُ جَيْفَةً

سَأْسِيلٍ مِنْ بَطْنِي عَلَيْهِ مَدَامَعِي

---

(١) المصدر نفسه، ص ٦٢٥.

## رثاء الحيوان:

يعد رثاء الحيوان من أشكال الرثاء الساخر، فقد رثى ابن عنين حمار له مات في الموصل، وندبه في الأبيات الأولى من القصيدة، وعد فقدته مصيبة لا تقوى على حملها الجبال، إذ كان الشاعر يعقد على حماره آمالا كبارا، بأن يكون له عونا وسندا فإذا بالموت يأتيه وتخيّب الآمال:

لَيْلٌ يَأْوِلُ يَوْمَ الْحَشْرِ مُتَّصِلٌ      وَمَقْلَةٌ أَبَدًا إِنْسَانُهَا خَضِرٌ  
 وَهَلْ أَلَامٌ وَقَدْ لاقَيْتَ دَاهِيَةً      يَنْهَدُ لَوْ حَمَلَتْهَا بَعْضُهَا الْجِبْلُ  
 تَوَى الْمِصْكُ الَّذِي قَدْ كُنْتُ أَمَلُهُ      عَوْنًا وَخَيْبَ فِيهِ ذَلِكَ الْأَمَلُ<sup>(١)</sup>

ويدعو ابن عنين لحماره بأن يطيب الله تربة حوت جسده، وأن ينزل عليه ماء السماء هطالا، وجاء هذا الدعاء مقدمة تسوغ الحزن على موت الحمار لما يتصف به من صفات تجعل فقدته مصيبة، والدعاء له مسوغا، فمثله يستحق دعاء الشاعر:

لَا تَبْعُدَنَّ تَرْبَةً ضَمَّتْ شَمَائِلُهُ      وَلَا عَدَا جَانِبَيْهَا الْعَارِضُ الْهَيْطَلُ<sup>(٢)</sup>

وهو إذ يدعو له يبدأ بتعداد صفاته الحسنة، فهو حمار نشيط سريع، يكاد يسابق الريح بسرعه، فيتحسر على قوته الزائلة التي كانت تعينه على حمل أي ثقل دون أن يعجزه ذلك:

قَدْ كَانَ إِنْ سَابَقْتَهُ الرَّيْحُ غَادِرُهَا      كَأَنَّ أَحْمَصَهَا بِالشُّوكِ يَنْتَعِرُ  
 لَا عَاجِزًا عَنِ حَمَلِ الْمَقْلَاتِ وَلَا      (بِمَشْيِ الْهُوَيْنِيِّ كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَجِلُ)<sup>(٣)</sup>

(١) ابن عنين، الديوان، ص ١٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤١.

ومن الإعجاب بقوة الحمار ينتقل الشاعر إلى وصف شكله وبنيتّه، فهو ذو بنية قوية ممتلئ الجنين، لا ضمور فيه ولا هزال، صبور على الجوع والعطش في هجير الصيف، وأما صوته ونهيقه الذي يمض الأذن أن تسمعه، فهو في مسمع الشاعر أجمل من لحن يطرب، فعين الرضا عن كل عيب كليلية، وحب الشاعر لحماره جعله يسمع في نهيق حماره ألعانا عذبة:

مُكَمَّلُ الخَلْقِ رُحْبُ الصَّدْرِ مُنْتَفِخُ الـ	جَنِينٍ لَا ضَامِرٍ طَاوٍ وَلَا سَغِيلُ
يَطْوِي عَلَى ظَمًا خُمَسًا أَضَالِعُهُ	فِي بَيْضَةِ الصَّيْفِ وَالرَّمْضَاءِ تَشْتَعِلُ
يُرْجِعُ النَّهَقَ مَقْرُونًا وَيَطْرِبُنِي	لَحْنًا كَمَا يُطْرِبُ الْمَزْمُومُ وَالرَّمْلُ <sup>(١)</sup>

ولو كانت الحياة تفتدى بالمال، لافتدى ابن عنين حماره بماله، ولكنها سنة الموت وحتميته التي يقف الشاعر أمامها مسلما مستسلما، فكل مخلوق لا بد إلى الموت صائر، والشاعر في حديثه هذا عن الموت إنما يعزي نفسه بموت الحمار:

لَوْ كَانَ يُفْدَى بِمَالٍ مَا ضُنِنْتُ بِهِ	وَلَمْ تُصَنِّ دُونَهُ خَيْلٌ وَلَا خَوْلُ
لَكِنَّهَا خَطَاةٌ لَا بَدَّ يَبْلُغُهَا	هَذَا الْوَرَى كُلُّ مَخْلُوقٍ لَهُ أَجَلٌ <sup>(٢)</sup>

(١) ابن عنين، الديوان، ص ١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤١.

## الفصل السادس

### ظواهر فنية في شعر الرثاء

بناء القصيدة

الصورة الشعرية

سمات أسلوبية



## بناء القصيدة:

قسم النقاد العرب القدماء - في حديثهم عن القصيدة العربية - القصيدة إلى أجزاء ثلاثة: المطلع والتخلص ثم الخاتمة، واشترطوا على الشاعر أن يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء<sup>(١)</sup>، وما الحديث عن هذه الأجزاء الثلاثة سوى حديث عن وحدة القصيدة، ولكنها وحدة شكلية تقوم على التدرج والتسلسل الذي يفضي فيه موضوع إلى آخر بعلاقة تسمى التخلص، بحيث تتركب القصيدة في النهاية من أقسام أساسية<sup>(٢)</sup>.

ولم يترك النقاد أمر هذه الأقسام مفتوحاً للشعراء، بل اشترطوا على الشاعر أن يناسب ويلائم ملاءمة دقيقة بين المعاني في كل قسم من هذه الأقسام، وعد ابن الأثير ذلك دليلاً على براعة الشاعر وقوة تصرفه، بحيث تكون المعاني مترابطة متماسكة يفضي كل معنى إلى الآخر، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفرافاً<sup>(٣)</sup>. وأخذ كثير من شعراء مصر والشام في العصرين الفاطمي والأيوبي بهذا المعنى والمفهوم لوحدة القصيدة، فقسّموا قصائدهم إلى أقسام، يفضي كل قسم إلى الآخر في كثير من الأحيان، بينما لا يحالفهم التوفيق في أحيان أخرى، فنجد الشاعر أجاد في بعض القصائد، فتأتي مثلاً في الجودة، وقصائد أخرى نجدها باهتة ضعيفة جامدة، كما نجد هذا التفاوت بين الشعراء في الموضوع الواحد في كلا العصرين علماً بأن السمات الفنية لكليهما تكاد تكون واحدة؛ ولناخذ مثلاً على هذا التفاوت من رثاء المرأة، عند شعراء رثى كل منهم أمه، فهذا أمية بن أبي الصلت

(١) الجرجاني، الوساطة، ص ٤٧.

(٢) محمود السمرة، القاضي الجرجاني، ص ١٨١-١٨٢.

(٣) ابن الأثير، المثل السائر، ج ٣، ص ١٢١.

يرثي أمه في قصيدة، يراعي في مطلعها ما يوحي للقارئ بموضوع القصيدة، وينشر فيها جو

الحنن من البداية، فيقول مفتتحاً قصيدته:

مَدَامِعُ عَيْنِي أَسْتَبْدِلِي الدَّمْعَ بِالدَّمِ  
وَلَا تُسْأَمِي أَنْ يُسْتَهْلَ وَتَسْجُمِي  
لِحَقِّ بَأْنِ يُبْكِي دَمًا جَفْنٌ مَقْلَتِي  
لَأَوْجِبُ مَنْ فَارَقْتُ حَقًّا وَأَلْزَمُ<sup>(١)</sup>

ولم يأخذ الشاعر برثاء أمه بعد هذا المطلع، بل قدم لرثائها بالبكاء على أخلائه وأصدقائه

الذين طوتهم القبور وشتت شملهم:

أَخْلَاءُ صِدْقٍ بَدَدَ الدَّهْرُ شَمْلَهُمْ  
فَعَادَ سَحِيلًا مِنْهُمْ كُلُّ مُبْرَمٍ  
طَوَتْ مِنْهُمْ الْأَحْدَاتُ أَوْجَهُ أَوْجِهِ  
وَأَيْمَنَ أَيْمَانٍ وَأَعْظَمَ أَعْظَمٍ  
فَقَدْ كَثُرَتْ فِي كُلِّ أَرْضٍ قُبُورُهُمْ  
كُكْتَرَةَ أَشْجَانِي وَلَهْفِي عَلَيْهِمْ<sup>(٢)</sup>

فبدأ الشاعر بالبكاء على المجموع، ليخص بعد ذلك الجزء الأهم والأعز، وهو أمه، فخصص الجزء الثاني من القصيدة لرثائها، إذ اقتصر رثاؤه لها على البكاء والحسرة، وتصوير مدى الألم الذي يعانیه ويعيشه، وحالة اليأس التي يحياها، ويتخلص إلى وصف حاله تلك بقوله:

رَزَيْتُ بِأَحْفَى النَّاسِ (بِي) وَأَبْرَهُمْ  
وَأَكْبَرُ بِفَقْدِ الْأُمِّ رِزَاءً وَأَعْظَمُ<sup>(٣)</sup>

ويلتفت بعد ذلك مباشرة إلى ضمير المخاطب، في بثه شكواه للألم الراحلة، وربما جاء الالتفات إلى هذا الضمير لإحساس الشاعر بقرب أمه الروحي منه، وإن كان الجسد غائبا، فالشكوى وبث الأحزان لا يكون لغائب

بل لموجود حاضر:

(١) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

فَأَصْبَحَ دُرُّ الشَّعْرِ فِيكَ مَنْظَمًا      وَأَصْبَحَ دُرُّ الدَّمْعِ غَيْرَ مَنْظَمٍ  
تَصَرَّمْ أَيَّامِي وَأَمَّا تَلْهَفِي      فَبَاقٍ عَلَى الْأَيَّامِ لَمْ يَتَصَرَّمِ  
كَأَنَّ جُفُونِي يَوْمَ أَوْدَعْتُكَ الثَّرَى      تَضْحَنُ عَلَى جَيْبِ الْقَمِيصِ بَعْنَدِمِ  
يُهَيِّجُ لِي الْأَحْزَانَ كُلَّهَا فَمَا أَرَى      سَوَى مَوْجِعٍ لِي بِأَدْكَارِكَ مُؤَلِّمِ<sup>(١)</sup>

وبالرغم من أن الشاعر حرص على البديع في رثائه هذا، إلا أن هذا الحرص لم يسلب الألفاظ رقتها، وحزنها وشفافيتها، إذ عمد فيها الشاعر إلى تصوير الانفعالات النفسية التي تمور في داخله، مما أضفى على رثائه مزيدا من الشفافية، التي تتبدى في ذلك المشهد الذي يرسل فيه طرفه، يبحث عن أمه فلا يجدها، فيعود حاملا مزيدا من نار الحزن بين الضلوع، ومزيدا من الأرق، ويأسا من عودتها ولقائها مرة أخرى:

وَأُرْسِلُ طَرْفًا لَا يَرَاكَ فَأَنْطَوِي      عَلَى كَيْدِ حَرَى وَقَلْبِ مَكْلَمِ  
وَمَا أَشْتَكِي فَقَدْ الصَّبَاحُ لِأَنْتَنِي      لِفَقْدِكَ فِي لَيْلٍ مَدَى الدَّهْرِ مُظْلِمِ  
وَمَا لَيْلٌ مَنْ وَارَى التَّرَابَ حَبِيبُهُ      بِأَقْصَرُ مِنْ لَيْلِ الْمُحِبِّ الْمُتَبِمِ  
فَكَمْ بَيْنَ رَاجٍ لِلِإِيَابِ وَأَيْسٍ      وَأَيْنُ (جَمِيلٌ) فِي الْأَسَى مِنْ (مُتَمِّمِ)<sup>(٢)</sup>

وإذ افتتح الشاعر قصيدته برثاء أحبائه وأصحابه، فقد ختمها برثاء الناس جميعا، رثى موت الوفاء فيهم والإخلاص، وكأنه في ذلك يعرض لنقيض الأم في وفائها وإخلاصها، وهو في حديثه عنهم يبني هذا الرثاء على الطباق والتضاد، ربما ليتناسب هذا الأسلوب مع طبيعة الناس الذين يعيشون بوجهين متناقضين، إنه التضاد في الإحساس والسلوك:

وَلَمْ يَبْقُ فِي الْبَاقِينَ حَافِظُ خُلَّةٍ      فَعِشْ وَاحِدًا مَا عِشْتَ تَتَجُّ وَتَسْلَمِ

(١) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٤٣.

فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا صَدِيقًا لِمُوسِرٍ      حَسُودًا لِمَجْدُودٍ عُدُوًّا لِمَعْنَمٍ  
وَكُنْتَ إِذَا اسْتَبَدَلْتَ خِلًا بغيرِهِ      كَمُسْتَبَدَّلٍ مِنْ نِتْبٍ قَفِيرٍ بِأَرْقَمٍ<sup>(١)</sup>

وإن كان أمية بن أبي الصلت قد جعل مطلع قصيدته في بكاء الأخلاء والأحبة، ليتخلص منه إلى رثاء أمه، فإن الشاعر أبا الحسن الصقلي لم يقدم لقصيدته بشيء، إذ بدأ بالموضوع مباشرة، فنعى أمه من البيت الأول، وكان الحدث أو الفجيجة كانت بالنسبة للشاعر أهم من كل المقدمات، فجاء تعبير الشاعر مباشرا وسريعا في التعامل مع الحدث، فموضوع القصيدة واحد، ومغزاها أيضا، والفكرة التي تلح على الشاعر محددة، ألا وهي فكرة الموت، فبدأ قصيدته بقوله:

يُكَلِّ وَالِدَةَ تُقَدِّى وَمَا وَلَدَتْ      زَهْرَاءُ طَيِّبَةُ الْأَعْرَاقِ مَذْكَارُ  
أَحْلَاهَا مِنْ نُرَى عُدْنَانَ فِي شُرْفٍ      عَالِي الذَّرَى مَا لَهُ مِنْ ذَا الْوَرَى جَارُ<sup>(٢)</sup>

أما القسم الثاني من القصيدة، فللمكان فيه وجود كبير وملاحظ، إذ يأخذ الشاعر في وصف الطريق المؤدية إلى قبر أمه، ربما بدافع الحب لهذه الأمكنة التي مرت بها الأم في طريقها إلى القبر:

قُلْ لِلْجَنُوبِ إِذَا وَافَتْ مُسَلَّمَةً      وَاسْتَصْحَبَتْهَا عَشِيرَاتٌ وَأَسْحَارُ  
عُوجِي عَلَى مَسْجِدِ الْأَقْدَامِ وَأَعْتَمِدِي      سَمَتْ الشَّمَالِ وَلَا يَأْخُذُكَ تَسْيَارُ<sup>(٣)</sup>

ويعبر الشاعر عن حزنه لموتها بأسلوب بعيد عن البكاء وذرف الدموع والندب، بل نجد حزنه هادئا وادعا منسابا، إن حزنه يتجلى في ذلك الذهول الذي استوطنه من رحيل أمه بسرعة،

(١) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١٤٣.

(٢) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨-٢٩.

وذهول الذي استيقظ من حلم جميل على واقع مؤلم، حلم الحياة مع الأم وبها، وألم الصحو على

فقدانها، إنه في حزنه هذا يعرض لغفلة الإنسان عن الموت في أوقات سروره:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ فِي الْقَاطِنِينَ مَعِي      مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْمَ زُورًا  
لَا غُرْنِي أَمَلٌ مِنْ بَعْدِهَا أَبَدًا      هِيهَاتُ كُلٌّ مِنْ التَّأْمِيلِ غَرَارًا  
مَنْ كَانَ يُخْبِرُنِي وَالِدَارُ جَامِعَةً      أَنَّ الْأَحْيَاءَ بَعْدَ الْعَيْنِ آثَارُ<sup>(١)</sup>

ولا يكاد الشاعر في هذه القصيدة يستقر على نسق محدد في بنائها، فما أن يخرج الشاعر من موضوع، حتى يعود إليه بعد عدد من الأبيات حول موضوع آخر، ففي الأبيات الخمسة الأولى نعى الشاعر أمه وأشار إلى حزنه بموتها، ثم دعا لها ببيتين، وبعد الدعاء أخذ يصف الطريق المؤدية إلى قبرها، ليعود إلى الدعاء مرة أخرى، وبعد الدعاء ينتقل إلى التعبير عن ذهوله وحزنه لرحيلها المفاجئ، ليتخلص من موتها بحديث عام عن الموت وحثميته، ويعود إلى الحديث عن موتها وحزنه، ليختتم قصيدته بالحديث عن حتمية الموت مرة أخرى.

إن القصيدة وإن كان موضوعها العام واحداً، إلا أن بناءها قلق، ويبدو أن نفسية الشاعر القلقة قد فرضت نفسها على بناء القصيدة.

وفي العصر الأيوبي نجد ابن سناء الملك، من الشعراء الذين رثوا الأم في قصائدهم، وفي قصيدته التي نظمها في رثاء أمه، نلاحظ طول القصيدة مقارنة مع القصيدتين السابقتين لأمية بن أبي الصلت وأبي الحسن الصقلي، فقد بلغ عدد أبيات القصيدة تسعة وستين بيتاً، والقسم الأول من القصيدة استغرق ستة عشر بيتاً، عبر فيها الشاعر عن المصيبة التي ألمت به دون أن يوضح طبيعتها، وأسهب في الحديث عن ذلك الخطب والتقديم له، وأكثر الشاعر من استخدام

(١) أبو الحسن الصقلي، الديوان، ص ٢٩.

البديع والتكرار في هذه القصيدة مما أثر على صدق العاطفة نوعاً ما، فهو في بيتين اثنين يكرر المضاف والمضاف إليه ثلاث مرات:

صَحَّ مِنْ دَهْرِنَا وَفَاةَ الْحَيَاءِ      فَلِيُطَّلَ مِنْكُمْ بُكَاءُ الْوَفَاءِ  
وَلِيُؤَيِّنَ مَا عَقَدْتُمَاهُ مِنَ الصَّبِّ      بِرَبِّ أَنْ تَحُلَّ وَكَاءُ الْبُكَاءِ<sup>(١)</sup>

ويرى الأهواني أن قصيدة ابن سناء الملك ((تفتقر من ناحية التركيب واللغة إلى الطرافة والمفاجأة، وحيوية الأسلوب ليست بمعزل عن حيوية الأفكار والمعاني، وما وراءهما من انفعال عاطفي، فالتفاعل قائم بين الجانبين، وقد زاد الشاعر أبياته ركوداً حين خذله طبعه، وجره تقليده إلى أن ينتقي في مطلع قصيدته هذه الصور التي استخدمها الشعراء في الوقوف على الأطلال، فتوجيه الخطاب في تلك الأبيات إلى رفيقين يسألهما البكاء ويستحثهما عليه، ويقرر عليها أن الوفاء لا يكون إلا بهذه المشاركة، كل هذه أفكار تقليدية نقلها الشاعر من باب إلى باب آخر، فأساء ولم بحسن، لأنه أضعف من شأن عاطفة الحزن بوفاة أعز الناس عليه، وقرنها بعاطفة البكاء على الطلل الذي داعيه فراق الرحلة لا فراق الموت))<sup>(٢)</sup>.

وفي الجزء الثاني من القصيدة ينتقل إلى رثاء أمه فيشيد بمناقبها، ولكن التعبير باهت، وسيطرت عليه الصنعة حتى ذهبت برونق الثناء، فبدأ الإشادة بمناقبها بقوله:

وَأُرَانِي الْبَلَاءَ قَدْ حَلَّ مِنْهُ      بِالتي لَمْ تَزَلْ تَزِيلُ بِلَائِي  
وَالتي بَعْضُ جودِهَا لِي وَجُودِي      وَالتي مِنْ جِبَائِهَا حَوَائِي<sup>(٣)</sup>

فثمة تكرار في هذه الأبيات ومجانسة هي أشبه بالحشو منها بالشعر.

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١.

(٢) الأهواني، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، ص ٤٧.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٣.

ويمضي الشاعر على هذا الطريق في بعض أجزاء القصيدة، ليصل إلى جزء آخر فيها، وهو وصف مشاعر حزنه وأسأه لفقدها، ولكنه حزن تسيطر عليه ألفاظ الفقه والقضاء ومصطلحات اللغة وتعبيرات البلاغة:

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَعْلَمِينَ بِأَنَّ أَبَا	نَكَ بَيْنَ الْوَرَى قَلِيلُ الرِّوَاءِ
ذُو نَحِيبٍ قَاضٍ وَحَزْنٍ غَرِيبٍ	وَسَقَامٍ عَدَلٍ وَبِشْرٍ مُرَائِي
وَقُوَادٍ مَا بَيْنَ هَاءٍ وَمِيمٍ	لَمْ يَكْفَأْ عَنْهُ بِمِيمٍ وَهَاءٍ
فَهُوَ فِي الْمَيْتِينَ يَحْسَبُ حَقًّا	وَمَجَازًا يُعَدُّ فِي الْأَحْيَاءِ (١)

وبالرغم من ذلك فثمة أجزاء أخرى في القصيدة فيها ألق وإشعاع وتدفق في العاطفة وانسياب في التعبير لم يغين العاطفة حقها، منها الجزء الذي يخاطب فيه القبر، ثم يناجي أمه، فلم يغرق الشاعر في هذا المقطع في البديع، ولم يتكلف تكالفا يخرج عن المضمون والفكرة:

فَاحْتَفِظْ أَبَا الضَّرِيحِ بِنَدْرِ	صِرْتِ مِنْ أَجْلِهِ كَمَثَلِ السَّمَاءِ
وَتَرَفَّقْ بِهِ فَإِنَّكَ تُسَدِّي	مِنَّةً جَمَّةً إِلَى الْعُلِيَاءِ (٢)

إنه ذلك الاستسلام للحقيقة، بأن أمه ثوت في هذا القبر بلا عودة، فتهدأ عاطفته المضطربة

ويستسلم للقضاء والقدر، فيعبر عن هذا الاستسلام بقوله:

أَنْتَ عِنْدِي لِمَا حَوَيْتُ مِنَ الطُّهْرِ	رِ يُحَاكِيكَ مُسْجِدٌ يَقْبَأُ
لَكَ حَجِّي وَهَجْرَتِي وَلِمَنْ فِي	كَ تَنَائِي وَمُدْحَتِي وَدُعَائِي
وَسَلَامٌ مِنِّي لَهُ النَّدْنَدُ	وَتُرَى مِنْهُ كِبْوَةٌ لِلْكَبَاءِ (٣)

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج٢، ص٤٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٩٤.

(وإذا انتقلنا إلى المقطع الأخير، وهو مكون من خمسة أبيات تجمع بينها فكرة واحدة وهي مناجاة أمه، وجدنا مطلع الأبيات التالية نجوى رقيقة تتبعث من كلمة "اذكريني يا أم" ثم جعل ذكرها منجيا له من الشقاء والهلاك، وهذا تعبير يوحي بما يصادفه المرء في حياته من شعور بالشقاء والألم إذا ما أحس أن قلب أمه غاضب عليه)<sup>(١)</sup>. فيقول مخاطبا أياها مناجيا:

اذكريني يوم القيامة يا أم م لئلا أعد في الأشقياء  
وأشفعي لي فجننتي تحت أقداءك من غير شبهة وأمتيراء<sup>(٢)</sup>

وعند اختتام الشاعر قصيدته، أوحى للقارئ بقرب النهاية، بتعبيره عن تلك الرغبة الصادقة بأن تنتهي حياته التي أصبحت كالداء، والموت والخلص منها هو الدواء:

عجل الله راحتي من حياتي إنني في الزمان أعظم دائي  
وإذا ما الحياة كانت كمثل الداء كان الممات مثل الدواء<sup>(٣)</sup>

إن القارئ لقصيدة أمية بن أبي الصلت مثلا أو أبي الحسن الصقلي في رثاء الأم، لا يجد ذلك الطول الذي شهدناه في قصيدة ابن سناء الملك، ولا يجد ذلك الإغراق في التكلف البديعي الذي يخرج الرثاء عن مغزاه الأساسي، ألا وهو إثارة مشاعر الحزن والأسى، لا إثارة العقل والتفكير ليلهث وراء إدراك العلاقات البديعية التي تربط بين الألفاظ المختلفة، هذا من جانب، ومن جانب آخر نلاحظ في رثاء الأم عند أمية بن أبي الصلت وأبي الحسن الصقلي وصفا لأثر الحدث على نفسية الشاعر، من ألم وحزن وقلق، مع إشارات قليلة عميقة دالة على موت الأم،

(١) محمد إبراهيم، ابن سناء الملك، حياته وشعره، ص ٩٧.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٥.



ولا نجد ذلك الإغراق والمبالغة في الإشادة بمناقب الأم، كما ظهر عند ابن سناء الملك، الذي بالغ في الإشادة بتقوى أمه بقوله:

أُتَعِبْتُ كَاتِبَ الْيَمِينِ فَكُمُّ أَعْدٍ      قُلْ إِبْتِائَهَا مِنْ الْإِعْيَاءِ<sup>(١)</sup>

ففي مبالغته هذه مخالفة للشرع والمنطق، ومثل هذه المبالغة لا نجدها في رثاء أمية بن أبي الصلت ولا أبي الحسن الصقلي اللذين كان رثاؤهما أقرب إلى الفطرة وانسجام النفس مع طبيعة الموضوع، بينما لا نجد هذا الانسجام مع مشاعر النفس عند ابن سناء الملك، إذ كان في قصيدته كالصانع الذي يختار الكلمات ليرصفها الواحدة إلى الأخرى، مما أثر كثيرا على مضمون القصيدة وبنائها.



وفي رثاء آل البيت، يختلف بناء القصيدة، فهذا الملك الصالح بن رزيك في رثائه الحسين ابن علي، ينظم قصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وأربعين بيتا، يبدأ مطلعها بخطاب يوجهه إلى تربة (الطف)، فالمطلع يشي بحادثة قتل الحسين بن علي الذي قتل في هذا المكان، وكان الشاعر موقفا في مطلعها الذي أشار إلى فحوى القصيدة وموضوعها:

يَا تَرْبَةَ بِالطَّفِّ جَا      دَتَّ فَوْقَكَ الدِّيمُ الهموعه  
وَعَدَا الرَّبِيعُ مُقْبِدًا      فِي رَبْعِكَ الْعَاقِي رَبِيعه  
حَتَّى يَرَى الدَّمْنَ المرو      عه مِنْكَ مَخْصِبَه صَرِيعه<sup>(٢)</sup>

إن ذلك الخطاب الذي بدأ به الشاعر لتربة الطف، ما كان إلا ليتخلص منه إلى مقتل الحسين

ابن علي، فقال متخلصا من المطلع إلى الحدث الذي أراد:

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٢.

(٢) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٢.

فَلَقَدْ سَقَيْتِ مِنَ الرَّبِيِّ      الطَّهْرَ عَنْ ظَمَأِ نَجِيعَةٍ  
إِذْ ضُبِعَ الْقَوْمُ الشَّرِيعَةَ      فِيهِ لِحْفِظِهِمُ الشَّرِيعَةَ<sup>(١)</sup>

وقد بنى الشاعر قصيدته على قضيتين رئيسيتين، الأولى وصفه لمقتل الحسين بن علي والثانية التعريض ببني أمية وهجائهم، والترويج لبعض المبادئ الفاطمية الشيعية، فالقصيدة حوت من الهجاء أكثر مما حوت من الرثاء، وكان الهاجس الذي كان يسيطر على الشاعر هو إثبات حق الفاطميين في الخلافة، وبيان ظلم الأمويين في نزعهم الخلافة من الحسين بن علي، فالقصيدة سياسية مذهبية أكثر منها قصيدة رثاء، ففي الأبيات التي رثى فيها الشاعر الحسين بن علي، بصور عملية قتله فيقول:

مُنَعَّتْ لَذِيذُ الْمَاءِ مِنْ—      هُ كَتَائِبٌ مِنْهُمْ مَنِيعَةٌ  
قَدْ أَشْرَعَتْ صَمَّ الْقَنَا      فُحْمَتُهُ مِنْ وَرْدٍ شُرُوعَةٍ  
غَدَرْتُ هُنَاكَ وَمَا وَقَفْتُ      مُضْرُ الْعِرَاقِ وَلَا رَبِيعَةٍ  
لَمَّا دَعَتْهُ أَجَابَهَا      وَرَعَا فَمَا كَانَتْ سَمِيعَةً<sup>(٢)</sup>

ولا يبدو الحديث عن قتله كافياً، إنها إشارة قصيرة موجزة لا تكاد تثير مشاعر الأسى ولا

يأخذ فيها الحدث مداه.

وينتقل الشاعر بعدها إلى التعريض ببني أمية، مشيراً إلى ضلالهم، مؤكداً الحق الذي يسير عليه الفاطميون، ويستمر الشاعر في هذا الهجاء خلال أبيات القصيدة كلها، مراعيًا فيها الاعتماد على الطباق، فثمة فريقان متناقضان في الفكر والمبدأ، فريق يراه الشاعر على ضلال والثاني على حق، ومن هنا يأتي بناء القصيدة في معظمه على هذا الفن من البديع منطقيًا، كما أن إيقاع

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٢.

القصيدة جاء سريعا، إذ بناها الشاعر على مجزوء الكامل، وربما تأتي سرعتها تعبيرا عن سرعة الحدث، بل إنها توحى بهذه السرعة. وبالرغم من أنها بنيت على الطباق في معظمها، إلا أنها جاءت سهلة في تعبيراتها وألفاظها، ليس ثمة صعوبة أو حتى حرص على الجزالة، بللرغم من أن غرض الرثاء من الأغراض التي تتطلب جزالة وقوة في التعبير والألفاظ، وربما تأتي هذه السهولة، من أن القصيدة أولت هجاء بني أمية وبيان ضلالهم أهمية أكثر من الرثاء، كما أن الشاعر فيها يعرض لحق آل البيت والفاطميين في الخلافة، وهذه الفكرة موجهة إلى الناس عامة، لا إلى فئة الخاصة فحسب، مما يتطلب سهولة في اللغة والألفاظ، ولنلاحظ هذه السهولة في حديثه وتعريضه ببني أمية:

أَبْنِي أُمَيَّةَ إِنْ فَعَا	لُكُم بِهِمْ بِنْسُ الذَّرِيعَةِ
شَبَعَتْ ضِبَاعُكُمْ وَكُم	أَسَدُ لَهُمْ لَمْ يَشْكُ جَوْعَةَ
أَضْحَتْ فَرَائِسُهُ لَكُمْ	وَبِهِ فَرَائِصُكُمْ مَرَّوَعَةَ
وَرُغِبْتُمْ فِي الْمَلِكِ حَيْدٍ	نَ رَضِعْتُمْ مِنْهُمْ ضُرَّوَعَةَ <sup>(١)</sup>

أما خاتمة القصيدة، فلا تبدو موحية بنهايتها، فكأنها استكمال للموضوع، ففي الأبيات السابقة

لخاتمة القصيدة، يعرض الشاعر لجرائم بني أمية في حق آل البيت قائلا:

وَأَشَدُّ مِنْ هَذَا وَلَوْ	عَدَدَتْ كُفْرَهُمْ جَمِيعَةَ
تَضْيِيقُ قَبْرِ مُحَمَّدٍ	وَالْأَرْضِ عَارِيَّةً وَسِيعَةَ <sup>(٢)</sup>

إلى أن يقول في النهاية مخاطبا الحسين بن علي:

صَبْرًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيَّةِ	نَ فَأَنْتَ ذُو الدَّرَجِ الرَّفِيعَةِ
----------------------------------	--

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٤.

صِلَةُ النَّبِيِّ إِلَيْكَ كَمَا  
نَتَّ مِنْهُمْ سَبَبُ الْقَطِيعَةِ<sup>(١)</sup>

ويقابلنا نمط آخر جديد لقصيدة في رثاء القادة، يمثلها العماد الأصفهاني في رثاء نور الدين زنكي، وهي قصيدة اتصفت بحسن المطلع وحسن التخلص والبراعة في الخاتمة، فقد بدأ الجزء الأول من قصيدته بالشوق، وذلك التمني الرائق الحزين، بأن يجتمع الشمل الذي تفرق، وتعود حلاوة الأيام التي أضحت مريرة بالفراق، إنه ذلك التمني الذي يقف فيه الشاعر مذهولاً، تأخذه المفاجأة المحزنة، بأن كل شيء قد تغير وانقلب إلى ضده، ولكنه حزن على الأصدقاء والخلان الذين فارقوه وفارقهم، وتشوق كبير إلى أيام جميلة معهم خلت، ولنلاحظ ذلك التمني الذي بدأ به قصيدته:

تُرَى يُجْتَمِعُ الشَّمْلُ      تُرَى يُتَفَرَّقُ الوُصْلُ؟  
تُرَى العَيْشُ الَّذِي مَرَّ      مَرِيرًا بَعْدَهُمْ يَحِلُّو؟<sup>(٢)</sup>

وينتقل من هذا التشوق إلى الرفاق والأصحاب، إلى ذكريات مرت، يرسم لنا فيها صورة تلك الحياة السعيدة التي كان يحياها، حيث بهجة اللقاء، وجمال الطبيعة وسحر الغناء، ولذات لا نهاية لها:

أَلَا يَا حُبَّذَا بِالْجِزْرِ      عِ ذَاكَ الْبَانُ وَالْأَنْثُلُ  
إِذِ الْأَبْكَارُ لِلْأَصَا      لِي فِي بُهْجَتِهَا تَتَلَوُ  
وَأَنْفَاسُ صَبَا الْأَسْحَا      رِ بِالصَّحَاةِ تَعْتَلُ  
هُدَيْلُ الْوَرْقِ فِي مُورٍ      قَاةٍ، أَفَنَانُهَا هُدَلُ<sup>(٣)</sup>

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ٩٤.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٣٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٥.

وهو يرسم لنا هذه الذكريات مرواحا بين الطباق والجناس، إنها لذة تجانست فيها أسباب السعادة والهناء في كل الأوقات صباحها ومساءها، وهي حياة الغناء يفرد بهجته عليها، فكان بحر الهزج الغنائي بحرهما.

وثمة تساؤل عن علاقة هذا التشوق برثاء نور الدين؟ فلا يبدو هذا الجزء من القصيدة الذي اشتمل على نصفها وهو ما يعادل خمسة وعشرين بيتا، لا يبدو مترابطا في المعنى والموضوع، ولكننا لو نظرنا إلى حسن تخلص الشاعر إلى رثاء نور الدين لوجدنا أن هنالك ما يربط بين الجزء الأول والثاني من القصيدة، إذ يتابع الشاعر في هذا المقطع تشوقه إلى أصحابه وبيكي فراقهم:

عَذَابِي فِيكُمْ عَذْبٌ      وَقَتْلِي لَكُمْ حِلٌّ  
وهذا الدَّمْعُ قَدْ أَعْرَ      بَ عَنْ شَوْقِي فَاسْتَمَلُوا<sup>(١)</sup>

وبديل البكاء والعذاب عند الشاعر هو السلوان والنسيان، وهنا تظهر براعة الشاعر في حسن تخلصه إلى رثاء نور الدين، فقد سأل أصحابه السلوى والنسيان حتى يتوصل إلى الحديث عن موت نور الدين ليبدأ بعدها بالرثاء في القسم الثاني من القصيدة، فقد تخلص الشاعر بقوله:

وَإِنْ شِئْتُمْ عَلَى قَلْبِي      وَسَلْوَانِكُمْ دَلُّوا  
لِفَقْدِ الْمَلِكِ الْعَادِ      لِ يَبْكِي الْمَلِكُ وَالْعَدْلُ<sup>(٢)</sup>

وبنى الشاعر رثاءه نور الدين على أسلوب التضاد والمقابلة، فقد أراد أن يظهر الفرق بين حكم نور الدين وبين من جاء بعده، وما كانت تعيشه الدولة الإسلامية في عهده من رخاء وأمن واستقرار، وما حل بها بعد ذلك من قلق وفقر واضطراب، فيقول في تحول الحال إلى ضده:

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٣٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٦.

وَلَمَّا غَابَ نَوْرَ الدِّينِ      نِ عَنَّا أَظْلَمَ الحَقْلُ  
 وَزَالَ الخِصْبُ والخَيْرُ      وَزَادَ الشَّرُّ والمَحَلُ  
 وَمَاتَ البَاسُ وَالجُو      دُ وَعَاشَ اليَاسُ والبُخْلُ<sup>(١)</sup>

وإذ بنوي الشاعر أن يختم قصيدته وينهيها، نراه يتخلص مرة أخرى تخلصاً موفقاً من الرثاء إلى التعزية، فقد أراد في تعزيتته أن يغطي على كل تلك المقابلة والتحول إلى الضد الذي صوره في الرثاء، والذي قد يفهم منه أنه هجاء لمن جاء بعد نور الدين، فهو في بيته الأخير من الرثاء يؤكد على يأسه من أن يعود الزمن كما كان على عهد نور الدين:

وَمَاذَا يَنْفَعُ الأَعْيُ      نٌ مِنْ بَعْدِ العَمَى كَحَلِّ<sup>(٢)</sup>

وتدارك في الأبيات الأخيرة، فلجأ إلى التعزية التي لم تستغرق من القصيدة سوى خمسة أبيات، وربما جاء بها الشاعر من قبيل التقليد الذي اتبعه شعراء الرثاء في قصائدهم بأن ينهوها بالتعزية:

وَلَوْلَا المَلِكُ الصَّالِي      حٌ مَا شُدُّوا وَلَا حَلُّوا  
 وَلَمَّا أَنْ زَكَ النَّجْرُ      زَكَ فِي الكَرَمِ النَّجْلُ  
 وَجَاءَ الفُرْعُ بالمَقْصُو      دِلْمًا ذَهَبَ الأَصْلُ<sup>(٣)</sup>

ويبدو أن أمل الشاعر بخليفة نور الدين كان ضعيفاً، لذا نراه لا يستطيع التماذي في مدحه

فيختم قصيدته، بأن يعلق آماله كلها على الله:

تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ      إِذَا ضَاقَتْ بِِي السُّبُلُ

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٣٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٣٧.

الحموي على هذه القصيدة بقوله: ((وهذه القصيدة يرثي بها ولده، وهي نسيج وحدها وواسطة عقدها))<sup>(١)</sup>.

واستهل الشاعر قصيدته استهلالاً بارعاً، يكشف بوضوح أن الشاعر يريد الرثاء في قصيدته، فقال ابن حجة الحموي في هذا الاستهلال ((ومما يشعر بقرينة الذوق أن الناظم يريد الرثاء قول التهامي:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي  
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارٍ قَرَارٍ  
وما أعلم أن أحدا استهل للمراثي بأحسن من هذه البراعات))<sup>(٢)</sup>.

فكان استهلال الشاعر حديثاً عن الموت والحياة، بل أنه قرر منذ البداية أن الموت حتم على كل إنسان، وما هذه الدنيا سوى محطة، يتوقف فيها الإنسان قليلاً ثم يمضي:

حُكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارِي  
مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارٍ قَرَارٍ  
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِراً  
حَتَّى يُرَى خُبْرًا مِنْ الْأَخْبَارِ  
طُبِعَتْ عَلَى كُدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا  
صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ<sup>(٣)</sup>

والقارئ يدرك من الوهلة الأولى طبيعة موضوع القصيدة، من حسن استهلالها، وكان الشاعر في هذا الاستهلال قد عزى نفسه وواساها، وبث عزاء للناس أجمعين في موت أحبائهم، وكأنه في هذا العزاء وفي هذه الحقيقة أراد أن يكبح جماح حزنه منذ البداية، كما أنه بنى هذا الاستهلال على التضاد الذي يتناسب وفكرة مطلعها، فالدنيا كما قال عنها في أبياته تسير عكس ما

(١) ابن حجة الحموي، خزنة الأدب، ج ١، ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥.

(٣) التهامي، الديوان، ص ٤٧، وانظر العاملي، الكشكول، ج ٢، ص ٢٨٠-٢٨٢، الباخري، دمية القصر، ج ١،

يريد الإنسان، وأنها ضده، وضد رغباته وآماله، وهذا الاتجاه المعاكس يتناسب وأسلوب التضاد في عرضه.

وقد تخلص الشاعر إلى القسم الثاني من قصيدته تخلصاً بارعاً يشي بالمشكلة التي يعاني منها الشاعر، فهو ليس على وفاق مع الفاطميين الذين يعيش في كنف دولتهم، فثمة عداوة، وثمة حق للشاعر يعجز عن أخذه، وهذا العجز جعل أمل الشاعر معقوداً على ذلك الابن لأخذ الحق لأبيه، وهو يشير إلى ذلك في آخر بيت من استهلاله ليتخلص منه إلى ابنه، فيقول:

لَيْسَ الزَّمَانُ وَإِنْ حَرَصْتَ مُسَالِمًا      خُلِقَ الزَّمَانُ عَدَاوَةَ الْأَحْرَارِ  
إِنِّي وَتَرْتُ بِصَارِمٍ ذِي رَوْنَقٍ      أَعَدَّتْهُ لِطِلَابَةِ الْأَوْتَارِ  
زَرْدًا فَأُحْكِمُ كُلَّ مَوْصِلِ حُلُقَةٍ      بِحَبَابَةٍ فِي مَوْضِعِ الْمِسْمَارِ<sup>(١)</sup>

والشاعر في هذه الإشارة لموت ابنه، أراد أن يقدم لراثه، ولكن الرثاء لا يأتي في البداية، فما هذا الابن سوى زرد في حلقة، إنه فرد من قوم يخصهم الشاعر بالمدح والفخر بهم وبفروسيتهم، بكل ما تحمله الفروسية من معانٍ وقيم، ومن هنا يبدأ الشاعر بالإشادة بالعام والفخر به حتى يتوصل إلى الخاص، والجزء الأعلى في هذه الحلقة وهو الابن، وقد تخلص الشاعر إلى الفخر بهم ببراعة أيضاً، فأشار إلى أن هذا الابن ما هو إلا زرد في حلقة من الفرسان، فكيف صور الشاعر هذه الحلقة؟ يقول في الإشادة بهم:

فَدَحُوا فَوَيْقَ الْأَرْضِ أَرْضًا مِنْ دَمٍ      ثُمَّ أَنْثَوُا فَبُنُوا سَمَاءَ غُبَارِ  
قَوْمٍ إِذَا لَبَسُوا الدَّرْعَ حَسِبَتْهَا      سَحْبًا مُزْرَرَةً عَلَى أَقْمَارِ  
وَتَرَى سِيُوفَ الدَّارِعِينَ كَأَنَّهَا      خُلِجَتْ تَمُدُّ بِهَا أَكْفَ بِحَارِ

(١) التهامي، الديوان، ص ٤٨-٤٩.



لَوْ أُشْرِعُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ طَوْلِهَا طَعَنُوا بِهَا عَوْضَ الْقَنَا الْخُطَّارِ<sup>(١)</sup>

ولم يعتمد الشاعر في هذا الفخر على البديع لإظهار ما أراد أن يبرزه من مزايا ومناقب، بل بنى فخره على التصوير المركب، فقد نسج الشجاعة والفروسية من خيوط الصور الجزئية، التي لا تنفصل إحداها عن الأخرى، فإذا ما نفخ فيها الشاعر من روحه وإبداع خياله، استوت مشهدا كليا مركبا من عناصر المعركة الحية، فالحديث عن الموت والحياة، يتناسب وأسلوب التضاد أو الطباق، أما المعركة وساحات القتال، فتحتاج إلى الحركة والصوت واللون، وكل ما تحتاجه المعركة من عناصر التصوير، ومن هذه الحلقة، يتخلص الشاعر إلى الزرد، وإلى الجزء الأخص فيها، فيستثنى من الأسود ليثا حبيبا إلى قلبه، ولم يقل الشاعر شيلا، على الرغم من صغر سن ابنه حين مات، فهو ليث على ما كان يأمل أبوه أن يراه عليه، لا كما هو عليه في حقيقة الأمر، إنها تلك المناقب التي حلم بها الأب وتمناها وبنى عليها الآمال الكبيرة، لذا فإن الشاعر في رثائه ابنه لم يبدأ بالبكاء والحسرة والندب، فليست بدايات القصيدة مكانا مناسباً للبكاء، إذ أراد الشاعر أن يكون بكاءه ابنه نتيجة فقد آمال وأحلام كانت في الابن مرجوة، فيكون الألم حينها أعظم والحسرة أكبر، والبكاء مسوغا، لذا فقد بدأ رثاءه بالإشادة به، واعتمد فيها الشاعر على التصوير، تصوير البطولة والفروسية ومكارم الأخلاق، والتصوير الحركي والصوتي، مشاهد متحركة وملونة وصاخبة قدمها، ليتجلى فيها الابن بطلا لا مثيل له، فالشاعر في مدحه قومه صور شجاعتهم تصويرا عاما اعتمد على عموميات القتال، من لبس للدروع وامتطاء للخيل وهيئة في القتال، وهذا يتناسب مع الفكرة التي أرادها الشاعر، فقد أراد أن يمدح المجموع ليستثنى منه الجزء، فمدح الكل بالعموم، عموم الشجاعة، بمعناها العام وصورتها الشاملة، وإذ أراد أن يستثنى من هذا الكل جزءا خاصا به في المحبة والشغف والرجاء، فقد

(١) التهامي، الديوان، ص ٤٩.

خصص في الإشادة به، الحديث عن شجاعته، ففصل في تصويرها في ساحة المعركة، ولم يركز على عدة ولا عتاد، بل على السلوك الشجاع، فكان الشاعر فنانا اختار جانباً ما، ليؤليه اهتمامه في إبراز ما يريد، ليستثير في القارئ أعلى درجات الإعجاب بشجاعته وفروسيته، فهذا هو الشاعر يصف هذا الليث الابن بقوله:

وَاللَّيْثُ إِنْ بَارَزْتَهُ لَمْ يَعْتَمِدْ	إِلَّا عَلَى الْأَنْيَابِ وَالْأُظْفَارِ
وَإِذَا هُوَ أَعْتَقَلَ الْقَنَازَةَ حَسِبْتَهَا	صِلًا تَابَطُهُ هَزْبَرٌ ضَارِ
رُرْدُ الدَّلَاصِ مِنَ الطَّعَانِ بِرُمَحِهِ	مِثْلُ الْأَسَاوِرِ فِي يَدِ الْإِسْوَارِ
وَيَجُورُ حِينَ يُجْرُ صَعْدَةَ رُمَحِهِ	فِي الْجَحْفَلِ الْمُتَضَايِقِ الْجُرَارِ
مَا بَيْنَ تَرْبٍ بِالدَّمَاءِ مُلْبَسِدٍ	زَلِيقٍ وَنَقَعٍ بِالطَّرَادِ مُنَارِ <sup>(١)</sup>

وهو إذ يريد التخلص من الإشادة إلى بكائه وندبه، يعود إلى البناء المحكم ذاته، يبدأ بالكل، بالشباب الفرسان مصورا إياهم بالكواكب التي إذا اكتملت فلا بد أن تؤول إلى غياب، ومن هذه الكواكب يتخلص إلى الكوكب الأخص، الذي خالف الكواكب فغاب قبل أن يكتمل، بدأ حزنه من ذروته، فالكوكب لم يكتمل والأمل لم يتحقق، إنه ذلك النسيج المحكم والبناء الواعي لكل جزء في القصيدة، فهو يتخلص إلى الابن ثم يدور في صورته، المعنى ذاته بألفاظ مختلفة، فيقول:

قَدْ لَاحَ فِي لَيْلِ الشَّبَابِ كَوَاكِبٌ	إِنْ أُمِّهَلَتْ أَلَتْ إِلَى الْإِسْفَارِ
يَا كَوْكَبًا مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمُرَهُ	وَكَذَا تَكُونُ كَوَاكِبُ الْأَسْحَارِ
أُنْتِي عَلَيْهِ بِأَثَرِهِ وَلَوْ أَنْتَهُ	لَمْ يَغْتَبِطْ أَنْتَبَيْتُ بِالْأَثَارِ
وَهَلَلُ أَيَّامٍ مَضَى لَمْ يَسْتَدِرْ	بَدْرًا وَلَمْ يَمْهَلْ لَوْ قَبِتْ سِرَارِ

(١) التهامي الديوان، ص ٥١.

عَجَلُ الْخُسُوفِ عَلَيْهِ قَبْلُ أَوَانِهِ فَمَحَاهُ قَبْلُ مَظْنَنَةِ الْإِبْدَارِ (١)

إن المعنى يتكرر في الأبيات السابقة، والشاعر لم يبدأ حزنه بعد، فهو يقدم له، ويسير بخطوات مدروسة، فهو يريد أن يبكي ويبكي، يبكي كل ما فقد، ووصف ما آلت إليه حاله بعد موت ابنه وهذا البكاء هو نتيجة لما سبق ذكره من مناقب الابن المرجوة المفقودة، إن ما سيقدمه الشاعر من تصوير للوعته وحزنه سيأتي مسوغا بعد توضيح كل ما ضاع منه بموت ابنه، وفي بكاء الشاعر وحزنه، يتحول إلى بناء يخالف التصوير الذي لجأ إليه في مدحه للابن، فهو هنا يبني بكاءه على التضاد والطباق، فالشاعر يقف في جانب الحياة، والابن في الجانب الآخر - الموت - إنهما الجانبان المتضادان المتقابلان، فيقول معبرا عن ذلك:

وَلَقَدْ جَرَيْتَ كَمَا جَرَيْتَ لَغَايَةٍ	فَبَلَّغْتَهَا وَأَبُوكَ فِي الْمِضْمَارِ
وَلُدَّ الْمُعْزَى بَعْضُهُ فَإِذَا أَنْقَضَى	بُعْضُ الْفَتَى فَالْكَلُّ فِي الْآثَارِ
أَشْكُو بُعَادَكَ لِي وَأَنْتَ بِمَوْضِعِ	لَوْلَا الرَّدَى لَسَمِعْتُ فِيهِ سُرَّارِي
وَالشَّرْقُ نَحْوَ الْغُرْبِ أَقْرَبُ شِقَّةً	مَنْ بَعْدَ تِلْكَ الْخُمْسَةِ الْأَشْبَارِ
فَإِذَا نَطَقْتَ فَأَنْتَ أَوْلُ مَنْطِقِي	وَإِذَا سَكَتَ فَأَنْتَ فِي إِضْمَارِي (٢)

وفي تخلص موفق، نجد الشاعر ينتقل إلى جانب آخر فيه تضاد بين معنيين آخرين هما الشباب والشيب الذي كان أيضا نتيجة لموت الابن، فقد كان الشيب قد بدأ يتسلل إليه عندما رزق بهذا الابن، فهو يقول في إحدى قصائده التي قالها في رثاء هذا الابن أيضا:

(١) التهامي، الديوان، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٣.

إلى الله أشكو ما أجنُّ وإنني  
فقدتكَ فقد الماء في البلد القفر  
على حين جزت الأربعين مصوباً  
ولاحت نجوم الشيب في ظلم الشعر<sup>(١)</sup>

ولكن موت الابن عجل في هذه الشيخوخة فغزته قبل أوانها، وقد توصل الشاعر إلى هذا الموضوع في قصيدته بأسلوب محكم، توصل إليه عن طريق الأرق وإحياء الليالي بالحنن، هذه الليالي التي أغرقت شبابه بفيض من الشيب غزا مفرقه، فيقول:

أحبي ليالي التمّ وهي تميتني  
ويميتهنّ تبلّج الأنوار  
حتى رأيت الصبح يرفع كفه  
بالضوء رفرف خيمة من قار  
والصبح قد غمر النجوم كأنه  
سئل طغى فطما على النوار  
وتلهّب الأحشاء شيب مفرقي  
هذا الضياء شواظ تلك النار<sup>(٢)</sup>

وثمة علاقة بين الشيب والشباب المنقضي وبين الابن الذي رحل، فالشاعر في حزنه وأساءه على شبابه المنقضي، إنما يأسى على ابنه الذي غاب، فقد كان يرى في ابنه تعويضا عن شبابه المنقضي وقوته، وعبر عن هذا الإحساس في إحدى قصائده التي رثى بها ابنه:

ولما أتى بعد المشيب عدلته  
بعصر الشباب الغصّ بورك من عصر  
وقلت شباب ابني شبابي وإنما  
ينقل معني الشطر مني إلى الشطر  
فولي كما ولي الشباب كلاهما  
حميد فقيد طيب العهد والبشر  
إذا ما تولى ابني وولت شبيبتني  
وولي عزائي فالسلام على الدهر<sup>(٣)</sup>

(١) النهامي، الديوان، ص ٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٢-٨٣.

وفي القسم الأخير من القصيدة، نجد الشاعر خالف غيره من الشعراء في قصائد الرثاء، فلم يخصصه للدعاء ولا للبكاء، بل خصصه لنفسه فافتخر بها، وربما يأتي فخره بنفسه مسوغاً، فهاجس الشاعر في رثائه ابنه، كان تلك الآمال التي علقها عليه ليأخذ له حقه من أعدائه، فالشاعر إذن في جو من النزاع والصراع، فرض عليه تلك الصور القتالية في قصيدته، وفرض عليه معاني محددة أو لاها اهتمامه في رثائه، وهذا الهم الذي يورقه يدفعه إلى الفخر بنفسه والتعريض بأعدائه، فهو ذلك الإنسان صاحب الفضل الذي لا يخفى فضله، وصاحب المكارم التي لا يمكن كتمانها، ولا ينسى أن يشير إلى ذلك العدا بينه وبين من يعيش معهم:

ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنْ الْأَوْغَارِ	إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي إِحْرًا مَا
فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ	نُظِرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعْيُونَهُمْ
فَكَأَنَّمَا بَرَقَتْ وَجْهَهُ نَهَارِ	لَا ذَنْبَ لِي كَمْ رُمْتُ كَتَمَ فُضَائِلِي
أَعْنَاقُهَا تَعْلُو عَلَى الْأَسْتَارِ (١)	وَسَتَرْتُهَا بِتَوَاضَعِي فَتَطَلَّعَتْ

وختم الشاعر قصيدته بخاتمة رائعة محكمة جمع فيها بين الفخر بنفسه وهجاء عدوه وبكاء ابنه، إنه مكره وهو الحليم والكريم بأخلاقه وفضائله، على أن يداري جاهلاً يعيش هو في كنفه ولكن فضائله التي يفخر بها لا تغنيه شيئاً عن فقد ابنه، فماذا تفعل اليمنى دون اليسرى؟:

وَلَرُبَّمَا أَعْتَصَدَ الْحَلِيمُ بِجَاهِلٍ      لَا خَيْرَ فِي يَمْنَى بِغَيْرِ يَسَارٍ (٢)

لقد مثلت هذه القصيدة نموذجاً محكماً في نسيجها وبنائها، ومناسبة الأساليب الفنية لطبيعة المعنى والفكرة، فاختار الشاعر لكل فكرة ما يناسبها من الصور والأساليب المعبرة عنها، فألبست كل فكرة ثوبها وزخارفها وصورها الملائمة.

(١) التهامي، الديوان، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٧.

وتمثل قصيدة أبي العلاء المعري في رثاء الفقيه الحنفي أبي حمزة، نموذجاً مختلفاً في بنائها، حيث اعتمد على التمهيد والتقديم لكل فكرة طرقها في هذه القصيدة. فموضوع التمهيد واحد، وإن اختلف أسلوب التعبير، والقالب الذي قدم به، إذ يعتمد على فكرة الموت وحتميته، وبيان أن الحياة والموت نقيضان لا يجتمعان، ففي بداية القصيدة، يتحدث عن فلسفة الموت، ويدعو من البيت الأول إلى عدم البكاء والعيول، لأنه غير مجد، فمن نظر في حقيقة الدنيا وسرعة زوالها، لا يهमे بكاء أو غناء، ويتساوى عنده الأمران، وأتبع هذه المساواة بين الغناء والنواح، بذكر صوت الحمام، لأن العرب تجعله مرة غناء ومرة نواح، فقال:

عَيْرٌ مُجْدٍ فِي مَلْتِي وَأَعْتِقَادِي      نَوْحٌ بَاكِ وَلَا تَرْتَمُ شَادِي  
 وَشَبِيهَ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قِيءَ      سَ يَصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي  
 أَبْكَّتْ تِلْكَمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَدَّ      سَتْ عَلَى فَرَعِ عُصْنِهَا الْمِيَادِ<sup>(١)</sup>

ويوجه المعري تعزية للبشرية جمعاء، يواجههم فيها بحقيقة الموت، فما من أمة إلا وبلدت،

وما هذه الأرض سوى قبور درست وأخرى حلت محلها:

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرَّحْمَ      سَبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ  
 خَفَّفِ الْوُطْءَ مَا أُظُنُّ أَدِيمَ الـ      أَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ<sup>(٢)</sup>

ولا يصرح المعري بحزنه، بل يستعير له ما يوحي بدوامه وعمقه، فيلجأ إلى الحمام، ليشاركه الحزن، ويملاً الفضاء نواحاً وبكاءً، فهو وحده من يراه الشاعر وفيها حافظاً للوداد، ولا ينسى من باد وهلك، وكان أبا العلاء لا يؤمن ببكاء الإنسان وصدق عواطفه، فيشير عليه

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٧١-٩٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٧٤.

بالصمت في أول القصيدة، بينما يؤمن بصدق الحمام وخرنه، فيطلق هذه الحمام تهدل وتتوح  
في فضاء القصيدة، حتى بقطر الحزن من كل بيت فيها، فيقول:

أَبْنَاتِ الْهَدِيلِ أَسْعِدْنَ أَوْ عِدْ  
نُ قَلِيلُ الْعِزَاءِ بِالْإِسْعَادِ  
إِيهِ اللَّهُ دُرُكُنَّ فَأَنْتُنَّ اللَّـ  
وَاتِي يُحْسِنُ حِفْظَ الْوِدَادِ  
بِيَدٍ أُنِّي لَا أَرْضِي مَا فَعَلْـ  
تُنَّ وَأَطَوُّوكُنَّ فِي الْأَجْبَادِ  
فَتَسَابَيْنَ وَأَسْتَعِرْنَ جَمِيعاً  
مِنْ قَمِيصِ الدُّجَى ثِيَابَ حِدَادِ<sup>(١)</sup>

وحين يملأ الشاعر فضاء القصيدة بهديل الحمام ونواحه، ويملاً نفس القارئ بالحزن، وتمثل  
الموت، يتخلص إلى موت أبي حمزة، بادئا بالإشادة به وبمناقبه، وما حققه بعلمه وفقهه وأدبه  
للناس، ولهذا البدء بالمناقب مغزاه، فكأنه أراد أن يبين أن أبا حمزة الذي يتصف بهذه المناقب  
كلها، ليستحق كل ذلك الحزن الذي ملأ أبيات القصيدة السابقة على نبأ موته:

قَصْدُ الدَّهْرِ مِنْ أَبِي حَمَزَةَ الْأَوْ  
ابِ مَوْلَى حِجَاً وَخِدْنَ اقْتِصَادِ  
وَفَقِيهاً أَفْكَارُهُ شِدْنَ لِلنَّعْ  
مَانَ مَا لَمْ يَشِدَّهُ شِعْرُ زِيَادِ<sup>(٢)</sup>

وحين يستشعر أبو العلاء حزن الناس على الفقيه، لا يطلب منهم سوى الصمت، والإكثار  
من التسبيح وتلاوة القرآن، بدلا من البكاء والنحيب:

وَدَعَا أَيُّهَا الْحَفِيَّانِ ذَاكَ الـ  
شَخْصَ إِنَّ الْوَدَاعَ أَيْسُرُ زَادِ  
وَأَتْلُوا النَّعْشَ بِالْقِرَاءَةِ وَالنَّسْـ  
بِيحٍ لَا بِالنَّحِيْبِ وَالتَّعْدَادِ  
أُسْفَ غَيْرُ نَافِعٍ وَأَجْتِهَادِ  
لَا يُؤَدِّي إِلَى غِنَاءٍ أَجْتِهَادِ<sup>(٣)</sup>

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٠-٩٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٨٥-٩٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٨٩-٩٩١.

ويعود الشاعر إلى حديثه عن حتمية الموت، ويتناول جانباً آخر، هو أن الحذر لا يغني أمام الموت شيئاً، وعبر عن هذه الفكرة، بقصة سليمان عليه السلام، كما ترويها الحكاية المزعومة، بأنه أودع ابنه الريح خوفاً عليه، فلم يجده ذلك أمام الموت شيئاً:

خَافَ غَدْرَ الْأَنْبَامِ فَاسْتَوْدَعَ الرَّيْبَ      حَاحَ سَلِيلًا تَغْذُوهُ دُرُّ الْعِهَادِ  
وَتَوَخَّى لَهُ النَّجَاةَ وَقَدَّ أَيُّ      حَقَّنَ أَنَّ الْجِمَامَ بِالْمَرْصَادِ  
فَرَمْتَهُ بِرِ عَلَى جَانِبِ الْكُرِّ      سَيِّئِ أُمَّ اللَّهَيْمِ أَخْتُ النَّادِ<sup>(١)</sup>

وهو في هذا الحديث عن الموت مرة أخرى، يمهّد لحزنه هو على صديقه الفقيه، وكأنه قدم

لنفسه العزاء، وهو عزاء لم يمنع المعري من الإشادة بصديقه، ثم بكائه شعراً وراثاً:

كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مُحَلِّكَ بَعْدِي      يَا جَدِيرًا مِنِّي بِحَسَنِ افْتِقَادِ  
كُنْتُ خِلَّ الصَّبَا فَلَمَّا أَرَادَ      بَيِّنٌ وَافَقْتُ رَأْيَهُ فِي الْمُرَادِ  
فَأَذْهَبَا خَيْرُ ذَاهِبَيْنِ حَقِيقَتَيْنِ      مِنْ سِقْفِيَا رَوَائِحِ وَغَوَادِي  
وَمَرَاتٍ لَوْ أَنَّهُنَّ دَمُوعٌ      لَمْحُونَ السَّطُورَ فِي الْإِنْشَادِ<sup>(٢)</sup>

وينتقل المعري إلى تعزية أخي الفقيه، مراعيًا فيها البناء ذاته، فقبل أن يشرع فيها، يطرق باب الموت، ويدخله هذه المرة من باب الكواكب، بادئًا بزحل أبعد الكواكب، وكأنه أبعدها عن الزوال والأفول، فزحل البعيد، سوف يتناثر ويهلك يوم تتناثر الكواكب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾، والمريخ المتوقد سينطفئ، والثريا الموصوفة بالاجتماع ستغدو فوادي، فكانت هذه الصور مدخلا لتعزية أخي الفقيه، فبعد أن امتلأت نفس هذا الأخ بحتمية زوال كل شيء، يبدأ أبو العلاء بتعزيته:

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ق ٣، ص ٩٩٤-٩٩٩.



زُحُلٌ أَشْرَفُ الْكَوَاكِبِ دَاراً  
مِنْ لِقَاءِ الرَّدى عَلَى مِيعَادِ  
وَلِنَارِ الْمَرِيخِ مِنْ حُدُثَانِ الدَّ  
هَرِ مُطْفِئِ وَإِنْ عَلَتْ فِي اتَّقَادِ  
وَالنَّزْيَا رَهِينَةً بِاجْتِمَاعِ الشَّمْسِ  
مَلٍ حَتَّى تُعَدَّ فِي الْأَفْرَادِ  
فَلْيَكُنْ لِلْمَحْسِنِ الْأَجَلُ الْمَمَّ  
دَوْدُ رَغْمًا لِأَنْفِ الْحَسَادِ  
وَلْيَطْبُ عَنِّ أَخِيهِ نَفْسًا وَأَبْنَا  
ءُ أَخِيهِ جَرَائِحُ الْأَكْبَادِ<sup>(١)</sup>

وكما بدأ أبو العلاء قصيدته هذه، بتعزية الإنسانية جمعاء بحتمية الموت وزوال الدنيا، فهو ينهيها بتعزية البشرية أيضاً، فالموت يصيب القوي والضعيف، وما الإنسان سوى مسافر في هذه الحياة، والنفس في موتها، إنما تعود إلى الأصل الذي انبثقت منه الحياة، كما قال تعالى: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً»<sup>(٢)</sup>.

كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبْتَنِي الْوَرُ  
قَاءُ وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعِمَادِ  
وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيُكْفِيهِ ظِلُّ السَّ  
دْرِ ضَرْبُ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ  
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ  
حَيَوَانٌ مُسْتَحَدَّثٌ مِنْ جَمَادِ<sup>(٣)</sup>

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ١٠٠٠-١٠٠١.

(٢) سورة الملك، آية ٢.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ١٠٠٢-١٠٠٤.

## الصورة الشعرية:

نوع الشعراء في استخدام الصورة الشعرية للتعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم المختلفة، فجددوا في صورهم وأضافوا إليها من فكرهم وعواطفهم وثقافتهم، إضافة إلى تأثير تلك الصور بالظروف السياسية التي كانت تعيشها الدولة الإسلامية من معارك دائمة مع الصليبيين، ولا ننسى أثر الطبيعة المصرية والشامية والمؤثرات الثقافية التي أحاطت بالشاعر، كل هذه العوامل، كان لها أثرها، ووجودها في شعر الشعراء وصورهم.

وثمة صور نكاد لا نجد تغيراً ملموساً يطرأ عليها، فكان الشاعر فيها تقليدياً لم يخرج عن

المألوف.

فالشاعر التهامي في رثائه ابنه، يصور طول ليله وأرقه بعد موته فيقول:

أَبَا الْفَضْلِ طَالَ اللَّيْلُ أَمْ خَانَتْنِي صَبْرِي      فُخِّيلٌ لِي أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْرِي<sup>(١)</sup>

فطول الليل وهذه الكواكب المثبتة في مكانها، يذكرنا بليل (امرؤ القيس) حين قال:

فِيَاكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْمَهُ      بِكُلِّ مَغَارٍ الْفَنَلُ شَدَّتْ بِبَيْدِلٍ<sup>(٢)</sup>

ولم يقف الشعراء كثيراً عند الصور التقليدية، إذ كان لبيئتهم الحظ الأوفى والنصيب الأكبر من صورهم وتشبيهاتهم، وكان للطبيعة مكانها في إحساس الشاعر ووجدانه، فهي بالنسبة له كالكائن الحي، تشاركه أفراحه وأحزانه ويخلع عليها الشاعر أحاسيسه عند الحزن، وتشوقه عند

(١) التهامي، الديوان، ص ٧٧.

(٢) امرؤ القيس، الديوان، ص ١٥٢.

الفرح، فهذا الشاعر التهامي ينسج من الطبيعة صورة بديعية جديدة، إذ يستخدم الصباح والليل والنجوم، ليصوغ منها صورة للشيب الذي غزا سواد شعره بعد موت ابنه، فيقول:

أَحْيِي لِيَالِي التَّمَّ وَهِيَ تَمَيَّتَنِي      وَيَمَيَّتُنَّ تَبْلُجُ الأَنْوَارِ  
حَتَّى رَأَيْتُ الصُّبْحَ يَرْفَعُ كُفَّهُ      بِالصَّوِّءِ رُقْرُقَ خَيْمَةٍ مِنْ قَارِ  
وَالصُّبْحُ قَدْ غَمُرَ النُّجُومَ كَأَنَّهُ      سَيْلٌ طَغَى فُطَمَا عَلَى النُّوَارِ<sup>(١)</sup>

إنه طوفان الشيب الذي تدفق قويا غزيرا على مرج شعر أسود، فلم يبق على شيء من زهر الشباب ونواره، وهو الصبح يرفع كفه بالضياء والبياض، إنه بياض الشيب الذي غمر خيمة شعره الأسود، ولنا أن نتصور تلك السرعة والقوة والتدفق الذي هاجمت به الشيخوخة الشاعر. وقد ظهر تأثير الطبيعة وما فيها من مظاهر جمال على تشبيهات القاضي الفاضل، فصاغ منها لوحة تزخر بالألوان وعناصر الطبيعة الحية، وتنبض بالعواطف والأحاسيس الشفافة الصادقة فيها هو الربيع إذ يزهر نواره، يذكره بالأحبة الراحلين، الذين رحلوا في مقتبل العمر وزهره، فيقول:

قَدْ قَلْتُ إِذْ شَاقَ الرَّبِيعُ بِنُورِهِ:      لَمْ تُنْسِ بَلْ ذَكَرْتَ بِالنُّوَارِ  
أَشَقِيهَا مَا أَنْتَ قَطُّ لِرُشْدِهِ      مَسْقِي مَاءِ جَنَى وَمُثْمِرُ نَارِ  
وَعَسَى دِمَاءُ العَاشِقِينَ إِلَيْهِ قَدْ      سَبَقَتْ بُكُورَ بَوَاكِرِ الأمْطَارِ  
وَعَسَى سَوَادُ قَلُوبِهِمْ فِي قَلْبِهِ      فَمُصَابِهِمْ بِمَوَاضِعِ الإِضْمَارِ<sup>(٢)</sup>

فكل شيء في هذا المشهد يذكر الشاعر بأحزانه، ويربطه الشاعر بها، فتلك حمرة شقائق النعمان الرائقة، لا يرى فيها الشاعر إلا دماء العاشقين التي روت تربتها قبل الماء، وذلك السواد

(١) التهامي، الديوان، ص ٥٤-٥٥.

(٢) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٦.

الذي يتوسط النوار، لا يرى فيه الشاعر سوى سواد الحزن الذي استقر في القلب حتى النوار ذاته، يربطه الشاعر بأحبة رحلوا وهم ما زالوا يتفتحون على الحياة، وإن كان في صورة الشاعر شيء من غرابة، إلا أنها لا تتناسب وجمال شقائق النعمان وذلك الإحساس بالفرح والبهجة التي يبعثه مرآها في نفس الإنسان، فربط الشاعر بين حمرة الورد وحمرة الدماء، جعل في العلاقة تناقرا، خاصة وأنه صور غزارة الدماء وكأنها ماء يروي تلك الأزهار.

وبالمقابل نرى الشاعر محي الدين الشهرزوري يستغل الطبيعة في بلاد الشام، وتلك المشاهد الرائقة فيها، لتكون صديقة له في حزنه، فيستحضر منها أطياف السكينة والهدوء والحياة التي يحلم بها لأبيه في قبره، فإذا بدعائه المجدول بالزهر، والنبت وماء السماء، يزهر صورة رائقة مريحة، تتناسب والذوق السليم، والسكينة التي تطلبها النفس في حالة الحزن والأسى، فما هو يرى في المطر الغزير الذي يغمر الأرض، مصدر حياة لأبيه بعد موته، فيدعو له بسقيا ماء السماء، بكل ما فيه من رحمة وعطاء وخير، يتناسب مع جود أبيه الذي عم كل الناس في حياته، فما كان المطر عند الشهرزوري دما غزيرا، بل رحمة وخيرا وحياة:

سَقَاكَ مَلِيَّتٌ لَا يُزَالُ أُتِيَّتُهُ      كَجُودِكَ يُغْنِي كُلَّ فَجٍّ وَيُقْعِمُ<sup>(١)</sup>

ويحول المطر قبر أبيه إلى روضة تحوي أنواع الزهر والنبت، إنها تلك الروضة الرائقة المزهرة بالحياة، الرقاقة بالجمال، فجاء تعبير الشاعر عنها بلفظ يدغدغ المشاعر بالحب وسحر الحياة ورقتها، الحياة التي ينعم بها الأب في موته، فيدعو له قائلا:

وَجَادَكَ مِنْ نَوْءِ السَّمَائِينَ عَارِضٌ      بِرَوْضِ أَنْمَاطِ التَّرَى وَيُؤْمِنُكُمْ  
عَلَيْكُمْ سَلَامٌ أَهْلَ جِلْقٍ وَأَصِيلٍ      إِلَيْكُمْ يَوْمَ إِلَيْهِ وَدَادٌ مُخَيِّكُمْ

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

سَلَامٌ كُنْشِرِ الرَّوْضِ تَحْمِلُهُ الصَّبَا      سَحِيرًا، وَتَغْرُ الصَّبِيحِ قَدْ كَادَ يُبَسِّمُ (١)

وعمد ابن قلاقس إلى تشخيص الطبيعة، فخلع عليها صفة الكائن الحي، فصورها امرأة تعبر عن أحزانها بكل ما عرفته من وسائل تعبير وندب شاعت في عصرها، فعند موت القاضي الجليس، قامت الطبيعة بدور المرأة النادبة، فناح الجو برعده، ولطم خد السماء ببرقسه، بتلك الحركة الخاطفة التي تأتي وتغيب كالكمف يلطم الخد بتتابع وقوة، ودمع المطر يهمي، واللبليل يحل الضفائر، والفرزح والحزن يشيب ناصية الصبح إنها الطبيعة تلك المرأة الناكلية، شيبها الهم وأفزعها موت القاضي:

لِمَنْعَاهُ قَامَ الْجَوُّ بِالرَّعْدِ نَائِحًا      وَبِالْبُرْقِ مَلْطُومًا وَبِالْغَيْثِ بَاكِيًا  
وَأَسْبَلَتْ الظُّلْمَاءُ سَوْدَ غَدَائِرٍ      عَلَيْهِ أَشَابَ الصَّبْحُ مِنْهَا النَّوَاصِيَا (٢)

وتأثرت الصورة الشعرية أيضا بعلم العصر، وما شاع في المجتمع من ألوان الثقافات المختلفة، فأبو العلاء المعري، يستخدم في تمثله لحالة الحزن التي يريد أن تدوم في قلبه وفاء لصديقه أبي إبراهيم العلوي، فلا يمحوها حزن آخر، يستخدم الكتابة وأدواتها، فهذا الحزن الجديد الذي لا يريده كالممحاء، وهذا القلب قرطاس والأحزان فيه رسم يعلو رسما:

فَيَا قَلْبُ لَا تُلْحِقْ بِتُكْلِ مَحْمَدٍ      سِوَاهُ لِيَبْقَى تَكْلُهُ بَيْنَ الْوَسْمِ  
فَاتِي رَأَيْتِ الْحُزْنَ لِلْحُزْنِ مَاحِيًا      كَمَا خُطَّ فِي الْقُرْطَاسِ رُسْمٌ عَلَى رُسْمٍ (٣)

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٩.

(٢) ابن قلاقس، الديوان، ص ٥٨١.

(٣) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٥٤-٩٥٥.

وهذا عمارة اليمني في رثائه الملك الصالح يستمد صورة الأعمار من الكتابة والتأليف،  
فيصور الأعمار بالصحائف التي تخط بها الأيام تاريخها، ثم لا تلبث أن تمحو هذا التاريخ  
بالموت:

وما هذه الأعمار إلا صحائف      تُوْرَخُ وَقَتًا تَمْحَى وَتَمْحَقُ (١)

ويحوك ابن الساعاتي بعض صورته من عالم الكتابة أيضا، ويركبها فتأتي متناسقة، فيصور  
وميض البرق وسط الأفق الحالك، بصحائف بيضاء يحيط بها من جوانبها الحبر الأسود، فيقول:

كَأَنَّ ابْتِسَامَ الْوَمُضِ وَالْأَفْقِ عَابِسٌ      صَحَائِفُ بِيضٍ فِي جَوَانِبِهَا حَبْرٌ (٢)

ويصور عدة القتال والحرب بأدوات الكتابة أيضا وكأن الجيوش في حربها تكتب تاريخها  
على هذه الأرض وفيها، فالأرض طرس، والرمح الذي يقطر دما ينقط الحروف، والسيوف  
تضع حركات الإعراب، والجيوش المصطفة سطور على هذا الطرس:

غَدَاةُ الْفَلَاةِ الطَّرْسُ وَالرَّمْحُ نَاقِطٌ      وَلِلْمَرْهَفَاتِ الشَّكْلُ وَالْفَيْلِقُ السَّطْرُ (٣)

وينسج القاضي الفاضل صورة لأصدقائه وأحبته الذين ثووا تحت الأرض، فصور أجسادهم  
المصطفة سطورا في صفحة الأرض، وقبورهم عنوانا لتلك السطور:

أَمْسُوا سَطُورًا فِي النَّرَى مُطَوِّبَةً      وَقُبُورَهُمْ مِنْ فَوْقٍ كَالْعُنُوانِ (٤)

وكان القرآن الكريم والثقافة الدينية أحد مصادر الصورة الشعرية، فابن الساعاتي في رثائه  
أباه، يأخذ على نفسه عهدا بأن يخصه بكل قصائده ويحبر هذه القصائد، كي تليق بمقام هذا  
الأب، فيقول مستمدا صورته من قصة موسى مع فرعون، مستخدما عناصر القصة معظمها:

(١) عمارة اليمني، المختار، ص ٢٩٦.

(٢) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٨٦.

(٤) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٨.

وَزُفِّي إِلَىٰ عَلَيْكَ كُلَّ خَرِيدَةٍ      مِنْ النَّظْمِ بِكَرِّ ضَائِقٍ عَنْ كَتْمِهَا الْخِذْرُ  
 كَأَنَّ عَصَا مُوسَىٰ يِرَاعِي وَخَاسِدِي      عَلَىٰ نَظْمِهَا فِرْعَوْنُ وَالْكَلِمُ السَّحْرُ  
 لَهَا فُلُقُ الْبَحْرِ الْخِضْمُ نَفَاسَةٌ      وَأَخْفَىٰ رُؤُوسًا بَيْنَ أَصْدَافِهِ السُّدْرُ<sup>(١)</sup>

ومن معين الثقافة الدينية ومعاني الإسلام، ينهل ابن سناء الملك في تصويره دفن أبيه وتشيعه فأثوابه من السندس، وتلك هي الجموع تشيعه بالتكبير، مما يبرز عنصر الصوت وجو الرهبة الذي يثيره في هذا التشيع، وإذ يوضع الأب في قبره، فثمة موكب من الملائكة يتلقاه بالإجلال والإكبار، إنه يصوره بتلك النفس المطمئنة التي خاطبها الله بأن ترجع إليه راضية مرضية، فالصورة ليست جزئية، بل مشهد يجمع فيه عناصر اللون والصوت والحركة، يرافقها شعور بالرهبة:

رَأَتْ أَنْفُسٌ أَكْفَانَهُ وَهِيَ سُنْدَسٌ      وَإِنْ أَبْصَرَتْهَا أَعْيُنٌ وَهِيَ أَطْمَارُ  
 وَشَبَّعَهُ التَّكْبِيرُ حَتَّىٰ إِذَا نَسَىٰ      تَلْقَاهُ إِجْلَالٌ هُنَاكَ وَإِكْبَارُ  
 فَيَا نَفْسُ فَيْكِ السَّكِينَةُ وَالْهُدَىٰ      وَفَوْقَكَ سِرٌّ فِيهِ اللَّهُ أَسْرَارُ<sup>(٢)</sup>

وقد استوحى القاضي الفاضل صورة قصر العزيز حين كان موثلاً للعلماء والشعراء والفرسان يعيشون أيام المجد والعز فيه، من بيت الله الحرام، حين تجتمع فيه الوفود في موسم الحج، وها هي الوفود في القصر، تتقبل عطايا ذلك الملك العزيز، وعطايا ملوك بني أيوب، وتقبل تلك الأكف التي لا ترى راحتها إلا في العطاء، إنه تقبيل تعظيم وتبرك، كما يقبل الحجيج حجر الكعبة وزمما تبركا وتعظيما، فيقول معبرا عن هذه الصورة:

وَكَمْ قَدْ حَجَّجْنَا فَيْكَ لِلْمَجْدِ كَعْبَةٌ      وَكَمْ قَدْ أَقْمْنَا فَيْكَ لِلْحَمْدِ مَوْسِمًا

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٣.

وَكَمْ قَدْ وَجَدْنَا فِيكَ رَاحَةً رَاحَةً  
تُقَبَّلُ إِذْ تُعْطَى حَاطِيماً وَزُمَزِمَا<sup>(١)</sup>

ويستغل ابن النبيه أيضا ثقافته الدينية، ليقدم صورة مؤثرة في رثائه عليا ابن الخليفة الناصر لدين الله، يصور لنا عرسا يحضر له في السموات السبع، عرسا تنهيا له الحور العين، بالمروط والزينة، أفراس في السماء ومآتم في الأرض، صوت جميل في السماء، وجلبلة نائحة على الأرض، ألوان زاهية وثياب رائقة في السماء، ولون السواد يعم أهل الأرض، فرح واستعداد وانتظار، وحزن وبأس وكمد:

مَأْتَمُهُ فِي الْأَرْضِ لَكِنَّ لَهُ  
عُرْسٌ عَلَى السَّبْعِ الطَّبَاقِ الشَّدَادُ  
فَالخُودُ فِي الْمَسْحِ لَهَا رُنَّةٌ  
وَالْحُورُ تُجَلَى فِي الْمُرُوطِ الْجِسَادُ<sup>(٢)</sup>

ومن سدرة المنتهى في السماء السابعة، يأخذ الشاعر صورة تعبر عن إحساس كبير بالألم والحزن، وعن ذلك الموت المفاجئ لذلك الأمير، فيقول الشاعر مخاطبا الموت:

فَصَفْتُهُ مِنْ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى  
غُصْنَا فُشَلَّتْ بِكُدِّ أَهْلِ الْفُسَادِ<sup>(٣)</sup>

فقد صاغ ابن النبيه صورته هذه، من الألفاظ الموحية بالفكرة التي أراد، فالقصف فيه إحياء بلين الشيء المقصوف، والغصن فيه معنى النضارة، ففي الوقت الذي استوحى فيه بعض الشعراء صورهم من البيئة المصرية أو الشامية، نجد ابن النبيه وقد استوحى صورته من الجنة أجمالها، وهي سدرة المنتهى.

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٢) ابن النبيه، الديوان، ص ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٦.



ومن الشعراء من استوحى بعض صورته من القضاء ورجالاته، ففتيان الشاغوري في رثائه القاضي كمال الدين الشهرزوري، يشخص الشرع ويجسده كائنا حيا، فيجعل له لسانا عيبا بعد جرأته في الجدل والحكم والقضاء، والقضايا امرأة تندب حظها على موت القاضي:

وَلِسَانُ الشَّرْعِ قَدْ أَلِيسَ عَيْبًا      بَعْدَ أَنْ كَانَ جَرِيئًا فِي المَقَالِ  
وَسَمَاءُ الدِّينِ قَدْ رَانَ عَلَى      بَدْرِهَا النَّقْصَانُ مِنْ بَعْدِ الكَمَالِ  
وَالقَضَايَا قَاضِيَاتٌ نَحَبُهَا      إِثْرُهُ حُزْنًا عَلَى تِلْكَ الخِلَالِ<sup>(١)</sup>

ومن العلوم التي استوحى منها الشعراء صورهم واستغلوها في تشبيهاتهم، علم الفلك والنجوم، فابن سناء الملك في رثائه صديقه، يصور برج العقرب، عقربا لادغا له بموت صديقه، وبرج الأسد، أسدا ضاريا أجهز على صديقه بالموت وعلى الشاعر بالكمد:

فِيَا عَقْرَبَ الأَفْلَاقِ لَا زِلْتَ لِادِغًا      وَيَا أُسْدَ الأَبْرَاجِ مَا زِلْتَ ضَارِيَا<sup>(٢)</sup>



وكما تفاعل الشاعر مع ما يحيط بهم من طبيعة وعلم وثقافة، فقد تفاعلوا أيضا مع طبيعة الحروب والمعارك التي كانت الدولة الإسلامية تعيشها وتخوضها، فكان الدهر عدوا يداهم الناس، ومصائبه ونوائبه خيولا دهماً وشهباء أهدها الدهر لغزوهم، وما الأيام والليالي سوى جنود وكتائب لهذا الدهر، يكر فيها على الناس بالموت والهلاك، فتأخذ الحياة عند بعض الشعراء صورة ساحة المعركة، بما فيها من قتال وصراع وكر وفر، صورة مليئة بالاضطراب والحركة والأصوات الصاخبة، صورة يعبر فيها الشاعر عن إحساسه الدائم بالقلق والاضطراب والتحفز،

(١) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٠.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٧.

فلا استقرار في هذه الحياة، هكذا رأى المهذب بن الزبير الحياة، وهو يرثي الملك الصالح طلائع ابن رزيك:

هُوَ الدَّهْرُ فَانظُرْ أَيَّ قَرْنٍ تُحَارِبُهُ      وَقَدْ دَهَمْتُمَا دَهْمَهُ وَأَشَاهِبُهُ  
لَيَالٍ وَأَيَّامٍ يَغُرُّ بِهَا الْوَرَى      وَمَا هِيَ إِلَّا جُنْدُهُ وَكُتَائِبُهُ<sup>(١)</sup>

ولا يتوقف إحساس الشاعر وتفاعله مع طبيعة الحروب التي يعيشها المسلمون عند هذا الحد، بل تأخذ الصورة عنده بعدا آخر، ولكنه بعد يحبه الشاعر هذه المرة ويعتز به ويفخر، إذ يرتبط هذا البعد، وترتبط الصورة بشخصية المرثي وشجاعته وجوده.

فالمعركة هنا تصبح صديقة للشاعر، والطبيعة أيضا تصبح صديقة له، إذ يمزج الشاعر بينهما في صورة مركبة منسوجة بدقة وبإحساس فني مرهف، ففي حين أخذت الأيام صورة الجيش الغازي عند الحديث عن مصيبة موت الملك الصالح، نراها تأخذ شكل الجيش المدافع الصديق عند الإشادة بالملك الصالح، والليل الذي كان رمزا للحداد عند التعبير عن الأحزان في مواقف الحزن، والنجوم التي كانت مقيدة لا تسير حين كان الشاعر يشكو سهاده وأرقه وحزنه، اتخذنا جانبا جديدا، وبعدها جديدا يخدم الإشادة بالمرثي، فيقول الشاعر:

مُخَيَّلٌ لِي أَنَّ الظَّلَامَ عَجَابُهُ      وَأَنَّ النُّجُومَ السَّارِيَاتِ مَوَاكِبُهُ<sup>(٢)</sup>

لقد ارتدى الليل في هذه الصورة ثوبا جديدا هو غبار المعارك التي خاضها الملك الصالح والنجوم التي كانت مقيدة لا تسير، أضحت تسير يحدوها طيف مواكب جيوش الملك الصالح بسيوفها اللامعة والأسنة المشرعة.

(١) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ١٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

والبرق الذي كان يلطم حزنا عند ابن قلاص، والغيث المنهمر من عيون السماء دمعا يتحول

عند المهذب بن الزبير في رثائه إلى سيوف للمرثي لامعات وعطايا وهبات هامعات:

وَأَنَّ الْبُرُوقَ اللَّامِعَاتِ سِوْفُهُ      وَأَنَّ الْغُيُوثَ الْهَامِعَاتِ مَوَاكِبُهُ<sup>(١)</sup>

إن الطبيعة هنا حين ارتبطت بالمعركة وأجوائها، أصبحت عنصرا من عناصر القوة، كما

كانت في المآتم عنصرا حزينا.

وفي رثاء ابن سناء الملك صديقه، يرى الحياة معركة، والدهر فيها غاز والقلب له لواء

يخفق على قمة همه الذي استولى عليه، وما الليالي سوى رماح تقصد الشاعر بالنزال والألم،

والمصائب سيوف ماضية تهوي على ساح قلبه، وإذ يدافع الشاعر عن نفسه أمام هذا المهاجم،

يحول أضلاعه قسيا وقلبه سهما فيقول:

وَلِلدَّهْرِ مِنْ بَعْدِ ابْنِ غَازِ أَلِيَّةٌ      بِأَنَّ لَا يَزَالُ السُّقْمُ لِلجِسْمِ غَازِيَا  
وَأَنَّ لَوَاءَ الْقَلْبِ أَصْبَحَ خَافِقَا      عَلَى مَفْرَقِ الْهَمِّ الَّذِي جَاءَ وَالِيَا  
وَجِدْتُ اللَّيَالِي صِرْنَ فِيهِ عَوَالِيَا      تَطَاعِنْتَنِي وَالنَّائِبَاتِ مَوَاضِيَا  
وَسَوْفَ تُرَانِي عَن قَسِيٍّ أَضَالِعِي      يَقْلِبِي إِذْ أَعْيَانِي الصَّبْرُ رَامِيَا  
وَقَفْتُ أَنَادِي الصَّبْرُ فِي مَعْرَكِ الْأَسَى      قَلَمٌ أَلْقَى فِيهِ مَنْ يُجِيبُ الْمُنَادِيَا<sup>(٢)</sup>

ومن معارك صلاح الدين الأيوبي التي ملأت الآفاق انتصاراتها، نرى العماد الأصفهاني

بيكي أسلحة الحرب حزنا على موت صلاح الدين، فشخص هذه الأسلحة، وخلع عليها سمة

الحياة لتشارك المسلمين أحزانهم:

(١) المهذب بن الزبير، شعر المهذب، ص ١٧٨.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٣٦.

بَكَتِ الصَّوَارِمُ وَالصَّوَاهِلُ إِذْ خَلَّتْ  
مِنْ سُلَّهَا وَرُكُوبِهَا غَزَوَاتَهُ  
يَا وَحِشْتَا لِلْبَيْضِ فِي أَعْمَادِهَا  
لَا تَنْتَضِيهَا لِلْوَعَى عَزَمَاتُهُ (١)



وكما قدم بعض الشعراء صوراً جزئية تعتمد على التصوير في بيت أو أكثر أو التشخيص، فإن من الشعراء من قدم صوراً كليةً محبوكة، بحيث تحوي هذه المشاهد معظم عناصر المشهد التصويري المتحرك، يرسمه الشاعر بعناية، ويواكب الإحساس والشعور عنده حركات المشهد وصوره، فالشاعر التهامي يعرض ويصور مشهداً بطله شخصية واحدة هي الابن، يسلط الضوء على هذه الشخصية من جوانبها المختلفة، فيصورها لنا متفردة في بطولتها، متحركة في ساحة المعركة وحدها، وإن كان الابن في المعركة مع جيش من الفرسان، إلا أن الشاعر لا يريد من هذا الجيش سوى بطل واحد، ينسج من بطولته الصورة التي يريد، ويسلط عليه أضواءً فنه، ليوجه ويحول ذهن القارئ واهتمامه نحو هذه الشخصية، فيحيطه بها، ليحاط الابن بعدها بالإعجاب، يقول الشاعر مصوراً هذا المشهد:

والليثُ إنْ بارزتهُ لمْ يعتمِدْ  
وإذا هو اعتقلُ القنْاةَ حَسِبَتْهَا  
زُرْدُ الدَّلاصِ مِنَ الطَّعَانِ بِرُمْحِهِ  
وَيَجْرُ حِينَ يَجْرُ صَعْدَةُ رُمْحِهِ  
إلا على الأنيابِ والأظفارِ  
صِلًا تَابَطَهُ هَزْبَرُ ضَارِ  
مِثْلُ الأَسَاوِرِ فِي بَدِ الإِسْوَارِ  
فِي الجَحْفَلِ المُتضايِقِ الجَرَارِ  
ما بَيْنَ تَرْبٍ بالدَّمَاءِ مُلْبَسِ  
زَلِيقٍ وَنَقَعٍ بِالطَّرَادِ مُثَارِ

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩.

وَحَمَاكِ عَائَتْ فِي حِمَاكِ وَأَدْخَلَتْ  
عَلَيْكَ الضَّنَى حَتَّى أَبَاحَتْهُ لِلنَّهْبِ<sup>(١)</sup>

وإذ تبوء محاولات الشاعر لإنقاذها من الموت بالفشل، يصور لنا انفعالاته ورد فعله أمام

الموت، انفعالات حركية تتمثل بشق الثياب وانفعالات نفسية تتمثل باحترق القلب أسي وحرنا:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ شَقَّ ثَوْبًا وَإِنَّهُ  
لَفَعَلَ خَلِيٍّ عَنِ تَفْعَلِهِ يُنْبِي

نَعَمْ كِيدِي وَالْقَلْبُ مِنِّي شَقَقَا  
عَلَيْكَ أَسَى هَذَا شِغَافِي وَذَا خُلْبِي<sup>(٢)</sup>

ولا ينتهي رد فعل الشاعر عند هذا الحد، فقواه خارت واعتراه الضعف، وإذ يروم نهوضا

ووقوفاً، ينهار أرضاً:

وَرَمْتُ نُهُوضًا إِذْ عُنَزْتُ فَلَمْ أَقْمِ  
عَلَى قَدَمِي لَكِنْ سَقَطْتُ عَلَى جَنْبِي<sup>(٣)</sup>

ويصور الشاعر حالة الذهول التي أصيب بها، وغياب العقل وتشتت التفكير حين يهيم على

وجهه لا يدري ماذا يفعل ولا يدري ما فعل، وما أن يقول شيئاً حتى ينسأه:

وَأَيْسَرُ مَا بِي أَنِّي مِنْ تَدَلُّهِ  
أُرُوحُ بِلَا زِهْنٍ وَأَغْدُو بِلَا لَبِّ

أَغْيَبُ دَهْوَالًا ثُمَّ أَحْضَرُ فِكْرَةً  
وَأَعْلَمُ مَنْ بِي ثُمَّ أَسْأَلُهُمْ مَنْ بِي<sup>(٤)</sup>

ومن المشاهد التصويرية الأخرى، مشهد دفن صغير من أمراء بني أيوب، وقد صوره

القاضي الفاضل تصويراً صامتاً، يليق برهبة الدفن وحرمة المقابر ورهبة الموت، فهام يحملون

ذلك الأمير الصغير، يصلون به إلى فلاة، حيث يدفن، يودعونه التراب دونما صوت بهدوء

وسكينة، فليس ثمة عويل ولا شق جيوب، ويرافق هذا الدفن مشاعر السكينة والأمل بالله بأن

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٩.

يكون رفيقا للهور العين، إنه ذلك الشعور بالاحتساب والإيمان المطلق بحتمية الموت، ولنلاحظ في هذا المشهد تلك الجموع التي برزت إلى الفلاة بهدوء ودونما صوت:

بَرَزْنَا بِالْأَمِيرِ إِلَى فَلَائَةٍ	يَبِيْتُ طَلَبُهَا عَيْنَ الْأَسِيرِ
وَوَدَّعْنَاهُ قَلْبًا فِي ضُلُوعٍ	وَأُودِعْنَاهُ سِرًّا فِي ضَمِيرِ
وَسَلَّمْنَاهُ دُرَّةَ أَيِّ بَحْرِ	سُنَلَقَاهُ قَرِينُ نُحُورِ حُورِ
رَدَدْنَاهُ مُعَارًا وَأَحْتَسَبْنَا	فَلَمْ نَسْخَطْ عَلَى قَدْرِ الْمُعِيرِ
وَجَدَدْنَا لِلطُّفِّ اللَّهَ حَمْدًا	لِإِمْتَاعِ الْعُلَا بِالْمُسْتَعِيرِ
خَفَضْنَا أَرْفَعَ الْأَصْوَاتِ فِيهِ	عَلَى رَفَعِ الْغَلِيلِ الْمُسْتَنْطِيرِ
فَأَطْلَعْنَا دُمُوعًا مِنْ جُفُونِ	كَمَا ابْتَسَمَتْ شِفَاهُ عَنْ نُغُورِ <sup>(١)</sup>

وثمة تكلف في الصورة في هذه الأبيات، فقد استخدم الشاعر مصطلحات الإعراب من رفع وخفض ليعبر عن كتم الصوت، بالرغم من الحزن الذي يمور في الصدر، وجو الحزن الذي يصوره الشاعر، كل هذا لا يحتمل الالتفات إلى تلك الصنعة التي خفضت من حرارة العاطفة ومن صدق التصوير، فقد استخدم خفض الأصوات أمام رفع الغليل، وثمة عدم انسجام في الصورة التي قدمها في البيت الأخير، فصورة ذرف الدموع بعد الدفن لا يناسبه التشبيه بالابتسامة التي افترت عنها النغور، فالموقف يعبر عن حزن، ولا يستعار للتعبير عن الحزن صورة تدل على الفرح.

وعمد بعض الشعراء إلى تصوير انفعالات النفس وتدايعياتها عند موت أحبائهم، ودفنهم وزيارة قبورهم، يصورون ذلك الافتقاد، وذلك الشوق وحسرة الفقد، فهذا أسامة بن منقذ يصور

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٥.

لنا موقفه وإحساسه عندما زار قبر ابنه، يحدوه الشوق إليه، فيسرع إلى القبر فإذا به ذلك الحاجز الذي يجعل أقرب المسافات أبعداً:

أزورُ قَبْرَكَ مُشْتاقًا فَيَحْجُبُنِي  
ما هيلُ فوقكَ مِنْ تُرْبٍ وَأَحْجارِ  
فَأَنْتَنِي وَدُمُوعِي مِنْ جَوَى كَيْدِي  
تَقِيضُ، فَأَعْجَبَ لِماءِ فاضٍ مِنْ نارِ<sup>(١)</sup>

فالشاعر بصور نفسه وهو يعود أدراجه بعد إحساسه بكل تلك الخيبة، وبكل ذلك الحزن لنتمثله بما يجيش في أعماقه من حزن وألم يفيض دمعا حارقا.

وابن الساعاتي أيضا يصور تلك المشاعر التي تراحمت في نفسه بعد موت أبيه، فجسد إحساسه بالضيق كوليذ رضيع فقد أمه، وإحساسه بالحيرة كسار في ليل بهيم، وصور ذلا وفقرا

حب يعتريه:

كَأَنِّي وَلِيدٌ مُرَضَعٌ يَوْمَ فَقَدِهِ  
وَقَدْ عَزَّ مِنْ أَلطافِهِ المَهْدُ وَالسُّدْرُ  
رَبِيعٌ تَقْضَى مُسْنِي الضَّرُّ بَعْدَهُ  
فُلُوْلا تَقْضِيهِ لَمَّا مُسْنِي الضَّرُّ  
كَأَنِّي سارٍ فِي دِياجٍ بِهيمَةٍ  
وَقَدْ ذُهَبَتْ بِالصَّبْحِ أَيامُهُ العُرُّ  
ذَلِيلٌ وَعِنْدِي عِزَّةُ النَفْسِ وَالنَّقَى  
فَقَيَّرَ وَعِنْدِي جَمَّةُ المَالِ وَالوَفْرُ<sup>(٢)</sup>

وهو إذ يصور مشاعر حزنه وأساه، فإنه في الإشادة به، صور إحساس الناس بالنشوة والاكْتفاء عندما ينهلون من منهل علمه، إنها كنشوة الخمر، فتخال الناس سكارى وما هم بسكارى:

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٨.

(٢) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٤.

وَتِلْكَ الْعُلُومُ الزَّاحِرَاتُ الَّتِي طُمَّتْ  
تَرَى النَّاسَ مَا دَارَتْ سُلَافَةٌ لَحْظِهَا  
فَأَبْلُغُ ذَمًّا أَنْ يُقَالَ هِيَ الْبَحْرُ  
كَأَنَّ بِهِمْ سُكْرًا وَلَيْسَ بِهِمْ سُكْرٌ<sup>(١)</sup>



وعلل بعض الشعراء صورهم وقدموا لها تفسيراً منطقياً يجعلها مقبولة مسوغة، فالشاعر التهامي علل شيب رأسه بأنه نتيجة حزنه وأساء لفقده ابنه، كما الضياء الذي يخلفه اشتعال النار، فنار حزنه هي التي خلفت ضياء الشيب فيقول:

وَتَلْهَبُ الْأَحْشَاءُ شَيْبَ مُفْرَقِي  
شَابَ الْقَذَالُ وَكُلُّ عُصْنٍ صَائِرٍ  
هَذَا الضِّيَاءُ شَوَاطِئُ تِلْكَ النَّارِ  
فَيْنَانُهُ الْأَحْوَى إِلَى الْإِزْهَارِ<sup>(٢)</sup>

واستمد في تعليقه الشيب صورة أخرى، مستمدة من الأشجار والأغصان ونوارها، فالغصن الأخضر الغض لا بد وأن يزهر يوماً، والزهر يزيد جمالاً ويدل على نضج الغصن وعطائه، وهكذا شيبه، فما هو إلا نوار وزهر يدل على العطاء.

وعلل ابن سناء الملك بعض صورته وقدم لها تفسيراً معقولاً، ففي رثائه أباه يشير إلى أنه لا يرضى أن يكون قلبه داراً لأبيه ومأوى، فهو لا يرضى أن يسكن أبوه في

دار متقدة فيها النار:

وما داره قلبي ولا جاره الحشا  
لأن الحشا والقلب حشواهما النار<sup>(٣)</sup>

وعلل القاضي الفاضل دفن صديقه أبي الحسن في التراب بقوله:

وَهَلْ أَجْمَلُ التُّرْبُ فِي صُنْعِهِ  
لِقَاكَ، وَلِلتُّرْبِ أَنْ يُجْمِرَ لَهَا

(١) ابن الساعاتي، الديوان، ج ١، ص ٢٨٤.

(٢) التهامي، الديوان، ص ٥٥.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١١.



وَحَقَّقَ عَلَيْهِ وَأَنْتَ السَّحَا      بِّ، بَأَنَّ يُتَرَشَّفَ تِلْكَ الْحَلَى (١)

فالثرى يحب المطر والماء، وما دام أبو الحسن جوادا كالمطر، فحق للأرض أن تحتويه.  
ومن ملامح الصورة الأدبية، التجديد والإغراب فيها وربما التكلف عند بعض الشعراء، إذ حاولوا أن يأتوا بما هو غير معتاد ولا تقليدي، ومن هؤلاء الشاعر التهامي، فقد رسم لعينه التي جفت النوم صورة جديدة، تتمثل بالجعفون التي ربما قصرت فلا يطبق الجفن على الجفن، وربما كانت عيناه لا جفون لها، ومن هنا لا يستطيع النوم، وهو يقدم لنا هذه الصورة بتساؤل يتجاهل فيه تجاهل العارف فيقول:

قَصَّرْتُ جُفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهُمَا      أَمْ صَوَّرْتُ عَيْنِي بِلا أَشْفَارِ  
جَفَّتِ الْكَرَى حَتَّى كَأَنَّ غِرَارُهَا      عِنْدَ أَغْتِمَاضِ الْعَيْنِ حَدَّ غِرَارِ (٢)

ومن الصور الجديدة التي قدمها التهامي قوله في رثاء ابنه:

جَاوَزْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَزَ رَبِّي      سُتَّانَ بَيْنَ جَوَارِهِ وَجَوَارِي (٣)

وقال ابن حجة الحموي في هذه الصورة: ((ومنها يشير إلى ولده، وهو من المعاني المستغربة)) (٤). فقد جمع في هذه الصورة بين الثناء والمدح بحسن الخاتمة للابن، وبين الهجاء لمن يعيش الشاعر في ظل حكمهم، وهم الفاطميون.

وانظر إليه بصور الفرسان وهم يرتدون الدروع، فالدروع الالامعة سحب قد زررت على أقمار، وهم الفرسان بوجوههم المضيئة:

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٢) التهامي، الديوان، ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه، الديوان، ص ٥٣.

(٤) الحموي، خزنة الأدب، ج ١، ص ٣٥.

قَوْمٌ إِذَا لَيْسُوا الدَّرْعَ حَسِبَتْهَا      سَحْبًا مُزْرَرَةً عَلَى أَقْمَارِ  
وَوَتْرَى سَيْوْفَ الدَّارِعِينَ كَأَنَّهَا      خُلِجَ تَمْدُّ بِهَا أَكْفٌ بِحَارِ<sup>(١)</sup>

والبيت الثاني أيضا، يمثل صورة جديدة، لسيف تمتد من تحت الدروع اللامعة، وكأنها في استطاعتها ولمعانها خلجان تتدفق من بحار، هي الأكف التي اعتادت العطاء.

ومن الصور التي نجد فيها إغرابا طريفا، ما قاله أبو العلاء المعري في وصف حزن

الحمام، في قصيدته التي رثى بها أمه، فقال:

وَحَمَاءِ العِلَاطِ يَضِيقُ فَوْهَا      بِمَا فِي الصَّدْرِ مِنْ صِفَةِ الغُرَامِ  
تَدَاعَى مُصْعِدًا فِي الجِدْرِ وَجَدًا      فَغَالِ الطُّوقُ مِنْهَا بِانْفِصَامِ<sup>(٢)</sup>

فالطوق الذي يحيط بعنق الحمامة، ليس مستديرا من جميع الجهات، ولكن بعضه ينقطع عن بعض، فاخترع الشاعر من انقطاعه صورة ومعنى غريبا، إذ علل سبب انقطاعه بحزنها، ووجدها الذي تراحم في حلقها لكثرتة، فما استطاع حلقها احتماله، مما أدى إلى انتفاخه، ثم تقطع الطوق الذي يحيط به<sup>(٣)</sup>.

ومن صوره الغريبة أيضا، ما وصف به صديقه الفقيه أبا حمزة، من علم واعتكاف على

التأليف والكتابة، فنسج لهذا الاعتكاف صورة مركبة طريفة، فقال:

مُسْتَقِي الكَفِّ مِنْ قَلْبِ زُجَاجٍ      بِغُرُوبِ اليَرَاعِ مَاءِ مِدَادِ

(١) التهامي، الديوان، ص ٤٩.

(٢) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٤، ص ١٤٢٢-١٤٢٤.

(٣) المصدر نفسه، ق ٤، ص ١٤٢٤.

فصور الدواة بالبنر، والقلم بالدلو، والمداد بالماء، فكأنه في تتابع حركة يده لملء القلم بالمداد من الدواة، كمن يتابع حركة يده لملء دلوه ماء من البئر<sup>(١)</sup>.

وقدم فتیان الشاغوري في رثائه القاضي كمال الدين الشهرزوري، صورة جديدة تصور كرم المرثي، صورة تبتعد عن البحر وفيضه، وعن السحب وأمطارها، فقد شبه عطاءه بالضرع الذي كان يدر لبنا، فإذا به يترك شاملا جافا بعد موته، وتلك صورة لم ترد عند غيره من شعراء الرثاء، فيقول:

مَاتَ مَنْ خَلَّفَ أَخْلَافَ النَّدَى      شَوْلًا مِنْ بَعْدِ دُرٍّ وَأُحْتِفَالٍ<sup>(٢)</sup>

ومن الصور الجديدة والمعاني المبتكرة، ما قدمه القاضي الفاضل في رثاء قصر الملك العزيز، فقد صور هذا القصر عظيمًا شامخًا يخشاه ويرهبه كل شيء حتى الرياح، فيصور الرياح وهي تمر عليه مرتاعة خائفة، لا تستطيع اقتحامه في غاراتها، ولكنها تكفي من هجومها أو مرورها بغنيمة العطر الذي التصق بها إذ لامست ترابه وجدرانه، وتعود لتقتسم تلك الغنائم من عطره:

إِذَا سَحَبَتْ مِنْهُ الرِّيحُ دُبُولَهَا      غَدَا عِطْرُ ذَاكَ التُّرْبِ نَهَبًا مُقَسِّمًا  
فَأَيُّ أُرْتِيَاعٍ لِلرِّيحِ شُكَّتْ بِهِ      وَإِنْ قَسَمَتْ غَارَاتُهَا مِنْهُ مَغْنَمًا<sup>(٣)</sup>

ومن صوره الغريبة تشبيهه الدهر بصيرفي مخادع، فإن كان الصيرفي يخدع الناس بالدينار والدرهم، فإن الدهر قد خدع الناس بالأرواح والنفوس:

(١) المعري، ديوان سقط الزند، ق ٣، ص ٩٨٩.

(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩١.

(٣) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٢.

ما الدهرُ إلا صيرُفِي خادِعٌ      لَبَّتْ الخديعةُ مِنْهُ للدِّينَارِ (١)

ومن الشعراء الذين جددوا في صورهم وجاؤوا بها مسبوكة رائعة، ومعانيها غير مطروقة الشاعر ابن النبيه، ففي رثائه الأمير عليا ابن الخليفة الناصر لدين الله، يقدم لنا قصيدة بنى معظم أبياتها على الصورة الأدبية المحبوكة ببراعة، دون أن توحى الصورة بالصنعة والتكلف، ونوع في مصادر صورهِ من كل ما يحيط به من ظواهر ومشاهد، إنها عين الشاعر التي تلتقط الموقف الحياتي، فتصوغه صياغة جديدة، فيبدو الموقف العادي وكأنه يكتشف للمرة الأولى، فمن المواقف التي أفاد منها ابن النبيه وشكلها، موقف الصائغ أو خبير الجواهر وهو يتفحص ما بين يديه من جواهر ثم يختار أجودها وأندرها، وقد صور ابن النبيه الموت بتاجر يضع الجواهر (الناس) على كفه، ويختار الأجود والأعلى، وكأن الأمير علي هو الجوهرة الأجود التي اختارها الموت:

وَالْمَوْتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ      جَوَاهِرٌ يُخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ (٢)

وفي القصيدة العديد من الصور التي تقدم الحديث عن بعضها.  
ومن الشعراء من تكلف في نحت الصورة، حتى أصبحت مموجة باهتة غير مقبولة، فمحمد بن فضل الله، يرثي شابا أمرد من أولاد الجند، متحسرا عليه، إذ استقر تحت التراب، فقال:

عَرُوسُ الْيَلَى طُلِقَتْ عَرْسُكَ تَبَّةً      كَأَنَّكَ مَا اسْتَرَضَيْتَ غَيْرَ الثَّرَى عَرْسًا  
وَقَبْلَكَ الدِّيدَانُ مَيْتًا وَكُنْتَ لَا      تُقْبَلُ مِنْ غَيْدٍ مَرِاشِفَهَا اللَّعْسَا (٣)

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٢) ابن النبيه، الديوان، ص ١٠٤.

(٣) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٨.

فصورة الديقان وهي تقبل ذلك الميت، غير مقبولة للطبع السليم، فلا توحى إلا باللفور، ولا تصور إحساسا بالحزن لدى الشاعر حين يختار الديقان لتقبيل ذلك الشاب.

## سمات أسلوبية:

ارتبط الشعراء ارتباطاً وثيقاً بتراثهم وتاريخهم، واتسعت ثقافتهم وإطلاعهم على مصادر تاريخهم وأدبهم ودينهم، فظهر هذا الارتباط جلياً في أدبهم الذي هو مرآة لألوان الثقافة التي يتمتع بها الشاعر، حتى إنهم استغلوا هذه الثقافات المتنوعة ليرتقوا بمستوى أدبهم وتعبيرهم وأسلوبهم.

ومن صور المعرفة والثقافة التي حرص الشعراء على إيرادها والإفادة منها في شعرهم والارتقاء به، معرفتهم بالنموذج الأكمل والأفضل والأعلى في البلاغة، وهو القرآن الكريم، فاقترضوا من آياته ومعانيه وصوره ليتوصلوا إلى تجويد صورهم ومعانيهم. فأمية بن أبي الصلت في رثاء أمه، يعبر عن حتمية الموت على كل إنسان، فيخاطبه بأن لا مفر له من الموت قائلاً:

أَيُّهَا الْمَبْتَغِي مَنَاصاً مِنَ الْمَوْتِ      رِ رُوَيْدَا فَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ<sup>(١)</sup>

مقتبساً من قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادُوا وَاوَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي رثاء أبي علي حسن الجويني الذي قاله في القاضي الرشيد ابن الزبير، يصف الجويني

نار حزنه التي لا تخبو، بأنها النار ذات الوقود التي أخبر الله عنها في كتابه العزيز، فقال:

حُرَّقِي مَا لِنَارِهَا مِنْ خُمُودٍ      كَيْفَ تَخْبُو وَالنَّارُ ذَاتُ الْوَقُودِ

عُبْرَاتِي يَا أَحْمَدُ بِنُ عَلِيٍّ      صَيَّرْتُ فِي الْخُدُودِ كَالْأَخْدُودِ<sup>(٣)</sup>

مقتبساً في هذه الأبيات من قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص ١١١.

(٢) سورة ص، آية ٣.

(٣) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٧، ص ٢٢٥.

(٤) سورة البروج، آية ٤-٥.

وفي رثاء القاضي أبي يعلى، يصور ابن أبي حصينة نار الحزن عليه، بنار جهنم التي سيصلاها كل من كان آمناً منها في الدنيا، فيقول:

سَيُصَلِّي بِنَارِ الْحُزْنِ مَنْ كَانَ آمناً      بِهِ أَنَّهُ فِي الْحَشْرِ بِالنَّارِ لَا يَصَلِّي<sup>(١)</sup>

مقتبساً معنى البيت من قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا، وَيَصَلِّي سَعِيرًا، إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا، إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ لَنْ يَحُورَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويولي عمارة اليمني في رثائه الملك الصالح، مشاهد يوم القيامة اهتمامه، ليصور الرهبة والفرع الذي أصيبت به الدولة عند موته، ويستمد تعبيراته من يوم كان شره مستطيراً، من السماء التي تمور والنجوم التي تغور، إنها مشاهد يوم الفرع الأكبر:

لَيْتَ يَوْمَ الْأَتْنَيْنِ لَمَّ يَتَبَسَّمُ      عَنِ مَحْيَاهُ لِلْيَالِي تَغُورُ  
طَلَعَتْ شَمْسُهُ بِيَوْمِ عَبُوسٍ      حَيْرِ الطَّيْرِ سُورَهُ الْمُسْتَطِيرُ  
تَرْجُفُ الْأَرْضُ حِينَ يُذَكَّرُ عَنْهُ      وَتَكَادُ السَّمَاءُ مِنْهُ تَمُورُ<sup>(٣)</sup>

فقد اقتبس في البيت الثاني من قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>. وفي البيت الثالث أخذ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾<sup>(٥)</sup>.

وتزداد هذه الظاهرة حضوراً عند الشعراء في العصر الأيوبي، فهذا فتیان الشاغوري في رثائه الملك المغيـث ابن الملك العادل، يرى أن الشمس كورت، ولكنها ليست شمس السماء، بل

(١) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧١.

(٢) سورة الانشقاق، آية ١١-١٤.

(٣) عمارة اليمني، المختار، ص ٢٢٥-٢٢٦.

(٤) سورة الإنسان، آية ٧.

(٥) سورة الطور، آية ٩.

شمس المعالي والمكرمات، مستمداً هذا التكويد من مشاهد يوم القيامة التي صورها الله في كتابه، فيقول الشاعر:

وَرَزَاءٌ كُورَتِ شَمْسُ الْمَعَالِي      لَهُ أَسْفَاً وَأَبْهَجَ مَنْ يَعِيْتُ<sup>(١)</sup>

وهذا المعنى يظهر في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفي القصيدة ذاتها، نلاحظ اقتباساً آخر، حول حتمية الموت الذي سيأتي الإنسان، حتى لو

كان في بروج مشيدة، فيقول الشاعر:

وَلَمْ تَغْنِ الْبُرُوجُ مُشِيدَاتٍ      عَشِيَّةً حُمَّ لِلْأَجْلِ الْحُدُوتِ<sup>(٣)</sup>

ونرى هذا المعنى واضحاً جلياً في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي

بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

ويرسم القاضي الفاضل لحزنه عمراً طويلاً كعمر نوح عليه السلام، ولدمعه فيضاً كطوفان

نوح ولا شيء يحميه من طوفان حزنه ولا دمعه، إنها قصة نوح عليه السلام مع ابنه، تلك التي

ترتسم في مخيلة الشاعر وعقله، فيقول:

حُزْنٌ غَدَّتْ أَعْمَارُهُ نَوْجِيَّةً      وَالْدَمْعُ كَالطُّوفَانِ لَا الْغُدْرَانَ

وَأَنَا أَبْنُ نَوْحٍ، قَبْرُهُ الْجَبَلُ الَّذِي      مَا كَانَ عَاصِمَهُ مِنَ الطُّوفَانِ<sup>(٥)</sup>

(١) فتیان الشاعوري، الديوان، ص ٧٢.

(٢) سورة التكويد، آية ١.

(٣) فتیان الشاعوري، الديوان، ص ٧٢.

(٤) سورة النساء، آية ٧٨.

(٥) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٧.



ويستمد تعبيره هذا من قوله تعالى: «وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ، وَحَالُ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ»<sup>(١)</sup>.

ويظهر تأثر ابن سناء الملك بالقرآن الكريم، بتلك الأمنية التي تمنّاها ذلك المؤمن الذي أكرمه ربه بالجزاء العظيم، فتمنى لو أن قومه يعلمون بما أكرمه به الله، وابن سناء الملك يتمنى لو يعلم الناس بذلك الجزاء الذي أكرم به جده بعد موته، فيقول مقتبسا:

كَمْ قُلْتُ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ يَمَا      هُمْ يَعْلَمُونَ فَلَا تَعْلَمُ يَمَا بِهِمْ<sup>(٢)</sup>  
وقد اقتبس من قوله تعالى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بما غفر لي ربي  
وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ»<sup>(٣)</sup>.

وشرف الدين الحلبي، في رثائه الملك الظاهر، بمدحه بعبثائه الذي كان مذلا للناس أجمعين، فيقول:

مالي أرى الإيوانَ أُصْبِحَ بَابُهُ      قَفْرًا، وَكَانَ جَنَابُهُ مَاهُولا  
فَإِنْ أَكْتَسَى ذُلًّا فَكَمْ قَدْ ذَلَّتْ      لِلسَّائِلِينَ قُطُوفُهُ تَذَلِيلًا<sup>(٤)</sup>  
فالبيت الثاني مقتبس من قوله تعالى: «وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا»<sup>(٥)</sup>.



ولم ينحصر تأثر الشعراء بالقرآن الكريم فحسب، فثمة تأثر بالتراث الشعري السالف من جوانب مختلفة فقد حذا بعض الشعراء حذو القصيدة العربية القديمة، فافتتحوا قصائد الرثاء بذكر

(١) سورة هود، آية ٤٣.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٧.

(٣) سورة يس، آية ٢٦-٢٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٢٤٧.

(٥) سورة الإنسان، آية ١٤.

الأطلال وبكاء المحبوبة والتغزل بها، وشكوى رحيلها وفراقها، فالشاعر عبدالمحسن الصوري، في رثائه أبا القاسم بن ضحى، يبدأ قصيدته بالبكاء والتحسر على انقضاء أيام وصل المحبوبة ولقائها، فيقول:

أطاعَكَ الدَّمْعُ الَّذِي كَانَ عَصَى	فَأَبَكَ دَمًا مَا أَمَكَنَّ الْعَيْنُ الْبُكََا
وعاقِبِ الْعَيْنُ بِدَمْعٍ هَاطِطٍ	أَحَقُّ عِنْدِي بِالْعِقَابِ مَنْ جَنَى
فَطَالَمَا أَمْرَجْتَهُ فِي حَادِقٍ	لَوْلَا الْفُتُورُ قُلْتُ أَحْدَاقُ الظُّبَى
يا لَكَ مِنْ أَيَّامٍ وَصَلٍ سَلَفَتْ	أَعَقَبَهَا الدَّهْرُ بِأَيَّامٍ نَوَى <sup>(١)</sup>

ويأخذ الغزل عند الصوري في قصيدته الرثائية معظم أبيات القصيدة، فالصورة تقود إلى الصورة والإحساس الرقيق يقود إلى إحساس أكثر رقة، حتى لا يكاد رثاؤه لأبي القاسم بن ضحى يحوز من القصيدة سوى عشرة أبيات من أصل سبعة وثلاثين بيتا.

والصوري يبدو تقليديا من حيث افتتاحه بالمقدمة الغزلية، ولكنه لا يبدو تقليديا في طبيعة أسلوبه الغزلي، فقد بنى غزله على البديع، فأخذ من القديم نمط المقدمة، ومن عصره الأسلوب البديعي، فكان أصيلا معاصرا، فالبيت الأول من قصيدته يذكر بمطلع قصيدة أبي فراس الحمداني وهو:

أراك عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتِكَ الصَّبْرِ	أما لِلْهُوَى نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرٌ <sup>(٢)</sup>
--	---

ولكن الصوري، خالف الحمداني في عصيان الدمع، فجاء دمعه مطواعا له، وكأنه أراد أن يقول لنا أنه يأخذ من التقليد اسمه أو إحياءه، الجسد فقط، بينما الروح جديدة، فهي روحه هو وروح عصره.

(١) الصوري، الديوان، ج ١، ص ٥٠.

(٢) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ٦٣.

وفيما يتعلق باللفظ فهو يأخذه من الشعر القديم، ويحرص على أوصاف المرأة التي أحبها العربي القديم وتغنى بها، فيقدمها بشكل جديد، فهذا هو الخلخال الذي تضعه المرأة في ساقها، إنه حليلة أكثر الشعراء من وصفها للتغزل بساق المرأة، فإن كان الشاعر العربي القديم قد وصف خلخال المرأة لا يدور في ساقها، ليتوصل إلى امتلاء تلك الساق وجمالها، فقد رأى الصوري في الخلخال صورة ربما تكون أكثر جمالا، عبر عنها تعبيرا يقوم على المطابقة، التي تبدو جديدة، فالمطابقة هنا بين خلخال من الذهب، وساق تملؤه فضة. لقد أضحي التعبير المتضاد هنا حليلة للخلخال، فلم يخرج الشاعر عن وصف الساق بالامتلاء، ولكنه عبر عن هذا الامتلاء بلفظة (محشوا) أشار إليه بقوله:

وَذَاتِ خُلْخَالٍ مِنَ التَّبْرِ عَادَا  
مِنْ وَضَحِ الْفِضَّةِ مُحْشَوْا حُلَى (١)

وفي تعبيره عن جمال اللحظ والمقلة، يستلهم من جرير صورة تلك العين القتالة، ولكنها ليست في ضعف (عيون) جرير، بل هي قوية لا تخاف، فيقول متغزلا:

وَمُقْلَةٌ قَاتَلَةٌ بِلَحْظِهَا  
لَيْسَ تَخَافُ قَوْدا وَلَا أذى (٢)

ولا ينسى الشاعر القامة الهيفاء التي شبهها القدامى بغصن البان، والبشرة البيضاء والشعر الأسود، مزايا الجمال الذي أحبه الشاعر الجاهلي وتغنى به، فيعرضه الشاعر الصوري في مطابقة وتضاد جميل يظهر الضد بضده:

وَأَهْيَفٍ تَحْسِبُهُ إِذَا بَادَا  
قَضِيبَ بَانَ حَامِلًا بَدْرُ نَجَى  
يَجْمَعُ لِلنَّاطِرِ فِي مَنْظَرِهِ  
إِذَا بَدَا نُورُ الصَّبَاحِ وَالْمَسَا  
ضِدَانٍ لَمْ يَجْتَمِعَا إِلَّا لِمَا  
سَامَ الْوَرَى فِيهِ مَنُونٌ وَمُنَى (٣)

(١) الصوري، الديوان، ج ١، ص ٥١.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥١.

وبالرغم من تجديده في الصورة والأسلوب أحيانا إلا أن ألفاظه مستمدة من بيئة الصحراء، كأحاديث الراكب والحادي الذي يحث الإبل، وذلك الهودج الذي تحل به المحبوبة مرتحلة، فيقول واصفا رحلة المحبوبة ورحيلها:

أَتَارِكْتِي إِذْ وَدَعْتَنِي جُفُونَهَا  
حَدِيثًا بِهِ رُكْبُ الْبِلَادِ يَسِيرُ  
تُحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي وَأَمْرِكِ فِي الْهَوَى  
وَإِنِّي لَطَبُّ بِالْأُمُورِ بَصِيرُ  
يُحِثُّ بِكَ الْحَادِي بَعِيرًا وَهُودَجًا  
وَمَا الْبَيْنُ إِلَّا هُودَجٌ وَبَعِيرُ  
وَتَرَقَّبَنِي عَيْنُ الْبَعِيرِ كَأَنَّهُ  
إِذَا نَظَرَتْ عَيْنِي إِلَيْهِ غَيُورٌ<sup>(١)</sup>

ويستحضر الأمير تميم بن المعز (سعاد) من قصيدة زهير بن كعب، ويستهل بها قصيدته في

رثاء آل البيت، فيقول:

نَأَتْ بَعْدَ مَا بَانَ الْعَزَاءُ سَعَادُ  
فَحَسُّوْ جُفُونِ الْمُقْلَتَيْنِ سَهَادُ<sup>(٢)</sup>

كما يستلهم، من الشعر القديم صورة الظغائن والمرابع المأخوذة من جو الصحراء،

والجماعات المهاجرة المرتحلة بحثا عن الكأ والماء، فيقول:

فَلَيْتَ فُؤَادِي لِلظَّعَائِنِ مَرَبَعٍ  
وَلَيْتَ دُمُوعِي لِلْخَلِيطِ مَزَادُ  
نَأُوا بَعْدَ مَا أَلْقَتْ مَكَائِدَهَا النَّوَى  
وَمَرَّتْ بِهِمْ دَارٌ وَصَحَّ وَدَادُ<sup>(٣)</sup>

وإن كان تميم بن المعز قد أخذ من القديم طابع المقدمة وبعض ألفاظها، إلا أنه حافظ في

قصيدته على السهولة والبساطة في التعبير، مع حفاظه على صنعة عصره في البديع.

(١) الصوري، الديوان، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٢) تميم بن المعز، الديوان، ص ١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١٧-١١٨.

وتعد المعارضة من مظاهر التأثير بالتراث الشعري السالف، إذ كان بعض الشعراء يعارضون القدامى في موضوع القصيدة ووزنها ورويها، إعجاباً بتلك القصائد ومحاولة الوصول إلى مستواها، وهذا لا يعني أن الشعراء التزموا بمضمون تلك القصائد التزاماً كاملاً، بل كانوا يضمنون قصائدهم ما يتلاءم وموضوعات عصرهم ومعانيها، ويحرصون في بعضها على الزخرفة اللفظية التي كانت شائعة في عصرهم. وقد تفاوت الشعراء في مدى تأثرهم بتلك القصائد فمنهم من استوحى الوزن والروي، ومنهم من استوحى المعنى والروي، ومنهم من أخذ ألفاظاً بذاتها وضمنها في قصيدته، كما وردت في قصائد أصحابها.

فهذا الشاعر ابن حيوس يرثي شبل الدولة<sup>(١)</sup> بقصيدة على وزن قصيدة الحسين بن مطير

الأسدي الذي رثى بها معن بن زائدة التي مطلعها:

أَلَمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقَوْلًا لِقَبْرِهِ  
سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرْبَعًا ثُمَّ مَرْبَعًا

ويأخذ منه بعض المعاني، خاصة فيما يتعلق بالجود، فيقول ابن حيوس في جود شبل الدولة:

وَبِحَرِّ نَوَالٍ يَنْزَحُ النَّاسُ مَاءَهُ  
إِذَا ظَنَّ أَنَّ قَدْ غِيضَ عَاوُدَ مَتْرَعًا<sup>(٢)</sup>

وهو معنى مشابه لقول الحسين بن مطير في معن:

وَيَا قَبْرُ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ  
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبُرِّ وَالْبَحْرِ مَتْرَعًا<sup>(٣)</sup>

وإذ يرثي ابن حيوس شبل الدولة مشيداً به، قائلاً:

وَمَا زَالَ رَبُّ الْجُودِ طِفْلاً وَيَافِعًا  
إِلَى أَنْ تَوَى وَالْجُودَ فِي حُفْرَةٍ مَعًا<sup>(٤)</sup>

(١) شبل الدولة هو ملك حلب نصر بن صالح بن مرداس، وبقي ملكاً لها إلى سنة ٤٢٩هـ، فأرسل إليه أنوشتكين الذبيري العساكر المصرية، وصاحب مصر حينئذ المستنصر بالله، فلقبهم عند حماة فقتل في شعبان. انظر ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٦.

(٢) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٩.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٨٩.

(٤) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٨.

نجده وقد استوحى هذا المعنى وأخذه من الحسين بن مطير في قوله:

فَيَا قُبْرَ مَعْنٍ أَنْتِ أَوْلُ حُفْرَةٍ مِّنَ الْأَرْضِ حُطَّتْ لِلْسَّمَاحَةِ مَضْجَعًا<sup>(١)</sup>

وجود شبل الدولة باق حتى بعد موته، وعطاؤه يستمر حتى وإن توقف عطاء الغيث:

حَيِّيْ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ مَا يُوْجِبُ الْحَيَا وَصُوبٌ حَيًّا بَاقٍ إِذَا الْغَيْثُ أَقْلَعَا<sup>(٢)</sup>

ولا يختلف هذا المعنى كثيرا عن قول الحسين بن مطير:

فَتَى عَيْشٌ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا<sup>(٣)</sup>

وهذا ابن حيوس يصف جود شبل الدولة الذي تضيق الأرض عنه، بقوله:

فَقُلْنَا غَمَامَ طَبَقَ الْأَرْضَ سَيْلُهُ وَقَالَ الْعِدَا لَوْ كَانَ غَيْمًا تَقَشَعَا<sup>(٤)</sup>

يشبهه في هذا المعنى ما قيل في معن بن زائدة:

بَلَى قَدْ وَسِعَتْ الْجُودُ وَالْجُودُ مَيَّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تُصَدَّعَا<sup>(٥)</sup>

ويعارض محيي الدين أبو حامد بن كمال الشهرزوري، بعض أبيات من قصيدة أبي فراس

الحمداني التي مطلعها:

نَفَى النَّوْمَ عَنِّ عَيْنِي خِيَالُ مَسْلَمٍ تَأُوبُ مِنْ أَسْمَاءَ، وَالرَّكْبُ نَوْمٌ<sup>(٦)</sup>

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٨٩.

(٢) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٨.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٨٩.

(٤) ابن حيوس، الديوان، ج ١، ص ٣٥٨.

(٥) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٨٩.

(٦) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ١٤٦.

فهو يسير على خطى أبي فراس الحمداني في قصيدته، فيبينها على ذات الوزن والروي، بل إنه يأخذ منه معانيه، يستقصيها ويصوغ في قالبها، ففي يأسه من عدل الناس والإنصاف منهم، ويأسه من عدل الزمن معه، فالزمن خصمه، فكيف يعدل الخصم معه وينصفه، يقول:

وَهَلْ يَطْلُبُ الْإِنصَافَ فِي النَّاسِ حَازِمٌ      مِنْ الدَّهْرِ وَهُوَ الظَّالِمُ الْمُتَحَكِّمُ (١)

إنما يستمد هذا المعنى من قول أبي فراس الحمداني:

يُبْسِتُ مِنَ الْإِنصَافِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ      وَمَنْ لِي بِالْإِنصَافِ وَالْخِصْمِ يُحْكَمُ (٢)

ويعاهد الشهرزوري على بكاء أبيه والحزن عليه، بل إنه يعد عدم البكاء من الغدر وقلعة

الوفاء، فيقول:

سَلَبْتُ أَبَا يَا دَهْرٌ مِنِّْي مُمَدِّحًا      وَإِنِّي إِنْ لَمْ أَكِبْهُ لَمَذُمَّمُ (٣)

وهو في هذا المعنى إنما يستوحيه من قول أبي فراس الحمداني:

وَإِنَّ جُفُونِي إِنْ وَنْتُ لِلنَّيْمَةِ      وَإِنَّ فُؤَادِي إِنْ سَلَوْتُ لِالْأَمِّ (٤)

والشهرزوري إذ يعد أقصى أمانيه أن يموت هو ويجرع كاسات الموت

مقابل أن يسلم أبوه منه، فيقول:

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَقْصَى أَمَانِي أَنْتِي      أَجْرَعُ كَاسَاتِ الْجِمَامِ وَيُسَلِّمُ (٥)

وهو يستمد هذا المعنى من قول أبي فراس الحمداني، إذ يتمنى أن يسلم نفسه للأسر مقابل

أن يسلم أبو العشائر الحسين بن علي بن حمدان منه، قائلاً:

(١) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم الشام، ص ٢٣٧.

(٢) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ١٤٦.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم الشام، ص ٢٣٧.

(٤) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ١٤٧.

(٥) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم الشام، ص ٢٣٧.

وما ساعني أنسي مكانك عانياً وأسلم نفسي للإسار وتسلم<sup>(١)</sup>

وإذ يرى الشهرزوري وغيره أن الخنساء كانت من أكثر الناس حبا لأخيها صخر وحزنا لموته. ويرى في بكاء متمم بن نويرة أخاه مالكا من اصدق البكاء، فإنه سينسي الناس بحزنه أسي الخنساء وحزن متمم، فيقول:

سأنسي الوري الخنساء حزنا وحسرةً ويخجل مني في البكاء متمم<sup>(٢)</sup>

وهو يأخذ هذا المعنى من قول أبي فراس الحمداني:

وما نحن إلا وائل ومهلّ صفاء، وإلا مالك ومتمم<sup>(٣)</sup>

ولا يكتفي الشهرزوري باستقصاء معاني أبي فراس الحمداني فحسب، بل يضمن أبياتا كاملة

من قصيدته، في شعره، ويشير إلى أنه يأخذ منه بيتين من شعره:

وإني أرى رأي أبي ابن حمدان في البكا وأصاب سواء الحق والله أعلم  
أردد في قلبي مع الناس نظمه وفي خلوتي جهرا به أترنم:  
"سأبكك ما أبقى لي الدهر مقلّة فإن عزني دمع فما عزني دم  
وحكمي بكاء الدهر فيما ينوبني وحكم ليبيد فيه حول مجرم"<sup>(٤)</sup>

فالبیتان الأخيران مأخوذان من قصيدة أبي فراس الحمداني التي عارض الشهرزوري

بعضها<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ١٥٠.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٧.

(٣) أبو فراس الحمداني، الديوان، ص ١٤٧.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

(٥) انظر: الحمداني، الديوان، ص ١٤٧.



ومن صور المعارضة أيضا ما نراه عند أبي الحكم في رثائه الساخر للطبيب المفشكل اليهودي، فهو في قصيدته التي تتكون من تسعة أبيات، يعارض معلقة امرئ القيس في رويها وبحرها، وإن كان أبو الحكم قد طوع أبياته كما يريد لها هو ليتوصل إلى السخرية من موت الطبيب المفشكل، فقد ابتعد الشاعر عن موضوع المعلقة وأخذ منها ما يتناسب وموضوعه وأهدافه فحسب، فهو في البيت الأول، يقلب معنى بيت امرئ القيس في مطلع المعلقة، ويطوعه كما يشاء هو، على الرغم من أنه أخذ من مطلع المعلقة معظم ألفاظها، فيقول:

أَلَا عَدُّ عَنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ      وَعَرَّجَ عَلَى قَبْرِ الطَّبِيبِ الْمُفْشَلِ (١)

وثمة فرق كبير بين هذا المعنى، ومعنى مطلع معلقة امرئ القيس الذي يقول فيه:

قَفَا نَبِيكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ      يَسْقُطُ اللَّوِيُّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ (٢)

ويلجأ أبو الحكم في مقطوعته، إلى التضمين الكامل لشرط من أبيات المعلقة فيقول متمنيا

للطبيب المفشكل أن يككب في قعر جهنم من أعلى إلى أسفل:

وَكَبَّيْهُ فِي قَعْرِ الْجَحِيمِ بَوْجَبَةً      (كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ) (٣)

والشرط الثاني مأخوذ من بيت امرئ القيس في وصف فرسه:

مَكْرَرٌ مَفْرَرٌ مُقْبِلٌ مُدِيرٌ مَعَا      كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ (٤)

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٢٥.

(٢) امرؤ القيس، الديوان، ص ١٤٣.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٢٥.

(٤) امرؤ القيس، الديوان، ص ١٥٤.

ويمثل التضمين جانبا آخر من جوانب التأثر بالتراث الشعري، فثمة تضمين من شعر الشعراء السابقين، إما من حيث المعنى أو التضمين من شعر الشاعر، ومن هذا التضمين، ما ورد عند أسامة بن منقذ في رثائه ديار أهله بعد زلزال شيزر، فيقول أمام تلك المنازل، وقد درست معالمها وباد أهلها:

هذي ديارُ بني أبي ومعاشرِري      قَفَرٌ عَلَيْهَا وَحُشَّةٌ وَظَلَامٌ  
 نَرَسْتُ مَحَافِظَةً لَهُمْ وَتَوَحَّشْتُ      مِنْ بَعْدِهِمْ وَتَعَفَّتِ الْأَعْلَامُ  
 فَإِذَا مَرَرْتُ بِهَا فَقُلْ مُمْتَلًا- : (يا دارُ ما صُنَعْتَ بِكَ الْأَيَّامُ)<sup>(١)</sup>

وقد ضمن الشاعر الشطر الأخير من البيت الأخير من قول أبي نواس:

يا دارُ ما فَعَلْتَ بِكَ الْأَيَّامُ      ضَامَتِكَ، وَالْأَيَّامُ لَيْسَ تَضَامُ<sup>(٢)</sup>

ويذهب شرف الدولة إسماعيل بن منقذ، إلى قلعة شيزر بعد الزلزال ويعاينها فيرثيها بادئها رثاءه بقوله:

لَيْسَ الصَّبَاحُ مِنَ الْمَسَاءِ بِأَمْتَلٍ      فَأَقُولُ لِلَّيْلِ الطَّوِيلِ أَلَا أَنْجَلِ<sup>(٣)</sup>

فقد أخذ بيت امرؤ القيس في وصف الليل<sup>(٤)</sup> وغير ترتيب الألفاظ فحسب.

ويكثر التضمين من الشعراء السابقين عند تاج الملوك الأيوبي، فقد عمد إليه في أكثر من موقع وقصيدة في شعره، ففي رثائه أحبته يقول:

وكان لي أَمَلٌ فِيكُمْ يُصَيِّرُنِي      فَالْيَوْمَ وَجِدَانٌ صَبْرِي بَعْدَكُمْ عُدْمُ<sup>(٥)</sup>

(١) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٨.

(٢) أبو نواس، الديوان، ص ٤٠٧.

(٣) ابن أبي جرادة، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٤) امرؤ القيس، الديوان، ص ١٥٢.

بصبح وما الإصباح منك بأمتل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

(٥) تاج الملوك الأيوبي، الديوان، ص ٢٤٢.

وهو في هذا البيت يضمن من قول المتنبي:

يا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ  
وَجَدَانَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ (١)

وفي رثائه أحد ممالিকে يقول:

سَلَامُ اللَّهِ مَا نَفَحَتْ جَنُوبٌ  
وَهَبَّتْ سَحَرَةً رِيحَ الشَّمَالِ  
عَلَى قَمَرٍ عَدَا وَجَدِي عَلَيْهِ  
"جَدِيدًا وَهُوَ تَحْتَ التُّرْبِ بِالِ" (٢)

فالشطر الأخير مضمن من عجز بيت للمتنبي يقول فيه:

فَإِنَّ لَهُ بِيْطِنَ الْأَرْضِ شَخْصًا  
جَدِيدًا نَزَرْنَاهُ وَهُوَ بِالِ (٣)

وفي رثاء القاضي الفاضل قصر الملك العزيز يقول:

لَمَّا سَاءَنِي أَنْ تُرْحَلَ الدَّارُ بَعْدَهُمْ  
وَلَا تَنْشُدُنَّ أَوْطَانَهُمْ بَعْدَ يَأْسِهَا  
إِذَا ذَهَبَ الْحَامِي فَلَا بَقِيَّ الْحِمَى  
عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا (٤)

فضمن الشطر الثاني من قول أبي تمام:

عَسَى وَطَنٌ يَدْنُو بِهِمْ وَلَعَلَّمَا  
وَإِنْ تَعَتَبَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ فَرَبَّمَا (٥)

أما ابن سناء الملك فقد جمع في بيت واحد تضمينين من شاعرين هما امرؤ القيس وعمرو

ابن كلثوم، فقال في رثاء جاريته:

وَقَفَا نُبُكَ مِنْ نِكْرِي حَبِيبِي وَقَبْرِي  
وَقُلُّ لَلَّتِي فِي الْقَبْرِ حَلَّتْ أَلَا هُبِّي (٦)

(١) المتنبي، الديوان، ج ٣، ص ٣٧٠.

(٢) تاج الملوك، الديوان، ص ٢٤٥.

(٣) المتنبي، الديوان، ج ٣، ص ١٢.

(٤) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٢.

(٥) أبو تمام، الديوان، ج ٣، ص ٢٣٢.

(٦) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠١.

فالشطر الأول مأخوذ من مطلع معلقة امرئ القيس والثاني من مطلع معلقة عمرو بن

كلثوم<sup>(١)</sup>.

ومن صور التأثر بالتراث العربي، درج الأعلام التاريخية في ثنايا قصائد الرثاء، حسب طبيعة الفكرة التي يريدتها الشاعر، ففي التعبير عن حتمية الموت ومآل كل إنسان إليه يضمن الشعراء أسماء الملوك والجبابة والأقوام السابقة التي بادت، مثل قوم عاد ومن الملوك قيصر وكسرى وتبع وغيرهم، أما إذا كان المقام تعبيراً عن حزن وأسى وحسرة نجد الشعراء قد ضمنوا شعرهم بمتهم بن نويرة والخنساء، وهذا هو ديدن الشعراء في التضمن للتعبير عن أفكارهم المختلفة، فهذا حظي الدولة أبو المناقب في رثائه الخليفة المستنصر يضمن اسمي الخنساء وصخر في بيت من الشعر، ليتوصل إلى ما أراد أن يعبر عنه من حزن عظيم أبكى الصخر بعد موت المستنصر، فيقول:

وَقَدْ بَكَتِ الْخُنْسَاءُ صَخْرًا وَإِنَّهُ  
لِيَكْبَهُ مِنْ فُرْطِ الْمَصَابِ بِهِ الصَّخْرُ<sup>(٢)</sup>

ومحيي الدين الشهرزوري في رثائه أباه، يعبر عن حتمية الموت على كل إنسان، فلا ينجو

منه عظيم ولا صاحب قوة، فيضمن لهذه الفكرة، من الأعلام ما يناسبها فيقول:

فَأَيْنَ مُلُوكِ الْأَرْضِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ  
وَأَيْنَ قَضَى مِنْ قَبْلُ عادٍ وَجَرَهُمْ<sup>(٣)</sup>  
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْكُنُوا الْأَرْضَ مَرَّةً  
وَلَمْ يَأْمُرُوا فِيهَا وَلَمْ يَتَحَكَّمُوا<sup>(٤)</sup>

(١) ومطلع المعلقة: ألا هني بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

انظر: التبريزي، شرح القصائد العشر، ص ٣٢٠.

(٢) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢٣. وانظر: المقرئ، اتعاظ الحنفاء، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٣) جرهم بن قحطان: جد جاهلي يمني قديم، كان له ولبنيه ملك الحجاز، ولما بني البيت الحرام بمكة كان لهم

أمره.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٧.

وفي رثاء العماد الأصفهاني أسد الدين شيركوه، يثني عليه بالندا والبأس والحلم فضمن في رثائه هذا، من الأعلام من عرفوا بتلك المزايأ، وعرفهم الناس جميعا بها، فللجود حاتم وللحلم الأحنف بن قيس:

فُجِعَ النَّدَا وَالبَّاسُ مِنْكَ بِحَاتِمِ  
وَبِحَيْدِرِ وَالحِلْمِ مِنْكَ بِأَحْنَفِ (١)

أما إذا كان الشاعر يعبر في رثائه عن مدح للمرثي، فإنه يضمن أعلاما اشتهرت بالمدح، فهذا فتیان الشاغوري في رثائه الملك المغيث بن الملك العادل، يمدحه بالمكارم وحسن السيادة وجميل الصفات التي يعجز الشعراء عن الإحاطة بها والتعبير عنها، فيضمن لهذه الفكرة جرير والفرزدق والبعيث، وهم شعراء عرفوا واشتهروا بالمدح، فيقول:

تَذَكَّرَهُ الملوِكُ بِكُلِّ نَادٍ  
فِيكَثْرُ فِي سِيادَتِهِ الحَدِيثُ  
يُقَصِّرُ عَنْ مَدَائِحِهِ جَرِيرٌ  
وَجَرُولٌ وَالفَرَزْدَقُ وَالبَعِيثُ (٢)



وأكثر الشعراء في هذين العصرين من استخدام المحسنات البديعية، فاهتموا بالبديع وفنونه، وعدوه حلية وزينة ضرورية لا يكون الشعر ذا جمال إلا بها، فأكثرُوا من أنواعه، وأفرطوا في استخدام المحسنات البديعية، حتى وكأني بالشعراء في حلبة سباق يتنافسون لإظهار براعتهم ومهارتهم في تصاريف الكلمة الواحدة، لتخرج الأشعار على أعلى ما تكون من درجات الزخرفة البديعية، مما حدا أن تكون الزخرفة عند بعض الشعراء على حساب المعنى، وعلى حساب صدق العاطفة، إذ تحولت بعض القصائد إلى ما يشبه معرضا للزخارف اللفظية التي تتنافى وطبيعة الذوق السليم، ومن أنواع البديع التي أكثر الشعراء منها وبالغوا - على سبيل المثال لا الحصر والاستقصاء:

(١) الأصفهاني، الديوان، ص ٢٩٩.  
(٢) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٧٢.

فيجانس جناسا ناقصا بين (صمم وأصمى) وترجييعيا بين (صمم وصميم).

ولا نكاد نجد الشعراء في العصر الأيوبي يختلفون في اهتماماتهم بالمحسنات البديعية عن سابقهم من شعراء العصر الفاطمي، فالظاهرة بقيت ممتدة متواصلة، بل ربما ازدادت مبالغاة وإمعانا، إذ أصبح التجنيس عند بعض الشعراء غاية، فأكثرنا منه في البيت والواحد، ومن هؤلاء القاضي الفاضل، الذي جعل لكل بيت من أبيات قصيدته في رثاء قصر الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين، جرسا موسيقيا عذبا، من خلال التجنيس، ففي قوله حاثا الملك العزيز على استرجاع مجد بني أيوب من خلال رثائه القصر:

ذَماؤكُ فيها، لا دِماؤكُ فانتَصِفُ      وإلا فكنُ من ذمِّها مُتَمِّما<sup>(١)</sup>

فالمجانسة بين ذماؤك وديماؤك ودماءك ودمها ومتمما، أدت إلى تكرار حرف الميم في البيت مما أعطى البيت جرسا قويا، يتناسب والحث على الجهاد، وفي بيت آخر نراه يترك حرف الميم إلى حرف آخر يتكرر أيضا من خلال جناس الترجيع والاشتقاق فيقول:

أُعلِّ نَفْسًا، لا سَقِمتَ، سَقِمةً      بِظَنِّ غَدًا مِنْها أدقُّ وأسَقِما<sup>(٢)</sup>

فهذه المجانسة أدت إلى تكرار حرف السين في البيت، مما أعطى البيت جرسا موسيقيا هادئا يتناسب وحالة السقم التي يتحدث عنها الشاعر.

ومن الشعراء من عمد إلى الجناس التام، وقد يحتاج هذا النوع إلى إعمال ذهن للتمييز بين

المعنيين المختلفين، فهذا العماد الأصفهاني في رثاء صلاح الدين الأيوبي يقول:

لو كان في عَصْرِ النَّبِيِّ لَأُنزِلَتْ      في ذِكْرِهِ مِنْ ذِكْرِهِ آياتُهُ<sup>(٣)</sup>

(١) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢) المصدر نفسه، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٣) الأصفهاني، الديوان، ص ٨٩.

فجانس جناسا تاما بين (نكره) الأولى وهي صيته وسمعته، و(نكره) الثانية وهي كتاب الله.

كما لجأ ابن سناء الملك في رثائه أباه إلى هذا النوع من الجناس بين صيغة المبالغة (فخلرا)

وهي من الفخر، وبين (الفخار) وهي أصل الإنسان فقال متحدثا عن طبع الإنسان:

وَيُصْبِحُ فُخَّارًا عَلَى أَهْلِ جِنْسِهِ  
وَيُنْسَى بِأَنَّ الْأَصْلَ مِنْ قَبْلِ فُخَّارٍ<sup>(١)</sup>

كما يجانس فتيان الشاغوري جناسا تاما في رثائه القاضي كمال الدين الشهرزوري فيقول

مادحا إياه بالفصاحة والبلاغة وجودة الإنشاء:

مُنْشَىٰ إِنْ شَاءَ إِنْشَاءُ رُمَىٰ  
كَلَّ ذِي لُفْظٍ أَحْتِيَالٍ بِأَحْتِيَالٍ<sup>(٢)</sup>

والمجانسة هنا بين (إن شاء) بمعنى إن أراد وبين (إنشاء) وهي من إنشاء الكتابة. وقد بالغ بعض الشعراء في المجانسة بأنواعها حتى كادت تغلب على قصائدهم كلها، بل أن هناك من الشعراء من تعمد أن يبني قصيدته على الجناس بأنواعه، فنكاد لا نجد بيتا يخلو منه، وبالرغم من ذلك فقد حقق بعض الشعراء في مجانساتهم إيقاعا موسيقيا عذبا امتازت به معظم قصائدهم، من خلال تكرار الكلمة الواحدة بتصريفاتها المختلفة، وتكرار الحروف الذي ساعد على تحقيق هذا الإيقاع.

ب- الطباق:

استخدم الشعراء، الطباق بنوعيه: طباق الإيجاب وطباق السلب وأكثروا منه كما أكثروا من الجناس، وربما تأتي مبالغتهم في هذا الطباق من باب حديثهم عن الموت، فهو نقيض الحياة، وما طرأ على حياتهم من تحول إلى الضد بعد موت أحبائهم، فربما يكون التعبير عن هذين الجانبين المتضادين (الحياة والموت) وحياة الشاعر قبل موت من رثاه وبعد موته، يناسبها هذا الأسلوب

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٤.

(٢) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٢.

البديعي أكثر من غيره، وربما لذلك يأتي الإكثار من هذا النوع من البديع مسوغاً في شعر الشعراء، ومن الأمثلة على استخدام الطباق، قول الشاعر ابن سنان الخفاجي في رثائه جماعة من أهله وأصدقائه:

عَدْلُ الدَّهْرِ فِيهِمْ قِسْمَةُ الجُوِّ      رِ فَلَا عَامِرٌ وَلَا مَعْمُورٌ<sup>(١)</sup>

فطابق بين العدل والجور والعامر والمعمور.

وفي تمنيه الموت بعدهم يقول:

وَحَيَاتِي عَذْرٌ فَهَلْ لِرُوفَاتِي      آجِلٌ عَاجِلٌ وَعُمَرٌ قَصِيرٌ<sup>(٢)</sup>

فطابق بين (حياتي و وفاتي)، وبين (آجل و عاجل).

ويلجأ أسامة بن منقذ في رثائه ولده أبا بكر إلى المطابقة كشكل من أشكال البديع يصور فيه انقلاب الحال وتبدله، فجاء الطباق ليؤكد فكرة انقلاب الحال إلى ضده وحالة الصراع التي يعيشها الشاعر:

أَعَاتِبُ فِيكَ الدَّهْرَ لَوْ أَعْتَبَ الدَّهْرُ      وَأَسْتَجِدُّ الصَّبْرَ الجميلَ وَلَا صَبْرٌ  
وَكَيْفَ التَّسْلِي، والحوادثِ جَمَّةٌ      إِذَا مَا أَنْقَضَى أَمْرٌ يَسُوءُ أَتَى أَمْرٌ  
أُطَلَّتْ عَلَيَّ اللَّيْلُ، حَتَّى كَانَمَّا      زَمَانِي لَيْلٌ كُلُّهُ مَا لَهُ فَجْرٌ<sup>(٣)</sup>

وفي رثاء ابن الدهان شهاب الدين بن عسرون، يوظف الشاعر الطباق ليصور إحساسه بالحنن الدائم، وهو حزن أشعل ناره انطفاء حياة شهاب الدين، فكانت المطابقة بين اشتعال الحزن وانطفاء الحياة:

(١) ابن سنان الخفاجي، الديوان، ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٥.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٥-٢٩٦.



أَذْكِي بِقَلْبِي نَارًا لَا خَمُودَ لَهَا      قَوْلُ النَّعَاةِ شِهَابُ الدِّينِ قَدْ خَمَدَا<sup>(١)</sup>

وَأَبْنُ سِنَاءِ الْمَلِكِ فِي رِثَائِهِ صَدِيقًا لَهُ، نَرَاهُ يَرَى كُلَّ الْمَوَازِينِ وَالْمَقَابِيسِ قَدْ انْقَلَبَتْ إِلَى الضَّدِّ

بِمَوْتِ صَدِيقِهِ، فَيَطَابِقُ بَيْنَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ قَائِلًا:

وَالْعَقْلُ فِي هَذَا الْمُصَا      بِ مِنْ اللَّبِيبِ هُوَ الْجَنُونُ  
بِئْسَ الْقَرِينُ الْعَيْشُ لُمَّا      م      مِتَّ يَا نِعَمَ الْقَرِينُ  
لَهْفِي وَقَدْ بَسِطَتْ شِمَا      لَ مِنْكَ أَوْ قَبِضَتْ يَمِينُ<sup>(٢)</sup>

وَالْمُطَابَقَةُ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ هِيَ بَيْنَ (العقل والجنون) و(بئس ونعم) و(بسطت، قبضت)، و(شمال

ويمين).

وَمِنْ أَشْكَالِ الطَّبَاقِ، الْمَقَابِلَةِ، حَيْثُ يَجْمَعُ الشَّاعِرُ فِي الْبَيْتِ الْوَاحِدِ أَكْثَرَ مِنْ لَفْظَتَيْنِ مُتَضَادَّتَيْنِ، تَقَابِلُ كُلُّ لَفْظَةٍ ضِدَّهَا فِي الشَّطْرِ الثَّانِي، فَفَتَيَانُ الشَّاعِرِ فِي رِثَائِهِ الْقَاضِي

الشَّهْرَزُورِي يَبِينُ أَثَرَ مَوْتِهِ عَلَى النَّاسِ وَالْأَيَّامِ قَائِلًا:

فَالشُّعُورُ السُّودُ كَالْأَيَّامِ بِيضًا      وَالْوُجُوهُ الْبَيْضُ سَوْدًا كَاللَّيَالِي<sup>(٣)</sup>

فَقَابِلُ بَيْنَ (السود والبيض)، و(بين (بيضا وسودا)، و(بين (الأيام والليالي)، و(من مقابلات ابن

سناء الملك قوله في رثائه أمه:

صَارَ مِنْهُ يَرَى الْغِنَاءَ نَوَاحًا      مَسْمَعِي وَالنَّوَّاحَ مِثْلُ الْغِنَاءِ  
فَمَسَائِي مِنَ السَّهَادِ صَبَاحِي      وَصَبَاحِي مِنَ السَّوَادِ مَسَائِي  
وَصَدِيقِي لِعَدْلِهِ كَعُدَّوِي      وَعُدَّوِي قَدْ صَارَ مِنْ أَصْدِقَائِي<sup>(٤)</sup>

(١) ابن الدهان، الديوان، ص ١٣٨.

(٢) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩٠.

(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١-٤٩٤.

أحب الشعراء هذا النوع من البديع وشغفوا به وتقنوا، وجعلوه حلية لأشعارهم واستغلوه للتعبير عن أفكارهم، ونوعوا في رموزها واستخداماتها.

فالشاعر ابن أبي حصينة، استغل في توريته موضعا من مواضع دمشق وهو (الشرف العالي) ليتوصل إلى الإشادة بأبي يعلى القاضي إذ سبب موته خسارة للشرف الرفيع:

هُوَى (الشَّرْفِ الْعَالِي) بِمَوْتِ أَبِي يَعْلَى      وَلَا عُرُوْا أَنْ جَلَّتْ رُزِيَّةٌ مِنْ جَلَّا (١)

أما العماد الأصفهاني في رثائه نور الدين زنكي، فقد استغل اسم نور الدين في توريته ليبين دور نور الدين زنكي في إعلاء شأن الدين والذود عنه أمام أعدائه:

الدينُ فِي ظُلْمٍ لُغِيْبَةٍ نُورِهِ      وَالذَّهْرُ فِي غَمٍّ لِفَقْدِ أَمِيرِهِ (٢)

والتورية في كلمة (نوره)، فالمعنى القريب لها الضياء والنور، والمعنى البعيد هو نور الدين زنكي القائد المرثي.

وابن سناء الملك يستخدم في توريته مصطلحات النحو من ضم ونصب، وهو في هذه التورية يصور مدى حبه لهذه الجارية في ضمه قبرا، وفي دعائه لها بالهناء:

وَوَاصِلَتْ قَبْرًا أَنْتَ فِيهِ أُضْمُهُ      لِصَدْرِي بَلْ أَهْدِي الْهِنَاءَ إِلَى النَّصْبِ (٣)

والتورية هنا في (أضمه) و(النصب)، فالمعنى القريب لـ(أضمه) هو الاحتضان، احتضانه للقبير محبة وشوقا، والمعنى البعيد هو من (الضم) وهي إحدى حركات الإعراب، أما توريته في

(١) ابن أبي حصينة، الديوان، ج ١، ص ٣٧١.

(٢) الأصفهاني، الديوان، ص ٢١٢.

(٣) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٠٠.

(النصب) فالمعنى القريب لها هو ذلك النصب الذي يبني على القبر شاهداً عليه، والمعنى البعيد هو نصب كلمة (الهناء) بالفتحة، إذ أهدى لها الشاعر النصب.

وفي رثائه الملك المغيـث يستخدم فتيان الشاغوري أسماء الصحابة لتوريته فيقول:

أَبُو بَكْرٍ رَجَا عُمراً إِمَاماً      نَسِيرٌ وَرَاءَهُ مِنْهُ الْبُعُوثُ<sup>(١)</sup>

وتورية الشاعر هنا في (عمر) فالمعنى القريب لها عمر بن الخطاب، والمعنى البعيد هو الملك المغيـث عمر بن العادل، فجاء بالتورية ليعبر عن ذلك الأمل الذي انقضى بموت الملك المغيـث، فقد أراد أن يشيد بالملك المغيـث إذ شبهه في عدله بعمر بن الخطاب.

أما القاضي الفاضل، فقد جعل توريته بمالك بن نويرة وأخيه متمم، فقال في رثائه قصر الملك العزيز:

أَمَالِكُهَا، إِنْ كَانَ دَهْرُكَ نَاقِصاً      بِمُلْكِكَ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ مُتَمِّمًا<sup>(٢)</sup>

فالمعنى القريب (لمالك) هنا هو الملك العزيز مالك القصر الذي هدم، والمعنى البعيد هو مالك بن نويرة الذي قتل على يد خالد بن الوليد. والمعنى القريب (لمتمم) هو الشاعر الذي تركه زوال قصر العزيز وزوال ملكه، مجهزا عليه بجراحه وآلامه، والمعنى البعيد هو متمم بن نويرة، الذي تركه موت أخيه مالك مكلوم القلب جريحه.

د- حسن التعليل:

وهو شكل من أشكال الجدل والاستدلال بالحجة والبرهان على صحة رأي الشاعر، إذ يعلل فكرته بما هو منطقي مقبول، فهذا العرقله الكلبى يرثى جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك،

(١) فتيان الشاغوري، الديوان، ص ٧٢.

(٢) القاضي الفاضل، الديوان، ج ٢، ص ٤٠٤.

معللا في رثائهما: ملوحة ماء البحر، فتلك الملوحة جاءت من دموع الناس حزنا على رحيلهما،  
فيقول:

لا خَيْرَ في الدُّنْيَا ولا أَهْلِهَا      بَعْدَ جَمالِ الدِّينِ وَالصَّالِحِ  
بُحْرانِ لَوْلا كَمَعُ باكيهِمَا      ما كانَ ماءُ البَحْرِ بالمالِحِ<sup>(١)</sup>

وعمارة اليميني في رثائه ابنه محمدا وعبدالله، وأخاه يحيى، يشير في رثائه أن كل واحد  
منهما ثوى في قبره وحيدا مفردا، وعلل انفراد كل واحد منهما ووحدته، بأن زهر الدراري لا  
تكون إلا فرادى، وما هم إلا زهر دراري، فوحدتهم إذن منطقية، فيقول:

حَلَّوا فُرادي بِأَطرافِ البِلادِ وَهَلْ      رَأيتُ زَهْرَ الدَّراري غَيْرَ إِفرادِ<sup>(٢)</sup>

وحسن التعليل هنا جاء ليعبر عن فكرة أرادها الشاعر وهي الإشادة بمن يرثي.

ويعلل أسامة بن منقذ موت ابنه أبي بكر وهو ما زال صغيرا في سن السابعة، تعليلا جميلا  
فالغصن حتى وإن كان نضرا غضا، فقد يتعرض للقطع، فجماله ونضارته تغريبان بقطعه  
للاحتفاظ به والتمتع بجماله، ولهذا مات ابنه صغيرا غضا، فيقول في ذلك:

لِسَبْعِ مُضتِّ مَنْ عُمِرِهِ غالُهُ الرِّدى      وَكُنْتُ أُرَجِّي أَنْ يَطولَ بِهِ العُمُرُ  
وَقُلْتُ: عَتيقٌ مِنْ خُطوبِ زَمانِهِ      عَتيقٌ بِهذا يُخَبِّرُ الفألُ الزَّجْرُ  
فَعاجِلُهُ قَبْلُ التَّمامِ جِمامُهُ      ولا عَجَبٌ، قَدْ يَخُضُّ الغُصنُ النُّضْرُ<sup>(٣)</sup>

ولابن سناء الملك تعليل في سبب تكرر الإنسان الدائم وعدم صفاء حياته من أسباب الكدر  
والهم، وهذا التعليل فيه تعزية من الشاعر لنفسه بالصبر على الموت وتعزية للإنسان أيضا:

(١) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٤٣٦.

(٢) عمارة اليميني، المختار، ص ٢٠٧.

(٣) أسامة بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٦.

وَالْمَرْءُ لَا يَنْفَكُ مِنْ كُدِّهِ لِأَنَّ الْمَرْءَ طِينٌ (١)

فالسبب هو أن الإنسان خلق من طين، والطين ما هو إلا تراب خلط بالماء فكدره، فأصله ليس نقيا بل كدر، وهو في كدره يعود إلى أصله. كما نراه يعلل ظلمة الليل الحالكة في رثائه جاريتة بقوله:

وَمَذْمُتْ صَارَتْ سَبْعَةُ الشَّهْبِ سِتَّةً وَمَاذَا الدُّجَى إِلَّا الْحَدَادُ عَلَى الشَّهْبِ (٢)

فما الجارية إلا شهاب هوى، وما الليل الحالك سوى حداد عليها.

والشاعر محي الدين الشهرزوري في رثائه أباه، يشير إلى حزن كرام جلق ورجالاتها على

أبيه، ويقدم لهذا الحزن عليه تسويغا وتعليلًا، فيقول:

وَكُلُّهُمْ مِثْلِي عَلَيْكَ مَحْرَقٌ وَبَاكِ وَمَسْلُوبُ الْعَزَاءِ وَمَغْرَمٌ  
وَلَا سِيَّمَا إِخْوَانُ صِدْقٍ بِجَلْقٍ هُمْ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ وَالْجُودِ أَنْجَمٌ  
وَلَيْسَ عَجِيبًا شُكْرُهُمْ لَكَ بَعْدَمَا فَضِلْتَ عَلَيْهِمَ بِالْنَدَى وَهُمْ هُمْ (٣)

فأبوه هو المتفضل عليهم بالعطاء والجود، والقلوب جبلت على حب من أحسن إليها، فحزنهم

جاء نتيجة لفضله وكرمه عليهم.

ويرثي ابن النبيه عليا ابن الخليفة الناصر لدين الله قائلا:

نَازِلَةٌ جَلَّتْ فَمِنْ أَجْلِهَا سُنُّ بَنُو الْعَبَّاسِ لِبَسِّ السَّوَادِ (٤)

فما الشعار الأسود الذي اتخذته بنو العباس لهم سوى حداد وحزن على ابن الخليفة.

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٩٨.

(٣) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٣٨.

(٤) ابن النبيه، الديوان، ص ١٠٦.

## هـ- المصطلحات العلمية والأدبية:

من صور التكلف التي شغف بها الشعراء في العصرين الفاطمي والأيوبي، استخدام المصطلحات الفقهية والأدبية والمهنية في شعرهم، كل حسب نوع الثقافة التي يريد أن يبرزها، فعلي بن محمد بن همام التتوخي في رثائه أبا العلاء المعري، يأخذ مصطلحاته من مناسك الحج وشعائره، من فدية واجبة على المحرم إذ يتطيب وما الطيب الذي تطيبه الحجيج إلا مسك ذكرى أبي العلاء، فوجبت عليهم الفدية:

سَيَّرَتْ ذِكْرَكَ فِي الْبِلَادِ كَأَنَّكَ  
مَسَّكَ فَسَامِعَةٌ يُضَمِّخُ أَوْ فَمَا  
وَأَرَى الْحَجِيحَ إِذَا أَرَادُوا لَيْلَةً  
ذَكَرَكَ أَوْ جَبَ فِدْيَةً مِّنْ أَحْرَمًا<sup>(١)</sup>

ويحشو أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز قصيدته في رثاء الشاعر أبي حفص الزكري، بالمصطلحات اللغوية والعروضية والشعرية، حتى تحولت القصيدة إلى شبه معرض لهذه المصطلحات، التي أطفأت ألق العاطفة وألق الشعر، فيقول مستخدماً من اللغة مصطلح اللبس والغموض في المعنى ومن الشعر لفظ المحك الذي يشتمل على الأغاز، ومن العروض أحد بحوره فيقول:

دَهَبَتْ فَمَنْ تَرَكْتَ لِكُلِّ مَعْنَى  
شَدِيدِ اللَّبْسِ - بَعْدَكَ - وَالْغُمُوضِ  
وَمَنْ خَلَفْتَ بَعْدَكَ لِلْمَعْمَى  
وَالشُّعْرِ الْمُحَكِّكَ وَالْعُرُوضِ  
خُلِّصَتْ إِلَى النَّعِيمِ وَبِي اسْتِيَاقَ  
دَفَعْتُ بِهِ الطَّوِيلَ إِلَى الْعَرِيضِ<sup>(٢)</sup>

(١) ابن العديم، بغية الطلب، ص ٢٢٥.

(٢) أبو الصلت أمية، الديوان، ص ١١٣.

أما ابن الغمر فقد رثى أصحاب المهن ومنهم ملاح وقزاز، لذا فقد زخر رثاؤه لهما بالمصطلحات الحرفية لكل منهما، فرثاؤه للققزاز كان عامرا بأدوات النسيج من المواسير والألطاخ والنول والمشط والمكوك، وكاننا في مصنع للحياكة، لا في قصيدة رثاء:

تَبْكِي المَواسِيرُ والأَلطَاخُ والبُكْرُ      على ابنِ سُمْرَةَ لَمَّا اغتالَهُ القَدْرُ  
والمِشَطُ يَنْدُبُ والمِيتَةُ يَسْعِدُهُ      وَحَقُّ للنُّولِ أَنْ يُبْكِيَهُ والحَفْرُ (١)

وفي رثائه الملاح يحشو رثاءه بأدوات الملاحة، من مرسى ومجذاف ومركب، إلى غير ذلك فيقول:

مَنْ لَجَرَ اللَّبانِ في التَّقْلِينِ      ولِإِلقا المَرْسى على الأَنْبُطِينِ  
والمِجاذيفُ مَنْ بِها مُسْتَقِيلٌ      بَعْدَما قَدَّ أَتاكُ رَبِيبُ المَنُونِ  
كانتِ المَرْكَبُ التي أَنْتَ فيها      حَرِماً آمناً كَحِصْنِ حَصِينِ (٢)

ومن الشعراء من استغل النحو وقواعده في رثائه، كالعرقلة الكلبية في رثائه الأمير أحمد بن السلطان صلاح الدين، فيقول:

أَيُّ هلالٍ كَسِيفاً      وَأَيُّ غُصْنٍ قُصِيفاً  
كانَ سراجاً قَدْ طَفَا      على الوَريِّ ثُمَّ انطَفَا  
قُلْ لِلنَّحاةِ وَيحْكُمُ      أَحْمَدُكُمْ قَدْ صُرِفَا (٣)

فقد استغل الشاعر هنا قاعدة الممنوع من الصرف، ليشير إلى صرف أحمد بن صلاح الدين

من الحياة، علماً بأن أحمد من الأعلام الممنوعة من الصرف.

(١) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٢٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣٧.

(٣) أبو شامة، الروضتين، ج ٢، ص ٤٧٨.

أما ابن سناء الملك فقد أورد في رثائه صديقاً له حركات الإعراب واختار منها السكون،  
 فيعبر عن أثر موت صديقه عليه، بأن سكون صديقه في قبره قد حرك أحزان الشاعر، فيقول:

يا ساكناً في اللحدِ حرّ م كني وحقك ذا السكون<sup>(١)</sup>

ويستغل ابن الدهان معرفته بالجرح والتعديل، ليشير إلى أن الدموع هي شاهد عدل على

صدق المحبة، فيقول في رثائه الملك المعظم توران شاه:

وإذا أردت على الصبابة شاهداً فالدمعُ عدلٌ شاهدٍ لا يكذب<sup>(٢)</sup>

ويورد فتیان الشاغوري في رثاء القاضي كمال الدين الشهرزوري، ما له علاقة بلباس

القاضي الرسمي وهو الطيلسان، فيقول:

عطأت منك المنايا طيلساناً كان تاجاً بلائي العلمِ حالي<sup>(٣)</sup>

و- ضروب أخرى من البديع:

ومن ألوان البديع الأخرى (الترصيع)<sup>(٤)</sup>، ففي رثاء ابن قلاقس القاضي الجاليس يقول

مرصعا:

فكانت حلى الأيام منه لأنساً فوا أسفي كيف استحالت لياليا  
 وكنا لبسناها قلوباً ضواجكاً فكيف نزعناها عيوناً بواكياً<sup>(٥)</sup>

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ٢٠٣.

(٣) فتیان الشاغوري، الديوان، ص ٣٩١.

(٤) هو (مقابلة كل لفظ من صدر البيت بلفظة على وزنها ورويها)، انظر الحموي، خزنة الأدب، ج ٢،

ص ٤٠٩.

(٥) ابن قلاقس، الديوان، ص ٥٨١.



والترصيع نلاحظه في البيت الثاني، إذ قابل بين (لبسناها ونزعناها) و(قلوبا وعيونا)،  
و(ضواحا وبواكيا).

وفي تعزية الملك الأفضل، يرصع ظافر الحداد قائلا:

فلا عَيْشٌ إِلَّا فِي زَمَانِكَ طَيِّبٌ      وَلَا نَفْسٌ إِلَّا مِنْ نَوَالِكَ تُجْبَرُ<sup>(١)</sup>

فقابل في الوزن بين (عيش ونفس)، و(زمانك ونوالك)، و(طيب وتجبر).

فقد راعى شرف الدولة إسماعيل بن منقذ في رثائه قلعة شيزر الترصيع ايضا، عندما

وصف حال زوجة أخيه بعد النكبة، فقال:

فُتَبَدَّلَتْ عَنْ كِبَرِهَا بِتَوَاضُعٍ      وَتَعَوَّضَتْ عَنْ عِزِّهَا بِتَذَلُّ<sup>(٢)</sup>

أما العماد الأصفهاني، فقد رصع في رثائه صلاح الدين الأيوبي، فقال:

وَالْبِشْرُ مِنْهُ تَبَلَّجَتْ أَنْوَارُهُ      وَالْوَجْهُ مِنْهُ تَلَأَّتْ سَبْحَاتُهُ<sup>(٣)</sup>

فالبشر قابله الوجه، وتبلجت قابله تلالأت وأنواره قابله سبحاته.

وثمة ترصيع ورد عند ابن سناء الملك في رثائه جده، يقول فيه:

إِنْ أَفْتَقَدْتُ فذِكْرٌ غَيْرٌ مُفْتَقَدٍ      أَوْ أَنْهَدِمْتُ فَشُكْرٌ غَيْرٌ مِنْهَدِمٍ<sup>(٤)</sup>

ومن ضروب البديع الأخرى الطي والنشر أو الجمع والتفريق، ونرى هذا الضرب البديعي

في رثاء طلائع بن رزيك للعترة الطاهرة، فيقول:

(١) ظافر الحداد، الديوان، ص ١٥٨.  
(٢) ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٤٨٥.  
(٣) الأصفهاني، الديوان، ص ٩٠.  
(٤) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٥١٨.

وَمَلَكْتُ فِي حُرْنِي ثَلَاثَةَ أَنْصَلٍ مِنْ عَزْمَتِي وَمُهَنْدِي وَلِسَانِي (١)

فقد ذكر ثلاثة الأنصل على عمومها في الشطر الأول وهو الطي أو الجمع، ثم فصل فيها وذكر أنواعها في الشطر الثاني وهو النشر أو التفريق.

وأسماء بن منقذ في رثائه ولده أبا بكر، يعترف بحتمية الموت فيقول في هذا المجال:

مِنَ الْأَرْضِ أَنْشَيْنَا وَفِيهَا مُعَادِنَا وَمِنْهَا يَكُونُ النَّشْرُ وَالْبَعْثُ وَالْحَشْرُ (٢)

فقد ذكر المعاد في الشطر الأول بشكل عام، وهو الطي، وفصل في أحداثه ومراحله في الشطر الثاني وهو النشر والبعث والحشر وهو ما يسمى النشر.

كما استخدم ظافر الحداد في تعزيتة الملك الأفضل بأخيه المظفر، هذا الأسلوب البديعي في مدح الملك الأفضل، فقال:

فَأَنْتَ لِهَذَا الْخُلُقِ رُوحٌ وَنَاطِرٌ وَكَهْفٌ بِهِ يَحْيَى وَيُغْنَى وَيُنْظَرُ (٣)

فقد جمع الأمور الثلاثة في الشطر الأول، ثم نشر ما يتعلق بكل واحدة منها في الشطر الثاني.

وفي رثاء ابن سناء الملك جاريته يستخدم هذا الأسلوب معطيا كل كلمة ما يناسبها مباشرة، فيقول:

(١) طلائع بن رزيك، الديوان، ص ١٤٣.

(٢) أسماء بن منقذ، الديوان، ص ٢٩٧.

(٣) ظافر الحداد، الديوان، ص ١٥٨.

فيا مُهَجَّتِي ذُوبِي ويا دُمَعَتِي أُسْكِبِي      ويا كَبِيدِي شِيبِي ويا لُوعَتِي شُيبِي (١)

كما استخدم ابن الدهان في رثاء ابن عسرون هذا الأسلوب فقال:

فَالْعَيْنُ بَعْدَكَ عَيْنٌ وَالْفَوَادُ لُظَى      نَارٌ فَلَا رُقَاتٌ دَمْعًا وَلَا بَرْدًا (٢)

فقد ذكر العين الباكية والفؤاد المحترق معا في الشطر الأول، ثم أعطى كل اسم فعله على الترتيب في الشطر الثاني، فالفعل (رقأت) خاص بالعين الدامعة والفعل (برد) خاص بالقلب المحترق.

ومن ضروب البديع الأخرى التي أكثر الشعراء من استخدامها (التكرار) بأنواعه المختلفة بالحرف أو الفعل أو الاسم، فهذا المسبحي في رثائه أباه يكرر كلمة (خطب) في بداية ثلاثة أبيات متتالية ليؤكد عظم المصيبة بموت أبيه، فقال:

خَطَبُ أَلَمٍ مِنَ الزَّمَانِ عَظِيمٍ      فَالِدَمْعِ سَحٍّ لِلْمَصَابِ سَجُومٍ  
خَطَبٌ يَقِلُّ لَهُ الْبِكَاءُ وَيَنْطَوِي      عَنْهُ الْعِزَاءُ وَيُظْهَرُ الْمَكْتَوْمُ  
خَطَبٌ يُمِيتُ مِنَ الصَّدُورِ قُلُوبَهَا      أَسْفًا وَيُقْعِدُ تَارَةً وَيُقِيمُ (٣)

وفي بيان مدى الحسرة والأسى التي يشعر بها الأمير تميم بن المعز بموت جاريته يكرر ما

يدل على الأسى والحسرة، فيقول:

لَهْفِي عَلَى مَا فَاتَ مِنْ قُرْبِهَا      لَهْفًا لَهُ فِي كُلِّ عَضْوٍ سَقَامٌ  
لَهْفِي عَلَى تِلْكَ الطَّبَاعِ التِّي      قَدْ خَلَّصَتْ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ وَذَامٌ  
لَهْفِي وَقَلَّ اللَّهْفُ مِنِّي لَمَنْ      كَانَ سُلُوبِي عَنْهُ كُلَّ اهْتِمَامٍ (٤)

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٨.

(٢) ابن الدهان، الديوان، ص ١٣٨.

(٣) المسبحي، تاريخ المسبحي، ج ٤٠، ص ٦.

(٤) تميم بن المعز، الديوان، ص ٤٠٦.

ويكرر ابن سناء الملك في رثائه جاريتته، الاستفهام، مؤكداً عدم تصديقه لموت الجارية، والصدمة التي مني بها عند موتها، والذهول الذي اعتراه، فيكرر استفهامه قائلاً:

دَعِيَ ذَا وَقُولِي كَيْفَ خُلَيْتِ لِلرَّدىِ      وَأُخْرِجْتِ مِنْ خَلْفِ الْمَقاصِيرِ وَالْحَجْبِ  
 وَكَيْفَ أَعْتَدِي ذَاكَ الْجِمامِ عَلَى الْجَمَى      وَكَيْفَ سَبَاكَ الْمَوْتُ جَهراً بِلا حُرْبِ  
 وَكَيْفَ أَرَقُوا ماءً وَجْهَكَ فِي السُّرى      فَأَفْناهُ دُونِي شَرْبُهُ مِنْهُ لا شُرْبِي  
 وَكَيْفَ أَبْتَلُوا تلكَ الْمُعاطِفَ بِالِيلَى      كَمَا أَمْتَهُنُوا تلكَ التَّرائبُ بِالْتُرْبِ<sup>(١)</sup>

وإذ يتحسر الأمير تميم بن المعز على ما فاتته من متعة كانت تحققها له الجارية، فيكرر كلمة (لهفي)، فإن ابن سناء الملك ينزه جاريتته عن كل ما يخل بمكارم الأخلاق، فيكرر كلمة (حاشاك) للتأكيد على اجتنابها تلك الصفات، فيقول:

وحاشاكِ مِنْ لَعْوٍ وَحاشاكِ مِنْ رَدٍّ      وحاشاكِ مِنْ لَهْوٍ وَحاشاكِ مِنْ لَعْبِ<sup>(٢)</sup>

وعمد بعض الشعراء إلى بناء قصائدهم كاملة على أنواع البديع المختلفة، فلا يخلو بيت من أبيات القصيدة من الزخارف اللفظية، حتى جمع بعض الشعراء في البيت الواحد أكثر من نوع من أنواع البديع، ومن هؤلاء الشعراء ابن قلاقس، ففي قصيدته التي رثى بها القاضي الجليس، حول القصيدة إلى معرض للزخارف اللفظية، فالقصيدة تحوي ثلاثة وأربعين بيتاً، وضع فيها ما يزيد على أربعين تجنيساً، ويشابهه في هذا ابن سناء الملك الذي بنى معظم قصائده على الجناس والطباق وأنواع البديع الأخرى<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٦.

(٢) المصدر نفسه، الديوان، ج ٢، ص ٤٩٧.

(٣) انظر: ابن قلاقس، الديوان، ص ٥٨١، وابن سناء الملك، الديوان، ج ٢، ص ٤٩١-٤٩٥.

الخاتمة

## الخاتمة

تتوعد أغراض الرثاء في الشعر في العصرين الفاطمي والأيوبي، وشملت معظم ما يمكن للإنسان أن يرثيه من كائنات وجمادات، فرثى الشعراء أقاربهم، أمهات وآباء وأبناء وغير ذلك، واتسم رثاؤهم بصدق العاطفة وتوجهها فبكوا ذكرياتهم مع هؤلاء الأحبة وحياة موثاة بالفرح والبهجة. ولوحظ أن رثاء الشعراء لزوجاتهم كان قليلا إذا ما قورن برثائهم لأقاربهم، ولعل في ذلك دلالة اجتماعية عند الشاعر العربي وغيره منذ القديم، إذ أن التعبير عن المشاعر تجاه الزوجة فيه نوع من الحياء، لا لأن الزوجة لا تستحق ذلك، ولكن لأن العلاقة بالزوجة تبلغ أعلى درجات الخصوصية لدى الشاعر، مما يجعلها بمنأى عن التصريح والإعلان.

ورثى الشعراء القادة والسلاطين والخلفاء الذين تصدوا لصد هجمات الصليبيين عن ديار المسلمين فصوروا أثر موتهم على الكائنات والموجودات، وأشادوا بمنأقبتهم، وصوروا ما آلت إليه حال المسلمين بعد موت قادتهم، حين بدأ الأعداء يطمعون في بلاد المسلمين مرة أخرى، مما يعزز دور هؤلاء القادة في حماية ديار الإسلام.

وكان رثاء آل البيت من الأغراض الشعرية التي ظهرت في العصر الفاطمي وإن لم تشكل غرضا بارزا في شعر معظم الشعراء، إذ اقتصر القول في هذا الغرض على تميم بن المعز وطلانع بن رزيك وكانت السمة البارزة في شعرهما، ظهور الاتجاه السياسي للفاطميين من بني أمية ومن والاهم.

وتبوا المذهب الفاطمي مكانة بارزة في شعر هذين الشعارين، إذ حاولوا أن يؤكدوا صدق ما ذهبوا إليه في موقف الفاطميين من بني أمية، بأدلة عقديّة مذهبية يعتمد عليها الفاطميون في تأكيد

حقهم بالخلافة، وظهر أثر هذا المذهب في رثاء عمارة اليماني وطلائع بن رزيك للأئمة الفاطميين.

وكان لموت علماء المسلمين من قضاة وفقهاء ومؤرخين وأدباء أثر على الشعراء، إذ كان موتهم فاجعة ليس للشعراء فحسب، وإنما للمسلمين أيضاً، فأفاض الشعراء في التعبير عن مشاعر الحزن والأسى، والإشادة بعلم هؤلاء العلماء وفضلهم في تكوين فكر الأمة وحضارتها. ونال الأصدقاء والجواري والغلمان وأصحاب المهن ثم الحيوان حظهم من الرثاء، وإن كان الحزن لموت الأصدقاء أكثر تدفقاً وحرارة، كما ترك موت الجواري على بعض الشعراء أثراً ملحوظاً كما صوروه في رثائهم لهن مثل تميم بن المعز وابن سناء الملك. أما رثاء أصحاب المهن فكان يميل إلى السخرية أكثر مما يميل إلى الجدية، إذ زخرت القصائد بأدوات المهنة التي يمتنها المرثي ومفرداتها، مما أثر على صدق العاطفة.

ولم يرد في رثاء الحيوان سوى قصيدة لابن عنين يرثي فيها حماره ويأسى لموته، ولم يختلف رثاؤه لهذا الحمار عن رثائه للإنسان من تفجع وبكاء وذكر المناقب ثم الدعاء له، وكان هذا الحمار رمز آدمي، ورمز لخصال حميدة مانت في الناس.

وكان لسقوط الدولة الفاطمية أثر عند الشاعر عمارة اليماني، فرثاها بقصيدة بكى فيها حضارة كانت مزدهرة، ومآثر أحيائها الفاطميون، وكان عمارة اليماني هو الشاعر الوحيد الذي رثى الدولة الفاطمية فيما وصل إلينا من شعر هذا العصر، ربما لتلك الرفاهية والخصوصية التي كانت لعمارة اليماني في ظل هذه الدولة ولم تكن لغيره، ولم يغفل عمارة اليماني عن إبراز المذهب الفاطمي في قصيدته تلك. ولوحظ أن الدولة الأيوبية لم ترث بعد سقوطها كما رثيت الدولة الفاطمية. ورثى الشعراء كذلك، المدن والمظاهر الحضارية من قلاع وقصور، ومن أبرز

المدن التي رثيت القدس، ولوحظ أن الشعر الذي قيل في رثائها قليل إذا قورن بأهمية المدينة وعظم الرزء بسقوطها، وربما يعود السبب في ذلك إلى ابتعاد الشعراء عن التعبير عن الهزيمة والإفاضة بالحديث عنها، والتركيز على الانتصارات أكثر.

ويلاحظ من دراسة أغراض الرثاء في هذين العصرين أنها في كثير منها متقاربة مع تمايز بسيط في بعضها، فرثاء الأئمة وآل البيت لم نشهده في العصر الأيوبي، بينما ظهر واضحا في العصر الفاطمي، وكذلك رثاء الدولة، ولم نلاحظ رثاء المدن في العصر الفاطمي، بينما ظهر هذا الغرض في العصر الأيوبي، ولكن الإطار العام للقصيدة في كلا العصرين يكاد يكون متقاربا، فالقصيدة تدور حول محاور ثلاثة، البكاء والندب ثم الإشادة بالمناقب التي حرص الشعراء أن يجمعوا فيها بين مكارم الأخلاق العربية الأصيلة ومكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام من تقوى وعبادة وجهاد في سبيل الله، ثم يختم معظم الشعراء قصائدهم بدعائهم للميت بالرحمة والمغفرة. وتقاربت كذلك السمات الفنية لشعر الرثاء في كلا العصرين، فهناك التأثر بالتراث العربي بأساليبه المختلفة، وهناك التأثر بالبديع الذي كان شائعا في ذلك العصر.

أما الصورة الفنية، فقد كانت عناصر التأثر فيها أيضا متقاربة، فظهر فيها أثر البيئة سواء الطبيعية أم الحربية، أضف إلى ذلك ظهور أثر ثقافات الشعراء المختلفة في صورهم، مع تمايز لدى بعض الشعراء في تجديدهم بصورهم والإغراب فيها، كما لم يغفل بعض الشعراء عن تصوير الانفعالات النفسية والشعورية، وبناء صور متكاملة مركبة إلى جانب الصور الجزئية.

أما الأمور التي يرجى أن تكون الدراسة قد حققتها فمنها تناول غرض شعري بالبحث والدراسة في عصرين أدبيين لم يوله الدارسون أهمية كافية، ولم تخصص له دراسة منفردة، وبيان بعض أوجه التوافق والاختلاف في أغراض الرثاء بين الشعراء في كلا العصرين، كما



كشفت الدراسة عن كثير من الشعراء الذين لم ترد لهم دواوين شعرية، وأبرزت شعرهم في هذا الغرض.

أضف إلى ذلك الكشف عن مظاهر التقارب في الأغراض والسمات الفنية لدى الشعراء في كلا العصرين.

وأسأل الله تعالى أن تكون هذه الدراسة قد أضافت شيئاً جديداً إلى ميدان الدراسات التي تهتم بالأدب العربي في عصر الحروب الصليبية.

قائمة المصادر والمراجع

## المصادر المخطوطة:

- أبو شامة المقدسي، عبدالرحمن بن إسماعيل، ٦٦٥هـ، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، مكتبة الجامعة الأردنية، ميكروفيلم رقم ١٨٥٦.
- ابن الشعار، كمال الدين أبو البركات المبارك بن أحمد، ٦٤٦هـ، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، ١٠م، مكتبة الجامعة الأردنية، ج ١، ميكروفيلم رقم ١٠٤٣، ج ٩، ١٠م، ميكروفيلم رقم ١٠٤٤، ١٠٤٥.
- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله، ٦٦٠هـ، بغية الطلب في تاريخ حلب، ٨م، مكتبة الجامعة الأردنية، ميكروفيلم، ج ١-٣ رقم ١٩٦٨، ميكروفيلم، ج ٤-٥ رقم ١٩٦٩، ميكروفيلم، ج ٦-٨ رقم ١٩٧٠.

## المصادر المطبوعة:

القرآن الكريم.

- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد، ٦٣٧هـ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وأحمد بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٣.
- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، عز الدين، ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، ط ٢، ٩م، عني بمراجعة أصوله نخبة من العلماء، دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٧.
- الأدفوي، جعفر بن ثعلب كمال الدين، ٧٤٨هـ، الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، د. ط، ١م، تحقيق سعد محمد حسن، مراجعة طه الحاجري، دار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٦٦.

- أسامة بن منقذ، ٥٨٤هـ، المنازل والديار، ط٢، ام، تحقيق مصطفى حجازي، ١٩٩٢.
- الديوان، ط١، ام، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.
- ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين، ٦٦٨هـ، عيون الأتباء في طبقات الأطباء، د. ط، ام، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.
- امرؤ القيس بن حجر بن الحارث، ٨٠ ق هـ، الديوان، ط٧، ام، المكتبة الثقافية - بيروت، ١٩٨٢.
- الباخريزي، علي بن الحسن أبو الحسن، ٤٦٧هـ، دمية القصر وعصرة أهل العصر، ط٢، ٢م، تحقيق سامي مكي العاني، دار العروبة للنشر، الكويت، ١٩٨٥.
- البهاء زهير، ابن محمد بن علي بن يحيى بن الحسن، ٦٥٦هـ، الديوان، د. ط، ام، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٤.
- تاج الملوك الأيوبي، بوري بن أيوب مجد الدين أبو سعيد، ٥٧٩هـ، الديوان، ط١، ام، تحقيق محمد عبد الحميد سالم، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨.
- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي أبو المحاسن، ٨٧٤هـ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، د. ط، ٥م، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ٢٣١هـ، الديوان، ط٣، ٣م، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، د. ت.

- ابن خلكان، أحمد بن محمد أبي بكر شمس الدين، ٦٨١هـ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، د. ط، ٨م، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
- ابن الخياط، أحمد بن محمد التغلبي أبو عبدالله، ٥١٧هـ، الديوان، د. ط، ١م، تحقيق خليل مردم بك، المجمع العلمي العربي، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٨.
- داعي الدعاة، هبة الله بن كامل أبو القاسم، ٤٧٠هـ، الديوان، ط١، تحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩.
- المجالس المؤيدية، د. ط، ٨م، تحقيق محمد عبدالقادر عبدالناصر، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥.
- سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ط١، ١م، تحقيق محمد كامل حسين، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩.
- ابن الدهان، عبدالله بن أسعد بن علي مهذب الدين، ٥٨١هـ، الديوان، ط١، تحقيق عبدالله الجبوري، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨.
- ابن الساعاتي، علي بن رستم بن هردوز الخراساني، ٦٠٤هـ، الديوان، د. ط، ٢م، تحقيق ونشر أنيس المقدسي، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٨.
- سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزاوغي التركي، ٦٥٤هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، ١م، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد - الهند، ١٩٥٢.
- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى نور الدين أبو الحسن، ٦٨٥هـ، المغرب في حلى المغرب، د. ط، الجزء الأول من القسم الخاص بمصر، تحقيق شوقي ضيف، مطبعة جامعة فؤاد الأول - القاهرة، ١٩٥٣.

- ابن سناء الملك، جعفر بن محمد أبو القاسم، ٦٠٨هـ، الديوان، د. ط، ٢م، تحقيق محمد إبراهيم نصر، مراجعة حسين محمد نصار، دار الكاتب العربي، القاهرة، ج ١، سنة ١٩٦٧، وج ٢، سنة ١٩٦٩
- ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد بن سعيد، ٤٦٦هـ، الديوان، د. ط، المطبعة الأنسية، بيروت، ١٨٩٨.
- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ٩١١هـ. اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية، د. ط، ٢م، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د. ت.
- تاريخ الخلفاء، ط ١، ١م، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة دار السعادة - مصر، ١٩٥٢.
- الشاغوري، فتیان بن علي الأسدي، ٦١٥هـ، الديوان، د. ط، ١م، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٦.
- أبو شامة المقدسي، عبدالرحمن بن إسماعيل، ٦٦٥هـ، الروضين في أخبار الدولتين، ط ١، ٥م، تحقيق إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧.
- الذيل على الروضتين، ط ٢، ١م، تحقيق محمد زاهد الكوثري، وعزت العطار الحسيني، دار الجبل، بيروت، ١٩٧٤.
- صاحب شرف الدين الأنصاري، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالمحسن، ٦٦٢هـ، الديوان، د. ط، ١م، تحقيق عمر موسى باشا، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٧.
- الصفدي، خليل بن أبيك، ٧٦٤هـ، الوافي بالوفيات، ٢٩م، ط ١، ٢، ٣، لمحققين مختلفين، فرانز شتاينر للنشر، شتوتغارت، سنة ١٩٧٤، ١٩٩١، ١٩٩٧.

- أبو الصلت، الحكيم أمية بن عبدالعزيز الداني، ٥٢٩هـ، الديوان، د. ط، جمع وتحقيق محمد المرزوقي، دار أبو سلامة للطباعة، تونس، ١٩٧٩.
- السوري، عبدالمحسن بن محمد بن أحمد، ٤١٩هـ، الديوان،
- الجزء الأول د. ط، تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٠.
  - الجزء الثاني، ط١، تحقيق مكي السيد جاسم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨١.
- طلائع بن رزيك، ٥٥٦هـ، الديوان، ط١، جمعه وبوبه محمد هادي الأميني، المكتبة الأهلية، النجف، ١٩٦٤.
- ظافر الحداد، ظافر بن القاسم، ٥٢٩هـ، الديوان، د. ط، تحقيق حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٩.
- العاملي، محمد بن حسين الهمذاني بهاء الدين، ٩٥٣هـ، الكشكول، د. ط، ٢م، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١.
- العماد الأصفهاني، محمد بن محمد أبو عبدالله العماد الأصفهاني، ٥٩٧هـ، الديوان، د. ط، تحقيق ناظم رشيد، جامعة الموصل، ١٩٨٣.
- خريدة القصر وجريدة العصر، د. ط، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم، القسم الرابع، ج١، دار نهضة مصر للطبع والنشر، مصر.
  - خريدة القصر، ج٢، قسم شعراء الشام، د. ط، تحقيق شكري فيصل، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩.

- علي بن عبدالرحمن الأنصاري الصقلي، ٥٠٠هـ، الديوان، د. ط، تحقيق هلال ناجي، دار الرسالة، بغداد، ١٩٧٦.
- عمارة بن الحسن اليميني، نجم الدين، ٥٦٩هـ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، ط٢، ام، اعنتى بتصحيحه هرتويغ درنبرغ، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١.
- ابن عنين، محمد بن نصر شرف الدين أبو المحاسن، ٦٣٠هـ، الديوان، ط١، ام، تحقيق خليل مردم بك، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٤٦.
- أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان، ٣٥٧هـ، الديوان، ط١، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر للنشر، عمان، ١٩٨٣.
- القاضي الفاضل، عبدالرحيم بن علي البيساني، ٥٩٦هـ، الديوان، د. ط، ط٢، تحقيق أحمد أحمد بدوي مراجعة إبراهيم الأبياري، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦١.
- ابن قلايس، نصر بن عبدالله بن عبدالقوي السكندري، ٥٦٧هـ، الديوان، ط١، ام، تحقيق سهام الفريخ، مكتبة المعلا، الكويت، ١٩٨٨.
- الكتبي، محمد بن شاكر، ٧٦٤هـ، فوات الوفيات والذيل عليها، د. ط، ط٤، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت.
- المبرد، محمد بن يزيد، ٢٨٥هـ، التعازي والمراثي، د. ط، ام، تحقيق محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦.
- المتنبّي، أحمد بن الحسين، ٣٥٤هـ، الديوان، د. ط، ط٢، شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه، مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧.



- المسبحي، محمد بن عبيدالله بن أحمد، ٤٢٠هـ، أخبار مصر، د. ط، الجزء الأربعون، تحقيق أحمد فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٧٨.
- أخبار مصر في سنين، د. ط، تحقيق وليم ج. ميلورد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٨١.
- المعري، أحمد بن عبدالله بن سليمان، ٤٤٩هـ، ديوان سقط الزند، ط٣، ٤م، تحقيق مصطفى السقا وعبدالرحيم محمود وعبدالسلام هارون وإبراهيم الأبياري وحامد عبدالمجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
- المقدسي، محمد بن طاهر، ٥٠٧هـ، ذخيرة الحفاظ، ط١، ٥م، تحقيق عبدالرحمن عبدالجبلر الفريوائي، دار السلف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦.
- المقرئ، أحمد بن علي تقي الدين، ٨٤٥هـ، المواعظ والاعتبار، ط١، ٣م، تحقيق محمد زينهم، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٨.
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، د. ط، ٣م، تحقيق حلمي محمد أحمد، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢.
- الملك الأمجد، بهرام شاه بن فرخشاه بن أيوب، ٦٢٨هـ، الديوان، تحقيق غريب محمد علي أحمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، ٧١١هـ، معجم لسان العرب، د. ط، ٦م، دار صادر، بيروت، د. ت.
- المهذب بن الزبير، الحسن بن علي بن إبراهيم أبو محمد، ٥٦١هـ، شعر المهذب، ط١، تحقيق محمد عبدالحميد سالم، هجر للطباعة والنشر القاهرة، ١٩٨٨.

- ابن النبيه، علي بن محمد، ٦١٩هـ، الديوان، ط١، تحقيق عمر الأسعد، دار الفكر، ١٩٦٩.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ، ١٩٥هـ، الديوان، د. ط١، ام، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- ابن واصل، محمد بن سالم بن نصر الله، ٦٩٧هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، د. ط١، م٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب - القاهرة، ١٩٧٢.
- اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي، ٧٦٨هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط١، م٤، صنع حواشية خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
- ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي، ٦٢٦هـ، معجم الأدباء، ط١، م٥، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١.
- المراجع الحديثة / اللغة العربية:**
- أحمد أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ط٢، دار نهضة مصر للطبع، القاهرة، د. ت.
- عارف تامر، تميم الفاطمي، د. ط١، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٢.
- عبدالجليل حسن عبدالمهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، د. ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، د. ط١، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.

- عبدالعزيز الأهواني، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، ١٩٨٦.
- علي حسين الحلبي، موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة، ط١، ١٥م، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٩.
- محمود السمرة، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، ط١، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٦٦.

ملحق  
التراجم

١- الشيخ العماد الحنبلي، إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، الشيخ عماد الدين الحنبلي الزاهد، ولد بجماعيل سنة ٥٤٣هـ وتوفي سنة ٦١٤هـ، هاجر إلى دمشق وسمع وارتحل، وصارت له معرفة حسنة بالحديث في كثرة السماع واليد الباسطة في الفرائض والنحو والخط المليح<sup>(١)</sup>.

٢- ابن قاضي خلاط، أحمد بن اسحق بن هبة الله بن صديق بن محمود بن صالح ابن العباس بن أبي البشائر الخلاطي المعروف بابن قاضي خلاط، لأن أباه كان يتولى القضاء بها. وكان أحمد شاباً له فطنة في الشعر، لطيفاً دمثاً، سهل الأخلاق، رحل إلى مدينة السلام، وصار صوفياً متزهداً، ولزم طريق أهل الدين والتصوف، وأقام بها إلى أن مات سنة ٦١٧هـ ولم يبلغ الثلاثين، وكانت ولادته بخلاط سنة ٥٩٠هـ<sup>(٢)</sup>.

٣- الممتع، أحمد بن خلف بن أحمد بن علي أبو العباس المعري المعروف بالمتع، وهو أديب شاعر فاضل، كان مقيماً بحلب في أيام بني مرداس الكلابيين، وهو شاعر حسن الشعر سمع الحديث بحلب قال عنه أبو العلاء المعري: ((وسيدي الشيخ أبو العباس الممتع أدام الله عزه في السن ولد، وفي المودة أخ، وفي فضله جد أو أب، وإنه في أدبه لكما قال تعالى: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزي﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٣.

(٢) ابن الشعار، عقود الجمان، ج ١، ص ٩٢-٩٣.

(٣) ابن العديم، بغية الطلب، ج ١، ص ٧٥.

- ٤- النفيس، أحمد بن عبدالغني بن أحمد، أبو العباس الملقب بالنفيس من لحم، وينسب إلى جد له يقال له قطرس شاعر أديب مصري، له علم بالفقه، كان يجوب البلدان ويمدح الناس ولله ديوان شعر توفي بمدينة قوص بمصر سنة ٦٠٣هـ<sup>(١)</sup>.
- ٥- ابن الخياط، أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي، أبو عبدالله المعروف بابن الخياط شاعر الكتاب من أهل دمشق، مولده ووفاته فيها، طاف البلاد يمدح الناس، ودخل بلاد العجم وأقام في حلب مدة له ديوان شعر<sup>(٢)</sup>.
- ٦- شرف الدولة ابن منقذ، إسماعيل بن سلطان بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، وكان فاضلا شاعرا، وكان أبوه صاحب شيزر وابن صاحبها، فلما مات أبوه وليها أخوه، وأبوه عم مؤيد الدولة أسامة، ومات إسماعيل بدمشق سنة ٥٦١هـ<sup>(٣)</sup>.
- ٧- الملك الظافر، إسماعيل بن عبدالمجيد الحافظ بن محمد المستنصر ابن الظاهر ابن الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي أبو المنصور، من ملوك الدولة الفاطمية بمصر والمغرب، تولى الخلافة بعد وفاة أبيه، ولم يطل زمنه، كان كثير اللهو مولعا باستماع الأغاني، وفي أيامه أخذت عسقلان فظهر الخلل في الدولة. قتل على يد وزيره نصر بن عباس سنة ٥٤٩هـ<sup>(٤)</sup>.
- ٨- أمية بن عبدالعزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت حكيم أديب أندلسي المولد، مشرقى النشأة، أقام بمصر عشرين عاما، سجن في خلالها، ونفاه الأفضل شاهنشاه منها، ثم انتقل إلى المغرب، واتصل بأميرها، ومن تصانيفه ((الحديقة)) على أسلوب يتيمة الدهر، ((رسالة العمل

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٦٤.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ١٤٥.

(٣) الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٩، ص ١١٨.

(٤) الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٤، ص ٢٥٩.

بالاسطرلاب))، ((الوجيز على الهيئة))، ((الأدوية المفردة))، ((تقويم الذهن))، ((الرسالة المصرية))، توفي سنة ٥٢٩هـ<sup>(١)</sup>.

٩- تاج الملوك الأيوبي، بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان، مجد الدين أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين، كان أصغر أولاد أبيه، فاضل له ديوان شعر، وفي شعره رقة، كان مع أخيه صلاح الدين لما حاصر حلب فأصابته طعنة بركبته، مات منها بقرب حلب<sup>(٢)</sup>.

١٠- تميم بن المعز، وهو تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي الفاطمي أبو علي، ولد سنة ٣٢٧هـ. أمير، كان أبوه صاحب الديار المصرية والمغرب، فربي في أحضان النعيم ومال إلى الأدب فنظم الشعر الرقيق، توفي بمصر سنة ٣٧٤هـ<sup>(٣)</sup>.

١١- تورانشاه، تورانشاه بن أيوب بن شاذي شمس الدولة فخر الدين، أمير من الأيوبيين، وهو أخو السلطان صلاح الدين، نشأ في دمشق وسيره صلاح الدين إلى اليمن ومعه الأمراء، فأقام مدة وانتقل إلى مصر سنة ٥٧٤هـ فمات فيها وكان شجاعاً فيه كرم وحزم<sup>(٤)</sup>.

١٢- مجد الملك، جعفر ابن شمس الخلافة: جعفر بن محمد بن مختار الأفضلي، أبو الفضل الملقب مجد الملك، شاعر من أهل مصر، نسبتبه إلى الأفضل، أمير الجيوش بمصر ومن مصنفاته: ((الأدب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة)) وديوان شعر<sup>(٥)</sup>.

١٣- عرقلة الكلبي، حسان بن نمير الكلبي (أبو الندى) كان من أهل دمشق، وكان السلطان صلاح الدين قد وعده لما كان بدمشق في أول أمره وهو أمير من الأمراء في عهد نور

(١) ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ج ٢، ص ٣١٧-٣٢٦.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ١، ص ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠١.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٦.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٦٢.

الدين، أنه إن ملك مصر أعطاه ألف دينار فلما ملك مصر سير له ألفاً وأخذ من اخوته مثلها فجاءه الموت فجأة ولم ينتفع بفجأة الغنى، وكان أعور<sup>(١)</sup>.

١٤- الظهير الحبشي، الحسن بن الخطير، كان فقيها لغويا نحويًا مات في القاهرة، وكان عالما بفنون من العلم، كان قارئًا بالعشر والشواذ، عالما بتفسير القرآن وناسخه ومنسوخه والفقهاء والخلاف والكلام والمنطق والحساب والهيئة والطب، مبرزًا في اللغة والنحو والعروض والقوافي ورواية أشعار العرب، له كتاب في شرح الصحيحين سماه كتاب ((الحجة)) وله خطب وفصول وعظيمة مشحونة بغريب اللغة وحواشيها<sup>(٢)</sup>.

١٥- القاضي المهذب ابن الزبير، الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير أبو محمد الملقب بالقاضي المهذب. توفي في ربيع الآخر سنة ٥٦١هـ بمصر وكان كاتبًا مليح الخط جيد العبارة، مليح الألفاظ وصنف المهذب: ((كتاب الأنساب)) وهو أكثر من عشرين مجلداً، وكان المهذب قد مضى رسولا إلى اليمن عن بعض ملوك مصر واجتهد هناك في تحصيل كتب النسب<sup>(٣)</sup>.

١٦- ابن أبي حصينة، الحسين بن عبدالله بن أحمد بن عبدالجبار الأمير ابو الفتح المعروف بابن أبي حصينة المعري، الأديب الشاعر، مدح المستنصر بقصيدة طويلة سنة خمسين وأربعمائة، فوعده بالإمارة، وأنجز له وعده سنة ٤٥١هـ<sup>(٤)</sup>.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣١٣.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٢، ص ٤٨١-٤٨٦.

(٣) الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٣٧.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٣، ص ١٦٧-١٦٨.



١٧- الجويني، الحسن بن علي بن إبراهيم الملقب فخر الكتاب الجويني الأصل، كان من ندماء أتاك زكي في الشام، وأقام بعده عند ولده نور الدين محمود، ثم سافر إلى مصر في أيام ابن رزيق وتوطن بها، توفي سنة أربع وثمانين وقيل ست وثمانين وخمسائة للهجرة بالقاهرة<sup>(١)</sup>.

١٨- فخر الدولة أبو يعلى العلوي، حمزة بن الحسن بن العباس بن الحسن بن أبي الجن القاضي فخر الدولة. ولي قضاء دمشق من قبل الظاهر العبيدي، وولي نقابة الأشراف بمصر، وكان ممدحا، توفي سنة ٤٣٤هـ<sup>(٢)</sup>.

١٩- ابن الغمر، حيدرة بن الحسين بن حيدرة بن علي بن أحمد بن الغمر، القاضي النفيس ثقة الخلافة، كان عالما أديبا فاضلا، وكان حاكما بالأعمال القوصية<sup>(٣)</sup>.

٢٠- وجيه الدولة، ذو القرنين بن حمدان بن ناصر الدولة التغلبي، أبو المطاع أمير شاعر من أهل دمشق ولي إمارتها سنة ٤٠١هـ وعزل فرحل إلى مصر فأقام بها عاما، وعاد إلى دمشق فاستقر فيها أميرا إلى سنة ٤١٩هـ وتوفي بمصر<sup>(٤)</sup>.

٢١- شرف الدين الحلبي، راجح بن إسماعيل بن أبي القاسم الحلبي الأسدي دخل الشام، وممدح ملوكها وندمهم، وكان فاضلا جيد النظم، عذب الألفاظ، حسن المعاني، ولد سنة ٥٩٠هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٢٧هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ١٣١.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٣، ص ١٨٤.

(٣) الأذفوي، الطالع السعيد، ص ٢٣٥.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٣، ص ٣٢٥.

(٥) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٤، ص ٥٣.

٢٢- أسد الدين شيركوه، شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين. تولى الوزارة في مصر سنة ٥٦٤هـ، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي في السنة ذاتها<sup>(١)</sup>.

٢٣- ضرغام بن عامر بن سوار الملك المنصور، فارس المسلمين الذي استولى على الديار المصرية، وهرب منه شاور إلى نور الدين مستجيراً به ومستنجداً. قتل ضرغام في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة<sup>(٢)</sup>.

٢٤- طلائع بن رزيق الملقب بالملك الصالح، أبي الغارات، وزير عصامي يعد من الملوك أصله من الشيعة الإمامية بالعراق، ترقى في المناصب حتى صار وزيراً، ثم استقل بأمر الدولة، ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين، نصير الدين، وكان عارفاً بالأدب<sup>(٣)</sup>.

٢٥- ظافر الحداد، ظافر بن القاسم بن منصور الجذامي أبو منصور، شاعر من أهل الإسكندرية، كان حدادا روى عنه الحافظ السلفي وطائفة من الأعيان له ديوان شعر، توفي بمصر سنة ٥٢٩هـ<sup>(٤)</sup>.

٢٦- القاضي جمال الدين، عبدالرحيم بن علي بن اسحق بن شبث القرشي العالم الفاضل كان الله تعالى قد جمع له بين الفضل والمروءة والإحسان إلى الخلق، وكان القاضي الفاضل يحتاج إليه في علم الرسائل، وكان إماماً في فنون العلوم من المنظوم والمنثور، توفي سنة ٦٢٥هـ في دمشق<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) الصغددي، الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٣٦٥.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٥٢٦.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٣، ص ٤٣٣.

(٥) مرآة الزمان، ق ٢ من الجزء الثامن، ص ٦٥٣.

٢٧- القاضي الجليس، عبدالعزيز بن الحسين بن الحباب الأغلب السعدي وسمي الجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الحافظ القرآن الكريم والأدب، وكانت عادتهم يسمون مؤدبهم

الجليس، مات سنة ٥٦١هـ وقد أناف على السبعين<sup>(١)</sup>.

٢٨- شرف الدين الأنصاري، عبدالعزيز بن محمد بن عبدالمحسن، ولد سنة ست وثمانين وخمسائة بدمشق، وتوفي سنة اثنين وستين وست مائة، قرأ الكثير من كتب الأدب على الكندي، وسمع من جماعة وبرع في العلم والأدب، سكن بعلبك مدة، وسكن دمشق مدة ثم سكن حماة، وكان صدراً كبيراً نبيلاً معظماً وافر الحرمة كبير القدر، روى عنه الدمياطي وأبو الحسين اليونيني وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وجماعة كثيرة<sup>(٢)</sup>.

٢٩- ابن الدهان، عبدالله بن أسعد بن علي أبو الفرح مهذب الدين الحمصي ابن الدهان، شاعر، من الكتاب الفقهاء ولد في الموصل، وأقام مدة بمصر ثم انتقل إلى الشام فولّي التدريس في حمص وتوفي بها، له ديوان شعر، توفي بمدينة حمص سنة ٥٨١هـ وقيل سنة ٥٨٢هـ<sup>(٣)</sup>.

٣٠- ابن سنان الخفاجي، عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان، أبو محمد الشاعر الأديب، أخذ الأدب عن أبي العلاء المعري وأبي نصر المنازي، كان يرى رأي الشيعة الإمامية، ومن مصنفاته كتاب (سر الفصاحة) وكتاب (الصرفة) وكتاب (الحكم بين النظم والنثر) وكتاب (عبارة المتكلمين في أصول الدين) وكتاب في (رؤية الهلال) وكتاب (حكم منثورة) وكتاب (العروض)، توفي مسموماً بقلعة غراز سنة ٤٦٦هـ<sup>(٤)</sup>.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ١٨، ص ٥٤٦.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٧.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٢٢٠-٢٢٢.

٣١- أبو الحكم، هو الشيخ الأديب أبو الحكم عبدالله بن المظفر بن عبدالله الباهلي الأندلسي المربي، كان فاضلاً في العلوم الحكمية، متقناً للصناعة الطبية متعياً في الأدب، مشهوراً بالشعر، أكثر من شعر المرثي، وكان يعزف الموسيقى ويلعب بالعود، ويجلس على دكان في جيرون للطب، وله مدائح كثيرة في بني الصوفي الذين كانوا رؤساء دمشق، توفي في دمشق سنة ٥٥٤هـ<sup>(١)</sup>.

٣٢- ابن عصرون، عبدالله بن أبي السري محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون، كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره، قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر، ثم عاد إلى دمشق سنة سبعين وخمسمائة، وتولى القضاء بها سنة ثلاث وسبعين، توفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق<sup>(٢)</sup>.

٣٣- الصوري، عبدالمحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري أبو محمد ويلقب بابن غلبون، من أهل صور في بلاد الشام، أحد المحسنين الفضلاء المجيدين الأدباء، شعره بديع حسن المعاني، رائق الكلام مليح النظام، من محاسن أهل الشام، مات سنة ٤١٩هـ<sup>(٣)</sup>.

٣٤- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي الملقب ثقة الدين، كان محدث الشام في وقته، ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦١٤-٦١٥.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٢.

عليه الحديث فاشتهر به، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، وكان حافظاً ديناً جمع بين معرفة المتون والأسانيد، ولد سنة ٤٩٦هـ - توفي سنة ٥٧١هـ بدمشق<sup>(١)</sup>.

٣٥- ابن النبيه، علي بن محمد بن الحسن بن يوسف أبو الحسن كمال الدين، شاعر منثى من أهل مصر، مدح الأيوبيين وتولى ديوان الإنشاء للملك الأشرف موسى، ورحل إلى نصيبين فسكنها، وتوفي بها، وله ديوان شعر، توفي سنة ٦١٩هـ<sup>(٢)</sup>.

٣٦- ابن الساعاتي، علي بن محمد بن رستم بن هردوز، أبو الحسن بهاء الدين ابن الساعاتي، شاعر مشهور، خراساني الأصل، ولد ونشأ في دمشق، وكان أبوه يعمل الساعات وله ديوان شعر، توفي سنة ٦٠٤هـ<sup>(٣)</sup>.

٣٧- علي بن محمد بن محمد القاضي، أبو الحسن ابن النضر من أهل صعيد مصر، من الأفاضل الأعيان المعدودين من حسنات الزمان، ذو الأدب الجم والعلم الواسع والفضل الباهر والنثر الرائع، والنظم البارع، ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الملقب بالأفضل نصره فخاب أمه، وتولى قضاء الصعيد وإخميم، وأكثر شعره في تشكي الزمان والأخوان<sup>(٤)</sup>.

٣٨- أبو الحسن بن همام، علي بن نصر بن عقيل العبدي، من بني عبدالقيس من ربيعة، المعروف بالهمام، شاعر بغدادي انتقل إلى دمشق سنة ٥٩٥هـ، واتصل بالملك العادل، وتوفر على مدح الأمجد صاحب بعلبك، توفي سنة ٥٩٦هـ<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٠٩-٣١١.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٦٦.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٤) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ص ٩٠، وأنظر الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٤١٣.

(٥) ورد في فوات الوفيات أنه الحسن بن علي بن نصر، انظر الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ص ٣٣٦.

٣٩- ابن البواب، علي بن هلال أبو الحسن المعروف بابن البواب خطاط مشهور من أهل بغداد، نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة إحداها بالخط، وكان له يد باسطة في الكتابة، ومن ذلك رسالة أنشأها في الكتابة وكتبها إلى بعض الرؤساء<sup>(١)</sup>.

٤٠- الملك المغيـث، عمر بن أبي بكر بن محمد بن أيوب بن شاذي بن مروان الملك المغيـث فتح الدين ابن السلطان الملك العادل بن الملك الكامل ملك الكرك مدة، قتل أبوه وهو صغير، ولما مات عمه الملك الصالح أيوب أراد شيخ الشيوخ ابن حمويه أن يسلطنه فلم يتم له ذلك ثم حبس بقلعة الجبل، ثم نقله ابن عمه المعظم لما قدم فبعث به إلى الشوبك فاعتقل بها وكان المغيـث جوادا كريما شجاعا حسن السيرة في الرعية، توفي سنة ٦٦٢هـ<sup>(٢)</sup>.

٤١- الملك المعظم، عيسى بن محمد ((الملك العادل)) أبي بكر بن أيوب شرف الدين الأيوبي، سلطان الشام، من علماء الملوك كان له ما بين بلاد حمص والعريش، وكان فارسا شجاعا كثيرا ما يركب وحده لقتال الفرنج، وكان عالما بفقـه الحنـفية والعربية، توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ<sup>(٣)</sup>.

٤٢- شهاب الدين غازي الملك الظاهر، غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب، كان الظاهر مهيبا له سياسة وفطنة، وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء، مزينة بالملوك والأمراء، وكان محسنا إلى الرعية وإلى الوافدين عليه، وحضر معظم غزوات والده وانضم إليه اخوته وأقاربه، ومدت ولايته حلب ثلاثون سنة وتسعة أشهر، توفي سنة ٦١٣هـ<sup>(٤)</sup>.

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٤، ص ٣٥٢-٣٥٩.

(٢) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج ٢٢، ص ٤٤١.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٩٤.

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٩٤.

٤٣- الشهاب الشاغوري، فتیان بن علي الأسدي مؤدب شاعر من أهل دمشق نسبته إلى الشاغور من أحيائها، مولده في بانياس، ووفاته في دمشق، اتصل بالملوك ومدحهم وعلم أولادهم توفي سنة ٥٩٧هـ<sup>(١)</sup>.

٤٤- معتمد الدولة، قرواش بن مقلد بن المسيب بن رافع الأمير أبو المنيع معتمد الدولة ابن الأمير حسام الدين العقيلي صاحب الموصل، كان ظريفاً، شاعراً نهاباً وهاباً، قبض عليه بركة ابن أخيه وحبسه وتلقب زعيم الدولة، وكانت إمارة قرواش خمسين سنة. مات سنة أربع وأربعين وأربعمائة للهجرة<sup>(٢)</sup>.

٤٥- ابن قدامة الجماعيلي، محمد بن أحمد بن محمد أبو عمر الجماعيلي الأصل، الدمشقي الدار، فقيه حنبلي، توفي بدمشق، خرج له الحافظ عبدالغني بن عبدالواحد المقدسي أربعين حديثاً من رواياته، قرأ القرآن بحرف أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرق في الفقه، وقرأ النحو على ابن بري بمصر، وسمع الحديث بدمشق ومصر<sup>(٣)</sup>.

٤٦- ابن حيوس، محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي الأمير أبو الفتیان مصطفى الدولة، شاعر الشام في عصره يلقب بالإمارة، وكان أبوه من أمراء العرب، ولد ونشأ بدمشق، وتقرب من بعض الولاة والوزراء ومدحهم ثم انتقل إلى حلب ومدح أصحابها من بني مرداس وعاش في ظلهم إلى أن توفي سنة ٤٧٣هـ، له ديوان شعر<sup>(٤)</sup>.

٤٧- كمال الدين الشهرزوري، محمد بن عبدالله بن القاسم، أبو الفضل قاض فقيه أديب وزير من الكتاب، وكان عظيم الرياسة، خبيراً بتدبير الملك، ولد في الموصل وارتقى إلى درجة

(١) ابن خلکان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤-٢٦.

(٢) الكتبي، فوات الوفيات، ج٣، ص١٨٩-١٩٩.

(٣) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٧١.

(٤) ابن خلکان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٣٨-٤٤٤.

الوزارة، فكان له الحل والعقد في أحكام الديار الشامية، وأقره السلطان صلاح الدين بعد وفاة نور الدين، توفي سنة ٥٧٢هـ<sup>(١)</sup>.

٤٨- أبو المجد التتوخي المصري، محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليمان قاض من الشعراء وهو حفيد أخ لأبي العلاء ولي قضاء المعرة إلى أن دخلها الفرنج، فانتقل إلى شيزر وتوفي بها، وكان يفتي على المذهب الشافعي، له ديوان شعر ورسائل، توفي سنة ٥٢٣هـ<sup>(٢)</sup>.

٤٩- المسبحي، محمد بن عبيدالله بن أحمد المسبحي عز الملك، ولد سنة ٣٦٦هـ وهو مؤرخ عالم بالأدب، كان على زي الأجناد، أصله من حران ومولده ووفاته بمصر له تصانيف ((تاريخ المغاربة ومصر)) وهو كتاب كبير وكتاب ((التلويح والتصريح)) في الأدب ومعاني الشعر، توفي سنة ٤٢٠هـ<sup>(٣)</sup>.

٥٠- أنجب الدين الهاشمي، محمد بن علي بن الغمر المنعوت أنجب الدين الهاشمي أبو الغمر الأسنائي، قال العماد ((في الخريدة)) كان أشعر أهل زمانه وأفضل أقرانه، وذكره ابن سعيد في شعراء أسنا، وذكره ابن ميسر أيضا<sup>(٤)</sup>.

٥١- الملك المنصور، محمد بن عمر شاهنشاه بن أيوب، السلطان الملك المنصور ابن الملك المظفر تقي الدين ابن الأمير نور الدولة صاحب حماة وابن صاحبها، كان شجاعاً يحب

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٢٤١-٢٤٥.

(٢) الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ص ٢٠.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص ٣٧٧-٣٨٠.

(٤) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٥٦٤-٥٦٥.



العلماء، وجمع تاريخاً على السنين في عدة مجلدات أقامت دولته ثلاثين سنة وتوفي سنة ٦١٧هـ<sup>(١)</sup>.

٥٢- محمد بن فضل الله بن أبي نصر أبي الرضى السديد بن كاتب، القوسي المولد، أديب كامل (شاعر) فاضل له مشاركة في النحو والأصول والحكمة والطب، وقد ثبت عدالته، وكملت رياسته وهو جار في المكارم على ما نقل من أخبار الأوائل، صاحب ذيل البلاغة على سحبان وائل<sup>(٢)</sup>.

٥٣- محيي الدين الشهرزوري، محمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم أبو حامد رحل إلى بغداد في صباه، فتفقه على مذهب الشافعي وسافر إلى الشام، وولي قضاء حلب، ثم انتقل إلى الموصل، فولي قضاءها، وكان رئيساً كريماً له شعر حسن وترسل جيد<sup>(٣)</sup>.

٥٤- أفضل الدين الخونجي، محمد بن ناماوار الخونجي أبو عبدالله، تميز في العلوم الحكيمية وأتقن الأمور الشرعية، وفي آخر أمره تولى القضاء بمصر، وصار قاضي القضاة بها وبأعمالها، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٦٤٦هـ<sup>(٤)</sup>.

٥٥- ابن عنين، محمد بن نصر بن الحسين الأنصاري بن عنين أبو المحاسن شرف الدين الكوفي الأصل الدمشقي المولد، نشأ في دمشق، وكان هجاءً فنفاه السلطان صلاح الدين، فتنقل بين مناطق مختلفة ثم عاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح الدين، وتولى الكتابة (الوزارة) للملك المعظم بدمشق<sup>(٥)</sup>.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج ٤، ص ١٢.

(٢) الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٢-٦١٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٦-٢٤٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٨٦.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ١٤.

٥٦- مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ والد أسامة، تقدم بحسن تدبيرة على رهطه وأسن وعمر، وله الأولاد الأمجاد النجباء وتوفي بشيزر سنة ٥٣١هـ<sup>(١)</sup>.

٥٧- مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي بن أبق سنقر أبو الفتح وأبو المظفر، صاحب الموصل في أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولد ونشأ في الموصل وعين مقدماً للجيش، وآل إليه أمر ولاية الموصل بنى مدرسة للشافعية والحنفية بالموصل، توفي سنة ٥٨٩هـ<sup>(٢)</sup>.

٥٨- المعز لدين الله، معد بن إسماعيل بن القائم بن المهدي عبدالله الفاطمي العبيدي أبو تميم، صاحب مصر وإفريقيا وأحد الخلفاء في هذه الدولة، وبويع له بالخلافة في المنصورية بعد وفاة أبيه، اختط مدينة القاهرة (٣٥٩هـ) فكانت مقر ملكه، وكان عاملاً حازماً شجاعاً أديباً ينسب إليه شعر رقيق<sup>(٣)</sup>.

٥٩- الخليفة المستنصر بالله، منصور بن محمد بن أحمد الإمام المستنصر بالله ابن الإمام الظاهر، ولد في ثالث عشر صفر سنة ٥٥٨، تولى الخلافة سنة ٦٤٠هـ، ثم بويع لولده الأكبر أبي أحمد المستنصر ولما استقر الإمام المستنصر نشر العدل، وزاد أبواب الخيرات، وقرب أهل العلم والزهاء والصالحين، وكف الفتن، وجمع العساكر وقام بأمر الجهاد<sup>(٤)</sup>.

(١) الكتبي، فوات الوفيات، ج٤، ص١٣٠.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٣-٢٠٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٢٤-٢٢٨.

(٤) الكتبي، فوات الوفيات، ج٤، ص١٦٩-١٧٠.

٦٠- ابن قلاقس، نصر بن عبدالله بن عبدالقوي اللخمي، أبو الفتوح الأعز المعروف بابن قلاقس

الإسكندري الأزهري شاعر نبيل من كبار الكتاب المترسلين، ولد ونشأ بالإسكندرية وانتقل

إلى القاهرة فكان فيها من عشراء الأمراء، توفي سنة ٥٦٧هـ<sup>(١)</sup>.

٦١- ابن جميع، هبة الله بن زين بن حسن بن أفرانيم بن يعقوب بن إسماعيل ابن جميع

الإسرائيلي، من الأطباء المشهورين والعلماء المذكورين وكان متقننا في العلوم، جيد

المعرفة بها، كثير الاجتهاد في صناعة الطب، حسن المعالجة، جيد التصنيف، كان مولده

ومنشؤه بفسطاط مصر، وخدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وحظي في

أيامه، وكان رفيع المنزلة عنده<sup>(٢)</sup>.

٦٢- هبة الله بن علي بن عرام، كان أديباً فاضلاً وشاعراً مجيداً، وكان من خواص الوزير

رضوان وجلسائه، ومدحه بعدة قصائد وله ديوان شعر جمعه بنفسه وبفتحه وهذبه ورتبه

على الحروف<sup>(٣)</sup>.

٦٣- داعي الدعاة، هبة الله بن كامل، وقيل هبة الله بن عبدالله بن كامل أبو القاسم المصري

قاضي القضاة و(داعي الدعاة)، كان فاضلاً عالماً شاعراً أديباً متقناً، من كبار علماء دولة

العبيديين، وكان أحد الجماعة الذين سعوا في إعادة الدولة، فظفر بهم صلاح الدين يوسف،

وأول ما صلب هذا القاضي داعي الدعاة في سنة تسع وستين وخمسائة بالقاهرة<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٨٥-٣٨٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٧٦.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٥، ص ٥٩٣.

(٤) الصفي، الوافي بالوفيات، ج ٢٧، ص ٣١٣.

٦٤- أبو مسلم، وادع بن سليمان، قاضي معرة النعمان والمستولي على أمورها في عصره، قال فيه ابن الأثير، كان رجل زمانه همة وعلماً، وتوفي في المعرة سنة ٤٨٩هـ<sup>(١)</sup>.

٦٥- سبط بن الجوزي، يوسف بن قرعلي بن عبدالله أبو المطفر شمس الدين سبط أبي الفرج ابن الجوزي، مؤرخ من الكتاب الوعاظ، ولد ونشأ في بغداد وتوفي في دمشق، من كتبه (مرأة الزمان في تاريخ الأعيان) و(تذكرة خواص الأمة بذكر خصائص الأئمة) وكان فاضلاً عالماً ظريفاً، منكرأ على أرباب الدولة ما هم عليه من المنكرات، توفي سنة ٦٥٥هـ<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٨، ص ١٨١.

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ١٩٥.

## Abstract

### The Technique of Elegizing in the Poetry During both Reigns, Fatimates and Ayoubeds 358-648 Hijri

By

**Kholoud Yahia Ahmad Jaradeh**

Supervisor

**Professor Abdeljaleel Abdelmahdi**

The study aimed at recognizing the technique of elegizing in poetry during both reigns, Fatimates and Ayoubeds (358-648) Hijri, and how much that poetry was harmonized of different form reign to another, verses from poems, poetical works, historical and literal sources were subjected for study and analysis in order to determine ideas where the poets talked about.

The study of these samples resulted in that aims of elegizing poems in both reigns were identical, sadness and weeping were the divisor between the poets, where they also agreed to talk about the virtues and then after pray for the departed, this identically extended to the senses and modes among the poets in those two reigns, also this identical concluded the technical methods of the elegizing poems.

There were some differences in two purposes of elegizing, in elegizing leaders and "al Al Beit" profit Mohammad family, the impact of Fatimates doctrine appeared with some poets like: Tamim Bin Al Mo'ez, Tal'e Bin Rozaik and Amara Al Yamani, while in the Ayoubed's reign we found no impact for such doctrine in the leaders' elegizing, also no elegizing for "al Al Beit" was observed, the reason could be that Ayoubeds terminated

completely the Fatemate doctrine and reassigned the Sunnite doctrine in place.

The other purpose was the elegizing of states, we found that Fatimates state was elegized while Ayoubeed state was not, the reason could be that Fatimate state was collapsed in spot while the Ayoubeed's reign was not ended in spot since the Mamlukes sticked to the relations with the Islamic Caliph in Baghdad as the Ayoubeeds were also.